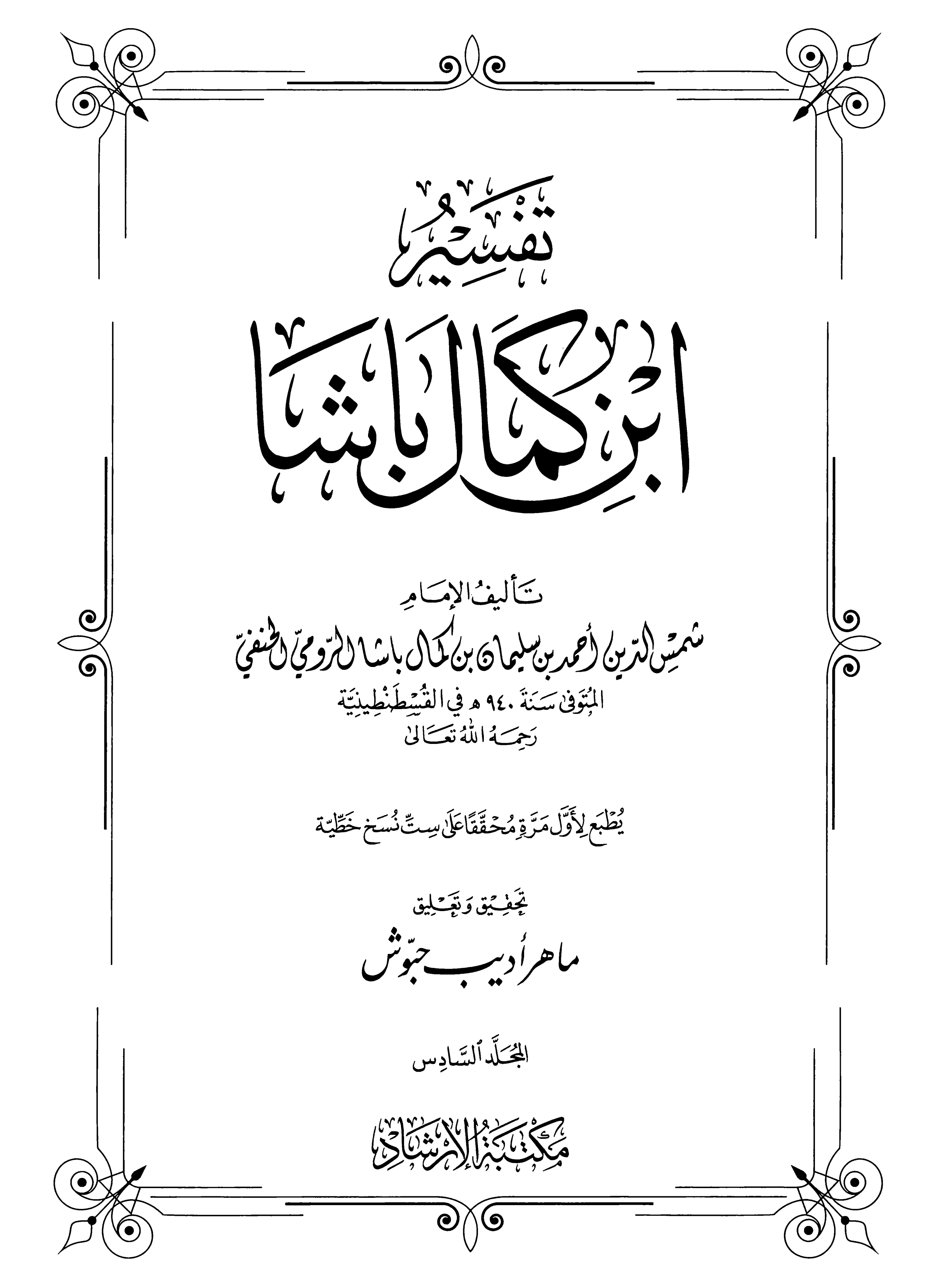


تفسير ابن كمال باشا

تأليف الإمام

شمس الدين أحمد بن سليمان بن كمال باشا الرومي الحنفي

المتوفى سنة ٩٤٠ هـ في القسطنطينية

رحمه الله تعالى

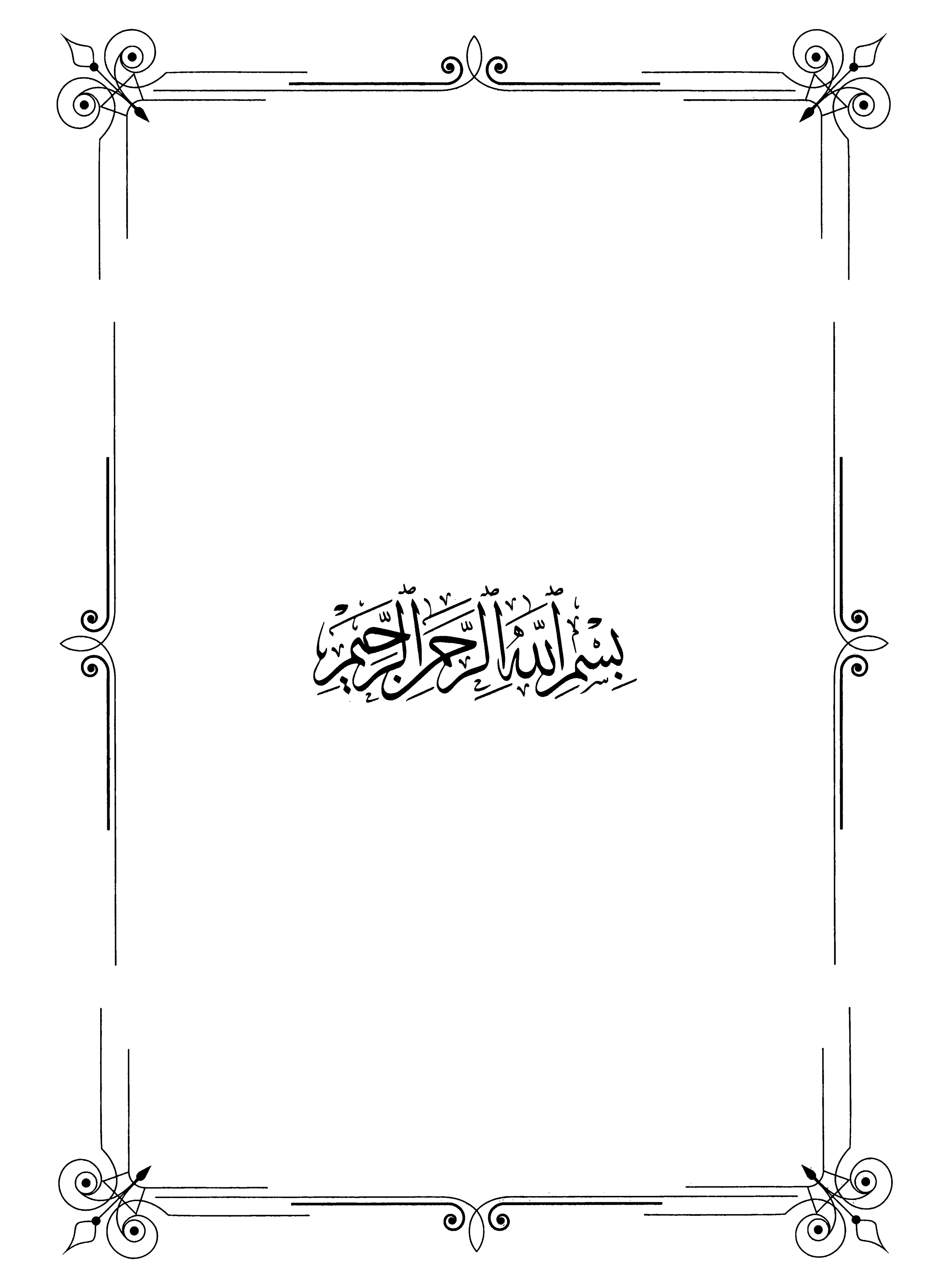
يطبع لأول مرة محققاً على ست نسخ خطية

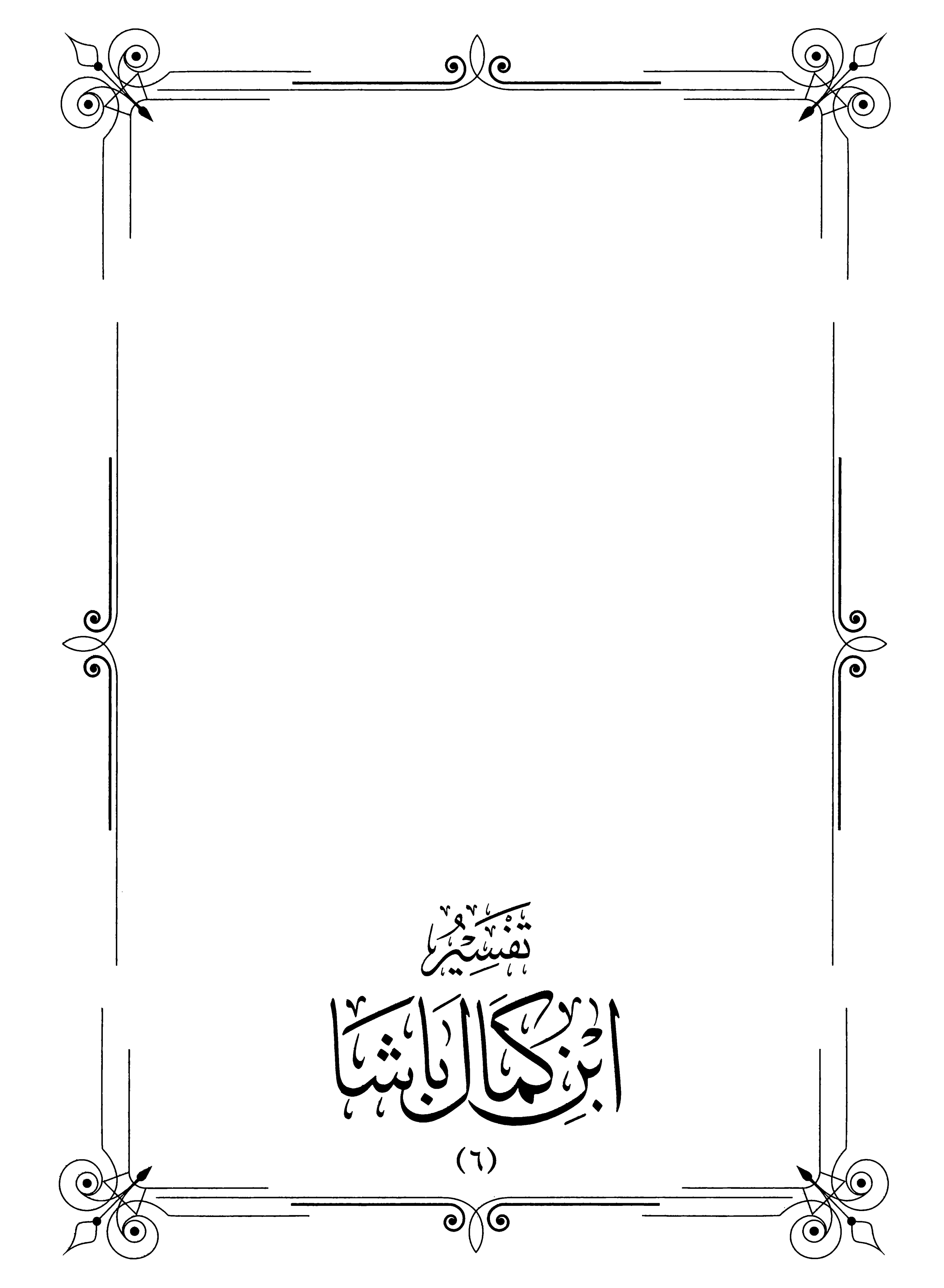
تحقيق وتعليق

ماهر أديب حبوش

المجلد السادس

مكتبة الإرشاد

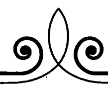

بسم الله الرحمن الرحيم

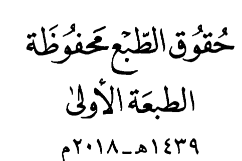


تفسير

ابن كمال باشا

(٦)





حُقُوق الطّبع محفُوظَة

الطبعَة الأولىٰ

١٤٣٩هـ - ٢٠١٨م



9 786056 774829

مكتبة الإرشاد

للطباعة والنشر والتوزيع ـ إسطنبول

لِصَاحِبِهَا

مُحَمَّد مَحْفُوظ أُزْدَمِير

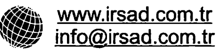




تركيا ـ إسطنبول

هاتف: 0850 480 47 73

İskenderpaşa Mah. Feyzullah Efendi Sok. No 8 Dük:1 Fatih/İSTANBUL



www.irsad.com.tr
info@irsad.com.tr

fb.com /irsadkitabevi



@irsadkitabevi

+90 (0) 531 285 3525

قامت بعمليات التنضيد والإخراج الفني والتنفيذ الطباعي

دار اللباب

للدراسات وتحقيق التراث

تركيا ـ اسطنبول ـ الفاتح ـ اسكندر باشا ـ كزتاش ـ مفرق بنك الكويت

مقابل مستشفى الفاتح ـ بناء رقم ٧ ـ ط ٥

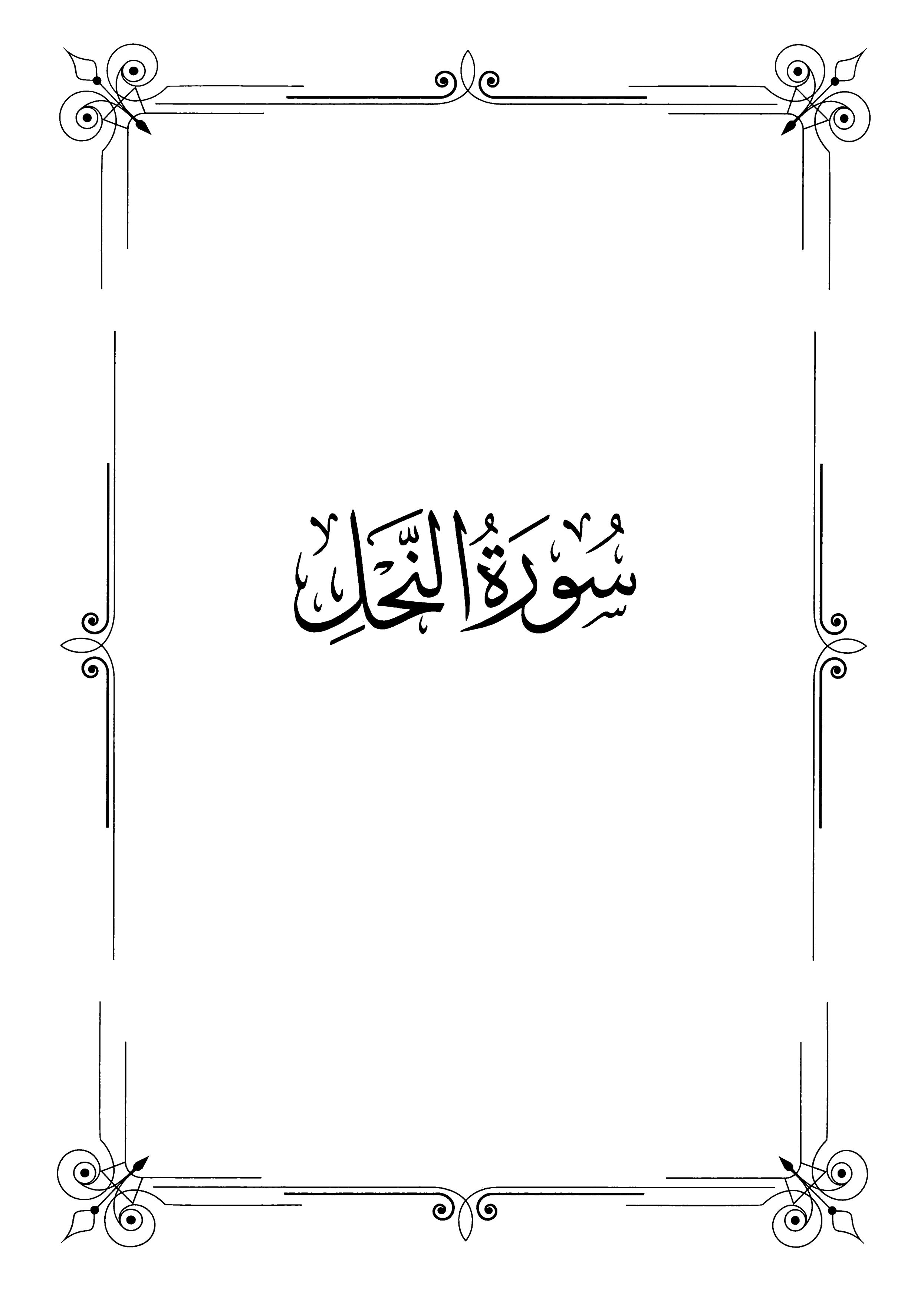
İskenderpaşa mh. Kıztaşı cd. No:7 D:5 Fatih (Özel Fatih Hastanesi Karşısı)

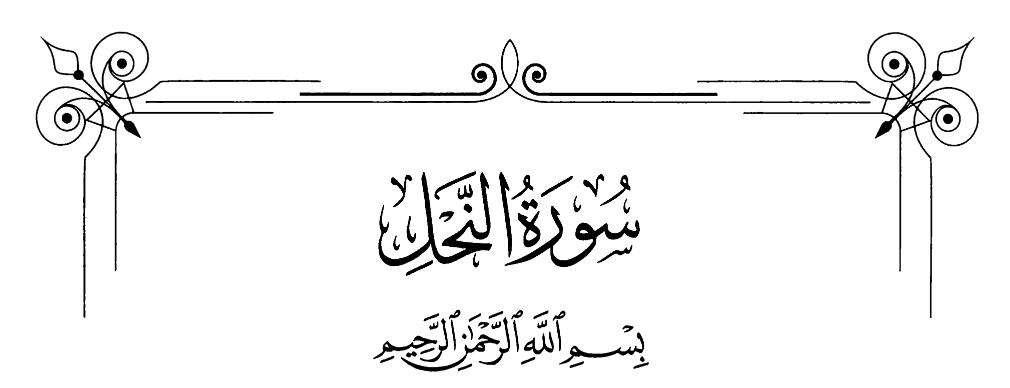
Lubab Yazma Eserleri İhya ve İlmi Araştırma Yayınları

Tel: 00902125255551 - Mob: 00905454729850

Www.allobab.com - Email: info@allobab.com




سُورَةُ النَّحْلِ



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾؛ أي: دنا وقَرب، يقال لمن طلب الإغاثة وقُربَ حصولها: جاءك الغوث.

والمراد من ﴿أَمْرُ ٱللَّهِ﴾: ما أَوْعدهم من قيام السَّاعة، أو إهلاكِ الله تعالى إيَّاهم، وعلى هذا وجه إصابة الفاء في قوله: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ محزَّها ظاهر، بخلاف ما إذا كان المعنى: أنَّ الأمرَ الموعود بمنزلة الآتي المحقَّق من حيث إنه واجب الوقوع.

والاستعجالُ: طلبُ الشَّيء قبلَ حينه، كانوا يستعجلون ما أوعدهم اللهُ؛ استهزاءً وتكذيباً، فنزلت.

ولما كان المستعجِل المستهزئ معجِّزاً له تعالى عن القدرة على ما أَوْعده[1]، وفيه تشبيه بالمخلوق، قال:

﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ أي: تنزَّه أنْ يحومَ العجز حولَ سرادق

(١) قوله: «معجِّزاً له»؛ أي: ناسباً إليه العجز سبحانه، ومعنى الكلام: لما كان استعجالهم ذلك من نتائج إشراكهم المستتبع لنسبة الله تعالى إلى ما لا يليق به سبحانه من العجز والاحتياج إلى الغير واعتقادهم أن أحداً يحجزه عن إمضاء وعيده أو إنجاز وعده. انظر: «تفسير أبي السعود» (٥/ ٩٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ١٠).

كبريائه، وجلَّ[١] أن يكون له شريك في المعبوديَّة، فيدفعَ ما أراد بهم.

كانوا يقولون: إنْ صَحَّ يا محمَّد[٢] فالأصنام تخلِّصنا منه، فنزلت.

وقرئ: ﴿تُشْركون﴾ بالتَّاء[٣]، على وفق: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾، وبالياء على تلوين الخطاب، وأمَّا ما قيل: الخطاب للمؤمنين، أو لهم ولغيرهم؛ لِمَا روي أنَّه[٤] لَمَّا نزلَتْ ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ وثبَ[٥] النبي ﷺ ورفع الناسُ رؤوسَهم، فنزلت: ﴿فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾[٦] = فيأباه التَّصدير بالفاء.

* * *

(٢) - ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓاْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾.

﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ استعار الرُّوح للوحي أو للقرآن؛ لأنَّه تحيَى به القلوب الميتة بالجهل حياةَ الجسد بالرُّوح.

وذكرُه عقيب ما وعدَ به إشارةٌ إلى طريق العلم به، وإزاحةٌ لاستبعادهم اختصاصَه عليه السلام بالعلم به.

---

(١) في (ك) و(م) زيادة: «عن».

(٢) أي: (إن صح مجيء العذاب..). انظر المصدرين السابقين.

(٣) قرأ بها حمزة والكسائي، والباقون بالياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٢١).

(٤) في (ف): «أنها».

(٥) في (ك) و(م): «فوثب».

(٦) ذكر عن ابن عباس رضي الله عنه. انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ٦)، و«زاد المسير» (٤/ ٤٢١).

وقرئ: ﴿يُنْزِلُ﴾ من أَنزل[١]، و: (تَنَزَّلُ) بمعنى: تتنزل[٢]، و: (تُنَزَّلُ) على المضارع المبني للمفعول[٣]، من التَّنزيل.

﴿مِنْ أَمْرِهِۦ﴾: بأمره، أو: من أجْل أمره ﴿عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ أنْ يتَّخذه رسولاً ﴿أَنْ أَنذِرُوٓاْ﴾: بأنْ أنذروا.

والإنذارُ: الإعلام، ويختصُّ بما فيه تخويفٌ، ولتلك الخصوصية مناسبةٌ للمقام من حيث إن المشرك دائرٌ أمرُه بين الإسلام والسَّيف، فإبلاغ أمرِ التَّوحيد إعلامٌ يتضمَّن التَّخويف بالقتل.

ويجوز ﴿أَنْ﴾ تكون أنْ مفسِّرة؛ لأنَّ في الوحي معنى القول، أو مصدريةً في موضع الجرِّ بدلاً من ﴿بِٱلرُّوحِ﴾، أو مخفَّفةً من الثَّقيلة.

﴿أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠﴾؛ أي: الشأنَ لا إله إلا أنا، أو: خوِّفوا أهل الشِّرك بأنَّه لا إله إلا أنا.

﴿فَٱتَّقُونِ﴾ رجوعٌ إلى مخاطبتهم بما هو المقصود.

والآيةُ تدلُّ على أنَّ الوحيَ بواسطة الملَك، وأنَّ حاصله التَّنبيه على التَّوحيد الذي هو مُبْتَغى كمالِ القوَّة العلميَّة، والأمرِ بالتَّقوى الذي هو أقصى كمالات القوَّة العمليَّة، وأنَّ النُّبوَّة عطائيَّة، والتي بعدها دليلُ وحدانيته، من حيث إنَّها تدلُّ على أنَّه تعالى هو الموجِد لأصول العالم وفروعه على وفق الحكمة والمصلحة، ولو كان له شريكٌ لقدر[٤] على ذلك، فيلزم التَّمانع.

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ٧٥).

(٢) نسبت للحسن وسلام. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣٧٨)، و«البحر المحيط» (١٣/ ١٠٠).

(٤) في (ف) و(ك): «لدل».

(٣) ـ ﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ﴾: أوجدهما على مقدارٍ وشكلٍ وأوضاعٍ وصفاتٍ مختلفةٍ قدَّرها وخصَّصها بحكمته.

﴿تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾؛ لأنَّه موجِدٌ للعالَـم كلِّه، وكلُّ ما سواه مفتقرٌ إليه، فهو المتعالي عن رتبة الكلِّ.

والتَّحقيق: أنَّ قوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمْرُ ٱللَّهِ﴾ تنبيهٌ وإيقاظٌ؛ ليكون ما يَرِدُ بعدَه مُمَكَّناً في نفسٍ حاضرةٍ ملقيةٍ إليه، وهو تمهيدٌ لِمَا يَرِد[1] مِن دلائل التَّوحيد، وقولَه: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ﴾ تفصيلٌ لِمَا أجملَه في قوله: ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ﴾، أيقظَ أوَّلاً ثمَّ نعى عليهم ما هم فيه من الشِّرك، ثم أردفه بدلائل السَّمع والعقل، وقدَّمَ السَّمعيَّ لأنَّ صاحبه هو القائم بتحرير العقل وتهذيبه أيضاً، فليس النَّظر إلى دليل السَّمع، بل إلى مَن قام به من الملائكة والرُّسل عليهم السلام.

* * *

(٤) ـ ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ﴾.

﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ﴾ جمادٍ، لا حسَّ لها ولا حراك، سيَّالةٍ لا تحفظ الوضع والشَّكل.

﴿فَإِذَا هُوَ﴾ عطفُه على ما تقدَّم باعتبار أنَّ المراد من خَلْق الإنسان: إيجادُه وتربيتُه إلى أن يبلغ حَدَّ النُّطق والإدراك، فأداتا التَّعقيب والمفاجأة أصابتا المحزَّ.

﴿خَصِيمٌ﴾: مِنطيقٌ مجادلٌ عن نفسِه في الخِصام.

---

(١) في النسخ: «يريد»، والمثبت من «روح المعاني» (١٤/ ١١)، والكلام منقول من «الكشف» كما صرح الآلوسي.

﴿مُّبِينٌ﴾ للحُجَّة على خصمه، مميِّزٌ للحقِّ عن الباطل، فهو صفة مدح؛ أي: نقله من تلك الحالة الخسيسة إلى هذه الحالة الشَّريفة، وهي حالة النُّطق والإبانة، ويؤيِّده التَّعقيب بذكر ما امتنَّ به عليه في قِوَام معيشته.

وقيل: معناه: مكافحٌ لخالقه، قائلٌ: ﴿مَن يُحْيِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِيَ رَمِيمٌ﴾ [يس: ٧٨]، فهو صفةُ ذمٍّ.

ويأباه التَّوصيف بالإبانة، ولا يساعده سباق الكلام ولحاقه ومَساقه؛ فإنه للدلالة على كمال القدرة والإرادة.

* * *

(٥) ـ ﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ خَلَقَهَا ۗ لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَٰفِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾.

﴿وَٱلْأَنْعَٰمَ﴾ ذكر أوَّلاً ما هو أكثر منفعةً وألزمُ لمن أُنزل القرآن بلغتهم، وقد تقدَّم شرح الأنعام في سورة الأنعام.

وانتصابُها بمضمَر يفسِّره قولُه: ﴿خَلَقَهَا﴾، و﴿لَكُمْ﴾ في قوله: ﴿لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ﴾ خبر مقدم لـ ﴿دِفْءٌ﴾، و﴿فِيهَا﴾ حالٌ منه، والجملةُ بيانٌ لِمَا خُلِقَ له.

أو بالعطف[1] على ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾، و﴿خَلَقَهَا لَكُمْ﴾ بيانُ ما خُلِقَ لأجله، و﴿دِفْءٌ﴾ مبتدأ خبره ﴿فِيهَا﴾، والجملة مع ما بعدها تفصيلٌ لما خلق له[2].

والدِّفءُ: ما يدفَّأُ به؛ أي: يسخَّن فيقي[3] البرد.

---

(١) قوله: «بالعطف» عطف على «بمضمر»؛ أي: أو انتصابها بالعطف..

(٢) وفي الإعراب لهذه الجملة وجوه أخر ينظر شرحها ومناقشاتها في «البحر» (١٣/ ٣٠٥)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٣).

(٣) في (ك): «فينفي».

﴿وَمَنَٰفِعُ﴾: نسلُها ودَرُّها وظهورها، وإنَّما عَبَّرَ عنها بالمنافع ليتناول غرضها.

﴿وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾؛ أي: تأكلون ما يُؤْكَل منها، مِنَ اللُّحوم والشُّحوم والألبان.

وتقديم الظَّرف للاختصاص؛ إشارةً إلى أن الأصل المعتدَّ به في أكل اللَّحم إنَّما هو منها، وأمَّا الأكل من غيرها فكغير المعتدِّ به، وكالجاري مجرى التَّفكُّه، فجَعْلُه لمجرَّد محافظة الفاصلة تنزيلٌ للمنزَّل عن منزلته الفاضلة.

* * *

(٦) ـ ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾.

﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ﴾: زينة ﴿حِينَ تُرِيحُونَ﴾: تردُّونها من مراعيها إلى مراوحها بالعشيِّ ﴿وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾: تخرجونها بالغداة إلى المرعَى، فإنَّ الأفنية تَزَّيَّنُ بها، ويتجاوَبُ [فيها] الرُّغاءُ والثُّغاءُ[1]، فيأنس أهلها ويفرح أربابها، ويُجلُّهم في أعين النَّاظرين إليها[2]، ويكسبهم الجاه والحرمة.

وتقديم الإراحة على السَّرح لأنَّ الجَمال فيها أظهرُ إذا أقبلَتْ ملأى البطون حافلةَ الضروع، ثم أَوَتْ إلى الحظائر، حاضرةً لأهلها، يأنسون بها مبتهجين.

---

(١) الثغاء: صوت الغنم. والرغاء: صوت الإبل. وما بين معكوفتين من «الكشاف» (٢/ ٥٩٤)، ووقع في النسخ: «ويجاوب» والمثبت هو الأنسب بسياق الكلام.

(٢) زاد في (ف): «ولا يخفى لطفُ موقعِ هذا التَّنبيه والتَّمهيد السَّابق بقوله: (من)، حيث تضمن الإشعار بأنهم يبتدؤون أكله من البحر مبالغة في تهيئته للأكل في مقام الامتنان، وفي تخصيص أكله طرياً بالذِّكر إشارة إلى أنه في معرض أن يسرع إليه الفساد لكمال لطافته فيسارع إلى أكله، فكأنه قيل: لتأكلوا منه لحماً في غاية اللطافية». وليس هنا موضع هذا الكلام، وسيأتي في موضعه الصحيح في تفسير قوله تعالى: ﴿لِتَأْكُلُوا۟ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾.

وقرئ: (حيناً)[١]، على أن ﴿تُرِيحُونَ﴾ و﴿تَسْرَحُونَ﴾ كلاهما وصف لـ ﴿حِينَ﴾؛ أي: تريحون فيه وتسرحون فيه.

* * *

(٧) ـ ﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ ۚ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ﴾: أحمالكم ﴿إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ﴾؛ أي: ليس من شأنكم بلوغه بأنفسكم على أقدامكم.

﴿إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾: إلَّا بجهد ومشقَّةٍ لو لم تكن الإبل، فضلاً عن أن تحملوا على ظهوركم أثقالكم[٢]، فكيف إذا فضلت أثقالكم من أن تحملوها، أو لم تكونوا بالغيه بها إلَّا بِشَقِّ الأنفس.

قرئ: ﴿بشقِّ الأنفس﴾ بكسر الشِّين وفتحها[٣]، وهما لغتان في المعنى المذكور، وقيل: بينهما فرقٌ، وهو أنَّ المفتوح مصدر شقَّ الأمر عليه شَقّاً، وحقيقته راجعة إلى الشَّقِّ الذي هو الصَّدع[٤]، وأمَّا الشِّق بالكسر فهو للنِّصف، كأنَّه يذهب نصفُ قوته لما يناله من الجهد.

﴿إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ يرأف[٥] بكم بتيسير مصالحكم ومعايشكم، ويرحمكم بخلق هذه المنافع والحوامل.

---

(١) نسبت لعكرمة والضحاك. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢).

(٢) من قوله: «لو لم يكن..» إلى هنا ليست في (م).

(٣) بفتح الشين قرأ أبو جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٢).

(٤) «الذي هو الصدع» من (م).

(٥) في (ك): «رؤوف».

(٨) ـ ﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ لِتَرۡكَبُوهَا وَزِينَةٗۚ وَيَخۡلُقُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾.

﴿ وَٱلۡخَيۡلَ وَٱلۡبِغَالَ وَٱلۡحَمِيرَ ﴾ عطف على ﴿الأنعامَ﴾، وواحد الخيل: خائل، كضائنٍ واحدِ ضأن، وقيل: لا واحد له.

﴿لِتَرۡكَبُوهَا ﴾ ذكر هنا منفعةَ الرُّكوب عبارةً، وأحالَ تبيين[1] منفعة الحمل على الدلالة، وعكس فيما تقدَّم؛ اعتباراً في كلٍّ منهما للأصالة.

﴿وَزِينَةٗۚ ﴾ انتصب بالعطف على محلِّ ﴿لِتَرۡكَبُوهَا ﴾ على أنَّها مفعولٌ له، وخولف بينهما لا[2] لأنَّ الركوب فعل المخاطبين ففُقِدَ شرطُ نَصْبِه، وأمَّا الزينة ففعل الخالق لأنه لا يأبى[3] عن نظم الثاني في سلك الأول، بل لأنَّ الأوَّل مقصودٌ بالذَّات والثَّاني بالعرض.

وقرئ: (زينةً) بغير واو[4]، فجاز أن يكون حالاً عن أحد الضَّميرين، وأن يكون علَّة لـ (تركبوها).

واستُدلَّ به على حرمة لحومهن[5]، ووجه الاستدلال: أنَّ المقام مقامُ الامتنان بعدِّ المنافع، والكلام مشتمِل لنوعَي المقصود استئنافاً لها، فلو كان أكلُها حلالاً لكان أحقَّ بالتَّعرُّض من الزِّينة، وأمَّا أكل لحم الحمار وإن كان حلالاً وقتَئذٍ إلَّا أنَّه في معرض التَّحريم، فالامتنان به لا يليق بالحكمة[6].

---

(١) في النسخ: «بين»، ولعل الصواب المثبت.

(٢) «لا» سقط من (ف).

(٣) في (ف): «لا يأتي».

(٤) انظر: «المحتسب» (٢/ ٨).

(٥) في (م): «لحومهما»، وفي (ف): «لحرمهن»، والمثبت من (ك).

(٦) في (م): «بالجملة»، وفي (ف): «بالحكم».

﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ لما فصَّل الحيوانات المحتاج إليها غالباً احتياجاً ضروريًّا أو غير ضروريٍّ أجملَ غيرها مما لا يُعلم كُنْهُهُ وتفاصيله؛ أي: فيكم ولكم على سبيل الامتنان، أو ما لم تحصوه ولم يكن لكم به علمٌ لكثرتها؛ دلالة على مزيد قدرته وحكمته، ويدخل فيه ما خلق في الجنَّة والنَّار مما لا يبلغه وَهْمُ أحدٍ ولا خطر على قلبه.

وغيَّرَ النَّظمَ إلى المضارع استحضاراً لإيجاد ما لم يحطْ به علماً من الأشياء النَّافعة له، والدلالة على قدرته تذكيراً للنِّعمة، وتعجيباً، وتقريراً لدلائل القدرة، وتعجيزاً لما يشركون به من الآلهة.

* * *

(٩) ـ ﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ﴾.

﴿وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ﴾؛ أي: عليه تعالى رحمةً وفضلاً هدايةُ الطَّريق المستقيم الموصل إلى الحقِّ، أو: عليه الطَّريق المستقيم؛ أي: يصل إليه مَن يسلكه لا محالة، كما تقول: هذا الطَّريق على موضع كذا إذا انجرت[1] إليه، والقَصْدُ مصدر بمعنى اسم الفاعل، يقال: سبيلٌ قَصْدٌ وقاصدٌ؛ أي: مستقيم، كأنَّه يقصد الوجه الذي يؤمُّه السَّالك، والمراد بـ ﴿السَّبِيلِ﴾: الجنس؛ لإضافة (القَصْد) إليها، ولقوله:

﴿وَمِنْهَا جَائِرٌ﴾ لا يوصِل إلى الحق لسوء استعداد صاحبه.

وقرئ: ﴿ومنكم جائر﴾[2]؛ أي: عن القصد.

---

(١) كذا في النسخ، ولعله: انحزت.

(٢) نسبت لعلي وابن مسعود رضي الله عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢)، و«الكشاف» (٢/ ٥٩٦)، و«البحر المحيط» (١٣/ ٣١٣).

وتغيير الأسلوب لأنه[١] ليس [بحقٍّ] على الله تعالى الهداية إلى الطَّريق الجائر عن القصد والاستقامة، أو لا[٢] يوصَل إلى الله سالكها، أو لأنَّ المقصود بيان سبيله، وذكرُ قسيمه إنما جاء بالعَرَض.

﴿وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾؛ أي: لو شاء الله هدايتكم أجمعين إلى قصد السَّبيل لهداكم إليه هدايةً مستلزِمة للاهتداء.

* * *

(١٠) - ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ﴾.

﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: من السَّحاب، أو: من جانب السَّماء.

لَمَّا استدلَّ على وجود الصَّانع الحكيم[٣] بأحوال الحيوان أتْبَعه بذكر الاستدلال عليه بعجائب أحوال النبات.

﴿مَآءً﴾ تنكيره لأنَّه خلاف الماء المعهود، حيث لا يسيل بل ينزل قطراتٍ غير متداركة.

﴿لَّكُم﴾ متعلق بـ ﴿أَنزَلَ﴾، أو خبر ﴿شَرَابٌ﴾[٤] في قوله: ﴿مِّنْهُ شَرَابٌ﴾؛ أي: مشروبٌ، و﴿مِّنْهُ﴾ على الأوَّل خبرٌ لـ ﴿شَرَابٌ﴾، وعلى الثَّاني تبعيضيَّة.

وفي حصر المشروب المستفاد من تقديم ﴿مِّنْهُ﴾ دلالةٌ على أنَّ مياه الأرض منه.

---

(١) في النسخ: «على أنه»، والمثبت من «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٢١)، وما سيأتي بين معكوفتين منه.

(٢) في (ف): «ولا».

(٣) «الحكيم» زيادة من (م) و(ك).

(٤) في (م): «لشراب».

﴿وَمِنْهُ شَجَرٌ﴾: ومنه تكوُّنه، والمراد بالشَّجر: ما يرعاه المواشي، وقيل: كلُّ ما ينبت على الأرض يُطلَق عليه الشَّجر، قال الشَّاعر:

نعلِفُهـا اللَّحـم إذا عَـزَّ الشَّـجر[١]

﴿فِيهِ تُسِيمُونَ﴾: ترعَون، مِنْ سامَتِ الماشية: إذا رعَتْ، فهي سائمة، وأسامها صاحبُها، وأصلها من السَّومة، وهي[٢] العلامة؛ لأنها تؤثِّر بالرَّعي علاماتٍ في الأرض.

* * *

(١١) - ﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ﴾ وقرئ بالنُّون[٣] على التَّفخيم.

﴿وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ﴾ تقديم ﴿الزَّرْعَ﴾ لأنَّه الأصل في الغِذاء[٤]، وتخصيص الأجناس الثَّلاثة من الثَّمرات وتقديمها لإظهار فضلها وإنافتها[٥] على سائرها، ولعلَّ تقديم ما يُسامُ فيه على الكلِّ[٦] لصيرورته غذاء

(١) الرجز للنمر بن تولب كما في «الحيوان» (٧/ ١٤٥)، و«الشعر والشعراء» (١/ ٣٠٩)، و«الأغاني» (٢٢/ ٢٧٨). ونسبه الزمخشري في «أساس البلاغة» (مادة: لحم) للطرمَّاح.

(٢) في (ك) و(م): «التي هو».

(٣) قرأ بها أبو بكر. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٧).

(٤) في النسخ: «الغداء»، والصواب المثبت لأن (الغداء) بالدال: طعام الغداة كما أن العشاء طعام العشي، و(الغذاء) بالذال: ما به نماء الجسم وقوامه، وهو المقصود هنا.

(٥) أي: ارتفاعها وشرفها.

(٦) كذا في النسخ: «على الكل»، وفي «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٢١)، (على ما يؤكل منه).

حيوانيًّا، هو أشرف الأغذية، أسرع ما يكون إلى اللَّبن واللَّحم.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ﴾؛ أي: وبعض كلِّها؛ لأنَّ كلَّ ما يمكن من الثَّمرات لا يكون في الأرض.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةٗ﴾: لدلالةً واضحة ﴿لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ﴾: ينظرون فيستدلون بها على وجود الصَّانع وحكمته وقدرته.

ولَمَّا كان الاستدلال بإنبات الماء وهو واحد وإن كثرت أنواع النَّبات قال هنا: ﴿لَأٓيَةٗ﴾ على صيغة الإفراد.

***

(١٢) ـ ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتُۢ بِأَمۡرِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾.

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ﴾ بأنَّ هيَّأها لمنافعكم.

﴿مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ﴾ نصب على الحال؛ أي: نفعكم بها حالَ كونها مسخَّرات بأمره التَّكويني، أو على المصدر، وجمع للتَّنويع، جمع مُسَخَّر بمعنى تسخير؛ أي: سخَّرها أنواعاً من التَّسخير، كأنَّه قيل: سخَّرها تسخيرات.

وقرئ برفع ﴿الشَّمسُ والقمرُ والنُّجومُ﴾ على الابتداء، والخبر ﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ بالرَّفع[1]، وبرفع ﴿النُّجومُ﴾ وحدَه ونصبِ ما قبله، و﴿مُسَخَّرَٰتُۢ﴾ خبره[2]؛ يعني أنها مسخراتٌ حقيقةً لله تعالى.

---

(١) وهي قراءة ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٧).

(٢) وهي قراءة حفص، وقرأ باقي السبعة بنصب الكل. انظر: «السبعة» (ص: ٣٧٠).

وإنَّما قيل: إنَّها سُخِّرَتْ لكم باعتبار أنَّ فائدة تسخيرها عائدة إليكم، ومَن وهَم أن المعنى: مسخَّرات لِمَا خُلِقْنَ له، فقد وهِم؛ إذ حينئذٍ يكون إعادةً بلا فائدة.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ﴾ أتى هنا بصيغة الجمع لأنَّ وجه الدّلالات في السَّماوات متعدِّد.

﴿لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ذكَرَ العقلَ لأنَّ الاحتياجَ إلى تجريد العقل الصَّرْف في الاستدلال بها أشدُّ؛ فإنَّ القوَّة الفكرية كافية في الاستدلال بما يشاهد من أحوال النَّبات وتغييراته واختلاف أشكاله وألوانه، وأما أحوال العلويَّات فلا بُدَّ فيها من مزيد عقلٍ ومعرفةٍ بالعلم الطَّبيعي والهيئة والهندسة، ومَنْ زعم[1] أنَّ وجه الدِّلالة هنا مع تعددُّه أظهرُ من وجهها ثمَّة مع وحدته فقد كابرَ مقتضى العقل الصَّريح.

***

(١٣) ـ ﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾.

﴿وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ﴾: من أنواع الحيوان والنَّبات والمعادن، في موضع نصبٍ بفعلٍ محذوفٍ؛ أي: وخلقَ وأنبتَ، كذا قال أبو البقاء، استبعدَ تسلُّط ﴿وَسَخَّرَ﴾ على ذلك؛ إذ حينئذ يلغو قوله: ﴿لَكُمُ﴾، فقدَّر فعلاً لائقاً[2]، ومَنْ لم يتنبَّه لهذا قال: أي: سخَّر لكم ما خلق لكم فيها[3].

﴿مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ﴾: أصنافُه، فإنَّها تتخالف باللَّون غالباً.

---

(١) في (ف): «وهم».

(٢) انظر: «الإملاء» للعكبري (٢/ ٧٩١).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٢٢)، متابعاً في ذلك «الكشاف» (٢/ ٥٩٨).

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ﴾؛ أي: يعتبرون، فإن اختلافها في الطِّباع والهيئات والمناظر ليس إلَّا بصنع قادرٍ حكيمٍ.

وأفرد (الآية) لأنَّه عبَّر عنه بمفرد، ووصفه بمفرد.

* * *

(١٤) ـ ﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاخِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾.

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ﴾ بأنْ مكَّنكم من الانتفاع به بالرُّكوب والاصطياد والغَوص وغير ذلك.

﴿لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ هو الحوت، وإنَّما عبَّر عنه باللَّحم ـ وهو ما يُؤكَل من الحيوان ـ تنبيهاً على جهة فضله وامتيازه عن سائر الحيوانات المأكولة، فإنَّها لا تكون لحماً إلَّا بعد الذَّبح والسَّلخ، ولا يخفى لطف موقع هذا التَّنبيه، والتَّمهيد السَّابق بقوله: (مِن) حيث تضمَّن الإشعار بأنَّهم يبتدؤون أكلَه من البحر؛ مبالغةً في تهيئته للأكل في مقام الامتنان.

وفي تخصيص أكله ﴿طَرِيًّا﴾ بالذِّكر إشارةٌ إلى أنَّه في مَعْرِض أن يسرع إليه الفساد؛ لكمال لطافته، فيسارع إلى أكله، فكأنَّه قيل: لتأكلوا منه لحماً في غاية اللَّطافة، وهذا من ألطف الكنايات التي قلَّما يُتنبَّه لها، ولا بدَّ مِنَ الحمل عليها؛ إذ على تقدير إبقائه على ظاهره يكون بياناً للواقع، خالياً عن فائدة الخبر ولازمها.

روي أنَّ أبا حنيفة لَمَّا قال: لو حلفَ لا يأكل لحماً فأكَلَ لحمَ السَّمكِ لا يحنث؛ لأنَّ لحم السمك ليس بلحمٍ، سمعَ سفيان الثَّوري قوله، فأنكر عليه محتجًّا بهذه

الآية، فبعثَ إليه أبو حنيفة رضي الله عنه رجلاً سأله عمَّن حلف لا يصلي على البساط فصلَّى على الأرض، هل يحنث أم لا؟ فقال سفيان: لا يحنث، فقال الرَّجل[١] أليسَ إنَّ الله تعالى قال: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا﴾ [نوح: ١٩]، فعرفَ سفيانُ أنَّ ذلك تلقينَ أبي حنيفة[٢].

وقيل في وجه قوله[٣]: إنَّ مبنى الإيمان على العادة، وعادةُ النَّاس إذا ذُكِرَ اللَّحم على الإطلاق أن لا يُفهَم منه السَّمك، وإذا قال الرَّجل لغلامه: اشترِ بهذه الدَّراهم لحماً، فجاء بالسَّمك كان حقيقاً بالإنكار.

وهذا معارَضٌ بأنَّه إذا قال لغلامه: اشترِ بهذه الدَّراهم[٤] لحماً، فجاء بلحم العصفور، استحقَّ الإنكار أيضاً مع أنَّه يحنث بأكل لحم العصفور مَنْ حلَفَ لا يأكلُ اللَّحم.

لَمَّا أخرج من البحرِ الملحِ الزُّعاقِ الحيوانَ الذي لحمه في غاية العذوبة ونهاية اللَّطافة عُلِمَ أنَّه إنَّما حدث لا بحسب الطَّبع، بل بقدرة الله تعالى وحكمته، حين أظهر الضِّد من الضِّد.

﴿وَتَسۡتَخۡرِجُواْ مِنۡهُ حِلۡيَةٗ﴾ كاللُّؤلؤ والمرجان، فإنَّ الحليةَ اسمٌ لِمَا يُتَحلَّى به، وزيادة حرف التَّنفيس[٥] هنا للدّلالة على أنَّ إخراجها بمشقَّة تقتضي المهلة.

---

(١) «الرجل» من (م).

(٢) انظر: «تفسير الرازي» (٢٠/ ٦).

(٣) أي: في تعليل قول أبي حنيفة بعدم الحنث، وصاحب هذا القيل هو الزمخشري. انظر: «الكشاف» (٢/ ٦).

(٤) في (م): «بهذا الدرهم».

(٥) حرف التنفيس: أي: السين، وحرفا التنفيس هما السين وسوف، وإنما سميتا به لأنَّ التَّنفيسَ التَّأخيرُ،

﴿تَلۡبَسُونَهَا﴾: تلبسها النِّساء، فهو من قبيل[1] إسناد فعل البعض إلى الجملة بقرينة[2] السابق.

﴿وَتَرَى ٱلۡفُلۡكَ مَوَاخِرَ فِيهِ﴾: جواريَ فيه؛ تشقُّه بحيزومها مع صوتٍ، مِنَ المَخْرِ، وهو شقُّ الماءِ بصوتٍ.

﴿وَلِتَبۡتَغُواْ﴾ عطف على محذوفٍ تقديرُه: لتركبوا فيها ولتبتغوا.

﴿مِن فَضۡلِهِۦ﴾: من سعة رزقه بركوبها للتِّجارة.

﴿وَلَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾؛ أي: وتشكروا[3] الله تعالى على هذه النِّعمة الجليلة؛ حيث يقطع بها المسافة البعيدة في المدَّة القليلة، مع ما فيها من الأحمال والأثقال، بلا مُؤْنَةِ الرَّفع والوَضْع في أثناء السَّفر كما هو المعتاد في مسافرة البر، هذا هو الوجه بتخصيص هذه النِّعمة بتعقيب الشُّكر، وأمَّا جعل المهالك سبباً للانتفاع وتحصيل المعاش فلا يناسب مقام الامتنان بالإحسان، إنما يناسب مقام إظهار القدرة.

***

(١٥) ـ ﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ أَن تَمِيدَ بِكُمۡ وَأَنۡهَٰرٗا وَسُبُلٗا لَّعَلَّكُمۡ تَهۡتَدُونَ﴾.

﴿وَأَلۡقَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ رَوَٰسِيَ﴾ عطفٌ على محذوفٍ، تقديرُهُ: والأرض مددناها

وهما أيضا للاستقبال والتَّأخير. انظر: «دستور العلماء» (٢/ ٢٢).

(١) في (ف) و(ك): «قريب».

(٢) في (م) و(ك): «كقرينه».

(٣) في (ف): «وتشكرون».

وألقينا فيها رواسيَ، ولَمَّا حُذف المعطوف عليه[١] عُدِلَ مِنَ الضَّمير إلى الظَّاهر، وقد مرَّ تفسيره في سورة الحجر.

﴿أَن تَمِيدَ بِكُمْ﴾: كراهةَ أنْ تميدَ بكم؛ أي: تتحرَّك وتميل.

والمَيْدُ: الاضطراب، وذلك أنَّ الأرضَ لو بقيَتْ على بساطتها كانت كريَّةً مجيبة للتَّحرك بأدنى سبب، أو متحركةً كالفُلك، فلَمَّا خُلِقَتِ الجبال راسخة فيها[٢] تفاوتت جوانبُها، وتوجَّهت الجبال نحو المركز بثقلها، فصارَتْ كالأوتاد التي تمنعها عن الحركة والميل من جانبٍ إلى جانبٍ.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾؛ أي: وجعل فيها أنهاراً، لأنَّ ﴿وَأَلْقَىٰ﴾ فيه معناه.

﴿وَسُبُلًا لَّعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾: لتهتدوا بها في أسفاركم إلى مقاصدكم.

وإنَّما قال: ﴿لَّعَلَّكُمْ﴾ لأنَّه لا بُدَّ من الاستدلال في بعض المواضع للاهتداء إلى المقاصد.

* * *

(١٦) - ﴿وَعَلَٰمَٰتٍ وَبِٱلنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَعَلَٰمَٰتٍ﴾: ومعالم[٣] يَستدلُّ بها السَّابلة[٤] في النَّهار، من الجبال والأنهار ونحو ذلك.

---

(١) «عليه» من (م).

(٢) في هامش (ف): «من قال: فلما خلقت الجبال على وجهها، فقد غفل عن وجه العدول عن (ألقى على الأرض) إلى ﴿وَأَلْقَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ﴾، وقد مَّر في تفسير سورة الحجر. منه».

(٣) «ومعالم» من (م).

(٤) السابلة: أبناء السبيل المختلفة في الطرقات.

﴿وَبِٱلنَّجۡمِ﴾ المراد به الجنس، أو الثُّريَّا والفرقدان وبناتُ النَّعْش والجَدْي، ويساعده[١] قراءته بضمَّتين، وضمٍّ وسكون، على الجمع[٢].

﴿هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ باللَّيل في البراري والبحار.

وتقديم النَّجم، وتوسيطُ الضَّمير إقحاماً، وإخراجُ الكلام عن سَنَن الخطاب إلى الغيبة، للدِّلالة على أنَّ هؤلاء المنكرين من قريش بالنَّجم خاصَّةً هم خصوصاً يهتدون؛ لأنَّهم كانوا كثيري الأسفار للتِّجارة، مشتهِرين بأنَّهم أعلمُ النَّاس بالاهتداء بالنُّجوم في مسائرهم، فكان الاعتبار بذلك ألزمَ لهم، والشكر لله به أوجبَ عليهم، فلذلك خُصِّصوا.

* * *

(١٧) ـ ﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿أَفَمَن يَخۡلُقُ كَمَن لَّا يَخۡلُقُۚ﴾ الهمزة للإنكار دخلت على فاء التَّعقيب؛ أي: بعد هذه الدَّلائل المتكاثرة الواضحة الدِّلالة على كمال قدرة الله تعالى وحكمته وانفراده بخلق ما عدَّد من مبدَعاته يقولون[٣] بمساواة الخالق المطلَق لِمَا لا يخلق شيئاً.

وأورد (مَن) للجمادات التي هي الأصنام؛ إمَّا للمشاكلة، وإمَّا بناءً على اعتقادهم، وتسميتِهم آلهةً، وعبادتِهم لها، وفيه ضربٌ من التَّهكُّم، وإمَّا لأنَّ المرادَ: كمَن لا يخلق مِن أولي العلم، فكيف بالجماد؟! للمبالغة.

---

(١) في (ك) و(م): «ويساعدهما». والمثبت من (ف)، والمعنى: ويساعد الوجه الثاني ما سيأتي من القراءتين اللتين تفيدان الجمع.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢)، ونسب قراءة الضم والسكون إلى الحسن ومجاهد.

(٣) «يقولون» سقط من (ف) و(ك).

وكان حقُّ الكلام أن يُقال[1]: أفمَن لا يخلق كمَن يخلق؛ لأنَّه إلزامٌ لعبدة الأوثان، لكنَّه عكس تفظيعاً لشأنهم، بأنَّهم لَمَّا سمَّوها باسمه، وعبدوها كعبادته، وسوَّوا بينه وبينها، فقد جعلوا الله تعالى من جنس هذه المخلوقات وشبيهاً بها، فأنكر ذلك عليهم.

وحذف مفعول ﴿يَخۡلُقُۗ﴾ لأنَّ المراد نفسُ صدور الفعل منه؛ أي: أيكون الخالق شبيهاً بغير الخالق، أو للتَّعميم؛ أي: أفمَن يخلق كلَّ شيء كمَن لا يخلق شيئاً، أو لأنَّ ما عُدِّدَ من المخلوقات دلَّ عليه؛ أي: أفمَن يخلقُ ما عُدِّدَ من الأشياء العظيمة العجيبة كمَن لا يخلق شيئاً منها، أفلا تذكَّرون بعد هذه التَّنبيهات فتعرفوا فسادَ ذلك؛ فإنَّه لجلائه ووضوحه كالبديهيِّ المغفول عنه.

***

(١٨) ـ ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ﴾: لا تبلغ طاقتُكم ضبطَ عددها، فضلاً عن أن تطيقوا القيام بشكرها، أَتْبع ذلك تعداد النِّعم، وإلزام الحجَّة على انفرادها باستحقاق العبادة؛ تنبيهاً على أنَّ وراءَها مِنَ النِّعم ما لا ينحصر، وأنَّ القيامَ بحقِّ عبادته وشكره غير مقدورٍ لأحدٍ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَغَفُورٞ﴾ حيث يغفر تقصيرَكم في أداءِ شكرها ويتجاوز عنه.

﴿رَّحِيمٞ﴾ لا يقطعُها عنكم لتفريطكم، ولا يعاجلكم بالعقوبة على كفرانها، وفيه إشعارٌ بأنَّه تعالى ما كلَّفكم حقَّ الشُّكر؛ لعدم الإمكان، وتجاوَز عن الممكن إلى السَّهل الميسور.

---

(١) «أن يقال» ليست في (ف).

(١٩) ـ ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾.

وفي قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تُسِرُّونَ وَمَا تُعۡلِنُونَ﴾ ما يُشْعِرُ بأَنَّهم قصَّروا في هذا الميسور أيضاً، فاستحقُّوا العقاب؛ أي: يعلم ما تسرُّون من عقائدكم وعزائمكم وما[1] تعلنون من أعمالكم وأقوالكم، وهو وعيدٌ على شركهم باعتبار العلم والعمل، وتقصيرِهم في الشُّكر والعبادة، وتقديم ﴿مَا تُسِرُّونَ﴾ لأنَّ الوعيد من جهة العقائد والعزائم أهمُّ.

***

(٢٠) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: والآلهةُ الذين يدعونهم الكفَّارُ من دونه تعالى، أو يعبدونهم.

﴿لَا يَخۡلُقُونَ شَيۡـٔٗا﴾ لَمَّا نفى المساواة والمشابهة بينَ مَنْ يخلقُ وبينَ مَنْ لا يخلقُ بيَّنَ أنَّهم لا يخلقون شيئاً؛ ليَنتج أنَّهم لا يساوونه ولا يماثلونه[2].

ثمَّ أثبَتَ لهم صفات تنافي الألوهيَّة تأكيداً لذلك فقال:

﴿وَهُمۡ يُخۡلَقُونَ﴾؛ أي: وهم ممكِناتٌ مفتقِرةٌ إلى التَّخليق، فكيف تكون آلهة والإلهُ يجب أن يكون واجبَ الوجود غنيًّا عن الكلِّ؟

***

(٢١) ـ ﴿أَمۡوَٰتٌ غَيۡرُ أَحۡيَآءٖۖ وَمَا يَشۡعُرُونَ أَيَّانَ يُبۡعَثُونَ﴾.

﴿أَمۡوَٰتٌ﴾: هم أموات. ولَمَّا احتمل أن يكون المعنى: أموات فيما بعدُ، على طريقة: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٞ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠] دفَعه بقولِه:

---

(١) في (ف): «مما».

(٢) في (ف): «يماثلون».

﴿غَيْرُ أَحْيَآءٍ﴾ ويجوز أن يكون المعنى[1]: جمادات لا يَعرِض لها حياة كما يَعرِض لبعض الأموات، كالنُّطَف التي يحييها الله تعالى ويجعلها حيوانات، وكأجساد الموتى التي يبعثها الله تعالى، وذلك أغرقُ في كونها أمواتاً.

ويجوز أن يكون المعنى: أمواتاً[2] حالاً أو مآلاً، غيرَ أحياء بالذَّات؛ ليتناول كلَّ معبود، والإلهُ يجب أن يكون حيًّا بالذَّات لا يعتريه الممات.

﴿وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾؛ أي: لا يشعرون متى تُبعث عبَدتهم، فكيف يجازونهم، فإنَّ المعبود يجب أن يعلم عبادة العابد وقتَ بعثه وجزائه حتى يقدر على مجازاته بعد موته؛ فإنَّ البعث والجزاء من لوازم التَّكليف والعبادة، وفيه تهكُّمٌ بهم وبآلهتهم؛ فإنَّها جمادات لا شعورَ لها بشيءٍ، فكيف ممَّا لا يشعرُ به حيٌّ غير الله تعالى؟

* * *

(٢٢) ـ ﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ﴾.

﴿ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ تلخيصٌ للنَّتيجة، وتكريرٌ للمطلوب، بعد إقامة الحجَّة عليه على أبلغ الوجوه.

﴿فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ﴾ تعكيسٌ للمقصود من النَّتيجة، وبيانٌ لموجِب إنكارهم؛ أي: إنَّه قد ثبت وتحقَّق بالبراهين المذكورة أنَّ الألوهيَّة تمتنع أن تكون إلَّا لله وحدَه، وأنَّه لا شريكَ له فيها، فأنتجَ لهم ذلك إصرارَهم واستمرارهم

---

(١) «المعنى» سقط من (ف) و(ك).

(٢) «أمواتا» من (م).

على شركهم، وإنكار قلوبهم للوحدانيَّة، وذلك لعدم إيمانهم بالآخرة، فإنَّ الذي لا يؤمن بها لا ينظر في الدَّلائل ولا يتأمَّلها، بخلاف المؤمن بها.

﴿وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ﴾: وهم قومٌ عادتهم الاستكبارُ عن التَّوحيد وعن الإقرار به؛ لِمَا رسخَ في قلوبهم من تقليد آبائهم.

* * *

(٢٣) ـ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾ قد سبقَ تفسيره في تفسير[1] سورة هود.

﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ فيجازيهم على ذلك، وعيدٌ على ما ذُكِرَ على أبلغ وجهٍ، وهو في موضع الرَّفع على الفاعليَّة؛ لأنَّ (جرم) فعلٌ أو مصدرٌ[2].

﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ تعليلٌ للوعيد؛ أي: لا يحبُّ كلَّ مستكبرٍ، فكيف

---

(١) «تفسير» سقط من (ف).

(٢) كذا أجمل هذا الإعراب، وهو محتاج إلى تفصيل، فقوله: (لا جرم) إما مؤول بالفعل، أو مؤول بالمصدر، أو (جرم) وحده فعل، أو هو اسم (لا)، ولكل ذهب قوم: فذهب الخليل وسيبويه والجمهور إلى أنها اسم مركب مع (لا) تركيب (خمسة عشر)، وبعد التركيب صار معناها معنى فعلٍ وهو: حَقَّ، فهي مؤولة بفعل. وأبو البقاء يؤولها بمصدر قائم مقامه وهو: حقّاً. وقيل: (جَرَم) نفسها فعل ماض بمعنى: ثبت ووجب، و(لا) نافية لكلام مقدر تكلم به الكفرة كقوله سبحانه: ﴿لَآ أُقْسِمُ﴾ [القيامة: ١] على وجه. و﴿أَنَّ﴾ وما بعدها على هذه الوجوه في تأويل مصدرٍ مرفوع. وذهب الزجاج إلى أن (جرم) فعل أيضا لكن بمعنى: كسب، وفاعلها مستتر يعود إلى ما فهم من السياق، و(لا) كما في القول السابق، و﴿أَنَّ اللَّهَ..﴾ منصوب على المفعولية لـ (جرم)، وقيل: إنه خبر (لا) حذف منه حرف الجر و(جرم) اسمها، والمعنى: لا صدَّ أو لا منع في أن الله يعلم.. إلخ. انظر: «روح المعاني» (١٤/ ٧٤).

بالـذي اسـتكبرَ عن توحيـده أو اتِّباع رسـوله. وفي إطـلاق ﴿ٱلْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ تعميمٌ برهانيٌّ.

* * *

(٢٤) - ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾.

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۙ﴾ القائلُ بعضُهم على التَّهكُّم، أو الوافدون عليهم، أو المسلمون ﴿قَالُوٓا۟ أَسَـٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾.

﴿مَّاذَآ﴾ منصـوب بــ ﴿أَنزَلَ﴾؛ أي: أيُّ شـيءٍ أنـزلَ ربُّكم؟ وتقديـر الجواب: مـا يدَّعـون نزولـه أسـاطيرُ الأوليـن، أو مرفـوع بالابتـداء؛ أي: أيُّ شـيءٍ أنزلـه ربكـم؟ وتقديـر الجواب: هو أسـاطيرُ الأوليـن، أو: المنزَل أسـاطير الأولين، على السُّـخرية والتَّهكُم.

والمجيبون: المقتسِمون مداخلَ مكَّة ينفِّرون عن رسول الله ﷺ.

* * *

(٢٥) - ﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴾.

﴿ لِيَحْمِلُوٓا۟ أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۙ﴾ متعلِّق بـ ﴿قَالُوٓا۟﴾ على التَّعليل في نفس الأمر لا الفرضِ، واللامُ لامُ العاقبة؛ أي: قالوا ذلك إضلالاً للنَّاس فحملوا أوزار إضلالهم[1] كاملة، فإنَّ إضلالهم نتيجةُ رسوخهم في الضَّلال.

﴿وَمِنْ أَوْزَارِ ٱلَّذِينَ يُضِلُّونَهُم﴾: وبعضَ أوزار ضلال مَنْ ضَلَّ، وهو وزرُ

---

(١) في (ف): «ضلالهم».

الإضلال؛ فإنَّ ضلاله إنَّما حصل بـأمرَيْن: إضلالِ هذا، أو مطاوعةِ هذا، فيتحاملان الوزر.

﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ حال من المفعول؛ أي: يضلونهم على جهلهم.

وفائدة التَّقييد به: الدِّلالة على أن جهلهم ليس بعذرٍ؛ إذ كان عليهم أن يبحثوا وينظروا[1]، فيعرفوا مَن يقلدونهم، ويميِّزوا بينَ المحِقِّ والـمُبْطِل.

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ﴾: بئسَ شيئاً يزرونه فعلُهم.

* * *

(٢٦) - ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: سوَّوا منصوبات[2] ليمكروا بها رُسل الله.

﴿فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَـٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ﴾: فأتاها أمرُه من جهة العُمُد التي بنوا عليها بأنْ ضَعُفَتْ ﴿فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ﴾ قال ابن الأعرابي: العرب تقول: خرَّ[3] علينا سقفٌ، ووقع علينا حائط، إذا كان يملكه[4] وإن لم يكن [وقع] عليه، فجاء بقوله:

---

(١) في (م): «أو ينظروا».

(٢) أي: صنعوا حيلًا، والمنصوبة: الحيلة. انظر: «حاشية الشهاب» (٥/ ٣٢٥).

(٣) في (م): «تخر».

(٤) تحرف في النسخ إلى: «يهلكه»، والمثبت من المصادر. انظر: «تفسير القرطبي» (١٢/ ٣١٤)، و«البحر المحيط» (١٣/ ٣٣٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٨١)، وما سيأتي بين معكوفتين من هذه المصادر. والمعنى كما قال الآلوسي: أن المراد إذا انهدم وهو في ملك القائل، وإن لم يقع عليه حقيقة.

﴿مِن فَوْقِهِمْ﴾ ليخرج به هذا عن الذي من كلام العرب؛ أي: عليهم وقع وكانوا تحته فهلكوا.

﴿وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾: لا يحتسبون ولا يتوقَّعون.

تمثيلٌ؛ أي: قد دبَّروا حِيَلاً ليمكروا بها رُسُلَ الله، فجعل الله هلاكهم في تلك المماكر والحِيَل واستئصالَهم بها؛ كحالِ قومٍ بنوا بنياناً وأحكموا قواعده فأتى الله بنيانهم من جهة الأساس، فسقط عليهم السَّقف وهلكوا.

* * *

(٢٧) - ﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ وَٱلسُّوٓءَ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ﴾.

﴿ثُمَّ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يُخْزِيهِمْ﴾: يذلُّهم.

قيل: يعذِّبهم بالنَّار؛ لقوله: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٩٢].

ويأباه قوله[١]: ﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ﴾ لأنَّه قبلَ دخولهم في النَّار أضاف إلى نفسه الشُّركاء حكايةً لإضافتهم؛ توبيخاً لهم بها وتهكُّماً بهم.

﴿ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تُشَـٰٓقُّونَ فِيهِمْ﴾: تعادُون المؤمنين في شأنهم.

وقرئ بكسر النُّون[٢]، بمعنى: تشاقُّونني، فإنَّ مشاقَّة المؤمنين كمشاقَّة الله.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾؛ أي: الأنبياء والعلماء الذين كانوا يدعونهم إلى التَّوحيد فيشاقُّونهم ويتكبَّرون عليهم:

---

(١) «ويأباه قوله» سقط من (ف) و(ك).

(٢) وهي قراءة نافع. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٧).

﴿إِنَّ ٱلْخِزْىَ ٱلْيَوْمَ﴾ متعلِّق بطرفيه[1] ﴿وَٱلسُّوٓءَ﴾: الذِّلَّة والعذاب.

﴿عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ تقريراً لِمَا كانوا يَعِظونهم به، وتحقيقاً لِـمَا أوعدوهم، أو إظهاراً للشَّماتة بهم، وحكى الله تعالى قولهم ليكون لطفاً لمن سمعه.

وقيل: المراد من القائل: الملائكة، ويأباه قوله:

(٢٨) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ ۖ فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ يحتمل الجرَّ صفةً للكافرين، فيكون داخلاً تحت القول، والنَّصب والرَّفع على الذَّمِّ.

﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ بأن عرَّضوها على العذاب المخلَّد. نصبٌ على الحال.

﴿فَأَلْقَوُا۟ ٱلسَّلَمَ﴾: فسالَـموا وأُخبتوا وتولَّوا عمَّا كانوا عليه في الدُّنيا مِنَ الشِّقاق والتَّكبُّر والتَّعظُّم.

قيل: حين عاينوا الموت، ويأباه السباق واللحاق.

﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِن سُوٓءٍۭ﴾: مِن كفر وعدوان؛ أي: قائلين ذلك، ويجوز أن يكون تفسيراً للسلم، على أنَّ المراد به: القول الدَّال على الاستسلام.

لَمَّا جحدوا ما كانوا عليه من الكفر والعدوان رَدَّ عليهم أولو العلم بقولهم:

﴿بَلَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فهو مُجازيكم عليه، وهذا أيضاً من باب الشَّماتة، وكذلك:

(٢٩) ـ ﴿ فَٱدْخُلُوٓا۟ أَبْوَٰبَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۖ فَلَبِئْسَ مَثْوَى ٱلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾.

---

(١) أي: متعلق بالخزي والسوء كلاهما لتوسيطه بينهما، وقد مر التنبيه على نظائر له.

﴿ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ ﴾؛ أي: كلُّ صنفٍ بابَه المُعَدَّ له. وقيل: أبوابُها: أصناف عذابها.

﴿خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ هي؛ أي: جهنَّمُ.

والوصف بالتَّكبُّر للإيذان باستحقاق صاحبه النَّار، ومَنْ لم يجوِّز الكذب يومئذ أَوَّلَ قولَهم ذلك: بأنَّا لم نكن في زعمنا عاملين سوءاً، ولا يناسبه الرَّدُّ المذكور كما لا يخفى.

* * *

(٣٠) - ﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾.

﴿وَقِيلَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا ﴾ يعني: المؤمنين، عطف على ﴿قِيلَ لَهُمْ﴾ في[1] قوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ﴾.

﴿مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا خَيْرًا ﴾؛ أي: أَنزل خيراً، وإنما رفع الأوَّل ونصب الثَّاني فرقاً بين جواب الجاحد وجواب المقرِّ؛ أي: إنَّ المتَّقين لم يتلعثموا وأطبقوا الجواب على السُّؤال بيِّناً مكشوفاً، والمشركون عدلوا بالجواب عن السُّؤال فقالوا: هو أساطير الأولين وليس من الإنزال في شيء.

﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا﴾ كلامٌ مدحَ اللهُ تعالى به القائلين خيراً، وجعل قولهم ذلك من جملة إحسانهم، وحَمِدهم عليه، ووعدهم به.

فهو كلامٌ مبتدأٌ لا محلَّ له من الإعراب، ويجوز أن يكون بما بعده بدلاً من

---

(١) في (ف): «من».

﴿خَيْرًا﴾ على أنَّه من كلام المتَّقين؛ أي: قالوا خيراً، ثم فسَّروا الخير بهذه الجملة، بمعنى: أنزل هذا الكلام بعدما أبهموه وسمَّوه خيراً.

﴿حَسَنَةٌ﴾ مكافأة بإحسانهم في الدُّنيا، وهي العصمة والتَّوفيق والنَّجاة من العذاب المعجَّل.

﴿وَلَدَارُ الْآخِرَةِ﴾: ولثوابهم في الآخرة ﴿خَيْرٌ﴾ مما لهم في الدُّنيا.

﴿وَلَنِعْمَ دَارُ الْمُتَّقِينَ﴾ اللَّام للقسم، و(نعم) كلمةُ مدحٍ؛ إذ لا خوف فيها ولا حَزَن، ونعيمها مقيمٌ، وملكُها دائمٌ، وصاحبها فيها خالد.

وحذف المخصوص بالمدح، وهو: دارُ الآخرة؛ لتقدُّم ذكرها.

* * *

(٣١) - ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾.

وقوله: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ خبر مبتدأ محذوفٍ، ويجوز أن يكون المخصوصَ بالمدح.

﴿يَدْخُلُونَهَا تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُمْ فِيهَا مَا يَشَاءُونَ﴾ تقديم ﴿لَهُمْ﴾ للتَّخصيص؛ أي: لهم خاصَّةً دون غيرهم.

وعموم ﴿مَا﴾ مع تقديم ﴿فِيهَا﴾ يفيد أنَّ الإنسان لا يجد جميعَ ما يشاء من المشتهَيات إلَّا في الجنَّة.

﴿كَذَلِكَ يَجْزِي اللَّهُ الْمُتَّقِينَ﴾ فذلكةٌ للتَّأكيد مع تعظيم الجزاء، وفيه تقوية للوجه الأوَّل.

* * *

(٣٢) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ ﴾: طاهرين مِنْ ظُلْمِ أنفسهم بالكفر والمعاصي؛ لأنَّه في مقابلةِ ﴿ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، أو: فرحين ببشارة الملائكة إيَّاهم بالجنَّة، أو: طيبين بقبض أرواحهم؛ لقوَّة إيمانهم وتوجُّه نفوسهم بالكُلِّيَّة إلى عالم القدس.

﴿يَقُولُونَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمُ﴾: لا يَحيقكم بعدُ مكروهٌ.

﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾: بسبب ثباتكم على الأعمال الصَّالحة، وإنَّما قال: ﴿ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ﴾؛ لأنَّ القبر روضةٌ من رياض الجنَّة في حقِّهم، ومَن غفل عن هذا ذهب إلى ما ذهب، وارتكبَ لِمَا يخلُّ حُسنَ الانتظام في الكلام.

* * *

(٣٣) ـ ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾.

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ﴾؛ أي: الكفَّارُ المارُّ ذكرُهم ﴿إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ﴾ بقبض[1] أرواحِهم ﴿أَوْ يَأْتِىَ أَمْرُ رَبِّكَ ۚ﴾: العذابُ المستأصِل الواقع فجأة، وقد سبقَ وجهُ التَّعبير عن مثله بأمر الله تعالى.

وتفسير الأمر بالقيامة يأباه كلمة ﴿أَوْ﴾؛ لأنَّ انتظارهما يجامع انتظار الملائكة.

﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك الفعل الشَّنيع القبيح مِنَ الشِّرك والتَّكذيب.

---

(١) في (م): «القبض».

مَن قال هنا: فأصابهم ما أصابهم[١]، فكأنَّه غفل عن أنَّ[٢] الإخبار عنه بعد هذا صريحاً في نظم القرآن يأبى عن اعتباره هنا تقديراً.

﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ﴾ بتدميرهم أو تعذيبهم.

﴿وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ﴾ بما استوجبوا به ذلك.

* * *

(٣٤) ـ ﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾.

﴿فَأَصَابَهُمۡ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُواْ﴾: جزاءُ سيئاتِ أعمالهم، لا على حذف المضاف، بل على تسمية الجزاء باسمها.

﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسۡتَهۡزِءُونَ﴾: وأحاط بهم جزاؤه، والحيقُ لا يُستعمَلُ إلَّا في الشَّرِّ.

* * *

(٣٥) ـ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ﴾.

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ﴾ مِنَ البَحائر والسَّوائب وغيرهما ممَّا أحلَّ اللهُ تعالى، وإنَّما قالوا ذلك عناداً وتعنُّتاً وإلزاماً للموحِّدين؛ بناء على زعمهم وقولهم: ما شاء الله يجب

---

(١) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٢٦)، وفيه: مثل ذلك الفعل من الشرك والتكذيب ﴿فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ فأصابهم ما أصابهم.

(٢) «أن» من (ك).

وما لم يشأ يمتنع. ومنعاً للبعثة، وإنكاراً للتَّكليف؛ لعدم الفائدة فيهما[١] حينئذٍ، وإنكاراً[٢] لقبيح ما أُنْكِر عليهم من الشِّرك والتَّحريم ونحوهما، متمسِّكين بأنَّها لو كانت مستقبَحة لَمَا شاءَ اللهُ صدورَها عنهم، ولشاء خلافه ملجِئاً إليه، لا اعتذاراً؛ إذ لم يعتقدوا قبحَ أعمالهم.

﴿كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ﴾؛ أي: مثلَ ذلك الفعلِ الشَّنيع من الاستهزاء بالرُّسل، وإنكارِ البِعْثة والتَّكليف، والجدال بالباطل فعلَ أسلافُهمز

ولَمَّا فُهِمَ منه أنْ إنذار الرُّسل وإرشادهم لم يُجْدِ نفعاً في حقِّ الضَّالين المعاندين اتَّجه السُّؤال بأنْ يُقالَ: فما بالُ المرسلين حيثُ لم يتمُّوا مصلحةَ الإرشاد؟ أجابَ عنه بما حُذِفَ وأُقِيمَ تعليلُه مقامَه ـ لاستلزام[٣] العلَّةَ للمعلولِ ـ قوله[٤]:

﴿فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾؛ أي: لا بأس فيه فهل عليهم إلَّا الإبلاغ الموضِّح للحقِّ؛ أي: ليس لهم عليهم الهداية، ولكنَّ اللهَ سبَّبَ الأسباب بحكمته، وجعلَ تبليغَ الرُّسل من أسباب الهداية لمن شاء هدايته، فليس عليهم[٥] إلَّا ما كلَّفهم من التَّبليغ والإبانة؛ ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ﴾ [الأنفال: ٤٢].

ثمَّ بيَّن أنَّ بعثةَ الرُّسل والدَّعوةَ إلى الحقِّ والتَّكليف أمرٌ جرَتْ به السُّنَّة الإلهيَّة

---

(١) في (ف): «فيها».

(٢) في (م): «أو إنكار».

(٣) في (م): «لاستلزامه».

(٤) «قوله» من (م).

(٥) في (ك): «عليهم له»، وفي (م): «عليهم له عليه السلام».

في الأمم كلِّها سبباً[١] لهدي مَن أراد اهتداءه، وازدياد[٢] ضلال مَنْ أراد ضلاله، كالغذاء الصَّالح الذي ينفع مَن اعتدل مزاجُه، ويضرُّ مَن انحرفَ مزاجه، بقوله:

(٣٦) - ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾.

﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا﴾ التَّنكير للتعظيم ﴿أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ ﴿أَنِ﴾ يجوز أنْ تكون تفسيريَّة؛ لأنَّ البعث يتضمَّنْ معنى القول، وأنْ تكون مصدريَّة؛ أي: بعثناه بأنِ اعبدوا الله.

﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ قد سبق تفسيره في سورة البقرة.

﴿فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ﴾: وفَّقهم للإيمان بإرشادهم.

﴿وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ تغيُّر الأسلوب بالعدول عن قوله: ومنهم مَن[٣] أضلَّه؛ للتَّنبيه على أنَّ الثَّانيَ لسوء استعدادهم، على ما أفصحَ عنه قوله تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩].

ومَنْ لم يتنبَّه لذلك قال: إذ لم يوفِّقهم ولم يُرِدْ هُداهم.

﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ ترتيبُه على موجَب ما تقدَّم من نزول العذاب عليهم، فكأنَّه أخبر عنه، وأحالهم في معرفة ذلك على السَّير في الأرض. ولا اختصاص للأمر المذكور بقريش.

---

(١) «سبباً» من (م).

(٢) في (م): «أو ازدياد».

(٣) في (ك) و(م): «لمن».

﴿فَٱنظُرُواْ﴾ العطف بالفاء للدِّلالة على أنَّ الغرض من الأمر بالسَّير هو النَّظر المذكور؛ أي: سيروا في الأرض لهذا الأمر، واجعلوه غايةَ سيركم، فالفاء[١] ترتِّبُ أحدَ الأمرين على الآخر، يكون الأوَّل وسيلةً للثَّاني[٢]، لا لتعقيب السَّير بالنَّظر، فتدبَّر.

﴿كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلۡمُكَذِّبِينَ﴾ من عاد وثمود وغيرهم؛ لعلَّكم تعتبرون.

***

(٣٧) - ﴿إِن تَحۡرِصۡ عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾.

﴿إِن تَحۡرِصۡ﴾ الخطاب للرَّسول ﷺ.

﴿عَلَىٰ هُدَىٰهُمۡ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَن يُضِلُّۖ﴾ مَن حقُّه أن يُضل.

تعليلٌ للجزاء أُقِيمَ مقامَه لاستلزام العلَّة للمعلول؛ أي: فهوِّنْ على نفسك ولا تتعبها وتسلَّ عنهم؛ فإنَّ هداهم ممتنع.

وقرئ: ﴿لَا يَهۡدِي﴾ على البناء للمفعول[٣]، وهو أبلغ.

﴿وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ﴾ ينصرونهم إذ خذلهم الله تعالى، أو يدفعون العذاب عنهم إذ عذَّبهم، وإنَّما نفى الجمع؛ لأنَّ الاجتماع مظنَّة زيادة القوَّة والقدرة على النُّصرة.

***

---

(١) في (م) زيادة: «بيان».

(٢) «للثاني» من (م).

(٣) قرأ بها نافع وابن كثير وأبو عمرو وابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٧).

(٣٨) ـ ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ بَلَى وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ﴾ مستعارٌ مِنْ جَهَدَ نفسَه: إذا بلغ طاقتها وأقصى وسعها؛ للمبالغة في اليمين، وبلوغ غاية غلظتها، وأقصى وكادتها، وهو في حكم الحال؛ لأنَّ أصله: وأقسموا بالله يجهدون أيمانهم، فحذف الفعل ووضع المصدر مكانه مضافاً إلى المفعول.

﴿لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾ أرادوا به نفيَ قدرته تعالى على بعث الموتى، والجملة عطف على: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾ تصريحاً بأنَّهم كما أنكروا التَّوحيد أنكروا البعث مقسِمين عليه؛ زيادةً في البَتِّ على فساده؛ للإيذان بأنَّهما كفرتان عظيمتان حقيقتان بأن تحكيا وتدوَّنا؛ ليُتعجَّب منهما ويُعتبر بهما.

وقد رَدَّ اللهُ عليهم أبلغَ رَدٍّ فقال: ﴿بَلَى﴾ يبعثهم الله.

﴿وَعْدًا﴾ مصدر مؤكِّد لما دلَّ عليه ﴿بَلَى﴾؛ لأنَّ ﴿يَبْعَثُ﴾ موعِدٌ مِن اللهِ تعالى.

﴿عَلَيْهِ﴾ صفة لـ ﴿وَعْدًا﴾ ﴿حَقًّا﴾ صفة أخرى له؛ أي: وعداً ثابتاً عليه الوفاء به حقًّا لامتناع الخلف في وعده، ولكون البعث مقتضى حكمته.

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ أنَّهم يبعثون، أو: أنَ وعده حقٌّ عليه إنجازُه بمقتضى حكمته، وعدمُ العلم به لا يستلزم العلم بالعدم، فضلاً عن العلم بالامتناع، فما قيل في التَّعليل: لقصور نظرهم بالمألوف يتوهَّمون امتناعه، من قصور النَّظر.

* * *

(٣٩) ـ ﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي يَخْتَلِفُونَ فِيهِ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ كَانُوا كَاذِبِينَ﴾.

﴿لِيُبَيِّنَ لَهُمُ﴾ تعليلٌ لِمَا دَلَّ عليه ﴿بَلَىٰ﴾؛ أي: يبعثهم ليبيِّنَ لهم، والضَّمير في ﴿مَن يَمُوتُ﴾ عامٌّ للنَّاس كلِّها[1].

﴿ٱلَّذِى يَخۡتَلِفُونَ فِيهِ﴾ وهو الحقُّ.

﴿وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰذِبِينَ﴾ في قولهم: ﴿لَا يَبۡعَثُ ٱللَّهُ مَن يَمُوتُ﴾، وهو إشارة إلى السَّبب الدَّاعي إلى البعث، المقتضي له من حيث الحكمة، وهو المميِّز بينَ الحقِّ والباطل، والمحقِّ والمبطل بالثواب والعقاب.

(٤٠) ـ ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَىۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا قَوۡلُنَا لِشَىۡءٍ إِذَآ أَرَدۡنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ ﴿قَوۡلُنَا﴾ مبتدأ، ﴿أَن نَّقُولَ﴾ خبره، و﴿إِذَآ﴾ لمجرَّد الظَّرفيَّة؛ أي: وقتَ إرادتنا له، أو شرطيَّةٌ محذوفة الجواب لدلالة الجملة الاسمية عليه؛ أي: إذا أردنا وجود شيء فليس إلَّا أنْ نقولَ له: احدُثْ، فحدث عَقيبَ ذلك بلا توقُّف، تمثيل لبيان إمكانِ البعث وسهولته على الله، وهو أنَّ كلَّ ما تعلَّق به إرادته من الأشياء لا يمتنع عليه ولا يتوقَّف، بل يكون كمأمورٍ مطيعٍ أَمَره آمرٌ مُطاع، فلم يلبث أن يمتثل، والمبعوث أحدُ الأشياء الممكنة[2]، فكيف يمتنع عليه؟ ولا قولَ[3].

وقرئ: ﴿فيكونَ﴾ بالنَّصب[4]، عطفاً على ﴿نَّقُولَ﴾ أو جواباً للأمر.

***

---

(١) في (ف): «كلها».

(٢) «الممكنة» زيادة من (م).

(٣) أي: إنما هو تمثيل، وليس هناك قول ولا مقولٍ له، وهذا أحد الأقوال في الآية. انظر: «روح المعاني» (١٤/ ١١٥ ـ ١١٦).

(٤) قرأ بها ابن عامر والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٧).

(٤١) ـ ﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ ﴾ هم رسولُ الله ﷺ وأصحابه المهاجرون رضي الله عنهم.

ودلَّ قولُه: ﴿فِي ٱللَّهِ﴾ على أنَّ الهجرة إذا لم تكن لله تعالى لم يكن لها موقع، وكانت بمنزلة الانتقال من بلدٍ إلى بلدٍ.

وقولُه تعالى: ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا ظُلِمُواْ﴾ على أنهم كانوا مظلومين في أيدي الكفار، والمحبوسون المعذَّبون بمكَّة بعد هجرة رسول الله ﷺ.

﴿لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً ۖ﴾ مباءَةً حسنةً، أو: تبوئةً حسنةً.

﴿وَلَأَجْرُ ٱلْآخِرَةِ أَكْبَرُ﴾ ممَّا يعجَّل لهم في الدُّنيا ﴿لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ الضمير للمهاجرين؛ أي: لو كانوا يعملون لزادوا في اجتهادهم وصبرهم، أو للكفَّار؛ أي: لو كانوا يعلمون أنَّ اللهَ تعالى يجمع لهؤلاء المهاجرين بخير الدَّارين لرغبوا في دينِهم.

* * *

(٤٢) ـ ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ﴾ على أذى الكفَّار ومفارقة الوطن، ومحلُّه النَّصب أو الرَّفع على المدح.

﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴾: منقطعين إلى الله، ومفوِّضين إليه الأمر كلَّه.

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ﴾ ردٌّ لقولِ قريش: الله أعظم[1] من أن

---

(١) في (ف): «أعلى».

يكون رسوله بشراً؛ أي: جَرَت السُّنَّة الإلهيَّة بأن لا يبعث للدَّعوة إلَّا بشراً يوحي إليه، والموحَى لا يلزم أن يكون بواسطة الملك، فضلاً عن أن يكون على لسانه، والحكمة في ذلك قد ذُكِرَتْ في سورة الأنعام.

﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ﴾: أهل الكتاب، أو علماء الأخبار ليعلموكم[١].

﴿إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ جوابه محذوفٌ دلَّ عليه ما قبلَه، وفي الآية دليلٌ على أنه تعالى لم يرسل ملكاً ولا امرأة ولا صبيًّا للدَّعوة العامة، ولا ينافيه نبوَّة عيسى وهو في المهد؛ لأنَّها أخصُّ من الرِّسالة[٢]. وعلى وجوب المراجعة إلى العلماء فيما لا يُعْلَم.

* * *

(٤٤) ـ ﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ﴾: بالمعجزات والكتب، متعلِّق بـ ﴿لَا تَعْلَمُونَ﴾ على أنَّ الشَّرط للتبكيت والإلزام من حيث الاعتراف بعدم العلم، وسبيلُ الجاهل سؤال مَنْ يَعلم، لا الإنكار.

ويجوز أن يتعلَّق بـ ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا﴾ داخلاً تحت حكم[٣] الاستثناء؛ أي: وما أرسلنا إلَّا رجالاً بالبيِّنات، وأن يكون صفة لـ ﴿رِجَالًا﴾؛ أي: رجالاً ملتبسين بالبيِّنات، أو بـ ﴿نُّوحِىٓ﴾ على المفعوليَّة، أو الحال عن الفاعل من القائم مقامَ فاعله،

---

(١) «ليعلموكم» من (م).

(٢) في (م) زيادة: «النبوة».

(٣) «حكم» من (م).

على أن قولَه: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ﴾ اعتراضٌ، ويجوز أن يتعلَّق بـ ﴿أَرْسَلْنَا﴾ مضمراً، كأنَّه قيل: بِمَ أرسلوا؟ فقيل: بالبينات والزُّبر، فهو على هذا كلامٌ آخر مستأنَفٌ.

﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ﴾؛ أي: القرآن، وإنَّما سُمِّيَ ذِكْراً لأنَّه تذكيرٌ وتنبيهٌ للغافلين.

﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ في الذِّكْرِ بتوسُّط نزوله عليك من الأحكام والمواعيد.

والتَّبيينُ أعمُّ مِنْ أنْ ينصَّ بالمقصود، أو يرشدَ إلى ما يدلُّ عليه كالقياس ودليل العقل.

﴿وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾: وإرادةَ أن يتأمَّلوا فيه فيتنبَّهوا للحقائق. والواو للعطف على محذوفٍ تقديرُه: إرادةَ أن يُصغوا إليه.

***

(٤٥) ـ ﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾.

﴿أَفَأَمِنَ ٱلَّذِينَ مَكَرُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾؛ أي: المكرات السَّيِّئات، وهم الذين احتالوا لهلاك الأنبياء عليهم السَّلام، أو: الذين مكروا رسولَ الله ﷺ وراموا صدَّ أصحابه عن الإيمان، ودخولُ الهمزة على فاء التَّعقيب إنكارٌ لأمنهم بعد اطِّلاعهم على عاقبة المكذِّبين والبيِّناتِ التي أُنْزِلَتْ على الرَّسول ﷺ.

﴿أَن يَخْسِفَ ٱللَّهُ بِهِمُ ٱلْأَرْضَ﴾ كما خَسَفَ بقارون.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾؛ أي: في حالِ غَفلتهم نائمين، ولا

يلزم أن يكون من جانب السَّماء، ولا أن يكون بغتةً، ولهذا جمع بينهما في قوله: ﴿مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٥].

***

(٤٦) ـ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ﴾ الأخذُ هنا كنايةٌ عن الإهلاك، كما في قوله: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ [العنكبوت: ٤٠].

﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾: في تصرُّفاتهم في أمورهم، وهذا أيضاً زمانَ غفلتهم عن تطرُّق الآفَات؛ لتوغُّلهم في تحصيل[1] المهمات، إلَّا أنَّ لهم فيه شعوراً، وهذا تفصيل ما أجمله الضَّحَّاك بقوله: باللَّيل والنَّهار[2].

﴿فَمَا هُم بِمُعْجِزِينَ﴾: بفائتين، والفاء للدَّلالة على شدَّة الأخذ بحيث لا ينفلت المأخوذ ولو آناً، وبه تتم الكناية المذكورة آنفاً.

***

(٤٧) ـ ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ﴾: على مخافةٍ بأنْ يُهلك قوماً قبلَهم فيتخوَّفوا فيأتيهم العذاب وهم متخوِّفون، وهو خلاف الإتيان والأخذ المذكورَيْن سابقاً؛ لأنَّه أخذٌ على توقُّعٍ، فيكون الغرضُ التَّعميمَ.

---

(١) في (م): «تحصيلهم».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٢٣٤) عن ابن جريج.

وروى ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٢٨٤) عن الضحاك: «﴿فِي تَقَلُّبِهِمْ﴾ يعني على أي حال».

وقيل: هو مِنْ تخوَّفتُه: إذا تنقَّصتَه؛ أي: يأخذهم على تنقُّصهم شيئاً بعد شيءٍ في أنفسهم وأموالهم حتى يهلكوا.

﴿فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ لا يعاجلكم بالعقوبة مع استحقاقكم لها[1].

وهذا كالتَّعليل للأخذ على التَّخوُّف؛ لأنَّه فيه مهلةٌ وامتدادُ وقت، فيمكن فيها التلافي.

* * *

(٤٨) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ﴾ استفهامُ إنكارٍ؛ أي: قد رأوا أمثال هذه الصَّنائع فما بالُهم لم يتفكَّروا فيها؛ ليظهر لهم كمال قدرته وقهره، فيخافوا منه؟

وإنما قال: ﴿مِن شَيْءٍ﴾ لأنَّ المخلوقات على نوعين: ما خلق من شيء كعالَم الأجسام، وما خلق من غير شيء كعالم الأمر، وهو عالم الأرواح، كما قال الله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وإنَّما سمي عالمُ الأرواح: الأمر[2]؛ لأنَّه خُلق بأمرِ: كُن، من غير شيءٍ.

والظِّلُّ من خواصِّ ما في عالَم الخلق، وبهذا اندفع ما قيل: إن بيان ﴿مَا خَلَقَ﴾ بـ ﴿شَيْءٍ﴾ بيانُ المبهَم بما هو أبهمُ، فافهم.

﴿يَتَفَيَّؤُا ظِلَالُهُ﴾ التَّفيُّؤ: تَفعُّل من فاء يفيء؛ أي: رجع.

---

(١) في (ف) و(م): «بها».

(٢) في (ف) و(ك): «والأمر».

واختلف في الفيء؛ فقيل: هو مطلَق الظِّلِّ، سواءٌ كان قبل الزَّوال أو بعده، وهو الموافق لمعنى الآية، وقيل: الفيءُ: الذي هو بعد[١] الزَّوال.

﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ﴾؛ أي: عن الجوانب كلِّها، استعير اليمين والشِّمال من جنبي الإنسان لجانبي الشَّيء، ثم أراد بـ ﴿وَٱلشَّمَآئِلِ﴾: الشِّمال والخلف والقُدَّام على طريق التَّغليب؛ لأنَّ الظِّلَّ يفيء من الجهات كلِّها.

﴿سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ حالان من الضَّمير في ﴿ظِلَٰلُهُۥ﴾ باعتبار المعنى؛ لأنَّه يرجع إلى ﴿مَا﴾، ووُحِّدَ باعتبار اللَّفظ.

وجُمع ﴿دَٰخِرُونَ﴾ بالواو لتغليب العقلاء على سائر ما خلق الله تعالى، ولأنَّ السُّجود والدُّخور من أوصاف العقلاء، ويجوز أن يكونا حالَيْن من الظِّلال، أو الأوَّلُ منها، والثَّاني من الضَّمير، وهذا أولى؛ لما فيه من وصف الظِّلال بالسُّجود، ووصفِ أصحابها بالدُّخور الذي هو أبلغ؛ لأنَّه انقيادٌ قهريٌّ مع صفة المنقاد، فيكمل حسنُ المعنى بتصعُّد سجود الظِّلِّ وذي الظِّلِّ وتقارُبهما في الوجود.

ويظهر وجه تغير الأسلوب في الحال الثاني، واسْتُعيرَ السُّجودُ والدُّخور للانقياد والاستسلام والتَّسخير لِـمَا يريد من المخلوقات أو من ظلالها، سواءٌ كان بالاضطرار أو بالاختيار، يقال: سجدت النَّخلة: إذا مالت لكثرة الحمل، وسجد البعير: إذا طأطأ رأسه ليُرْكَبَ.

والمعنى والله أعلم: ترجع الظِّلال بارتفاع الشَّمس وانحدارها، أو باختلاف[٢] مشارقها ومغاربها بتقدير الله، من جانب إلى جانب مُنْقادَةً لِمَا قُدِّرَ لها من التَّفيُّؤ، أو

---

(١) في (ف): «الفيء هو الذي بعد».

(٢) في (م): «وباختلاف».

واقعةً على الأرض ملصَقةً بها على هيئة السَّاجد، والأجرام في نفسها داخرةٌ؛ أي: صاغرة منقادة لأفعال الله تعالى فيها.

* * *

(٤٩) ـ ﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾.

﴿ وَلِلَّهِ ﴾ خاصَّة ﴿يَسْجُدُ﴾: يَنقاد لإرادته وقدرته انقياداً يعمُّ الاختياريَّ والاضطراري، ومَنْ ذَكَرَ بدل الأوَّل ما يكون طوعاً وبدل الثَّاني ما يكون طبعاً، لم يُصبْ في واحدٍ منهما.

﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ﴾ بيانٌ لِمَا في الأرض؛ لأنَّ الدَّابة ما يدبُّ في[1] الأرض، ولا يلزم أن يكون على وجهها.

والسُّكوت عن بيان ما في السَّماوات؛ للإشعار بكثرة ما فيها أجناساً وأنواعاً، ومَن رامَ تعميم البيان زاعماً أنَّ الدَّبيب هي الحركة الجسمانيَّة، سواءٌ كانت في جسمٍ سماويٍّ أو أرضيٍّ، فقد غفلَ عمَّا في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ﴾ [النور: ٤٥] من الدِّلالة على اختصاص الدَّابة بما في الأرض؛ لأنَّ ما في السماء لا يُخْلَق بطريق التَّوالد.

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ خُصَّتِ بالذِّكْرِ معطوفةَ على ﴿مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ للتَّعظيم، عطفَ جبريلَ على الملائكة[2]؛ أي: والملائكةُ خصوصاً مِنَ السَّاجدين؛ لأنَّهم أطوع خلقٍ وأعبدُهم.

---

(١) في (ف): «على».

(٢) أي: كما عطف جبريل على الملائكة في سورة البقرة، عطف هنا الملائكة على ما في السماوات.

﴿وَهُمۡ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾ عن عبادته، جملةٌ استئنافيَّة، وتقديم ﴿وَهُمۡ﴾ للتَّخصيص.

* * *

(٥٠) ـ ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوۡقِهِمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾.

﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم﴾ خوفَ إجلالٍ وهيبةٍ وتعظيمٍ، حال من ضمير ﴿لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ﴾، أو بيانٌ لنفي الاستكبار وتأكيدٌ له؛ لأنَّ مَنْ خافَ الله تعالى لم يستكبرْ عن عبادته.

﴿مِّن فَوۡقِهِمۡ﴾ حالٌ من ﴿رَبَّهُم﴾، مجاز بمعنى القهر والعلو؛ أي: عالياً[1] لهم قاهراً.

﴿وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ خوفاً له، وعلماً بعظمته ونفاذ سلطانه وقدرته، ولا دلالة فيه على أنَّ الملائكة مكلَّفون[2] بالتَّكليف الشَّرعي الذي يترتَّب عليه الثَّواب والعقاب.

* * *

(٥١) ـ ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ فَإِيَّٰيَ فَٱرۡهَبُونِ﴾.

﴿وَقَالَ ٱللَّهُ لَا تَتَّخِذُوٓاْ إِلَٰهَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِۖ﴾ أكَّد ﴿إِلَٰهَيۡنِ﴾ بالوصف بـ ﴿ٱثۡنَيۡنِۖ﴾، وإنْ دلَّتْ التَّثنية عليه؛ للدِّلالة على أنَّ مَساق النَّهي هو العدد لا الإلهيَّة، وأنَّ الاثنينيَّة تنافي الإلهيَّة، كما وصف الإله بواحد في قوله:

﴿إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ دلالةً على أنَّ المقصود إثبات الوحدانيَّة دون الإلهيَّة، وأنها لازمة للإلهيَّة.

---

(١) في (ف): «غالباً».

(٢) في (ك): «متكلفون».

﴿فَإِيَّٰىَ فَٱرۡهَبُونِ﴾ التفاتٌ من الغيبة إلى التَّكلم؛ إيقاعاً للرَّهبة في القلوب، وتمكيناً لها في النُّفوس، ومبالغةً في التَّرهيب، وتصريحاً بالمقصود، ولذلك قدَّم المفعول مع فاء السَّببية، وكرَّر الفعل؛ أي: إن كنتم رهبتم شيئاً فإيَّايَ فارهبون دون غيري، فأنا ذلك الإله الواحد القاهر لكلِّ شيء.

❊ ❊ ❊

(٥٢) ـ ﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَهُ ٱلدِّينُ وَاصِبًاۚ أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ ﴾.

﴿ وَلَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ التفاتٌ آخر للتَّعظيم، وتقريرِ وجوب تخصيص الرَّهبة به ووجوبِ الانقياد له في قوله: ﴿ وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ ﴾؛ أي: له ما فيهما خلقاً وملكاً، فكيف لا ينقادون له ولا يخصُّونه بالرَّهبة.

وتقديم الظرف تأكيدٌ وتقويةٌ لمعنى الاختصاص الذي في اللَّام، وكذا قوله:

﴿وَلَهُ ٱلدِّينُ﴾؛ أي: الطَّاعة والانقياد ﴿وَاصِبًاۚ﴾؛ أي: واجباً ثابتاً؛ أي: وله الجزاء دائماً سرمداً لا يزول، وهو تأكيدٌ وتقريرٌ آخر، وتعليلٌ لوجوب الانقياد والرَّهبة؛ أعني: على الوجه الثَّاني، وكذا:

﴿أَفَغَيۡرَ ٱللَّهِ تَتَّقُونَ﴾ تأكيدٌ آخر بتقديم المفعول مع أن الهمزة الإنكاريَّة داخلة على الفاء التعقيبيَّة؛ أي: أبعد العلم بالتَّوحيد، وتخصيصِ الكلِّ به خلقاً وملكاً، تخصُّون غيرَه بالاتِّقاء؟! وفيه توبيخٌ بليغٌ.

❊ ❊ ❊

(٥٣) ـ ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيۡهِ تَجۡـَٔرُونَ ﴾.

﴿ وَمَا بِكُم﴾: وأيُّ شيءٍ اتَّصل واستقرَّ بكم ﴿مِّن نِّعۡمَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ﴾ أو: الذي

اتَّصل بكم فهو مِنَ الله، و﴿مَا﴾ شرطيَّة، أو موصولة متضمِّنةٌ لمعنى الشَّرط باعتبار الإخبار أو العلم؛ لأنَّ استقرارَ النِّعمة بهم سببٌ للإخبار أو العلم بأنَّه مِنَ الله لا بحصوله منه.

﴿ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ﴾ الجؤارُ: رَفعُ الصَّوت بالدُّعاء والاستغاثة؛ أي: فما يتضرَّعون[1] في كشفه إلَّا إليه.

وفرَّق بين حصول النِّعمة ووقوع الضُّرِّ بعموم ﴿مَا﴾، وإيراد الباء الإلصاقيَّة في الجملة الاسميَّة؛ أي: وكلُّ ما استقرَّ بكم مِنَ النِّعمِ المستمرَّة فهو مِنَ اللهِ، يجب عليكم شكره؛ لأنَّ الإنسان لا يخلو في حالٍ مّا مِن نِعَمٍ كثيرةٍ.

وبإيراد ﴿ثُمَّ﴾ المفيدة[2] معنى التَّراخي، والمسِّ الذي هو أدنى إصابة، وجنسِ الضُّرِّ الذي يكفي في إطلاقه أقلُّ ما يطلق عليه الاسم في الجملة الفعليَّة؛ أي: ثمَّ إذا تجدَّد إصابةُ أدنى شيءٍ من جنس الضُّرِّ بعد زمانٍ طويلٍ لا تجأرون إلَّا إليه، وإنما جاء بـ ﴿إِذَا﴾ دون (إنْ) لأنَّ وقوع هذا القَدْر من الضُّرِّ في بعض الأحايين مُحقَّق.

* * *

(٥٤) ـ ﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ﴾.

﴿ثُمَّ إِذَا كَشَفَ ٱلضُّرَّ عَنكُمْ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ مُستَعارٌ لاستبعاد الشُّكر[3] بعدَ كَشْفِ الضُّرِّ عند تخصيصه تعالى بالتَّضرُّع إليه في طلب كشفه، والعلمِ بحصولِ جميعِ النِّعم منه.

---

(١) في (م): «تضرعون».

(٢) في (ك) و(م): «المفيد».

(٣) في (م): «الشرك».

﴿إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ﴾ ﴿إِذَا﴾ فجائيَّة، والخطاب عامٌّ، والفريق: هم[١] الكفرة، أو خاصٌّ بالمشركين، و﴿مِّنكُم﴾ للبيان لا للتَّبعيض؛ أي: إذا فريق وهم أنتم بربهم يشركون، أو للتبعيض[٢] على أنَّ منهم مَن اعتبرَ وازدجرَ، كقوله: ﴿فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى الْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ﴾ [لقمان: ٣٢].

* * *

(٥٥) ـ ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾.

﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ﴾ من نعمةِ الكشف عنهم، بيانٌ لرسوخ الكفران فيهم وغلبته على طباعهم، حتى كأنَّهم جعلوا غرضَهم من الشِّرك كفران النِّعمة.

﴿فَتَمَتَّعُوا ۖ﴾ وقرئ: (فَيُمَتَّعوا) بالياء مبنياً للمفعول[٣]، عطفاً على ﴿لِيَكْفُرُوا﴾، على أنَّ اللَّام للتَّعليل، ويجوز أن تكون لامَ الأمر الوارد للتَّهديد، والفاء للجواب.

﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ تخليةٌ لهم[٤]، ووعيد بليغ، ويكون ﴿لِيَكْفُرُوا﴾ أيضاً وارداً على سبيل الخذلان والتَّخلية.

* * *

(٥٦) ـ ﴿ وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ ۗ تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ ﴾.

---

(١) في (ك): «هو».

(٢) من قوله: «أي إذا فريق وهم أنتم..» إلى هنا ساقط من (ف) و(ك)، وعبارة: (أو للتبعيض)، مستفادة من كلام الآلوسي في «روح المعاني» (١٤/ ١٦٠) نقلاً عن «الكشف»، ووقع مكانها في (م) كلمتان لم تُجوَّدا.

(٣) نسبت لأبي العالية. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢).

(٤) أي: تخلية لهم وما هم فيه لخذلانهم. انظر: «روح المعاني» (١٤/ ١٦٢).

﴿وَيَجْعَلُونَ لِمَا لَا يَعْلَمُونَ﴾؛ أي: لآلهتهم التي لا يعلمون حقيقتها، فيعتقدون أنَّها تضرُّ وتنفع وتشفع لهم عند الله تعالى، وهي جمادات لا تضرُّ ولا تنفع، على أنَّ العائد إلى (ما) محذوفٌ، أو لجهلهم على أنَّ (ما) مصدرية، والمجعول له محذوف للعلم به، أو لآلهتهم التي لا علم لها لأنَّها جمادات، فيكون الضَّمير لـ ﴿مَا﴾.

﴿نَصِيبًا مِّمَّا رَزَقْنَاهُمْ﴾ من أنعامهم وزروعهم تقرُّباً به إليها.

﴿تَاللَّهِ لَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَفْتَرُونَ﴾ مِنْ أنَّها آلهة حقيقةٌ بالتَّقرُّب إليها، وهو وعيدٌ لهم عليه.

* * *

(٥٧) ـ ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ﴾ كانت خزاعةُ وكنانة يقولون: الملائكة بنات الله تعالى.

﴿سُبْحَانَهُ﴾ تنزيهٌ له عن قولهم، وتعجيب منه.

﴿وَلَهُم مَّا يَشْتَهُونَ﴾ نصب عطفاً على ﴿الْبَنَاتِ﴾؛ أي: ويجعلون لأنفسهم ما يشتهون من البنين؛ أي: يختارون، أو رفع على الابتداء، و﴿وَلَهُم﴾ خبره، و﴿سُبْحَانَهُ﴾ اعتراض.

* * *

(٥٨) ـ ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ﴾.

﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِالْأُنثَىٰ﴾: أُخْبِرَ بولادتها ﴿ظَلَّ وَجْهُهُ﴾: صارَ أو دام[1] النَّهارَ

(١) في (م): «صار ودام».

كلَّه ﴿مُسْوَدًّا﴾ من الكآبة، واسودادُ الوجه كنايةٌ عن[١] الاغتمام والتَّشوير[٢].

﴿وَهُوَ كَظِيمٌ﴾: مملوءٌ غيظاً؛ أي[٣]: على المرأة.

* * *

(٥٩) - ﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾.

﴿يَتَوَارَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ﴾: يَستخفي منهم ﴿مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ﴾: من أجلِ سوء المُبَشَّر به.

﴿أَيُمْسِكُهُۥ﴾ محدِّثاً نفسه متفكِّراً في أن يتركه ﴿عَلَىٰ هُونٍ﴾: ذُلٍّ ﴿أَمْ يَدُسُّهُۥ﴾؛ أي[٤]: يخفيه ﴿فِى ٱلتُّرَابِ﴾؛ أي: يئدُه. وتذكير الضَّمير للَفظ ﴿مَا﴾، وقرئ بالتَّأنيث فيهما[٥].

﴿أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ حيث يجعلون لِمَنْ تَنزَّه عن الولد[٦] ما هذا محلُّه عندَهم، ولأنفسهم مَن هو على ضِدِّ هذا الوصف.

* * *

---

(١) في (ك) و(م): «مجاز من».

(٢) في (م): «والتشويش»، وفي (ف): «والتشويه». والتَّشوير: الخجل. يقال: شورت الرجل فتشور؛ أي: أخجلته فخجل. انظر: «الصحاح» (مادة: شور).

(٣) «أي» من (م).

(٤) في (م): «أم».

(٥) نسبت للجحدري. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢).

(٦) «عن الولد» من (م).

(٦٠) ـ ﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾.

﴿ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مَثَلُ ٱلسَّوْءِ ۖ ﴾: صفةُ السَّوء، من الحاجة إلى الولد ليقوم مقامهم، وإرادةِ الذُّكور استظهاراً بهم، وكراهةِ الإناث ووأدِهنَّ خشيةَ الإملاقِ الشَّاهد على أنفسهم بالشُّحِّ البالغ.

﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ ۚ﴾ من الغِنَى المطلق بالوجوب الذَّاتي والوجود الكامل، والنَّزاهة عن صفات المخلوقين.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: المنفرد بكمال القدرة والقوَّة على بطشهم وأخذهم بذنوبهم.

﴿ٱلْحَكِيمُ﴾: الذي يؤخِّرهم إلى أجلٍ مُسمًّى تقتضيه الحكمة.

* * *

(٦١) ـ ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً ۖ وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴾.

﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم ﴾: بسبب كفرهم ومعاصيهم.

﴿مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا﴾: على الأرض، وجاز إضمارها من غير ذِكْرٍ لدلالة (الدَّابة) عليها؛ لِمَا عرفْتَ أنَّها ما يدبُّ فيها[1].

﴿مِن دَآبَّةٍ﴾ لأنَّ غيرَ الإنسان من الدَّواب إنَّما خُلِقَتْ لأجله؛ لقوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة: ٢٩].

ولو أُخِذَ الظَّالم بظلمه لانقطع نسل الإنسان؛ إذ ما مِنْ شخصٍ إلَّا في[2] آبائه

(١) في (م) زيادة: «قط».

(٢) في (م): «وفي».

ظالم، فلا دلالة في الآية على أنْ يكون النَّاس كلُّهم ظالمين؛ لِمَا عرفتَ أنَّ المراد من الظُّلم المضاف إليهم: ما صدر عن بعضهم.

﴿وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ سمَّاه لأعمارهم، أو لعذابهم، كي يتوالَدوا.

﴿فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ قد سبق تفسيره في سورة الأعراف.

* * *

(٦٢) - ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ ٱلْكَذِبَ أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ لَا جَرَمَ أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ وَأَنَّهُم مُّفْرَطُونَ﴾.

﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ مَا يَكْرَهُونَ﴾؛ أي: ما يكرهون لأنفسهم من البنات، والشركاءِ في الرِّياسة، والاستخفافِ بالرُّسل[1]، وأراذلِ[2] الأموال.

﴿وَتَصِفُ أَلْسِنَتُهُمُ﴾ مع ذلك ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ وهو: ﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾؛ أي: عندَ الله تعالى، كقوله: ﴿وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّيٓ إِنَّ لِي عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ﴾ [فصلت: ٥٠]، بدل من ﴿ٱلْكَذِبَ﴾، أو على إسقاط الحرف؛ أي: بأنَّ لهم.

وقرئ: (الكُذُب) بضمَّتين[3]، جمع كذوب، صفة للألسنة.

﴿لَا جَرَمَ﴾ قد سبق تفسيره في سورة هود[4].

---

(١) فإنهم يغضبون لو استخف برسول لهم أرسلوه في أمر لغيرهم ويستخفون برسل الله تعالى عليهم السلام. انظر: «روح المعاني» (١٤/ ١٧٤).

(٢) في (ف) و(م): «وأرذال».

(٣) نسبت لمسلمة بن محارب. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢).

(٤) عند تفسير الآية (٢٢) منها، وانظر ما سلف عند تفسير الآية (٢٣) من هذه السورة.

﴿أَنَّ لَهُمُ ٱلنَّارَ﴾ ردٌّ لكلامهم، وإثباتٌ لضده.

﴿وَأَنَّهُم مُّفۡرَطُونَ﴾ بالفتح مخفَّفاً ومشدَّداً، بمعنى: مُقدَّمون إلى النَّار؛ أي: مُعجَّلون. من أفرطْتُ فلاناً وفرَّطْتُه في طلب الماء: إذا قدَّمته.

وقيل: مَنسيُّون متروكون، من أفرطْتُ فلاناً خلفي: إذا خلَّفته ونسيته.

وقرئ بالكسر مخفَّفاً[1]، من الإفراط في المعاصي، ومشدَّداً[2] من التَّفريط في الطَّاعات وما يجب عليهم[3].

* * *

(٦٣) - ﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ﴾.

﴿تَٱللَّهِ لَقَدۡ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٖ مِّن قَبۡلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾ تسليةٌ للرَّسول ﷺ فيما كان يناله من الغمِّ بسبب جهالات القوم، ووعيدٌ لأهل مكَّة.

﴿فَهُوَ وَلِيُّهُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ حكاية الحال الماضية التي كانت يُزيِّن لهم الشَّيطان أعمالَهم فيها. و﴿ٱلۡيَوۡمَ﴾: عبارة عن ذلك الوقت، أراد استحضارَ صورة التَّزيين في وقته للسَّامعين؛ عسى أن يعتبروا بها فيحترِزوا عن مثلها، ويخرجوا عن ولاية اللَّعين. والوليُّ: بمعنى القرين[4]، والذي يتولَّونه.

أو حكاية الحال الآتية، وهي حالُ كونهم معذَّبين في النَّار، والفائدة للاستحضار

---

(١) قراءة نافع. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٨).

(٢) أي: ﴿مُفَرِّطُونَ﴾، وهي قراءة أبي جعفر المدني. انظر: «النشر» (٢/ ٣٥٤).

(٣) «وما يجب عليهم» من (م).

(٤) في النسخ: «القرب»، والمثبت من «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٣١).

المذكور في أذهان المخاطَبين. والوليُّ بالمعنى المذكور، أو بمعنى النَّاصر؛ أي: فهو ناصرهم اليوم، لا ناصر لهم غيره، فيكون نفياً للناصر لهم على أبلغ الوجوه.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في النَّار.

***

(٦٤) ـ ﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾.

﴿ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ﴾: للنَّاس ﴿ٱلَّذِى ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾ من التَّوحيد والقَدَر، وأحوالِ المعاد من البعث والجزاء، وأحكامِ الأفعال من التَّحليل والتَّحريم ونحوهما.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ عطفاً على محلِّ ﴿لِتُبَيِّنَ﴾، نصباً على التعليل؛ لكونهما فعلي فاعل الإنزال المعلَّل بهما، بخلاف التَّبيين، فجيء فيه باللام لفقدان شرط نصبه.

***

(٦٥) ـ ﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ ﴾.

﴿وَٱللَّهُ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً ﴾ قد سبق وجه[1] تنكير الماء.

﴿فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ﴾: أنبت فيها أنواع النبات ﴿بَعْدَ مَوْتِهَآ﴾: بعد يبسها، والتَّعقيب الذي دلَّ عليه الفاء لا ينافي المهلة الواقعة بين المعطوفين؛ لأنَّ ذلك إنما يكون على حسب ما يَعُدُّه الناس متعقَّباً، والإحياء بعد الإنزال يعدُّ متعقَّباً

(١) «وجه» من (م).

لا متراخياً، ألا تـرى إلـى صحَّـة قولك: تزوج زيد فوُلـد له، إذا[1] لم يكـن إلا مهلةُ الحمل.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ أراد بالسَّمع: القَبول، كما في (سمع الله لمن حمده)؛ أي: لقومٍ يتأمَّلون فيها[2]، ويعقلون وجهَ دلالتها، ويَقبلون مدلولها. وإنَّما خَصَّ كونها آية لهم؛ لأنَّ غيرهم لا ينتفعون بها.

ويحتمل أن يكون المعنى: لقوم يسمعون من الغير، فكيف الذين[3] يبصرونه؛ أي: ذلك آية للأعمى، فكيف البصير؟!

وهذا التَّخصيص كالتَّخصيص في قوله: ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

وبما قرَّرناه تبيَّن وجهُ العدول عن: يبصرون، إلى: ﴿يَسْمَعُونَ﴾.

* * *

(٦٦) ـ ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً ۖ نُّسْقِيكُم مِّمَّا فِي بُطُونِهِ مِن بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَّبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِّلشَّارِبِينَ﴾.

﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً﴾: دلالـةً علـى قـدرة الله تعالـى وحكمتـه، والتَّنكيـر للتَّفخيم.

﴿نُّسْقِيكُم﴾ استئناف لبيان العبرة ﴿مِّمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ ذكَّر الضَّمير ووحَّده هنا للَّفظ، وأنَّثه في (سورة المؤمنين) للمعنى؛ فإنَّ ﴿الْأَنْعَامِ﴾ اسم جمع، ولذلك عدَّه سيبويه

(١) في (ك): «إذ».

(٢) «فيها» من (م).

(٣) في (ف): «الذي».

في المفردات المبنيَّة على أفعال[1]، ومَن قال: إنه جمع نَعَمٍ، جعل الضَّمير للبعض؛ فإنَّ اللَّبن لبعضها دون جميعها، أو لواحده، أو له على المعنى؛ فإنَّ المرادَ به الجنسُ.

﴿مِنۢ بَيۡنِ فَرۡثٖ وَدَمٖ لَّبَنًا﴾ الفَرْثُ: فضالة ما يبقى من العلف في الكَرِش، وكثيف ما يبقى من الأكل في الأمعاء.

﴿مِنۢ﴾ الأولى تبعيضيَّة؛ لأنَّ اللَّبن بعضُ ما في بطونها، والثانية ابتدائيَّة؛ لأنَّ الإسقاء يبتدئ من مادةٍ مبدؤها الدَّم، ومنتهاها الفضلة التي لا حاجة إليها، بل يجب أن تُدفع كالفَرْث دفعاً للضَّرر عن البدن، أو[2] من مادة بين الفرث الذي من الفضول المحضةِ والدَّم الذي من الأصول المحضة، فهو بالنِّسبة إلى الفرث أصلٌ؛ لأنه لا بُدَّ منه في بقاء النَّسل، وبالنِّسبة إلى الدَّم فضل؛ لأنَّه لا حاجة إليه في بقاء الشَّخص.

وعلى هذا يجوز أن تكون ﴿مِنۢ﴾ الثانية أيضاً تبعيضيَّة؛ لأن تلك المادة غير منحصرة في اللَّبن؛ فإنَّ الدَّم الذي يصير غذاءَ الجنين منها، وكذا مادة المنيِّ، وحينئذ يكون المقول المذكور حالاً؛ أي: كائناً مِنْ بين فرث ودم.

وإنَّما قُدِّم على ﴿لَّبَنًا﴾ وهو صفة له في المعنى لأنَّه موضع العبرة، فهو معنًى به جدير بالتَّقديم؛ لكونه حاصلاً من نجس[3]، وهو في مَعْرِض أن ينقلب إليه؛ لأنه إن لم يسبق يخرج من مخرج فضلات الهضم الرابع[4]، وذلك أنَّ العلف ينهضم فتنجذب صفاوته إلى الكبد ويتولَّد منه الدَّم، ويبقى الفرث في

---

(١) انظر: «الكتاب» (٣/ ٢٣٠).

(٢) في (م) زيادة: «صح».

(٣) في (م): «جنس».

(٤) فإنَّ الغِذاء يَحصُلُ له في المَعِدَةِ هضمٌ أوَّل، وفي الكَبِد هضمٌ ثانٍ، وفي العروقِ هضمٌ ثالثٌ، وعند وصوله إلى جواهر الأعضاء هضمٌ رابعٌ. انظر: «تفسير الرازي» (١٩/ ١٧٣).

الكـرش ويتسـفَّل، ويتـوزَّع الدَّم علـى الأعضـاء ليغذوَهـا، ويَفْضُل من غذائه قسطٌ صالـح يرتقـي إلـى الضَّـرع الذي هـو لحمٌ غـدديٌّ رخـوٌ أبيـض، فينقلب الـدَّم عند انصبابـه إليـه[1] إلـى اللَّبـن، هذا هـو القـول الصَّحيح فـي تولُّد اللَّبـن، فمِن وَهَـمَ أنَّ محلَّـه بيـن الفرث والـدَّم فقـد وَهِم.

﴿خَالِصًا﴾: مصفًّى عمَّا يصحبه من الأجزاء الكثيفة بتضيق مخرجه، ولهذا صار ﴿سَآئِغًا لِّلشَّٰرِبِينَ﴾: سهلَ المرور في حلقهم.

وأمَّا ما قيل: صافياً لا يستصحِب لون الدَّم ولا رائحة الفرث، فمبناه الوهم الفاسد المذكور آنفاً، وإلَّا فأين موضع تولُّد اللَّبن من محلِّ الفرث.

* * *

(٦٧) ـ ﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ﴾ متعلِّق بما في الإسقاء من معنى الإطعام، أي: نطعمكم منها، فينتظِمُ المأكولَ منها والمشروبَ الـمُتَّخَذَ من عصيرها، ولا حاجة إلى تقدير محذوفٍ، وتعلُّقه بـ ﴿نُّسْقِيكُم﴾ يؤدِّي إلى إخراج التَّمر والزَّبيب من الرِّزق الحسن، ولا وجهَ له.

﴿تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا﴾ استئناف لبيان الإطعام، وتذكير الضمير باعتبار جنس التَّمر.

ولَمَّا كان اللَّبن لا يحتاج إلى معالجةٍ منَّا أخبرَ عن نفسه تعالى بقوله: ﴿نُّسْقِيكُم﴾، ولَمَّا كان السَّكَر والرِّزق الحسن يحتاج إلى معالجة منَّا قال: ﴿تَتَّخِذُونَ﴾.

(١) «إليه» من (م).

وإنَّما قال: ﴿مِنْهُ﴾ لأنَّ منه ما لا يُؤكَل لا محالة.

والسَّكَرُ: مصدر سمِّي به الخمر، وقيل: السَّكَرُ النَّبيذُ.

﴿وَرِزْقًا حَسَنًا﴾ كالتَّمر والزَّبيب والدِّبس والخلِّ[1] ونحوها، وفي عطفه على ﴿سَكَرًا﴾ تعريضٌ بكراهة الخمر، وأنَّه ليس بحسَنٍ[2]، ورمزاً إلى أن السكر وإن كان مباحاً فهو مما يَحسُن اجتنابه، وهذا على ما قالوا: إن الآية نازلة قبل تحريم الخمر.

قيل: لـمَّا ميّز السكر من الرزق الحسن قال أكثر الصحابة رضي الله عنهم: لو كان فيها خيراً لم تميز عن الرزق الحسن، فامتنعوا عن شربها، ونزولُ الآية قبل تحريمها لا ينافي كونَها جامعةً بين العتاب والمنَّة، فإن المنافيَ لإباحتها هو العتاب في الآخرة لا العتاب[3] في الدُّنيا الذي مرجعُه النَّهي الإرشادي.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: يستعملون عقولهم بالنَّظر والتَّأمُّل في الآيات.

ولَمَّا قال في بدء الكلام: ﴿لَعِبْرَةً﴾ ناسبَ ختمه بـ ﴿يَعْقِلُونَ﴾ لأنَّه لا يَعتَبِرُ إلَّا ذوو العقول.

***

(٦٨) - ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾.

﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ﴾ الإيحاء إلى النَّحل: إلهامُها وإيداعها، دلَّ عليه حذاقتُها في صنعتها، وتدبيرِ أمرها، وترتيبِ مراتب عَمَلتها.

---

(١) في (م): «والنخل».

(٢) في (ف): «يحسن».

(٣) «والمنة فإن المنافي لإباحتها هو العتاب في الآخرة لا العتاب» سقط في (م).

﴿أَنِ ٱتَّخِذِى مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾: بأنِ اتَّخذي، ويجوز أن تكون ﴿أنْ﴾ مفسِّرة؛ لأن في الإيحاء معنى القول، وتأنيث الضَّمير لأنَّ النَّحل جمعُ نحلةٍ.

﴿وَمِنَ ٱلشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾: ما يعرشُ النَّاس ويرفعونه من سقوف البيت، وإنَّما ذُكِرَ بحرف التَّبعيض؛ لأنها لا تتَّخذ في كلِّ جبلٍ وكلِّ شجرٍ وكلِّ ما يعرشون، ولا في كلِّ مكانٍ منها.

وليس المراد من بيتها: ما تبنيه لتُعسِّلَ فيه ـ كما توهَّمه مَنْ قال: وإنَّما سُمِّيَ ما تبنيه لتُعسِّل فيه[1] بيتاً تشبيهاً بالذي بناه الإنسان؛ لما فيه من حُسْنِ الصَّنعةِ وصحَّة القسمة، التي لا يَقوَى عليها حُذَّاق المهندسين إلَّا بآلات رفيعة وأنظار دقيقة، ولعلَّ[2] ذكره للتَّنبيه على ذلك ـ بل ما تتَّخذه[3] في الجبال وكُواها وفي متجوّف الأشجار وفيما يَعْرِش ابن آدم من السُّقوف.

***

(٦٩) ـ ﴿ثُمَّ كُلِى مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ فَٱسْلُكِى سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلًا ۚ يَخْرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

﴿ثُمَّ كُلِى﴾ فيه إرشادٌ إلى العمل، فإنَّها تسوِّي البيوت أوَّلاً، ثم تأخذ في الجَرْس للعسل.

---

(١) «فيه» من (م). وقوله: «لتعسِّل فيه»؛ أي: لتضع العسل فيه، وهو تفعيل من العسل. انظر: «حاشية الشهاب» (٥/ ٣٤٨).

(٢) في (ك) و(م): «ولعله»، والمثبت من (ف)، وهو الموافق لما في «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٣٣).

(٣) في (ف): «تتخذ».

﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ ﴿كُلِّ﴾ للتَّكثير[١]، كما في قوله: ﴿وَأُوتِيَتۡ مِن كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [النمل: ٢٣] و﴿مِن﴾ لابتداء الغاية.

﴿فَٱسۡلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ﴾ التي ألهمك، راجعةً إلى بيوتك لا تضلِّين فيها، فإنَّها ربَّما أَبعدَتْ في طلب نجعتها إلى مواضعَ بينها وبين بيوتها فراسخ.

﴿ذُلُلٗاۚ﴾ جمع ذَلول، وهو حال من السُّبُل؛ أي: مذلَّلة، ذلَّلها الله تعالى وسهَّلها لك.

﴿يَخۡرُجُ مِنۢ بُطُونِهَا﴾ التفاتٌ من خطاب النَّحل إلى الغيبة؛ تصريفاً للخطاب إلى النَّاس؛ لأن الغرض الامتنانُ بالنِّعمة الجسيمة بين الغذائيَّة والدَّوائيَّة[٢] واللَّذة والشِّفاء عليهم، والاعتبارُ بحاله العجيبة، ولطفِ صنعتها التي تبهر العقول، والاستدلالُ بها على قدرة الصَّانع وكمالِ علمه وحكمته.

﴿شَرَابٞ﴾ يعني: العسل؛ لأنَّه ممَّا يُشْرَب.

وفيه دلالة على ما هو[٣] المختار عند المحققِّين، مِنْ أنَّ النَّحل يأكل الأزهار والأوراق العطرة، فيستحيل في باطنها، ثم يقيء ادِّخاراً للشِّتاء.

ومَنْ زعم أنَّ العسل نباتيٌّ محضٌ، وقال: إنها تلتقط بأفواهها أجزاءً طَلِّيَةً[٤] حلوةً صغيرة متفرِّقة على الأوراق والأزهار، وتضعها في بيوتها ادِّخاراً = لزمه أن يجعل البطون مستعارة لأفواه النَّحل، ويكون الأكل ترشيحاً لها.

---

(١) «كل للتكثير» من (م).

(٢) في (م): «الغداية والدوايية».

(٣) في (ف) و(ك): «ما فيه».

(٤) نسبة للطل. انظر: «حاشية الشهاب» (٥/ ٣٤٩).

﴿مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُۥ﴾ أبيض وأحمر وأصفر وأزرق، بحسب لون النَّور أو سنِّ النَّحل.

﴿فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ لأنَّه من الأغذية الدَّوائيَّة، وقلَّ معجون لم يقع فيه.

وإنَّما نكَّر ﴿شِفَآءٌ﴾ لأنَّ فيه شفاءً مّا لبعض الأمراض لا لكلِّها[1]، أو لتعظيم الشِّفاء الذي فيه.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنَّ مَن تَدبَّر اختصاص النَّحل بتلك العلوم الدَّقيقة والأفعال العجيبة حقَّ التَّدبُّر علم قطعاً أنَّه لا بُدَّ من قادرٍ حكيمٍ يلهمها ذلك ويحملها عليه.

***

(٧٠) ـ ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾.

﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّىٰكُمْ﴾ بآجالٍ مختلفةٍ.

﴿وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ﴾: يعادُ، عطف على محذوفٍ تقديره: فمنكم مَنْ يعجِّل وفاتَه ومنكم مَنْ يُرَدُّ، فالواو فصيحة.

﴿إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ﴾: أخسِّه، يعني: الهرمَ الذي يشابه الطفوليَّة في نقصان العقل والقوَّة.

﴿لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْـًٔا﴾ ليصير إلى حالةٍ شبيهة بحالة الطفوليَّة في النِّسيان وسوء الفهم.

---

(١) في (م): «كلها».

(كي): مصدريَّة ناصبة بنفسها الفعلَ بعدها، وهي ومنصوبها في تأويل المصدر مجرور باللَّام التَّعليليَّة المتعلقة بـ ﴿يُرَدُّ﴾.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بمقادير أعمارهم ﴿قَدِيرٌ﴾ يميت الشَّابَ القويَّ، ويُبقي الشَّيخ الضَّعيف، وفيه دليلٌ على أنَّ تفاوت آجالِ النَّاس بتقدير قادرٍ حكيمٍ، وأمَّا أنَّه لا دخل فيه للاستعداد واقتضاء الطَّبع وسوء التَّدبير فلا دلالة عليه.

* * *

(٧١) ـ ﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟ بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ۚ﴾ تقديم اسم الله تعالى للتَّخصيص؛ أي: الله تعالى فضَّل دون غيره بأن جعلكم متفاوتين في الرِّزق.

﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُوا۟﴾؛ أي: جُعل رزقهم أفضل من رزق غيرهم ﴿بِرَآدِّى رِزْقِهِمْ﴾: بمعطي رزقهم ﴿عَلَىٰ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُهُمْ﴾: على مماليكهم فيسووهم بأنفسهم في المأكل والملبس.

﴿فَهُمْ فِيهِ سَوَآءٌ ۚ﴾؛ أي: هم إخوانهم وأمثالهم، فحقُّهم أن يساووهم في ذلك، فالجملة لازمة للجملة المنفيَّة[1] ومقرِّرة لها، ويجوز أن تكون واقعة[2] موقع الجواب، كأنَّه قيل: فما الذين فُضِّلوا برادِّي رزقهم على ما ملكت أيمانهم فيستووا في الرِّزق، على أنَّه رَدٌّ وإنكارٌ على المشركين، فإنَّهم يشركون بالله تعالى بعض مخلوقاته في الألوهيَّة، ولا يرضون أن يشاركهم عبيدهم فيما أنعم الله عليهم، فيساوونهم فيه.

---

(١) «المنفية» من (م).

(٢) في (م): «واقعة لها».

﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: تلك التَّسويةُ شكرُ نعمة الله تعالى، فإذا لم تسوُّوهم بأنفسكم في ذلك فذلك هو كُفْران نعمة الله.

أو: فما الـمُفضَّلون في الرِّزق برادِّي رزقهم على مماليكهم، فإنَّ رزقهم ما يأكلونه، بل نحن نرزق المماليك كما نرزق الموالي، فهم ـ أي: الموالي والمماليك ـ سواءٌ في رزق الله، فلا يحسبَنَّ[1] الموالي أنَّهم يرزقونهم، فإنَّه رزقي أجريتُه إليهم، ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ حيث ينسبون رزقَ مماليكهم إلى أنفسهم لا إلى الله، ويجحدون أنَّه مِن عندِ الله، والباء في (بنعمة الله) تحمل الجحود على الكفر حملَ النَّظير على النَّظير.

وعلى الوجه الأوَّل: ﴿فَمَا ٱلَّذِينَ فُضِّلُواْ﴾ جملة توبيخيَّة، والهمزة الدَّاخلة على الفاء التَّعقيبيَّة وتقديم ﴿أَفَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ﴾ تقريرٌ للتَّوبيخ، وإنكار لفعلهم؛ أي: أبعدَ علمهم بأنَّ الله هو الرَّزاق، ووضوحِ دلائل ذلك بنعمة الله خاصَّةً يكفرون جاحدين لها، وعلى الوجه الثَّاني فالتَّوبيخ والإنكار إنَّما يكون في الجملة الأخيرة بالأصالة لا فيما قبلها.

* * *

(٧٢) ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا﴾؛ أي: من جنسكم؛ لتأنسوا بها، وليكون أولادكم منهنَّ أمثالكم.

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم﴾ لم يقل: (منها)؛ لاحتمال العود إلى الأنفس.

---

(١) في (ف) و(م): «تحسبن».

﴿بَنِينَ وَحَفَدَةً﴾: جمع حافدة، وهو الذي يسرع في الخدمة والطَّاعة، قيل: المراد منهم البنون أنفسهم، والعطف لتغاير الوَصْفَين، وقيل: هم البنات، وفيه ـ أي: في التعبير عنهن بالحفدة دون البنات ـ تنصيصٌ على وجه الامتنان بالبنات، وهو أنهنَّ تخدمن في البيوت أتمَّ خدمة.

وقيل: هم الأختان على البنات، وحينئذ يكون إشارة إلى أنَّ البنات من حيث أنهنَّ وصلةٌ بالأجانب نعمةٌ جليلةٌ.

وقيل: هم الرَّبائب، وحينئذ يظهر وجه الاحتياج إلى قوله: ﴿مِّنْ أَزْوَٰجِكُم﴾.

وأمَّا الحمل على أولاد[1] الأولاد فيأباه تخصيص البنين بالذِّكر، فإنَّه حينئذ حقُّه التَّعميم أوَّلاً أيضاً.

﴿وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ﴾: بعضَها؛ لأن كلَّها إنما يكون في الجنة، والمراد: الأطعمة الشهية.

﴿أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ﴾ وهو أن الأصنام تنفعهم، أو أن من الطيبات ما يحرم عليهم كالبحائر والسوائب.

﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ حيث أضافوها إلى غيره تعالى، وحرَّموا ما أحلَّ اللهُ لهم.

وإقحام ﴿هُمْ﴾ بينَ قوله: ﴿وَبِنِعْمَتِ ٱللَّهِ﴾ و﴿يَكْفُرُونَ﴾ للتَّقوية المعاضِدة للتَّوبيخ والإنكارِ بالهمزة الواردة على فاء التَّعقيب؛ أي: أبعدَ وضوح دلائل بطلان ما يعتقدونه يؤمنون بذلك الباطل؟!

---

(١) «أولاد» سقط (م).

ويجوز أن يكون لإبهام التَّخصيص مبالغةً، وكذا تقديم (بالباطل) و(بنعمة الله) على ما تعلَّقتا به[1].

* * *

(٧٣) ـ ﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾.

﴿وَيَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَهُمۡ رِزۡقٗا مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ شَيۡـٔٗا﴾ من مطر ونبات، وهو مفعول ﴿رِزۡقٗا﴾ إن كان بمعنى المصدر، وبدلٌ منه إن كان بمعنى المرزوق، ويجوز أن يكون مصدراً لـ ﴿يَمۡلِكُ﴾ للتَّأكيد[2]؛ أي: ما لا يملك رزقاً مّا شيئاً من الملك.

﴿مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ صلة للرِّزق إن كان مصدراً، وصفةٌ له إن كان اسماً.

والتَّنوين في ﴿رِزۡقٗا﴾ و﴿شَيۡـٔٗا﴾ للتَّحقير والتَّقليل، وفي إبدال ﴿شَيۡـٔٗا﴾ من ﴿رِزۡقٗا﴾ تقليلٌ آخر، وفي إيراد ﴿مَا﴾ دون (مِن) تحقيرٌ آخر.

وفي التَّقييد بقوله: ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ مبالغةٌ في نفي ملك الرِّزق عنها؛ أي: ما لا يملك[3] رزقاً مّا في جهةٍ من جهات العالم، ولا في مكانٍ وقطر منه.

﴿وَلَا يَسۡتَطِيعُونَ﴾ الضَّمير لـ ﴿مَا﴾؛ لأنه في معنى الإلهيَّة، وهو من الأفعال التي لا يُقدَّر لها مفعول وتُجعَل مطلقة كالفعل اللَّازم، والمراد: نفي الاستطاعة المطلقة؛ أي: لا يملكون أن يَرزقوا، ولا استطاعةَ لهم أصلاً؛ لأنَّهم أموات، وإنْ

---

(١) في هامش (ف): «وأما محافظة الفواصل فإنما يصار إليها عند عدم باعث معنوي. منه».

(٢) «للتأكيد» سقط من (م).

(٣) في (م) زيادة: «لهم».

قُدِّرَ المفعول لدلالة القرينة ـ وهي مفعول ﴿يَمْلِكُ﴾ ـ عليه، فالمرادُ بالجمع بين نفي الاستطاعة والملك جميعاً التَّوكيدُ أو نفي الوقوع وإمكانهِ؛ أي: لا يملكون الرِّزق ولا يمكنهم أن يملكوه.

ويجوز أنْ يكون الضَّمير للكفَّار؛ أي: ولا يستطيع هؤلاء الكفرة مع أنَّهم أحياء متصرِّفون عقلاً شيئاً من الرِّزق، فكيف بالجماد الذي لا حراك به ولا حِسَّ؟

* * *

(٧٤) ـ ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ نهيٌ عن الإشراك بالله في التَّشبيه على طريقة التَّمثيل؛ لأنَّ مَن يضربِ الـمَثَلَ شبَّهَ حالاً بحال وقصَّةً بقصَّة[1]، فجعل ضرب المثل مثلاً للإشراك والتَّشبيه، فكأنَّه قيل: ولا تشركوا بالله، وعدل إلى الـمُنزَل دلالة على التَّعميم في النَّهي عن التَّشبيه وصفاً وذاتاً.

وفي لفظ ﴿الْأَمْثَالَ﴾ لمن لا مثال له أصلاً نعيٌ عظيمٌ على سوء فعلهم، وفيه إدماجُ أنَّ الأسماء توقيفيَّة، وهذا هو الظَّاهر؛ لدلالة الفاء، وعدم ذكر ضرب المثل منهم سابقاً.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ﴾ تعليلٌ للنَّهي عن الشِّرك ووعيدٌ عليه؛ أي: إنَّ الله يعلم قبح ما تفعلون وكُنْهَه وعظمه، فهو معاقبُكم عليه بما يوازيه في العظم.

﴿وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ كُنْهَ ذلك وكُنْهَ عقابه، فلذلك اجترأتم عليه.

ويجوز أن يراد بقوله: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا﴾ إلخ ظاهرُه، وهو النَّهي عن ضرب الأمثال لله

---

(١) في النسخ: «حالًا بحال قصة بقصة»، والمثبت من «الكشاف» (٢/ ٦٢٢)، ولفظه: (﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾: تمثيل للإشراك بالله والتشبيه به؛ لأنَّ مَن يضرب الأمثال مشبِّه حالاً بحال وقصةً بقصة).

تعالى، ويكون معنى التَّعليل: إنَّ اللهَ وحدَه يعلم كيف يضرب المثل له وأنتم لا تعلمون ذلك، وكأنه أريد المبالغةُ في أن لا يُلحِدوا في أسمائه تعالى وصفاته، فإنه إذا لم يجز ضرب المثل، والاستعارات يكفي فيها شَبَهٌ مّا، والإطلاق لتلك العلاقة كافٍ[١]، فعدمُ جواز إطلاق الأسماء من غير سبقِ تعليم منه تعالى وإثبات الصِّفات أولى وأولى، ثمَّ علَّمهم كيف يُضرب، فضرب مثلاً لنفسه ولمن عُبد دونه فقال:

* * *

(٧٥) - ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًاۖ هَلۡ يَسۡتَوُۥنَۚ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِۚ بَلۡ أَكۡثَرُهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾.

﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا عَبۡدًا مَّمۡلُوكًا لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ ﴿عَبۡدًا﴾ بدل من ﴿مَثَلًا﴾.

﴿وَمَن رَّزَقۡنَٰهُ مِنَّا رِزۡقًا حَسَنًا﴾ (مَن) موصوفةٌ عُطفت على ﴿عَبۡدًا﴾، أو موصولة.

﴿فَهُوَ يُنفِقُ مِنۡهُ سِرًّا وَجَهۡرًا﴾ مثَّل ما أُشرك به بالمملوك العاجز عن التَّصرف مطلقاً، ومثَّل ذاته تعالى بالحرِّ الذي رزَقه الله مالاً كثيراً، فهو يتصرَّف فيه وينفق منه كيف يشاء.

وقيَّد العبد بالمملوك ليمتاز عن الحرِّ؛ فإنَّ العبد قد يطلق على الحرِّ باعتبار أنَّه عبد الله تعالى، وبقوله: ﴿لَّا يَقۡدِرُ عَلَىٰ شَيۡءٍ﴾ ليخرج عنه المكاتَب والمأذون، فإنَّهما يقدران على شيء[٢].

---

(١) في النسخ: «والاستعارة يكفي فيه شبهٌ ما، والإطلاق بتلك العلامة كافٍ»، والمثبت من «روح المعاني» (١٤/ ٢٢١)، والكلام منقول من «الكشف» كما صرح الآلوسي.

(٢) في (م) زيادة: «فكأنه قيل ولا تشركوا بالله شيئاً».

ولا دلالة فيه على أنَّ المملوك لا يملك؛ لأنَّه لم يُجعل قسيماً للمالك إلَّا بعد التَّقييد بقوله: ﴿لَّا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾، والأصل في القيود الاحتراز، بل للمخالف ـ كمالك على ما قيل ـ أن يتمسَّكَ به بناء على هذا الأصل.

﴿هَلْ يَسْتَوُۥنَ﴾؛ أي: هل يستوي الأحرار والعبيد، فإذا كان هذان لا يستويان عندكم مع كونهما من جنس واحد ومشتركَين في الإنسانيَّة، فكيف تشركون بالله تعالى وتسوُّون به مَنْ هو مخلوقٌ له مقهورٌ بقدرته؟!

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ﴾: كلُّ الحمد له، لا يستحقُّه غيرُه، فضلاً عن العبادة؛ لأنَّه مولى النِّعم كلِّها.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ فيضيفون[1] نعمَه إلى غيره ويعبدونه لأجلها، وكلمة ﴿بَلْ﴾ رَدٌّ لِمَا زعموه من استحقاق الأصنام للعبادة والشكر.

* * *

(٧٦) ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوْلَىٰهُ أَيْنَمَا يُوَجِّههُّ لَا يَأْتِ بِخَيْرٍ هَلْ يَسْتَوِى هُوَ وَمَن يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلَيْنِ أَحَدُهُمَآ أَبْكَمُ﴾؛ أي: لا نفعَ فيه من جهة القول، وقد سبق بيان[2] معنى البكَم، والفرقِ بينه وبين الخرَس.

﴿لَا يَقْدِرُ عَلَىٰ شَىْءٍ﴾ فلا يقع فيه من جهة الفعل أيضاً.

---

(١) وقع بعدها سقط لوحة رقم (٣٨٦) من (ك)، وسوف ننبه على نهايته في مكانه.

(٢) «بيان» من (م).

﴿وَهُوَ كَلٌّ عَلَىٰ مَوۡلَىٰهُ﴾ مع ذلك هو ثقل وعيال على مَن يلي أمره ويتولَّاه[١].

﴿أَيۡنَمَا يُوَجِّههُّ﴾: حيث ما يرسله مولاه في أمرٍ ﴿لَا يَأۡتِ بِخَيۡرٍ﴾ بنجحٍ ونفعٍ، والتَّنكير للتَّقليل.

﴿هَلۡ يَسۡتَوِي هُوَ وَمَن يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ﴾: ومَن[٢] هو مِنطيقٌ فَهِمٌ ذو كفايةٍ ورشد، يأمر النَّاس بالعدل لكونه جامعَ الفضائلِ كلِّها.

﴿وَهُوَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ﴾: وهو في نفسه على طريقٍ ﴿مُّسۡتَقِيمٍ﴾ ودين قويمٍ؛ أي: كامل مكمَّل.

كرَّر التَّمثيل لزيادة الكشف والإيضاح، وتصويرِ امتناع الاشتراك والتَّشبيه في صورتين محسوسَتَيْن؛ ليتمكَّن في نفس السَّامعين، واحتجَّ في كلِّ واحدٍ من الـمَثَلَيْن بامتناع الاشتراك والتَّسوية بين ممكنين متماثلين، مع اشتراكهما في الجنسيَّة والمخلوقيَّة على امتناع الاشتراك والتَّسوية بين الأصنام التي هي أخسُّ المخلوقات وأعجزُها وبينَ اللهِ تعالى الواجبِ بذاته الخالقِ القادرِ على الإطلاق.

* * *

(٧٧) ـ ﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾.

﴿وَلِلَّهِ غَيۡبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾؛ أي: يختصُّ به تعالى علمُ ما غاب فيهما عن العباد.

وقيل: يوم القيامة؛ فإنَّ علمه غائب عن أهل السَّماوات والأرض.

---

(١) في (م): «وبقوله».

(٢) في (م): «من».

وعلى هذا يكون العدول عن الضمير في قوله: ﴿وَمَآ أَمۡرُ ٱلسَّاعَةِ﴾؛ أي: أمرُ قيامها في سرعة وقوعه، إلى الاسم الظَّاهر لِمَا فيه من التَّقوية للخبر.

﴿إِلَّا كَلَمۡحِ ٱلۡبَصَرِ﴾: إلَّا كرَجْع[1] الطَّرف من أعلى الحدقة إلى أسفلها، تمثيلٌ لأمرٍ آنيِّ الوقوع غير زمانيٍّ بأقلِّ ما يمكن[2] أن يدرَك من الزَّمان، ولهذا قال:

﴿أَوۡ هُوَ أَقۡرَبُۚ﴾؛ أي: أسرع وأقصر زماناً بأنْ يكون في مقدار نصف تلك الحركة؛ أو[3] في آنِ ابتداء تلك الحركة؛ لأنَّ اللهَ تعالى يُحيي الخلائقَ دفعةً واحدةً، وما هو دفعيُّ الوجود يكون حدوثه في آنٍ، و﴿أَوۡ﴾ بمعنى: بل.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ يقدر على أن يُقيم السَّاعة ويبعث الخلق في أسرع وقتٍ، كما قدر على إحيائهم متدرِّجاً.

* * *

(٧٨) ـ ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾.

ثمَّ دلَّ على قدرته فقال: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ﴾ بيانٌ لعجزنا في الابتداء، يعني: لم تكونوا قادرين بأنفسكم على الخروج فأنا أخرجتكم، كما أنَّ قوله:

﴿لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا﴾ بيان لجهلنا فيه في موضع الحال؛ أي: غيرَ عالمين.

وفيه دلالة على أنَّ الحركةَ للجنين غيرُ إراديَّةٍ.

---

(١) في (م): «كرجوع».

(٢) «يمكن» من (م).

(٣) في (ف): «أي».

﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ﴾ خصَّهما بالذِّكْرِ ـ والمراد جميع الحواس ـ لأَنَّهما أشرفها، والاعتبار والاستدلال بمدركاتها أكثرُ، كما خصَّ الصَّلاة والزَّكاة في مواضعَ من القرآن بالذِّكْرِ والمراد جميع العبادات؛ لأَنَّهما أصلها.

وتقديم ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ لأنَّه أعمُّ نفعاً وأتمُّ، حيث يحصَّل به العلوم النَّقليَّة التي لا يتطرَّق فيها الغلط.

﴿وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾؛ أي: أنعم عليكم بهذه الآلات والقِوَى لتدركوا بالحواسِّ والمشاعر[1] الجزئيَّات، وتتنبَّهوا بالأفئدة لكلِّياتها، فتحصل لكم العلوم البديهيَّة، وتقدروا على اكتساب النَّظريَّات بها.

والأفئدة من جموع القلَّة التي جرَتْ مجرى جموع الكثرة؛ إذ لم يَرِدْ في السَّماع غيرها.

﴿لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾: إرادةَ أنْ تشكروا نِعمَه الظَّاهرة والباطنة بالعمل بتلك العلوم، فترثوا العلوم الكشفيَّة، كما قال عليه السَّلام: «مَنْ عَمِلَ بما علم ورَّثه اللهُ تعالى علمَ ما لم يعلم»[2]، فتكمُلوا وتَسْعَدوا.

وإنَّما ذكر[3] آلة العلم في مقام الامتنان والحثِّ على الشكر دون آلة القدرة

---

(١) «والمشاعر» من (م).

(٢) رواه أبو نعيم في «حلية الأولياء» (١٠/ ١٥)، وقال: ذكر أحمد بن حنبل هذا الكلام عن بعض التابعين عن عيسى بن مريم عليه السلام، فوهم بعض الرواة أنه ذكره عن النبي صلى الله عليه وسلم، فوضع هذا الإسناد عليه لسهولته وقربه، وهذا الحديث لا يُحتمل بهذا الإسناد عن أحمد بن حنبل. ورواه الطبراني في «الأوسط» كما ذكره الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١/ ١٣٦) وقال: وفيه ياسين الزيات وهو منكر الحديث.

(٣) في (م): «ذكرت».

تعظيماً للعلم، وتنبيهاً على أنَّ المقصود من خلق ابن آدم ـ بل من إيجاد العالم ـ هو العلمُ، على ما عُلم من قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦]؛ أي: ليَعْرِفون، ومن قوله عليه السلام: «كنت كنزاً مخفيًّا فأحببْتُ أنْ أُعْرَفَ...» الحديث[1].

* * *

(٧٩) ـ ﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ﴾: جمع طائر ﴿مُسَخَّرَٰتٍ﴾: مُذلَّلاتٍ للطَّيران بما خُلِقَ لها من الأجنحة وهُيِّئ لها من الأسباب الموافقة لذلك.

﴿فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ﴾: في الهواء المرتفع من الأرض. وفي إضافته إلى ﴿ٱلسَّمَآءِ﴾ إظهارٌ لجهةِ لطافته تقويةً لمعنى التَّسخير.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ فيه ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فإنَّ ثقِلَ أجسادها يقتضي السُّقوط، ولا علاقة فوقها، ولا دعامة تحتها تمسكها، فلا مُمْسِكَ إلَّا الله تعالى بقدرته.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ﴾ تسخير الطَّير للطيران بأنْ خلقها خلقةً يمكِن معها الطَّيران، وخلق الجوَّ بحيث يمكِن الطَّيران فيها، وإمساكها مع ما فيها من الثِّقَل في الهواء مع غاية لطافته على خلاف طبعها.

﴿لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ خصَّهم بتلك الآيات لأنَّهم هم المنتفِعون بها.

* * *

---

(١) قال الزركشي في «اللآلئ المنثورة» (ص: ١٣٦): قال بعض الحفاظ: ليس هذا من كلام النبي ﷺ ولا يعرف له إسناد صحيح ولا ضعيف.

(٨٠) ـ ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ ۙ وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ أَثَٰثًا وَمَتَٰعًا إِلَىٰ حِينٍ﴾.

﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ﴾ التي تبنونها من الحجر والمدر ﴿سَكَنًا﴾ فَعَلٌ بمعنى مفعولٍ، وهو ما يُسْكَن فيه أو إليه مِنْ مَسْكن أو مَألف.

﴿وَجَعَلَ لَكُم﴾ إنَّما أعاده لأنَّ الامتنان هنا بنوع آخر من النِّعمة.

﴿مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾ التَّنكير للتَّنويع؛ أي: نوعاً غريباً منها، وهي[1] القِباب الـمُتَّخذة من الأُدُم، ولا حاجة إلى أن يُتكلَّف في تعميمها الـمُتَّخذة من الوبر والصَّوف والشَّعر؛ لاندراجها فيما يأتي بُعَيد هذا.

﴿تَسْتَخِفُّونَهَا﴾: تجدونها خفيفةً، يخفُّ عليكم حملُها ونقلها.

﴿يَوْمَ ظَعْنِكُمْ﴾ الظَّعن بفتح العين وتسكينها: الارتحال.

﴿وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ﴾: وقتَ نزولكم وإقامتكم في مسائركم، لم يثقل عليكم ضربها ونقضها، أو يوم قراركم في منازلكم، والأوَّل أولى؛ إذ ظهور المِنَّة في خفَّتها في السَّفر أتمُّ وأظهر.

﴿وَمِنْ أَصْوَافِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَآ﴾ الصَّوف للضَّأن، والوبر للإبل، والشَّعر للمعز، والكنايات راجعة إلى الأنعام، والفصل بما للإبل بينَ ما للضأن وما للمعز لأنَّه أكثر استعمالاً في السَّفر والحضر.

﴿أَثَٰثًا﴾؛ أي: أمتعةً وثياباً تصلح للسَّفر والحضر، منها ما يُلبَس، ومنها ما يُفْرَش، ومنها ما ينصب كأخبية الشَّعر واللبد.

---

(١) في (ف): «وهو».

﴿وَمَتَٰعًا﴾ المتاع: ما يُنتفع به ويُتَّجر.

﴿إِلَىٰ حِينٍ﴾: إلى أن تَبلى وتَفنى، أو: إلى أن تقضوا منها أوطاركم. والتَّنوين للتَّعظيم، والإشارةِ إلى أنها تبقى مُدَّةً مديدة، أو للإبهام لأنَّه غير معيَّن؛ أي: مدَّة مّا من الزَّمان غير معلومة.

* * *

(٨١) - ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ كَذَٰلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ ﴾.

﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم ﴾ شرَع في الامتنان بنعمةٍ خالصة عن شَوْب الكسب، ولهذا أعاد الإسناد إلى ظاهر اسم الله تعالى.

﴿مِّمَّا خَلَقَ ﴾ في السَّماء كالسَّحاب المظلم على ما ذُكِرَ[١] في قوله تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَامَ ﴾ [الأعراف: ١٦٠][٢]، أو في الأرض كالجبل والشجر.

﴿ظِلَٰلًا ﴾: ما يُستظلُّ، لَمَّا كانت بلاد العرب عليها الحرُّ المفرِط امتنَّ عليهم بما يتَّقون به من حرِّ الشَّمس، وفيه نوعُ تمهيدٍ لتخصيص الحرِّ بالذِّكر فيما سيأتي[٣].

﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا ﴾: مواضعَ تستكنُّون بها، من الكهوف والغيران.

الإنسان إمَّا مقيم أو مسافر، والمسافر إمَّا غنيٌّ يستصحِب معه ما يستظلُّ به

(١) هنا انتهى السقط من (ك).

(٢) في (ف): «وظللنا عليكم الغمام»، وهي الآية (٥٧) من سورة البقرة.

(٣) في (م): «يأتي».

ويكنُّ به(١)، أو فقير لا يقدر عليه، فامتنَّ على الأوَّل بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّنۢ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾، وعلى الثَّاني بقوله: ﴿وَجَعَلَ لَكُم مِّن جُلُودِ ٱلْأَنْعَٰمِ بُيُوتًا﴾، وعلى الثَّالث بقوله: ﴿جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا وَجَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْجِبَالِ أَكْنَٰنًا﴾.

﴿وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَٰبِيلَ﴾ من القطن والكتَّان والصُّوف، جمع سربال.

قال الزَّجَّاج: كلُّ ما لبستَه فهو سربال(٢).

﴿تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ اقتصر عليه لكون البرد في بلادهم يسيراً محتمَلاً، أو اكتفى بأحد الضِّدَّين عن الآخر، وتخصيص الحرِّ بالذِّكر لما أشارَ إليه من كون وقاية الحرِّ أهمُّ عندهم.

﴿وَسَرَٰبِيلَ تَقِيكُم بَأْسَكُمْ﴾ يعني: الدُّروع والجواشن.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ كإتمام هذه النِّعم التي تقدَّمَتْ ﴿يُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾: تنظرون في نعمه الفائضة عليكم، فتؤمنون به، وتنقادون له.

وقرئ: (تَسْلَمُون) بفتح التَّاء(٣) من السَّلامة؛ أي: تشكرون نعمه فتَسْلَمون مِن نِقَمه، أو تَسْلَم قلوبُكم من الشِّرك، أو تَسْلَمون مِنَ الجِراح بلبس الدُّروع.

* * *

(٨٢) ـ ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾.

﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟﴾ يحتمل أنْ يكون ماضياً على الالتفات؛ أي: فإن أعرضوا عن

---

(١) في (م): «فيه».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢١٥).

(٣) نسبت لابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢).

الإسلام، ويحتمل أن يكون مضارعاً؛ أي: فإنْ تتولَّوا، وحُذفَتِ التَّاء، ويكونُ جارياً على الخطاب السَّابق.

﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾؛ أي: فلا يضرُّك فإنَّما عليك البلاغ، وقد بلَّغْتَ، فهو من باب إقامة السَّبب مقام المسبَّب، فإنَّ البلاغ سببُ العذر، وكونه معذوراً كنايةٌ عن عدم التَّضرُّر من جهة الرِّسالة.

* * *

(٨٣) ـ ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ﴾ يعرف المشركون نعمةَ الله مِن التي عدَدْناها وغيرِها حيث يعترفون بها وأنَّها مِنَ الله.

﴿ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا﴾ بعبادة غير المُنْعِم بها، وبقولهم: هي من الله لكنْ بشفاعة آلهتنا، أو بنسبتها إلى مَن أجراها الله تعالى على يده.

وقيل: ﴿نِعْمَتَ اللَّهِ﴾: نبوَّة محمَّد ﷺ، عرفوها بالمعجزات، ثم أنكروها عناداً، و﴿ثُمَّ﴾ مستعارٌ لاستبعاد الإنكار بعد المعرفة[1].

﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾: الجاحدون عناداً، وإنَّما قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ﴾ لأنَّ فيهم مَن لم يكن معانداً، بل جاهلاً لم يعرف الحق؛ لنقصان عقله، أو تفريطه في النَّظر، أو لأنَّ فيهم مَن لم تقم عليه الحُجَّة؛ لأنَّه لم يبلغ حدَّ التَّكليف، وعلى هذا يكون الكافر على إطلاقه، وعلى كلَا التَّقديرَيْن لا مساغ لحمل الأكثر على معنى الكلِّ.

* * *

(١) في هامش (ف): «من نظم هذا الوجه مع سياقه في سلك واحد لم يصب. منه».

(٨٤) ـ ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ﴾: يشهد لهم وعليهم بالإيمان والكفر، وهو نبيُّهم.

﴿ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ في الاعتذار؛ أي: لا عُذْرَ لهم، فَدَلَّ بانتفاء الإذن على انتفاءِ العذر.

و﴿ثُمَّ ﴾[١] مستعارٌ لغاية البُعْدِ بينَ تهنئتهم بشهادة الرُّسل عليهم السلام وبين بليَّتهم بانتفاء الإذن في الكلام؛ لما فيها من الإقناط الكلِّي عن العفو والغفران بالمنع من الاعتذار والإدلاء بحجَّةٍ أو شبهة.

﴿وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴾ الاستعتاب: طلبُ الرِّضا وإزالة الغضب، من العُتْبَى[٢]، وهو الرِّضا؛ أي: لا يُطلب منهم إرضاء الرَّبِّ؛ لأنَّ الآخرة دار الجزاء لا دار العمل.

و(يومَ) منصوب بمحذوف؛ أي: ويوم نبعث وقعوا فيما وقعوا فيه، أو: كان ما لا يدخل تحت الوصف، أو واذكر يوم نبعث.

***

(٨٥) ـ ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ ﴾.

وكذا: ﴿ وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ٱلْعَذَابَ ﴾؛ أي: حاقَ بهم ما حاقَ، أو: شَقَّ عليهم، ونحو ذلك.

---

(١) في (ك) و(م): «ثم».

(٢) في النسخ: «العتب»، والمثبت من «تفسير البيضاوي»، وهو الصواب. انظر: «حاشية الشهاب» (٥/ ٣٦١).

﴿فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ﴾؛ أي: العذاب ﴿وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ﴾؛ أي[1]: يمهلون.

* * *

(٨٦) ـ ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾.

﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ﴾: أوثانهم التي دعوها شركاء، أو الشياطين الذين شاركوهم في الكفر بالحمل عليه.

﴿قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ﴾: نعبدهم، أو نطيعهم، وهو اعتراف بكونهم مخطئين في ذلك، أو التماس لأنْ يُشطر عذابهم.

﴿فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ﴾؛ أي: أجابوهم بقولهم: ﴿إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ في أنَّنا شركاء الله، أو في دعوى عبادتنا، ولا يمتنع إنطاق الله الأصنام[2] حينئذٍ، أو في أنهم حملوهم على الكفر وألزموهم إيَّاه، كقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى﴾ [إبراهيم: ٢٢].

* * *

(٨٧) ـ ﴿وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾.

﴿وَأَلْقَوْا۟﴾؛ أي: وألقى الذين ظلموا ﴿إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾: الاستسلامَ لحكمه بعد الاستكبار في الدُّنيا.

﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾: ضاع عنهم وبطل ﴿مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ من أنَّهم شركاءُ الله، وأنهم يشفعون لهم وينصرونهم حين كذَّبوهم وتبرَّؤوا منهم.

---

(١) «أي» من (م).

(٢) في (ف): «للأصنام».

(٨٨) - ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ ﴾.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: مَنعوا عن الإسلام وحَملوا على الكفر.

﴿زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ﴾ المُسْتَحَقِّ بكفرهم.

﴿بِمَا كَانُواْ يُفْسِدُونَ﴾: بكونهم مفسدين بصدِّهم.

* * *

(٨٩) - ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم﴾؛ يعني: نبيَّهم.

﴿مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾: من جنسهم، ومَنْ وَهَمَ أنَّ نبيَّ كلِّ أمَّة كان منهم فقد وهِم، وهذا القيد لم يُذْكَر فيما سبق؛ لدلالة ﴿مِّنْ﴾ عليه.

﴿وَجِئْنَا بِكَ﴾: يا محمَّدُ ﴿شَهِيدًا﴾: يشهد ﴿عَلَىٰ﴾ صدق ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ الشُّهداء؛ لعلمك بعقائدهم، واستجماع شرعك مجامعَ قواعدهم، وأمَّا كونه عليه السلام شهيداً على أمَّته فقد عُلِمَ ممَّا تقدَّم.

﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ استئنافٌ، أو حالٌ بإضمار (قد).

﴿تِبْيَٰنًا﴾: بياناً بليغاً ﴿لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ عبارة (كلّ) للتَّكثير والتَّفخيم، لا للإحاطة والتَّعميم، كما في قوله تعالى: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٥].

وما قيل: من أمور الدِّين على التَّفصيل، أو الإجمال بالإحالة إلى السُّنَّة

والقياس، فيأباه ما في التِّبيان من المبالغة في البيان، ثمَّ إنَّ قوله: (من أمور الدِّين) تخصيصٌ، لا يساعده الكلام، ولا يقتضيه المقام.

﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ﴾: بشارةً[1] ﴿لِلْمُسْلِمِينَ﴾ متعلِّق بـ ﴿وَبُشْرَىٰ﴾، ومن حيث المعنى متعلِّق بـ ﴿وَهُدًى وَرَحْمَةً﴾ أيضاً؛ لقوله تعالى: ﴿هَٰذَا بَصَائِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠٣].

* * *

(٩٠) - ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ﴾ بمراعاة الوسط بين الأطراف، وسلوكِ طريق الوسط بين طرفي الإفراط والتَّفريط، فهو جماع الفضائل كلِّها؛ الشاملُ للحكمة المتوسطة بين البلاهة والدَّهاء، والشجاعةِ المتوسطة بين الجبن والتَّهوُّر، والعفَّة المتوسطة بين التَّنزُّه وخور الشَّهوة[2].

فمن الحكمة:

اعتقاداً؛ كالتَّوحيد المتوسط بين التَّعطيل والتَّشريك، والقول[3] بالكسب المتوسِّط بين محضِ الجبر والقدر.

---

(١) في (م): «وبشارة».

(٢) في (ف) و(ك): «الشره وجمود الشهوة»، وفي «تفسير أبي السعود» (٥/ ١٣٦): (من العِفة المتوسّطة بين الخلاعة والخمود)، ومثله في «روح المعاني» (١٤/ ٢٦٨) لكن بلفظ: (والجمود).

(٣) في (ق) و(ك): «والقوى»، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٣٨)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٣٦)، و«روح المعاني» (١٤/ ٢٦٨)

وعملاً؛ كالتَّعبُّد بأداء الواجبات المتوسِّط[1] بين البطالة والتَّرهب، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر المتوسط بين المداهنة والعنف في الأمور الدِّينيَّة.

وخُلُقاً؛ كالتَّواضع المتوسِّط بين الضّعة والتَّكبر، والجود المتوسِّط بين البخل والتَّبذير، والقناعة المتوسِّطة بين الحرص والقعود عن طلب الضَّروري من المعاش.

ولَمَّا كانت مراعاة العدل[2] في غاية الصُّعوبة شفَعه بالإحسان بقوله:

﴿وَٱلۡإِحۡسَـٰنِ﴾ ليتدارك به ما فات من العدالة احتياطاً؛ فإنَّ العدلَ هو القيام بالواجب في كلِّ شيءٍ، والإحسانَ هو النَّدب، والانحرافُ عن سمة العدالة الذي هو الطَّريق المستقيم لأحد الجانِبَين قد يكون إلى جانب التَّفريط أحسن وإلى جانب[3] الإفراط، فالإحسان هو الإتيان بالحسن، والمحافظةُ على جانبه[4]؛ كالميل إلى التَّنزيه في الاعتقاد، والتَّطوعِ بالنَّوافل في الأعمال باعتبار الكميَّة، والزِّيادةِ في الإخلاص بالإخفاء باعتبار الكيفيَّة، والميلِ إلى الصَّلابة التي[5] هي الحميَّة الدِّينيَّة في الشَّجاعة، وإلى الضَّعة والصَّفح دون الانتقام فيما يتعلَّق بحقِّ نفسه فيها، وإلى الإفراط في الجود، وإلى التفريط في كلِّ ما سواه من خصال العفَّة، ولهذا نهى عن الإفراط في متابعة الشَّهوة وهي الفحشاء.

﴿وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾: وإعطاءِ الأقارب ما يحتاجون إليه، وهو تخصيصٌ

---

(١) في (ف) و(م): «المتوسطة»، والمثبت من (ك)، والمصادر السابقة.

(٢) في (ك) و(م): «العدالة».

(٣) «التفريط أحسن وإلى جانب» من (م)، ولعل الصواب: (أو إلى) بدل: (وإلى).

(٤) في (م): «جانب».

(٥) «التي» من (م).

بعدَ التَّعميم للاهتمام به؛ تنبيهاً على فضل هذه الخصلة من بين خصال العدل والإحسان، وكذا الرَّذائل الثَّلاث المذكورة[١] بعدها، فإنَّ المنهيَّ[٢] منها داخل في الأمر بالعدل، وخُصَّتْ[٣] بالذِّكْرِ والنَّهي عنها بالانفراد؛ تنبيهاً على قُبْحها، وكونها في غاية الرَّذالة، ألا ترى أنَّ البغي هو الظُّلم المنافي لصريح العدل، فلا[٤] يفيد ذكره إلَّا التَّأكيدَ والمبالغة في التَّحذير.

﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ﴾: عن الإفراط في متابعة القوَّة الشَّهوانيَّة كالزِّنا والحرص.

﴿وَٱلْمُنكَرِ﴾؛ أي: ما يُنْكَر شرعاً أو عقلاً من إفراط القوَّة الغضبيَّة.

﴿وَٱلْبَغْيِ﴾؛ أي: الاستعلاءِ والتَّجبُّر على النَّاس والاستيلاءِ، وهو من تسلُّط القوَّة الوهميَّة على العاقلة التي يتولَّد منها[٥] الشَّيطنة؛ فتارةً يغلب الغضب ويحدث الاستكبار، وتارة يميل إلى الإفراط في باب الحكمة فتحدث الجربزة[٦] والمكر والتَّفرعُن[٧]، وتارة تغلب الشَّهوة فتورِث النَّهب وسلب الأموال وغصب حقوق النَّاس، وكلها تنافي العدالة.

ولا يوجد من الإنسان شرٌّ إلَّا وهو داخل في هذه الأقسام الثلاثة[٨] بتوسُّط

---

(١) «المذكورة» من (م).

(٢) في (ك) و(م): «النهي».

(٣) في (ك): «وخصصت».

(٤) في (ف): «ولا».

(٥) في (ك) و(م): «منه».

(٦) الجُرْبُزُ: الخَبُّ الخبيث، والمصدر: الجَرْبَزَة. انظر: «القاموس المحيط» (مادة: جربز).

(٧) في (ف): «والتنفر عن»، وفي (م): «التغير عن» وكتب على الهامش: «لعلها: التفرعن».

(٨) «الثلاثة» سقط من (ك).

إحدى هذه القوى الثَّلاث، ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه: هي أجمع آية في القرآن للخير والشَّرِّ(١).

وصارت سببَ إسلام عثمان بن مظعون رضي الله عنه(٢).

ولو لم يكن في القرآن إلَّا هذه الآيةُ لكفى به تبياناً لكلِّ شيءٍ وهدًى ورحمةً وبشرى للمسلمين.

ولأمرٍ ما عقَّب قوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ بها.

﴿يَعِظُكُمْ﴾ بالأمر والنَّهي، والميزِ بين الخير والشَّرِّ، حال من فاعل ﴿يَأْمُرُكُمْ﴾، أو من مفعوله، أو منهما جميعاً، أو خبر ثانٍ؛ لـ ﴿إِنَّ﴾.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: تتَّعظون.

* * *

(٩١) - ﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُواْ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًاۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

﴿وَأَوْفُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾: هي البيعة لرسول الله ﷺ على الإسلام في قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠].

﴿إِذَا عَٰهَدتُّمْ﴾؛ أي: اثبُتوا على ما عاهدتم الله عليه، وبايعتُم به رسول الله ﷺ بالأيمان التي تحلفون بها.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٣٣٧).

(٢) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٩١٩)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٨٣٢٢)، والضياء المقدسي في «الأحاديث المختارة» (١١/ ٣١)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾؛ أي: لا تنكثوها بالحِنث بعد إحكام عقدها على أنفسكم بذكر الله تعالى.

﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾: شاهداً ورقيباً؛ لأنَّ الكفيلَ شاهدٌ بحال المكفول به رقيبٌ عليه.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ في نقض الأيمان والعهود، وعيدٌ.

* * *

(٩٢) ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾: ما غزلتْه، مصدرٌ بمعنى مفعول.

﴿مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ﴾ متعلِّق بـ ﴿نَقَضَتْ﴾؛ أي: نقضَتْ غزلها بعدما أبرمته وأحكمته.

﴿أَنكَٰثًا﴾: طاقاتٍ، نكثت فَتْلها، جمع نَكْثٍ، وهو ما نُقِض فتلُه.

وانتصابه على الحال من ﴿غَزْلَهَا﴾، أو المفعولِ الثَّاني لـ ﴿نَقَضَتْ﴾ لتضمُّنه معنى: صيَّرَتْ، ولا يجوز انتصابه على المصدريَّة؛ لأنَّ النَّكث اسمٌ لا مصدرٌ، والمراد: تشبيه النَّاقض بمن هذا شأنُه، وهي ريطةُ بنت سعد بن تيمٍ[1] القُرشيَّة، فإنَّها كانت خرقاءَ تفعل ذلك[2].

﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ﴾: حال من الضَّمير في ﴿وَلَا تَكُونُوا۟﴾.

---

(١) «تيم» من (م).

(٢) انظر: «تفسير مقاتل» (٢/ ٤٨٤)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ٣٨).

﴿دَخَلًا﴾ ثاني مفعولي تتخذ؛ أي: متَّخذيها دَخَلاً؛ أي: مَفْسدةً ودخلاً، وأصله: ما يدخل الشَّيءَ ولم يكن منه.

﴿أَن تَكُونَ﴾ بسبب أن تكون ﴿أُمَّةٌ﴾؛ أي: جماعة قريش ﴿هِيَ أَرْبَىٰ﴾: أزيدُ عدداً وأوفرُ مالاً ﴿مِنْ أُمَّةٍ﴾؛ أي: جماعة المؤمنين.

﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ﴾ الضَّمير لقوله: ﴿أَن تَكُونَ﴾[(١)]؛ لأنه في معنى المصدر؛ أي: إنما يختبركم بكونكم أربى؛ لينظرَ أتُوْفون بعهد الله وما عقدتم على أنفسكم من أيمان البيعة لرسول الله ﷺ وتتمسَّكون به، أم تغترُّون بكثرة قريش وثروتهم وتخافون من قلَّة المؤمنين وفقرهم فتنقضون.

كانت قريش إذا رأت شوكةً وقوَّة في أعادي حلفائهم غدروا وحالفوا أعداءهم، فنُهي المؤمنون عن عادتهم في الغدر[(٢)].

﴿وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ إذا جازاكم على أعمالكم بالثَّواب والعقاب. إنذارٌ وتحذيرٌ من مخالفة ملَّة الإسلام[(٣)].

* * *

(٩٣) ـ ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً﴾: متَّفقةً على الإسلام.

﴿وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ بالخذلان ﴿وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ بالتَّوفيق.

---

(١) في (م) زيادة: «أمة».

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٣٨).

(٣) من قوله: «إذا جازاكم..» إلى هنا من (م).

﴿وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ سؤالَ تبكيتٍ ومجازاة.

* * *

(٩٤) ـ ﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمُۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

﴿وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلَۢا بَيْنَكُمْ﴾ تصريحٌ بالنَّهي، وتكريرٌ له؛ تأكيداً عليهم، وإظهاراً لعِظَم المنهيِّ عنه، ومبالغةً في قبحه، ولهذا وحَّد ﴿قَدَمُۢ﴾ ونكَّر في قوله:

﴿فَتَزِلَّ قَدَمُۢ﴾ والمراد: فتزلَّ أقدامكم عن محجة الإسلام ﴿بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾ عليها؛ تنبيهاً على أنَّ زلَلَ قدمٍ واحدٍ عظيمةٌ من العظائم[1]، فكيف بأقدام كثيرة؟!

﴿وَتَذُوقُواْ ٱلسُّوٓءَ﴾: العذابَ في الدَّنيا ﴿بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾: بسبب صدودكم عن الوفاء، أو صدِّكم غيرَكم عنه، فإنَّ مَنْ نقضَ البيعة وارتدَّ جعلَ ذلك سُنَّة لغيره.

﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ في الآخرة.

* * *

(٩٥) ـ ﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

﴿وَلَا تَشْتَرُواْ بِعَهْدِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۚ﴾ قد سبقَ تفسيرُه في (سورة البقرة)، والمراد هنا من الثَّمن القليل: ما يَعِدُه قريش لضعفاء المسلمين ويشرطون لهم على ارتدادهم.

﴿إِنَّمَا عِندَ ٱللَّهِ﴾ مِن نصرِكم وتغنيمكم في الدُّنيا، والثَّوابِ الجزيل في الآخرة.

﴿هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ مما يَعِدونكم ﴿إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾؛ أي: إنْ كنتم من أهل العلم والتَّمييز.

---

(١) في (ف): «عظائم».

(٩٦) - ﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾.

﴿ مَا عِندَكُمْ ﴾ من أعراض الدُّنيا ﴿يَنفَدُ﴾ وينقضي[1].

﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ ﴾ من الثَّواب الموعود المدَّخر في خزائنه[2] لكم ﴿بَاقٍ ﴾: لا يزولُ، وهو تعليلٌ للحكم السَّابق، ودليل على أنَّ نعيمَ الجنَّة باقٍ.

﴿وَلَنَجْزِيَنَّ ٱلَّذِينَ صَبَرُوٓاْ أَجْرَهُم ﴾ على أذى الكفَّار ومشاقِّ التَّكاليف ومرارة الفاقة.

﴿بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ بما ترجَّح فعلُه على تركه كالواجبات والمندوبات، وما ترجَّح تركه على فعله ممَّا تركوا[3] كالمحرَّمات والمكروهات.

والتَّعبير بالعمل عن الكلِّ للتَّنبيه على أنَّ التَّركَ إنَّما يُثابُ عليه إذا قارنه عمل القلب، وهو النِّيَّة والقصدُ إلى الامتثال بالانتهاء عمَّا نهي عنه، وفي عبارة الصبر نوع إشارة إليه.

وفي الآية دلالةٌ[4] على أنَّ المباح حسن، وأنَّه لا يثاب عليه.

وعبارة (كان) للدِّلالة على أنَّ المباح لا يَستحق الأجر وإنْ وُجِدَ الاستمرار عليه، فكيف إذا وُجِدَ نادراً؟!

* * *

---

(١) في (ف): «وينقض»، وفي (ك): «وينقص».

(٢) في (ف): «المؤخر في خزانته»، وفي (ك): «المؤخر في خزائنه»، والمثبت من (م).

(٣) في (م) زيادة: «مما فعلوا».

(٤) في (ف): «دليل».

(٩٧) ـ ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾.

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ﴾ بيَّن ﴿مَنْ﴾ لإبهامه، وكونِهِ ظاهراً في الذكور لو لم يبيَّن، ففسَّر بهما ليعمَّ الموعدُ[١].

وإنما قال: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذ لا اعتداد بأعمال الكفرة[٢]، لا في استحقاق الثَّواب ولا في تخفيف العقاب؛ لأنه يُجعل هباءً منثوراً، بدلالة نصِّ الكتاب، هذا ما عندي، والله أعلم بالصواب[٣].

ثم العمل الصالح لا يكون إلَّا للمؤمن، فزيادةُ القيد المذكور لبيان أنَّ المعنى: مَن عمل صالحاً في الحال، وَهُوَ مُؤْمِنٌ في المآل؛ لأنَّ اعتبارَ[٤] صفاء الحال بوفاء المآل، والأمورُ بخواتيمها.

﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ في الدُّنيا يعيش عيشاً طيِّباً؛ لأن المؤمن الصالح إن كان موسراً فظاهر، وإن كان معسراً يطيب عيشه[٥] بالقناعة، والرِّضا بالقسمة، وتوقُّعِ الأجر العظيم في الآخرة، والفاجر بالعكس؛ فإنَّه إن كان معسراً فظاهر، وإن كان موسراً فلا يدعه الحرص وخوف العواقب أن يتهنَّأ بعيشه.

وإنَّما قلنا: إنه في الدُّنيا؛ لدلالة قوله:

---

(١) في هامش (ف) و(م): «ويحتمل وجهاً آخر ذكر في تفسير سورة النساء، وهو أن تكون (من) للابتداء. منه».

(٢) في (ف) و(ك): «الكفر».

(٣) «بالصواب» من (م).

(٤) «اعتبار» من (م).

(٥) «عيشه» من (م).

﴿وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ﴾؛ يعني: في الآخرة عليه، وليس بتكرارٍ؛ لأنَّ الأوَّل في حقِّ الذين عاهدوا رسول الله ﷺ فحفظوا، وهذا في كلِّ مَنْ آمن وعمل صالحاً.

***

(٩٨) - ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ﴾؛ أي: إذا أردْتَ قراءته، وإطلاق الفعل على إرادته مِن قَبِيْلِ إطلاق المسبَّب على السَّبب مجازاً؛ لملابسته له ولزومه إيَّاه غالباً، ودليل المجاز السُّنَّة المستفيضة، وأما الفاء فلا دلالة فيها عليه[1]، وإنَّما دلالتها على تأخير المراد بمدخولها[2] عن[3] المعنى المراد بـ ﴿قَرَأْتَ﴾[4]، وإجماعُهم على صحَّة هذا المجاز قد دلَّ على أنَّ وجود القرينة المانعة عن إرادة الحقيقة ليس بشرط فيه[5].

﴿فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ﴾: فاسأل اللهَ أن يعيذك من وساوسه؛ لئلا يوسوسك في القراءة.

والجمهور على أنَّه للاستحباب، ولا دلالة فيه على أن المصلِّي يستعيذ في كلِّ

---

(١) في هامش (م): «فيه رد على صاحب المفتاح». ولفظ السكاكي في الاستدلال على المجاز الحاصل من كون ﴿قَرَأْتَ﴾ استعملت مكان: أردت القراءة: (بقرينة الفاء في ﴿فَٱسْتَعِذْ﴾، والسنة المستفيضة بتقديم الاستعاذة). انظر: «مفتاح العلوم» (ص: ٣٦٦).

(٢) في (ف) و(ك): «بدخولها».

(٣) في (ف): «على».

(٤) في هامش (م): «مذكور في الهداية».

(٥) في النسخ: «فيها»، والمثبت من «روح المعاني» (١٤/ ٢٩٥)، وقد تعقب الآلوسي هذا الكلام بقوله: (ليس بشيء).

ركعة بناء على أن الحكم المترتب على الشَّرط يتكرَّر بتكرُّره؛ لأنَّ ما يقع في خلال الصَّلاة من القراءات في حكم قراءة واحدة، ولهذا لا تُستَحبُّ الحمدلة والبسملة عند الشروع لكلِّ فعلٍ من أفعال الصلاة.

قيل: تعقيبه لذكر العمل الصالح والوعدِ عليه إيذانٌ بأنَّ الاستعاذة عند القراءة من هذا القَبيل.

ولا يذهبْ عليك أن الأمر الاستحبابي أغنى عن هذا الإيذان.

والأولى أن يقول: (أستعيذُ بالله) ليوافق القرآن، ويقرُبُ منه: (أعوذ بالله) كذا قالوا، ويردُّه ما رُوِيَ عن ابن مسعود أنه قال: قرأت على رسول الله ﷺ فقلت: أعوذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، فقال: «قل: أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، هكذا أقرأنيه جبريل عليه السلام، عن القلم، عن اللَّوح المحفوظ»[1].

***

(٩٩) ـ ﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾.

﴿ إِنَّهُۥ لَيۡسَ لَهُۥ سُلۡطَٰنٌ ﴾: تسلُّطٌ وولاية ﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ فإنَّهم لا يطيعون أوامره، ولا يقبلون وَساوِسَه إلَّا فيما يحتقِرون على ندور[2] وغفلة، ولذلك أمروا بالاستعاذة.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ٤١) مسلسلًا، وعنه تلميذه الواحدي في «الوسيط» (٣/ ٨٣ ـ ٨٤).
وقد ورد جواز الاستعاذة بلفظ: (أعوذ بالله السميع العليم) في حديثي أبي سعيد وعائشة عند أبي داود (٧٧٥) و(٧٨٥). وحديث معقل بن يسار عند الترمذي (٢٩٢٢).

(٢) في «على ندور» سقط من (ف) و(ك).

ولما ذكرها عقَّبها بسلب[1] سلطانه؛ لئلا يُتوهَّم أنَّ له سلطةً[2] عليهم:

(١٠٠) ـ ﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴾.

﴿ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ ﴾: على مَن يتولَّاه ويطيعه دون غيره.

﴿وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ ﴾: بالله تعالى، أو بسبب الشَّيطان ﴿مُشْرِكُونَ﴾ لأنَّه هو الذي حملهم على الإشراك بالله.

* * *

(١٠١) ـ ﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓاْ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾.

﴿ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ ﴾: نسخنا آيةً بآيةٍ، فجعلنا النَّاسخة مكان المنسوخة لفظاً أو حكماً.

﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ ﴾ في باب المصالح، فإنَّ الشَّرع صلاح حال العباد بحسب المعاش والمعاد، وما يكون مصلحةً في وقت يصير مفسدةً في وقت آخر وبالعكس، والله أعلم بمصالح الجمهور منهم، فينزِّل في كلِّ وقت ما هو صلاح ذلك الوقت، وينسخُ به ما كان صلاحَ الوقت الماضي، وقد تغيَّر في الوقت الآتي إلى مفسدةٍ، فوجدوا مدخلاً للطَّعن لجهلهم بحكمة النَّسخ.

﴿قَالُوٓاْ ﴾؛ أي: الكفرة: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ متقوِّلٌ على الله، تأمر بشيء، ثم يبدو لك فتنهى عنه، نسبوا إليه عليه السلام الافتراء بأنواع من المبالغة والتَّغليظ، وهي الحصر والخطاب، واسمِ الفاعل الدَّالِّ على الثُّبوت والاستقرار.

---

(١) في (ك) و(م): «بسبب».

(٢) في (ك) و(م): «سلطنة».

وهو جواب ﴿ وَإِذَا ﴾، ﴿وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ﴾ اعتراضٌ لتوبيخ الكفَّار على قولهم، والتَّنبيهِ على فساد سندهم[1]، ويجوز أن يكون حالاً.

﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ ﴿بَلْ﴾ إضراب عن الافتراء الذي نسبوه إليه، وما بعده تأكيدٌ للاعتراض[2] والتَّوبيخ بأنَّهم جاهلون بحكمةِ الأحكام، لا يميِّزون بينَ الخطأ والصَّواب.

وإنما قال: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾؛ لأنَّ منهم مَن يعلمها لكن ينكرها عناداً.

***

(١٠٢) ـ ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾.

﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ ٱلْقُدُسِ ﴾؛ يعني: جبريل؛ أي: الرُّوح المطهَّر من ألواثِ البشريَّة، وإضافةُ الرُّوح إلى القدُس ـ وهو الطُّهر ـ كإضافة حاتم إلى الجود في قولهم: حاتم الجود[3]؛ للمبالغة في ذلك الوصف، كأنَّه طبع منه.

وفي ﴿يُنَزِّلُ﴾ و﴿نَزَّلَهُ﴾ من معنى التدريج في الإنزال على حسب المصالح ما يُشعر بأن التَّبديل إنَّما هو لرعاية المصالح التي فاتت لو أُنْزِلَتْ دفعةً.

﴿مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ﴾ ملتبساً بالحكمة.

﴿لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ باعتقادِ أنَّه الحقُّ من ربهم، فإنَّهم إذا لم يتشوَّش

---

(١) في (م): «مسندهم».

(٢) في (ف): «للإعراض».

(٣) «في قولهم حاتم الجود» من (م).

اعتقادهم بالنَّسخ وتيقَّنوا أنَّه مقتضَى حكمته، وعلموا أنَّ النَّاسخ هو الذي فيه صلاح الحال دون المنسوخ، ثبتَتْ أقدامهم ورسخَتْ عقائدهم واطمأنَّتْ قلوبُهم.

﴿وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾ المنقادين لحكمه، وهما مفعولٌ لهما معطوفان على محلِّ ﴿لِيُثَبِّتَ﴾؛ أي: تثبيتاً لهم وإرشاداً وبشارةً.

وفيه تعريضٌ بحصول أضداد هذه الخِصَال لمن سواهم من الكفَّار.

* * *

(١٠٣) ـ ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِىٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾.

﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ ۗ﴾ أرادوا جبراً[١] الرُّوميَّ، وقيل: جبراً ويساراً[٢].

﴿لِّسَانُ ٱلَّذِى يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ﴾ لغةُ الرَّجل الذي يُميْلون قولهم عن الاستقامة إليه، يقال: لَحَد وألْحد: إذا مال عن القصد، ومنه: اللَّحد[٣].

﴿أَعْجَمِىٌّ﴾ غيرُ بَيِّنٍ ﴿وَهَٰذَا﴾؛ أي: هذا القرآن ﴿لِسَانٌ عَرَبِىٌّ مُّبِينٌ ﴾: ذو بيانٍ وفصاحةٍ.

والجملتان مستأنفتان، رَدٌّ لقولهم، وإبطال لطعنهم، وتقريرُه: أنَّ القرآنَ معجزٌ

---

(١) في (ف) و(م): «جبر».

(٢) عبدان نصرانيان كانا يصنعان السيوف بمكة، وكانا يقرأان الإنجيل. روى القصة بذلك الطبري في «التفسير» (١٤/ ٣٦٧ـ٣٦٨)، والبيهقي في «الشعب» (١٣٨)، عن عبد الله بن مسلم الحضرمي.

(٣) في هامش (م): «رد البيضاوي، فيه رد لمن قال: إنه مأخوذ من لحد القبر. منه».

بلفظه كما هو معجِزٌ بمعناه، فإنْ زعمتم أنَّ بشراً يعلِّمه معناه، فكيف يعلِّمه[١] هذا الكلامَ الذي بذَّ كلَّ كلامٍ عربيٍّ في البيان والفصاحة، وهو أعجمي؟!

وطعنُهم في القرآن بأمثال هذه الكلمات الرَّكيكة دليل على غاية عجزهم.

* * *

(١٠٤) ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾؛ أي: الذين يعلمُ اللهُ منهم أنَّهم لا يؤمنون بها؛ أي: لا يصدِّقون أنَّها مِن عند الله تعالى.

﴿لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ إلى الحقِّ، أو إلى[٢] طريق النَّجاة في الدُّنيا.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

هدَّدهم على كفرهم بالقرآن بعدما أماطَ شبهتهم وردَّ طعنهم فيه، ثمَّ قلب الأمر عليهم فقال:

(١٠٥) ـ ﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴾.

﴿ إِنَّمَا يَفْتَرِي ٱلْكَذِبَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ۖ ﴾ لأنَّهم لا يخافون عقاباً يردعهم عنه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى الذين كفروا، أو إلى قريش.

﴿هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ﴾ بالحقيقة، الكاملون في التَّكذيب؛ لأنَّ التَّكذيب بآيات الله

---

(١) في (ف): «يعلم».

(٢) في (ف) و(ك): «وإلى».

هو أعظم الكذب، أو: الذين عادتهم الكذب لا يبالون به في كلِّ شيء؛ إذ لا تردعهم[1] عنه مروءة ولا دين، أو: الكاذبون في قولهم: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُفۡتَرِۭ﴾ إلخ.

* * *

(١٠٦) ـ ﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ﴾.

﴿مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ﴾ بدلٌ من ﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ﴾ وما بينهما اعتراض، أو من ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾، أو من ﴿ٱلۡكَٰذِبُونَ﴾، أو مبتدأٌ خبره محذوف دلَّ عليه قوله: ﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾، أو منتصبٌ بالذَّم، أو مرتفعٌ على خبرِ مبتدأ مضمَرٍ على الذَّم، أو ﴿مَن﴾ شرطيَّة محذوفةُ الجواب، دلَّ عليه:

﴿إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ﴾ على الافتراء، أو كلمةِ الكفر، استثناءٌ متَّصل؛ لأنَّ الكفر لغةً يعمُّ القول والعقد، كالإيمان.

﴿وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ﴾ لم تتغيَّر عقيدتُه، جملةٌ حاليَّة، ولا دلالة فيه على انحصار الإيمان في التَّصديق القلبي.

﴿وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا﴾؛ أي: وسَّعه لقبول[2] الكفر، مجازٌ عن الرِّضا وطيب الخاطر.

﴿فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ﴾ التَّنكير للتَّعظيم، وقوله:

﴿مِّنَ ٱللَّهِ﴾[3] لأن الغضب من العظيم عظيمٌ.

---

(١) في (ف) و(م): «يدعهم».

(٢) في (م): «بقول».

(٣) في (م) زيادة: «لرتبته».

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ إذْ لا أعظمَ مِنْ جُرْمِه.

روي أنَّ قريشاً أكرهوا عماراً رضي الله عنه، فأعطاهم بلسانه ما أرادوا مكرهاً، ولما أتى رسولَ الله ﷺ وهو يبكي قال: «ما لَكَ؟ إنْ عادوا لك فعُدْ لهم»[١].

وهو دليلٌ على جواز التَّكلُّم بالكفر عند الإكراه، وإن كان الأفضلُ التَّجنُّبَ عنه؛ إعزازاً للدِّين.

* * *

(١٠٧) - ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةٌ إلى الكفر بعد الإيمان أو الوعيد ﴿بِأَنَّهُمُ﴾: بسبب أنَّهم ﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ﴾: آثروها عليها.

﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾: وبأنَّ الله لا يهدي إلى الإيمان مَن حَقَّتْ عليه الضَّلالة، وعَلِمَ منهم الكُفْرَ؛ فإنَّ هذا هو السَّبب الحقيقيُّ، والأوَّل هو السببُ العادي.

* * *

(١٠٨) - ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ﴾ قد سبق تفسيره في سورة البقرة.

---

(١) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٢٧٥)، وابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٣/ ٢٤٩)، والحاكم في «المستدرك» (٣٣٦٢)، وصححه.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾: الكاملون في الغَفلة، الذين لا أحدَ أغفلُ منهم؛ لأن غاية الغفلة ومنتهاها: الغفلةُ عن تدبُّر العواقب.

* * *

(١٠٩) ـ ﴿لَا جَرَمَ أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾.

﴿لَا جَرَمَ﴾ قد سبق تفسيره[١].

﴿أَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾: البالغون في الخسران؛ إذ ضيَّعوا أعمارهم وصرَفوها فيما أفضى بهم إلى العذاب المخلَّد.

* * *

(١١٠) ـ ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُواْ﴾ بالولاية والنَّصر ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا فُتِنُواْ﴾؛ أي: عُذِّبوا، كعمار رضي الله عنه. و﴿ثُمَّ﴾ مستعارٌ لتباعُد حال هؤلاء عن حال أولئك.

﴿ثُمَّ جَٰهَدُواْ وَصَبَرُوٓاْ﴾ على الجهاد وما أصابهم على المشاقِّ.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا﴾: من بعد الهجرة والجهاد والصَّبر ﴿لَغَفُورٞ﴾ لما فعلوا قبلُ ﴿رَّحِيمٞ﴾ يُنعم عليهم، مجازاةً على ما صنعوا بعدُ.

* * *

(١) عند تفسير الآية (٢٢) من سورة هود، وعند تفسير الآية (٢٣) من هذه السورة.

(١١١) ـ ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾.

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ﴾ منصوب بـ ﴿رَّحِيمٌ﴾، أو بـ (اذكر).

﴿تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾: عن ذاتها؛ أي: كلُّ شخصٍ يسعى[1] في خلاص نفسه لا يهمُّه شأنُ غيرِه، كلٌّ يقولُ: نفسي نفسي.

والمراد بالمجادلة: الاعتذارُ عنها بمثل قولهم: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا﴾ [الأعراف: ٣٨]، ﴿مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٢٣].

﴿وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ﴾: جزاءَ ما عملَتْ.

﴿وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾: لا يُعاقَبون بغير ذنبٍ، وأمَّا نقص الأجر فلا احتمالَ له بعد التَّوفية.

* * *

(١١٢) ـ ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾.

﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً﴾ جعل اللهُ قريةً هذه صفتُها مثلاً لكلِّ قومٍ أنعمَ الله عليهم فأبطرتْهم النِّعمة فكفروا فأبدلهم الله بالنِّعمة نقمةً، أو لمكَّةَ خاصَّة.

﴿كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً﴾: لا يزعجُ أهلَها خوفٌ.

﴿يَأْتِيهَا رِزْقُهَا﴾: أقواتُها ﴿رَغَدًا﴾: واسعاً.

---

(١) «يسعى» من (م).

﴿مِّن كُلِّ مَكَانٍ﴾ من نواحيها، ولفظة: ﴿كُلِّ﴾ للتَّكثير.

﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ﴾: بنِعَمه، جمع نعمة على ترك الاعتداد بالتَّاء، كدِرْعٍ وأَدْرُعٍ، أو جمع نُعْم، كبُؤْسٍ وأَبْؤُسٍ.

واختيار جمع القلَّة للتَّنبيه بالأدنى على الأعلى؛ يعني أنَّ كفران النِّعَم القليلة لَمَّا أوجبَ العذاب فكفرانُ النِّعَم الكثيرة أولى به(١).

﴿فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ﴾ لَمَّا تقدَّم ذِكْرُ الأمنِ وإيتاءِ(٢) الرِّزق قابلَهما بالجوع النَّاشئ عن انقطاع الرِّزق، وبالخوف، وقدَّم الجوع لِيَلِي المتأخِّرَ ـ وهو إتيانُ الرِّزق ـ كما في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ [آل عمران: ١٠٦].

والإذاقة استُعيرت(٣) للإصابة، وإنَّما أوثرت عليها للدِّلالة على شدَّة التَّأثير التي تَفوت لو استعملَتِ الإصابة، والعلاقة: المشابهة بين المدرَك من أثر الضَّرر، والمدرَك من طعم المرِّ والبَشِع(٤).

واللِّباس استُعير لِـمَا غَشِيَ الإنسان من أثر الجوع والخوف، وهو ضررهُما، فالغاشي هو الضَّرر لا الجوع والخوف، وإلَّا لكان ﴿لِبَاسَ ٱلْجُوعِ﴾ تشبيهاً على حَدِّ:

---

(١) «به»: ليست في (م).

(٢) «إيتاء» سقط من (ك).

(٣) في (ف): «وحصر الإذاقة استعير»، وفي (ك): «وحصر الإذاقة استعيرت».

(٤) في (ك): «والشبع»، وهو تحريف، والمثبت من (ف) و(م)، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٢/ ٦٣٩). وفي غيره: (المر البشع) بلا عاطف. انظر: «تفسير أبي السعود» (٥/ ١٤٥)، و«حاشية الشهاب» (٥/ ٣٧٣)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢٢).

لُجين الماء[1]، وحينئذ يتبيَّن وجه إيقاع الإذاقة على اللِّباس؛ إذ المعنى: فأذاقهم ما غشيَهم من ضرر الجوع والخوف.

وبهذا التَّقرير ظهر وجه إيثار التَّجريد على التَّرشيح؛ لأنَّ الإذاقة تفيد ما لا تفيد الكسوة من زيادة التَّأثير الموجبة لقوَّة الإدراك، وأمَّا إيثار اللِّباس على الطَّعم فللدِّلالة على الشُّمول، وهذا أولى مِن حمل اللِّباسِ على انتقاع اللَّون ورثاثة الهيئة اللَّازمين للجوع والخوف؛ إذ حينئذٍ تكون الإصابةُ أبلغَ موقعاً[2].

قرئ: (والخوفَ) بالنَّصب[3]؛ عطفاً على ﴿لِبَاسَ﴾، أو على حذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه؛ أي: ولباس الخوف.

﴿بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ﴾: بصنيعهم الذي استمرُّوا عليه، جرى هاهنا على ما هو المراد من القرية، وفيما تقدَّم على ظاهره[4].

***

(١١٣) ـ ﴿وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ﴾.

---

(١) أي: أذاقها الله الجوعَ الذي هو في الإحاطة كاللباس، ومثله ما قيل في: ﴿فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ﴾؛ أي: فصب عليهم ربك عذاباً كالسوط، على معنى: أنواعاً من العذاب مخلوطاً بعضُها ببعض اختلاط طاقات السوط بعضها ببعض. انظر: «روح المعاني» (١٤/ ٣٢٣).

(٢) أي: إذا حمل اللباس على رثاثة الهيئة، وتغير اللون اللازمين للجوع والخوف ـ كما ذهب إليه السكاكي في «مفتاح العلوم» (ص: ٣٧٨) ـ لا يحسن حينئذ موقع الإذاقة، وتكون الإصابة أبلغ موقعاً، يعني أنه حينئذ استعارة محسوس لمحسوس مثله فتفوت المبالغة التي اختير لأجلها الإذاقة. انظر: «حاشية الشهاب» (٥/ ٣٧٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ٣٢٣).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٢٧)، و«البحر المحيط» (١٣/ ٤٧٨).

(٤) في (م): «على ظاهر المجاز».

﴿ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ ﴾ يعني: محمَّداً عليه السَّلام، والضَّمير لأهل مكَّةَ، عادَ إلى ذكرهم بعدما ذكرَ مَثلَهم.

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: ما أصاب مِنَ الجَدْب الشَّديد، أو ضرب الحديد في حرب بدر.

﴿وَهُمْ ظَـٰلِمُونَ﴾: في حال التباسهم بالظُّلم.

* * *

(١١٤) - ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾.

﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ حَلَـٰلًا طَيِّبًا﴾ أمرهم بأكل ما أَحلَّ لهم، وشُكر ما أَنعم عليهم، بعدما زجرهم عن الكفر، وهدَّد عليه[1] بما ذكر مِنَ التَّمثيل والعذاب الذي حلَّ بهم؛ صدًّا لهم عن صنيع الجاهلية ومذاهبهم الفاسدة.

ومعنى الفاء في ﴿ فَكُلُوا۟﴾: التَّسبيب؛ أي: إذا نُبِّهْتُم على سوءِ صنيعِ أهلِ القريةِ ووَخامةِ عاقبتِهم، وذُكِّرْتُم بالتَّمثيلِ، فاعتبِروا بحالِهم، وخذوا بضدِّ ما أنتم عليه من طريق الجاهلية؛ كيلا يحلَّ بكم مثلَ ما حلَّ بهم.

وجُعل هذا الوصل ذريعةً إلى ما رُتِّبَ عليه مِن تعداد نوعٍ آخرَ من قبائحهم.

وقد سبق في تفسير سورة البقرة ما يتعلَّق بهذا الكلام من وجوه الإعراب، وما في قوله: ﴿طَيِّبًا﴾ من الفائدة الزَّائدة.

﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ﴾ إضافة النِّعمة إليه تعالى للتَّشريف؛ فإنَّ عبادته لا

---

(١) في (ك) و(م): «عليهم».

تَتِمُّ إلَّا بالشُّكر على نعمه، فلا وجهَ لِمَا قيل: إنْ صَحَّ زعمُكم أنَّكم تقصدون بعبادة الآلهة عبادتَه؛ لأنَّ مبناه على اعتبار التَّخصيص في الشَّرط المذكور.

﴿إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ وتقديم المفعول لمحافظة الفاصلة؛ إذ لا دخل لمعنى التَّخصيص في التَّعليق.

***

(١١٥) - ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ قد سبق تفسيره في سورة البقرة وسورة الأنعام.

لَمَّا أمرهم بتناول ما أحلَّ لهم عدَّد عليهم حرماته[1]؛ ليعلموا أنَّ ما عداها حِلٌّ لهم، ثمَّ أكَّد ذلك بالنَّهي عن التَّحريم والتَّحليل بأهوائهم فقال:

(١١٦) - ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾.

﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ كما قالوا: ﴿مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا﴾ الآية [الأنعام: ١٣٩].

ومقتضى سياق الكلام وتصدير الجملة بـ ﴿إِنَّمَا﴾ حصرُ المحرَّمات في الأجناس الأربعة وقتَ نزول تلك الآية[2].

---

(١) في (ف): «حرمانه».

(٢) في هامش (ف): «وأما الاستثناء الذي ذكره القاضي بقوله: إلا ما ضم إليها، فلا دخول له في =

وانتصاب ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بـ ﴿لا تقولـوا﴾، و﴿هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ﴾ بدلٌ منه، أو متعلِّقٌ بـ ﴿تَصِفُ﴾ على إرادة القول؛ أي: ولا تقولوا الكذبَ لِـمَا تصف ألسـنتكم فتقـول هذا حـرام وهذا حـلال، أو مفعـول ﴿وَلَا تَقُولُواْ﴾، و﴿ٱلْكَذِبَ﴾ منتصِب بـ ﴿تَصِفُ﴾، و﴿مَا﴾ مصدريَّـة؛ أي: ولا تقولـوا هـذا حـلال وهـذا حـرام لوصـف ألسـنتكم الكـذب؛ أي: لا تحرِّمـوا ولا تحلُّـوا بمجـرَّد قـولٍ تنطـق به ألسـنتكم من غيـر دليلٍ.

وفي نصب ﴿ٱلْكَذِبَ﴾ بوصف الألسنة نوعٌ من المبالغة بديعٌ، ووجهٌ من الفصاحة جميل، ومبالغةٌ في وصف كلامهم بالكذب عظيمةٌ، وهو أنَّه جُعل كأنَّه نفسُ الكذب وحقيقتُه، وكانت مجهولةً فعرَّفته[1] ألسنتهم بوصفها وحِلْيتها، وبيَّنه بكلامهم هذا، كقولهم: وجهُها يصفُ الجمالَ، وعينُها تصف السِّحر.

ورُدَّ هذا الوجه الأخير بأنَّ النُّحاة نصُّوا على أنَّ المصدر المنسبك مِنْ (أنْ) والفعل لا يُنعت، لا يقال: لا يعجبني أن تخرج السريعُ[2]، ولا فرقَ بين هذا وباقي الحروف المصدريَّة.

وقرئ: (الكَذِبِ) بالجرِّ بدلاً من ﴿مَا﴾، و: (الكُذُبَ) جمع كذوب أو كِذَاب،

= المقتضى المذكور، كما لا يخفى. منه».

(١) كذا في النسخ: «فعرفته»، ولعل الصواب: (فعرفتها).

(٢) أي: خروجك السريع، وكانت العبارة في النسخ: «لا تعجبين أن يخرج السريع»، والمثبت مستفاد من كلام أبي حيان الذي يظهر أن المؤلف نقل منه، ولفظه: ولا يُوجَدُ مِن كلامهم: يُعجبُني أنْ قُمْتَ السَّريعَ، يريد قيامُكَ السَّريعُ، ولا: عَجِبْتُ مِن أنْ تَخرجَ السَّريعَ؛ أي: من خروجكَ السَّريعِ. انظر «البحر المحيط» (١٣/ ٤٨٠).

بالرفع(١) صفة للألسنة، وبالنَّصب على الذَّم، أو بمعنى: الكَلِم [الكواذب، أو هو جمع] الكِذَاب(٢).

﴿لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ تعليلٌ لا يتضمَّن الغرض.

لَمَّا كان المفتري يفتري لتحصيل مطلوبٍ نفى عنهم الفوز بقوله:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ﴾: لا يُجدي عليهم افتراؤهم شيئاً. ثمَّ بيَّنه بقوله:

(١١٧) ـ ﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

﴿مَتَـٰعٌ قَلِيلٌ﴾؛ أي: منفعتُهم، فمَا(٣) هم فيه من الأفعال الجاهليَّة والتَّحريم والتَّحليل منفعةٌ قليلةٌ تنقطع عن قريبٍ.

﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة.

* * *

(١١٨) ـ ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَـٰهُمْ وَلَـٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾.

﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ﴾؛ أي: في سورة الأنعام، في قوله: ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ﴾ الخ [الأنعام: ١٤٦].

﴿مِن قَبْلُ﴾ متعلِّق بـ ﴿قَصَصْنَا﴾، أو بـ ﴿حَرَّمْنَا﴾.

---

(١) في النسخ: «وبالرفع» بالواو، وهو خطأ، والمثبت من «الكشاف» (٢/ ٦٤١).

(٢) انظر القراءات السابقة في «الكشاف» (٢/ ٦٤١) والكلام وما سيأتي بين معكوفتين منه، «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٢٩)، و«البحر المحيط» (١٣/ ٤٨٠).

(٣) في (م): «فيما»، وفي هامشها: «فما».

﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ﴾ بالتَّحريم ﴿وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ فحرَّمنا عليهم ببغيهم، وهو قوله تعالى: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ﴾ [النساء: ١٦٠].

وفيه تنبيهٌ على الفرق بينهم وبين غيرهم في التَّحريم، وأنَّه كما يكون للمضرَّة يكون للعقوبة.

* * *

(١١٩) - ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابُوا۟ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوٓا۟ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾.

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسُّوٓءَ﴾ يعمُّ الافتراء على الله تعالى وغيرَه.

﴿بِجَهَٰلَةٍ﴾: بسببها، أو ملْتبِسين بها، وتنكيرُها للإبهام، فتشمل عدم العلم بالله تعالى وصفاته، وعقابه وثوابه، وعدمَ التَّدبُّر للعواقب بسبب الغفلة اللَّازمة للانهماك في الشَّهوات، ومتابعةِ الهوى في طلب اللَّذات.

﴿ثُمَّ تَابُوا۟﴾ قد دلَّ ﴿ثُمَّ﴾ بالتَّراخي، إلَّا أنَّها قد تُستعار للتَّراخي في الرُّتبة، ولهذا زاد قوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ﴾ السُّوء.

﴿وَأَصْلَحُوٓا۟﴾؛ أي: تابَ عنه وندم عليه وعزم أن لا يعود[1] إليه[2]، وأصلح العمل في المستأنف.

﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعْدِهَا﴾: مِن بعد التَّوبة، وأمَّا الإصلاح فهو تكميل للتَّوبة لا أنَّها شيء آخر، ولهذا لم يذكر في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾ [النساء: ١٧].

---

(١) في النسخ: «يعودها»، والصَّواب المثبت.

(٢) «إليه» زيادة من (م).

وإنَّما أعيد ﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ على سبيل التَّأكيد؛ لطول الكلام ووقوع الفصل.

﴿لَغَفُورٌ﴾ لذلك السُّوء ﴿رَّحِيمٌ﴾: يثيب على الإنابة المستتبِعة للعمل الصالح.

* * *

(١٢٠) - ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾.

﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾؛ أي: كان وحده أمَّة؛ لحصول الكمالات والفضائل التي لا تكون إلَّا متفرعة في أمَّة كثيرة مجموعةٍ فيه:

لَيْسَ مِنَ اللهِ بِمُسْتَنْكَرٍ أَنْ يَجْمَعَ العَالَمَ فِي وَاحِدِ[1]

وهو رئيس الموحِّدين، وقدوة المحقِّقين، جادل فِرَقَ المشركين، وأبطل مذاهبهم الزَّائغة بالحُجَج الدَّامغة، ولذلك عقّب ذكره بتزييف مذاهب المشركين مِنَ الشِّرك والطَّعن في النُّبوَّة، وتحريم ما أحلَّه الله تعالى، أو لأنَّه عليه السلام كان وحده مؤمناً وسائر النَّاس كفَّاراً.

وقيل: هي فُعلة بمعنى مفعول، كالرُّحلة والنُّخبة[2]، مِن أَمَّهَ: إذا قصده أو اقتدى به، فإنَّ النَّاس كانوا يؤمُّونه للاستفادة ويقتدون بسيرته، كقوله: ﴿إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا﴾ [البقرة: ١٢٤].

﴿قَانِتًا لِّلَّهِ﴾: مطيعاً له، قائماً بأمره.

﴿حَنِيفًا﴾: مائلاً عن كلِّ ذي باطلٍ، مائلاً إلى دين الإسلام؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

---

(١) البيت لأبي نواس. انظر «ديوانه» (ص: ٢١٨)، و«البحر المحيط» (١٣/ ٤٨٥)، وفيهما: (وليس لله...).

(٢) الرُّحلة: المرحول إليه، والنُّخبة: المنتخَب. انظر: «روح المعاني» (١٤/ ٣٣٥).

﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾؛ أي: لم يكُ مِنْ عِدادهم، وهذا في سياق النَّفي أبلغ من: لم يشرك، والمراد: استمرار النَّفي، لا نفيُ الاستمرار، فمفهوم (كان) مُقدَّم على مفهوم (لم) في الاعتبار.

وإنما نفى عنه عليه السلام الشِّرك على أبلغ وجه تكذيباً لكفار قريش في زعمهم أنهم على ملَّة أبيهم[1] إبراهيم عليه السلام، وترغيباً لهم إلى التَّوحيد ودين الإسلام.

***

(١٢١) ـ ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

﴿شَاكِرًا﴾ يجوز أن يكون خبراً ثالثاً، أو حالاً من أحد الضَّميرين في ﴿قَانِتًا﴾ و﴿حَنِيفًا﴾.

﴿لِأَنْعُمِهِ﴾ إنما جاء بلفظ القِلَّة للتَّنبيه على أنَّه عليه السلام كان لا يُخِلُّ بشكر النِّعَمِ القليلة فكيف بالكثيرة؟!

هذا ما بحسَب جليل النَّظر، والذي هو بحسب دقيقه: أنَّه للتَّنبيه على صعوبة مقام الشُّكر لكلِّها[2] بالإشارة إلى عجز البشر، وذلك أنَّه عيه السلام ـ مع جلالة قدْره ـ لَمَّا كان قاصراً[3] عن شكر النِّعَم الكثيرة[4]، فغيرُه أولى بالقصور عنه.

وإنَّما قلنا: (إنه لَمَّا كان قاصراً) لأنَّ المقام مقام مدحه بما كان فيه من

---

(١) «أبيهم» من (م).

(٢) «لكلها» من (م).

(٣) «وذلك أنه عيه السلام مع جلالة قدره لما كان قاصراً» من (م).

(٤) في (ف): «عن الشكر للنعم الكثير»، وفي (ك): «عن شكر النعم للكثير».

الأوصاف الكاملة، فلولا القصور عنه لكان المذكور على صيغة جمع[١] الكثرة.

﴿ٱجۡتَبَىٰهُ﴾: اختاره واختصَّه لنفسه، والاجتباء هو أن يأخذ الشَّيءَ بالكليَّة، وأصله: جمع الماء في الحوض، وهو الجابية[٢]، حال أو خبر آخر لـ ﴿كَانَ﴾.

﴿وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾: أرشده إلى طريقِ الحقِّ.

* * *

(١٢٢) ـ ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

﴿وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ﴾ هي[٣] اسمٌ جامعٌ لكلِّ حالٍ[٤] جميلةٍ، فيتناول كلَّ خصائصه المذكورة في النُّصوص؛ من الرِّسالة والخُلَّة واللِّسان الصِّدق[٥] وغير ذلك.

والعدولُ من الغيبة إلى التَّكلُّم للالتفات؛ تعظيماً لشأنه، وتفخيماً لما أعطاه.

﴿فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾: المستحقِّين لكلِّ منزلةٍ رفيعةٍ ودرجةٍ عالية في الجنَّة، لم يقل: (وجعلناه في الآخرة من الصَّالحين) تنبيهاً على أنَّه آثر ذلك الإيتاء إلى أمرٍ آخر، فتدبَّر.

* * *

---

(١) «جمع» سقط من (ف).

(٢) في (ف): «الخابية».

(٣) في (ف) و(ك): «من».

(٤) في (ك) و(م): «حالة».

(٥) في (ف): «والصدق».

(١٢٣) ـ ﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾.

﴿ ثُمَّ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ ﴾ الخطاب لنبيِّنا ﷺ، وفيه إشارة إلى أنَّ مِن أَجَلِّ ما أوتي خليلُ الله صلوات الله عليه، وأَشْرَفِ ما أُولي مِنَ النِّعمة والكرامةِ: اتِّباعُ رسولِ اللهِ ﷺ مِلَّتَه؛ لأنَّه[١] من جهة أنَّ ﴿ ثُمَّ ﴾ دلَّت على تباعُد هذا النَّعت في المرتبة عن سائر النُّعوت الَّتي أثنى الله بها عليه، وفيها من تعظيم منزلة رسول الله ﷺ وإجلال محلِّه ما لا يخفى على الفَطِن.

وفي لفظ: ﴿أَوْحَيْنَآ ﴾، ثم الأمرِ باتِّباع الملَّة لا اتِّباعِ[٢] إبراهيم عليه السلام ما يدلُّ على أنَّه عليه السلام ليس بتابعٍ له، بل هو مستقلٌّ بالأخذ عمَّن أخذ إبراهيمُ عليه السلام عنه.

وبهذا البيان اندفع ما عسى أنْ يتبادر إلى الوهم مِنْ أنَّه عليه السَّلام كان دون إبراهيم عليه السلام، ولذلك أُمِرَ باتِّباعه.

واتَّضح إيثار ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ﴾ على: فبِهِم، في قوله: ﴿فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ [الأنعام: ٩٠].

والمراد من الاتِّباع: الاتِّباع في أصول الدِّين لا في فروعه؛ لقوله تعالى: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ [المائدة: ٤٨].

والملَّةُ: ما شرَعه الله تعالى لعباده على لسان أنبيائه عليهم السلام، مِن أمللْتُ الكتابَ: إذا أملَيْتَه[٣].

---

(١) «لأنه» سقط من (ك).

(٢) في النسخ: «لاتباع»، والصواب المثبت. انظر: «روح المعاني» (١٤/ ٣٣٩)، والكلام منقول من «الكشف» كما صرح الآلوسي.

(٣) في هامش (م): «ذكره القاضي في سورة البقرة، ثم زعم هاهنا أنها بمعنى الطريقة حيث قال: =

﴿حَنِيفًا﴾ ولَمَّا كانَ التَّوصيف بالحنيف في مقام التَّعليل للأمر بالاتِّباع كانَ في معنى: فإنَّه مالَ عن الأديان الباطلة، فعطف عليه قوله:

﴿وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ بل كان قدوةَ الموحِّدين.

* * *

(١٢٤) ـ ﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا جُعِلَ ٱلسَّبْتُ﴾: فُرِضَ عليهم تعظيمُه والتَّخلِّي فيه للعبادة وتركِ الصَّيد.

﴿ٱلسَّبْتُ﴾: مصدر سبَتَتِ[1] اليهود: إذا عظَّمَتْ سَبْتَها.

﴿عَلَى ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ﴾: على نبيِّهم، وذلك أنَّ موسى عليه السلام أمرهم أن يتفرَّغوا للعبادة يوم الجمعة، فأبوا وقالوا: نريد يوم السَّبت الذي فرغَ الله تعالى فيه من خلق السَّماوات والأرض، إلَّا شرذمةً منهم قد رضوا بالجمعة، فذلك اختلافهم في السَّبت، فألزمهم الله تعالى السَّبت، وشدَّد الأمر عليهم، وذكَرهم هاهنا لتهديد المشركين، كذكر القرية التي كفرَتْ بأنعم الله تعالى.

﴿رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾؛ أي: يحكم للمحِقِّين بالثَّواب، وللمبطِلين بالعقاب؛ تمييزاً بينهم، وفصلاً لخصومتهم في محلِّ الاختلاف، وهذا ظاهر في أنَّ الاختلاف إنَّما كان بين العاصين والمطيعين، ويشهد لذلك ما في

= [﴿أَنِ ٱتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾] في التوحيد والدعوة إليه بالرفق، منه». وانظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٤٤)، وما بين معكوفتين منه للتوضيح.

(١) في النسخ: «سبت». والمثبت من «الكشاف» (٢/ ١٧١).

(سورة الأعراف) من قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ﴾ الآية [الأعراف: ١٦٤].

فلا وجه لما قيل: معناه: إنَّما جعل وَبالُ السَّبت، وهو المسخ على الذين اختلفوا فأحلُّوا الصَّيد تارة وحرَّموه أخرى واحتالوا الحيل.

* * *

(١٢٥) - ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦۖ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ﴾.

﴿ٱدۡعُ﴾ حذف المفعول للتَّعميم، وفيه الإشارة إلى البعثة[1] العامَّة، والتَّنبيهُ على فضله عليه السلام على مَن تقدَّمه مِنَ الرُّسل، وفيه تأييدٌ للتَّدارك السَّالف ذكرُه.

﴿إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ﴾: إلى الإسلام.

﴿بِٱلۡحِكۡمَةِ﴾: بالمقابَلة المحكمَة، وهو الدَّليل القاطع الموضِّح للحقِّ، المزيل للشبهة.

﴿وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِ﴾: بالخطابيَّات[2] الإقناعيَّة، والعِبَر النَّافعة، على وجهٍ لا يخفى عليهم أنَّك تُناصحهم وتقصد ما ينفعهم.

والأُوْلَى لدعوة خواصِّ الأمَّة الطَّالبين للحقائق، والثَّانية لدعوة عوامِّهم.

﴿وَجَٰدِلۡهُم﴾: وجادل معانديهم ﴿بِٱلَّتِي هِيَ﴾: بالطَّريقة التي هي ﴿أَحۡسَنُۚ﴾ طرقِ المجادلة؛ من الرِّفق واللِّين، واختيارِ الوجه الأيسر والطَّريق الأشهر؛ فإنَّ ذلك أشدُّ تسكيناً لشغبهم[3]، وتليِيناً لعريكتهم.

---

(١) في (ك) و(م): «بعثته».

(٢) في (ك): «بالخطابات».

(٣) في (ف): «أشد تسكيناً لسعيهم»، وفي (ك) «أشد لشغبهم»، وفي (م): «أشد لسعيهم». والصواب المثبت.

﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ﴾؛ أي: ما عليك إلَّا الدَّعوةُ بهذه الطُّرق، وأمَّا الهدايةُ والمجازاة فليسا إليك؛ فإنَّ الله أعلم بهم، فمَن هديتُه كفاه القدْرُ اليسير من الحكمة إن كان مستعدًّا لها، والموعظة إن كان قائلاً غير منكرٍ، والجدل الحسن الرَّقيق[١] إن[٢] كان منكراً منصفاً[٣]، فلا حيلة في هدايته إن[٤] كان معانداً، فكِلْ أمرَه إلى مَن هو أعلم به فإنَّه يجازيه.

وإنَّما قدَّم الضَّالَّ؛ لأنَّ الكلامَ واردٌ فيهم، والخطابَ دائرٌ معهم، وذكرَ مقابله بصيغة الفاعل؛ لأنَّ الدَّوام والثَّبات يناسب حاله.

* * *

(١٢٦) ـ ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾.

﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا۟ بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِۦ﴾ لَمَّا أمره عليه السَّلام بالدَّعوة، وبَيَّن له طرقها، أشار إليه وإلى مَن تابعه بمراعاة الحقِّ مع الخلق، وملازمةِ طريق العدالة مع مَن يناصبهم؛ لأنَّ الدَّعوة لا تخلو عن المناداة[٥] والمناصبة، من حيث إنها ترفع العادات وتبعث على رفض[٦] المألوفات، وتقدح[٧] في الأديان والمعتقدات، وتحكم على أهلها بالكفر والضَّلال.

---

(١) في (ك) و(م): «الدقيق».

(٢) في (ف) و(ك): «وإن».

(٣) «منصفاً» من (م).

(٤) في (ف) و(م): «وإن».

(٥) في (ف): «المنادات»، ولعل الصواب: «المعاداة».

(٦) في (م): «رفع» وسقطت من باقي النسخ، والصواب المثبت. انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٤٥).

(٧) كلمة غير واضحة في (ك) و(م)، والمثبت من (ف) وهو الصواب. انظر المصدر السابق.

روي أنَّ المشركين مثَّلوا بالمسلمين يوم أُحُد، ووقف رسول الله ﷺ على حمزة رضي الله عنه وقد مُثِّل به، فقال: «أمَا والذي أحلف به، لئن أظفرني الله بهم لأمثلنَّ بسبعين مكانك»، فنزلَتْ، فكفَّر عن يمينه[١].

وفيه أمر رخصةٍ في المُثْلَة بواحد، ثم نُسِخَتْ المثلة.

وفيه حثٌّ على العفو؛ تعريضاً بقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ﴾، وتصريحاً على الوجه الآكد بقوله:

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ﴾؛ أي: الصبر ﴿خَيْرٌ لِّلصَّٰبِرِينَ﴾ من الانتقام للمنتقمين.

ويجوز أن يرجع الضَّمير إلى صبرهم[٢]، ويرادَ بالصَّابرين: المخاطبون؛ أي: ولئن صبرتم لَصَبرُكم خيرٌ لكم، فوُضِعَ الصَّابرون موضعَ الضَّمير؛ ثناءً من الله تعالى عليهم بأنهم صابرون في الشَّدائد، وفيه إرشاد إلى أنَّه إنْ صبرتم فهو شيمتُكم[٣] المعروفة.

وفيه ترغيب في الصَّبر بالغٌ[٤]، ثمَّ صرَّح الأمرَ به لرسوله عليه السلام؛ لأنه أولى النَّاس به لزيادة علمه تعالى ووثوقه عليه، فقال:

---

(١) روى نحوه الطحاوي في «شرح معاني الآثار» (٣/ ١٨٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٠٥١)، والدارقطني في «سننه» (٤/ ١١٦)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. وفيه كلام. وروى نحوه أيضاً الطبراني في «المعجم الكبير» (٢٩٣٧)، والحاكم في «المستدرك» (٤٨٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه. قال الذهبي: فيه صالح المري واهٍ. وانظر: «الكاف الشاف» (ص: ٩٧)، و«تخريج أحاديث الكشاف» للزيلعي (١/ ٤٧٧).

(٢) في (ف) و(ك): «صبرتم».

(٣) في (ف): «سمتكم»، وفي (ك): «شكيمتكم».

(٤) في (م): «بأبلغ».

(١٢٧) ـ ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾.

﴿ وَٱصْبِرْ ﴾ ولَمَّا كان الصَّبر في هذا المقام شديداً شاقًّا ذكر بعده ما يفيد سهولته فقال:

﴿ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾: إلا بتوفيقه ومعونته.

ولَمَّا ذكر هذا السَّبب الكلِّي الأصلَ[1] في حصول جميع الطَّاعات، ذكر بعده ما هو السَّبب الجزئي القريب فقال:

﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ وذلك لأنَّ الإقدام على الانتقام لا يكون إلَّا عند هيجان الغضب، وهو إمَّا لفوات نفعٍ كان حاصلاً في الماضي، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾: على قتلى أحد؛ أي: ولا تحزن بفوات أولئك الأصدقاء، أو على إعراض الكافرين عنك، وإمَّا لتوقُّع ضررٍ في المستقبل، وإليه الإشارة بقوله: ﴿ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾: في ضيق صَدْرٍ مِنْ مَكرهم.

* * *

(١٢٨) ـ ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾.

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ﴾ للمعاصي، ويدخل فيها دخولاً أوَّليًّا استيفاءُ الزِّيادة ﴿ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴾ في أعمالهم، بالولاية والفضل.

---

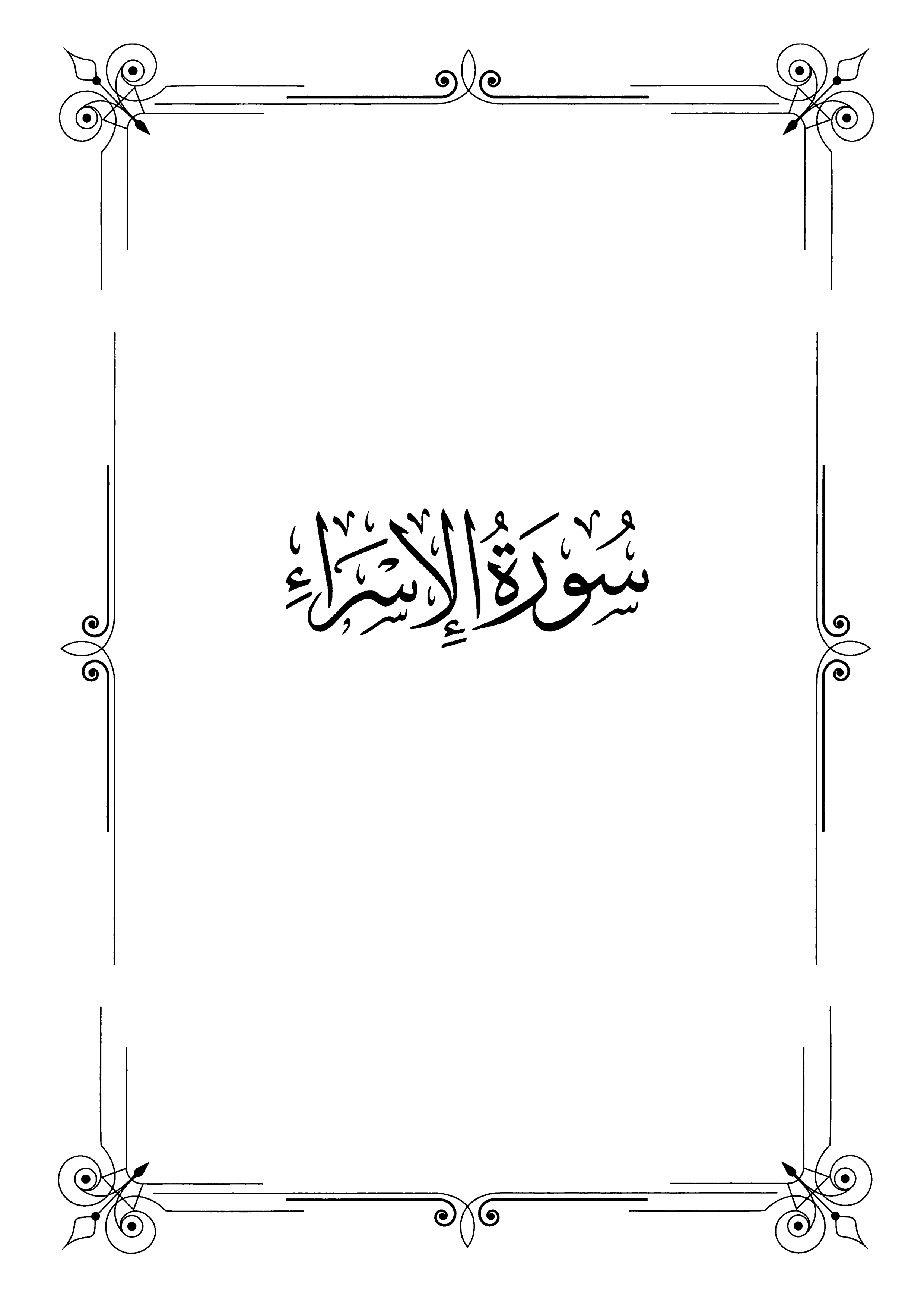
(١) في (ف): «الأصلي». وفي (ك): (الأصيل).

ويدخل فيها دخولاً أوَّليّاً ترك الانتقام، فكأنَّه قال: إن أردْتَ أن أكون معك بالفضل والرَّحمة والتَّربية فكنْ من المتَّقين المحسنين.

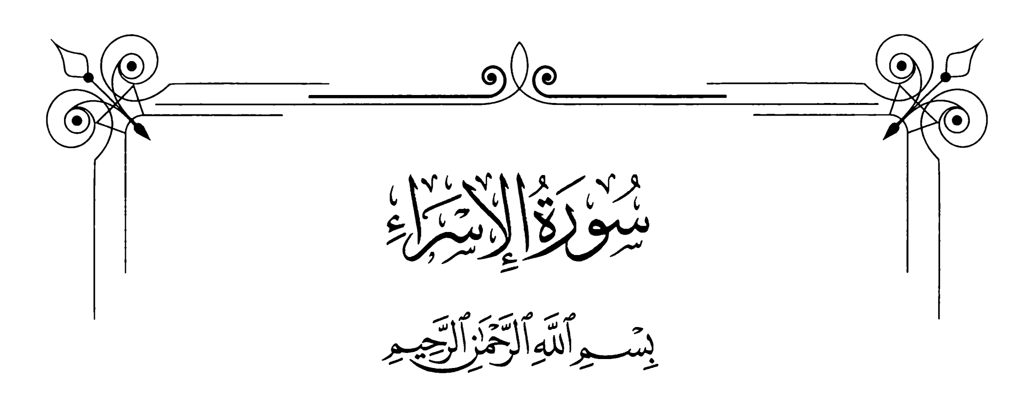
وقيل: الأوَّل[1] إشارة إلى التَّعظيم لأمر الله، والثَّاني إلى الشَّفقة على خلق الله.

* * *

(١) في (م): «الأولى».



سُورَةُ الإِسۡرَاءِ



سورة الإسراء

بسم الله الرحمن الرحيم

(١) ـ ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾.

﴿سُبْحَٰنَ﴾ علَمٌ للتَّسبيح بمعنى التَّنزيه البليغ، وذلك من جهة الاشتقاق من السَّبح، وهو الإبعاد في الأرض، والنَّقلِ إلى التَّفعيل، والعدولِ عن المصدر إلى الاسم الموضوع له خاصَّةً، والعاملُ فيه الفعل الذي من معناه لا من لفظه؛ إذ لم يجئ من لفظه الفعل، فالتَّقدير: أُنَزِّهُ اللهَ تنزيهاً، فوقع ﴿سُبْحَٰنَ﴾ مكانَ: تنزيهاً.

ولَمَّا كان حديث الإسراء مَظِنَّةَ أنْ يذهبَ الوهمُ إلى أنَّه تعالى زمانيٌّ أو مكانيٌّ صدَّره بما هو عَلَمٌ في تبعيده تعالى عمَّا لا يليق بشأنه.

ويجوز أن تكون كلمة ﴿سُبْحَٰنَ﴾ للتَّعجُّب بها، أشير إلى أعجبِ أمرٍ جرى بينَه وبينَ أفضل خلقه.

﴿ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ الإسراء: سيرُ الليل خاصَّة، فقوله:

﴿لَيْلًا﴾ لقَطْع مجاز السير خُفيةً، كما أنَّ قوله: ﴿يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ بعدَ قوله: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ﴾ [الأنعام: ٣٨] لقطع مجاز السَّير[١] السَّريع.

---

(١) في (ك) و(م): «سير».

والتَّنكيـر لتقليـل مدَّة الإسـراء، فإنَّه كمـا يدلُّ علـى البعضية في الأفـراد كذلك يـدلُّ علـى البعضيـة في الأجـزاء، دلَّ على ذلـك قول الشَّـيخ عبد القاهر فـي «دلائل الإعجـاز»: إن التَّنكيـر فـي ﴿حَيَوٰةٌ﴾ فـي قولـه تعالـى: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ﴾ [البقرة: ١٧٩] للدِّلالة على أنَّ تلك الحياة بعض حياة المهموم بقتله[١].

والثَّاني[٢] هو المراد، يشهد لذلك قراءة: (مِنَ اللَّيلِ)[٣]؛ أي: بعضه.

وهذا الإسراء كان جسمانيًّا، ولذلك كذَّبَتْ قريش به، وفي عبارة العبد إشارةٌ إلى ذلك.

﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ بعينه، أو من الحَرَم؛ فإنَّه مسجدٌ كلُّه.

﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾: بيتِ المقدس، سُمِّي أقصى لأنَّه لم يكن وقتئذ مسجد وراءَه.

﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ البركةُ: دُرور الخير وثبوتُه، وهي دينيَّة ودنيويَّة[٤]، وكلاهما مُرادٌ هاهنا؛ لأنَّه مَهبط الوحي ومعبدُ الأنبياء عليهم السلام[٥]، ومحفوف بالأنهار والأشجار.

والالتفات من الغيبة إلى التَّكلُّم لتعظيم تلك البركات والآيات.

---

(١) انظر: «دلائل الإعجاز» (ص: ٢٨٩).

(٢) أي: دلالة التنكير على البعضية في الأجزاء.

(٣) تنسـب لعبـد الله بـن مسـعود وحذيفة رضـي الله عنهمـا. رواها عـن حذيفـةَ الطبريُّ في «تفسـيره» (١٤/ ٤١٣)، وقـال: وكـذا قـرأ عبد الله.

(٤) في (م): «ودنياوية».

(٥) في هامش (ف) و(م): «قال القاضي: من لدن موسى عليه السلام. وفيه نظر. منه».

﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَـٰتِنَآ﴾ كقطعه مسيرةَ شهرٍ، ومشاهدتهِ بيتَ المقدس في برهةٍ من الزَّمان، وتمثُّلِ الأنبياء عليهم السلام، والوقوفِ على مقاماتهم.

وأمَّا البُراق وسرعة سيره فليسا منها؛ لأنَّه عليه السلام رأى الأوَّل قبل السَّير، والثاني قبل الوصول إلى المسجد الأقصى، فلا ترتُّب لرؤيتهما على السَّير إليه[1].

﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ﴾ بلا أُذُنٍ ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ بلا بَصَرٍ. دلَّ على ذلك صورةُ الحصر، فلا تحتاج إلى قرب المسموع وحضور المبصَر[2]، فلا يختصُّ بمكانٍ دونَ مكانٍ، فلم يكن الإسراء لأجله، بل أَجْلِ عبدِه.

بدأ بعبارة التَّنزيه، وختم بإشارته، فتجاوبَ طَرَفا الكلام.

* * *

(٢) ـ ﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِى وَكِيلًا ﴾.

﴿ وَءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَـٰبَ ﴾ التَّوراة.

﴿وَجَعَلْنَـٰهُ هُدًى لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا۟﴾ ﴿تَتَّخِذُوا۟﴾[3] قرئ بالياء على: لئلَّا يتَّخذوا، وبالتَّاء[4] على: أنْ لا تتخذوا، كقولك: كتبت إليه أن افعل كذا[5].

﴿مِن دُونِى وَكِيلًا﴾: ربًّا[6] تَكِلون إليه أموركم.

---

(١) في هامش (ف) و(م): «فيه إصلاح لما في كلام القاضي من الخلل، فتأمل. منه».

(٢) في (م): «البصر».

(٣) زيادة من (م).

(٤) قرأ بالياء أبو عمرو وباقي السبعة بالتاء. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٩).

(٥) في هامش (ف): «كتب ان فعل كذا»، والمثبت من «الكشاف» (٢/ ٦٤٨)، والكلام منه، وفيه: (وبالياء على: أي لا تتخذوا).

(٦) في (ف) و(ك): «ما».

(٣) ـ ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾.

﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ نصب على الاختصاص، أو النِّداء إن قرئ بالتَّاء الفوقانيَّة على النَّهي، أو على أنَّه أحد مفعولَي (لا تتخذوا)، و﴿مِن دُونِي﴾ حال من ﴿وَكِيلًا﴾.

وقرئ بالرَّفع[1] على أنه خبر مبتدأ[2] محذوف، أو بدلٌ من واو ﴿تَتَّخِذُوا﴾.

وفيه تذكيرٌ بإنعام الله تعالى عليهم في إنجاء آبائهم من الغرق، وإيماءٌ إلى أنَّ ذلك لكونهم أتباعَ نوح عليه السلام.

ثم قال في تعليل تلك الفضيلةِ الجليلةِ الثَّابتةِ له عليه السلام:

﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ وفيه حَثٌّ للذُّرية على الاقتداء به.

* * *

(٤) ـ ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿وَقَضَيْنَا﴾ أصل القضاءِ: الإحكام والإتمام، وإنَّما قال:

﴿إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ لتضمين معنى الإنزال؛ أي: أعلمنا إعلاماً محكَماً متمَّماً منزلاً إليهم في التَّوراة. وتفسير القضاء بالوحي يأباه.

﴿فِي الْكِتَابِ﴾ كما لا يخفى على ذوي الألباب.

---

(١) نسبت لمجاهد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥). وانظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٣٧)، و«البحر المحيط» (١٤/ ١٥).

(٢) «مبتدأ» سقط من (م) و(ك).

﴿لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ﴾ جوابُ قسمٍ محذوف، ويجوز أن يجري القضاء المبتوت مجرى القسم كأنه قال: وأقسمنا لتفسدن.

﴿مَرَّتَيْنِ﴾ أولاهما: مخالفة أحكام التَّوراة وقتلُ شعيا[1] عليه السلام، وثانيهما قتل يحيى وزكريا عليهما السَّلام.

ولا حاجة[2] إلى ما[3] قيل: إن المقتول في الأولى زكريَّا عليه السلام، وفي الثَّانية يحيى عليه السلام؛ لأنَّ الكرَّة الآتي ذكرها[4] لم تتخلَّل بينهما.

﴿وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ هو غلبة المفسدين منهم على المصلِحين إفراطاً مجاوزاً عن القَدْر. والعُلُوُّ لغةً: هو الغلبة، بحقٍّ كانَ أو باطلٍ.

* * *

(٥) - ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَفْعُولًا﴾.

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا﴾؛ أي: وقتُه، والوعد بمعنى الموعود، وهو العقاب، فلا حاجة إلى تقديره[5].

---

(١) في (ف) و(م): «شعيب»، وهو تحريف. انظر: «تفسير الطبري» (١٤/ ٤٦٩)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٢١ - ٢٢).

(٢) في هامش (م): «ولا وجه».

(٣) في (ك): «لما» بدل «إلى ما».

(٤) في هامش (م): «بقوله: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ﴾ منه».

(٥) أي: العقاب، ويشير إلى تقدير البيضاوي حيث قال: (وعد عقاب أولاهما). وجاء في هامش (ف) و(م): «نعم [لا] حاجة إلى تقدير الوقت؛ لأن المعنى على مجيئه لا على مجيء نفس الموعود. منه».

﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ﴾ هذا البعث من قبيل تولية بعض الظالمين على بعض، وكان على مقتضى الحكمة ولذلك أسنده تعالى إلى نفسه دون الجَوْس الآتي ذكره، فلا حاجة لصرفه[1] عن معناه إلى معنى التَّخلية.

﴿عِبَادًا لَّنَآ﴾ سنحاريب[2] وجنوده، وقيل: بُخْتَ نصَّر، وقيل: جالوت.

قطع إضافتهم عن نفسه[3] لعدم استحقاقهم للتَّشريف المستفاد منها، وأيضاً ما في التَّنكير من التَّهويل يناسب المقام.

﴿أُوْلِي بَأْسٍ﴾: ذي قوَّة وبطش في الحرب.

﴿شَدِيدٍ فَجَاسُواْ خِلَٰلَ ٱلدِّيَارِ﴾ وقرئ: (خَلَلَ)[4]، وهو واحد الخِلال، كجَبَلٍ وجِبالٍ، ويجوز أن يكون الخِلال أيضاً واحداً؛ أي: تردَّدوا وتخلَّلوا بين الدُّور في طلبكم للقتل[5] والسَّبي.

وقرئ بالحاء[6]، وهما أخوان.

﴿وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولًا﴾؛ أي: لا بُدَّ أنْ يُفعَل.

***

---

(١) في (م): «إلى صرفه».

(٢) في (ك): «سنجاريب».

(٣) في هامش (م): «يعني لم يقل: (عبادي)، كما في قوله: ﴿أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى﴾. منه».

(٤) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥)، و«البحر» (١٤/ ٢٠).

(٥) في (ف) و(ك): «في القتل».

(٦) أي: (فحاسوا)، ونسبت لأبي السمال. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٥)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٢٠)، إلا أنه وقع في «الشواذ»: بالحاء والشين.

(٦) - ﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾.

﴿ ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ ٱلْكَرَّةَ ﴾؛ أي: الدَّولة والغَلَبة ﴿عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: على الذين بُعِثوا عليكم.

﴿وَأَمْدَدْنَٰكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَٰكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴾ ممَّا[1] كنتم.

والنَّفيرُ: مَن ينفرُ معَ الرَّجلِ، ولا يلزم أن يكون من قومه، وقيل: جمعُ نَفَرٍ، وهم المجتمعون لأمرٍ، ولا يلزم أن يكون للذَّهاب إلى العدوِّ.

* * *

(٧) - ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ لِيَسُۥٓـُٔوا۟ وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا۟ مَا عَلَوْا۟ تَتْبِيرًا ﴾.

﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ﴾ لأنَّ جزاءَه لها.

﴿وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾؛ أي: فالإساءة لها، واللام للاستحقاق كما في قوله تعالى: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الرعد: ٣٤].

ولا وجهَ للحمل على الاختصاص؛ لأنَّ نفعَ الإحسان وضررَ الإساءة قد يتعدَّيان إلى الغير، على ما دلَّ عليه الأخبار وشهد له الآثار، وأمَّا الازدواج فإنَّما يصارُ إليه عند تعذُّر المعنى الحقيقيِّ.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْءَاخِرَةِ ﴾: وقتُ موعودِ المرَّة الآخرة، وجوابُ (إذا) محذوفٌ دلَّ عليه جواب الأولى؛ أي: بعثناهم، وإنَّما عطف بالفاء مع أنَّه مِنْ تفصيل المجمل

(١) في (ك) و(م): «كما».

ـ والظَّاهر فيه العطف بالواو ـ للدِّلالة على أنَّ مجيءَ وعدِ الآخرة لم يتراخَ عن كثرتهم وثروتهم، وذلك أنَّهم كلَّما ازدادوا عدداً وعُدَّة ازدادوا عدواناً وطغياناً، إلى أن تكاملَتْ أسبابُ العزَّة، ففاجأهم الله تعالى على العزَّة.

﴿لِيَسُـُٔواْ وُجُوهَكُمْ﴾ بياء الغائبة على الجمع[١]؛ أي: ليسوءَ هؤلاء وجوهكم، وإنَّما عدَّى المساءَة إلى الوجوه وإن كانت عليهم لأنَّ آثار الأعراض النَّفسانية ظهورها[٢] في الوجه.

وقرئ بياء الغائبة على الواحد[٣]، والضَّمير للقائهم للقراءة السابق[٤] ذكرها، أو لله تعالى للقراءة بالنُّون وفتح الواو[٥].

﴿وَلِيَدْخُلُواْ ٱلْمَسْجِدَ﴾: بيت المقدس، ويخرِّبوه ﴿كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وخرَّبوه.

﴿وَلِيُتَبِّرُواْ﴾؛ أي: ليدمِّروا[٦] ﴿مَا عَلَوْاْ﴾: ما غلبوه واستولَوا عليه، أو: مُدَّةَ علوِّهم.

﴿تَتْبِيرًا﴾: تفتيتاً. ومنه: التِّبرُ، لفُتاتِ الذَّهبِ.

* * *

---

(١) بعدها في (ف) زيادة: «وإنما»، ولا وجه يظهر لها.

(٢) في (ف): «ظهوراً».

(٣) وهي قراءة ابن عامر وحمزة وأبي بكر. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٩).

(٤) في (م): «السابقة».

(٥) وهي قراءة الكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٩).

(٦) في (ف) و(م): «ليدبروا». والمثبت من (م) وهو الصواب. انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٢).

(٨) ـ ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾.

﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ﴾ وعدٌ مِنَ الله تعالى أن يكشف[1] عنهم بعد المرَّة الآخرة.

﴿وَإِنْ عُدتُّمْ﴾ نوبةً أخرى ﴿عُدْنَا﴾ مرَّة ثالثةً إلى عقوبتكم. وقد عادوا فبعثَ اللهُ تعالى عليهم نبينا عليه السلام.

هذا مآلهم في الدُّنيا، ثمَّ ذكرَ مآلهم في الآخرة بقوله:

﴿وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ حَصِيرًا﴾: محبساً ضيِّقاً. قال القشيري: يُقال للذي يُفرَش: حصير؛ لحَصْر بعضه على بعض بالنَّسج[2].

***

(٩) ـ ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.

﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي﴾: للطَّريقة[3] التي ﴿هِيَ أَقْوَمُ﴾ الطُّرق.

﴿وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾ الفسقُ لا ينافي الإيمان ولا العمل الصَّالح، فلا خروجَ للفسَقَة بـأحد القيدَيْن المذكورَيْن، فلا حاجة إلى المكابرة بأن يُقال: كان النَّاس حينئذ إمَّا مؤمن تقي وإمَّا مشرك، وإنَّما حدث الفاسق بعد ذلك.

***

---

(١) في (ف): «ينكشف».

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٣).

(٣) في (ف): «للطريق».

(١٠) ـ ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾.

﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ عطفٌ على ﴿أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا﴾.

والمعنى أنَّه يبشِّر المؤمنين ببشارَتَيْن: ثوابهم[1]، وعقابِ أعدائهم.

﴿أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾ في زيادة ﴿أَعْتَدْنَا﴾ هاهنا إنباءٌ عن شدَّة الغضب في حقِّهم.

***

(١١) ـ ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا﴾.

﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ حذفت الواو من (يدعو) لفظاً لاستقبال اللَّام السَّاكنة، كما في قوله تعالى: ﴿سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ﴾ [العلق: ١٨]، وحذفت في الخطِّ أيضاً[2]، لكنَّها غير محذوفة معنًى.

﴿بِٱلشَّرِّ﴾ هو دعاؤه على نفسِه وأهله[3] ومالِه عندَ الضَّجر بما لا يحبُّ[4] أن يُستجاب له.

﴿ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ﴾: مثلَ دعاءِه بالخير.

يعني أنَّ القرآن يهديهم إلى ما فيه السَّلامة، وهم يأبون إلَّا أنْ يأتوا بما فيه النَّدامة.

ثمَّ ذكرَ أنَّ ذلك مِنْ عدمِ تثبُّته وقلَّة صبره فقال:

---

(١) في (ك) و(م): «ثواب».

(٢) «أيضاً» من (م).

(٣) «وأهله» من (م).

(٤) في (ف) و(م): «لا يجب».

﴿وَكَانَ ٱلۡإِنسَٰنُ عَجُولٗا﴾ العَجلَةُ: طلبُ الشَّيء قبلَ وقته الذي ينبغي أن يقعَ فيه، والسُّرعةُ: عملُ الشَّيء في أوَّلِ وقته.

* * *

(١٢) - ﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ لِّتَبۡتَغُواْ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكُمۡ وَلِتَعۡلَمُواْ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلۡحِسَابَۚ وَكُلَّ شَيۡءٖ فَصَّلۡنَٰهُ تَفۡصِيلٗا﴾.

﴿وَجَعَلۡنَا ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيۡنِۖ﴾ تدلَّان على القادر الحكيم[1] بتعاقُبهما على نسقٍ يترتَّب عليه آثارٌ غريبةٌ وأحكامٌ[2] عجيبةٌ.

﴿فَمَحَوۡنَآ ءَايَةَ ٱلَّيۡلِ وَجَعَلۡنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبۡصِرَةٗ﴾ الفاء فصيحة؛ كأنَّه قيل: وخالفنا بين الآيتين: فَجعلنا الآيةَ التي هي اللَّيل لِمَحْوِهِ؛ أي عديمَ النُّور، والآيةَ التي هي النَّهار مبصرةً؛ أي: مضيئةً أهلَه مبصرةً للنَّاس، مِن أبصره فبصُر، فإنَّ الإضاءة لازم الإبصار، على أنَّ الإضافة في الآيتين للتَّبيين.

وقيل: آيةُ اللَّيل القمَرُ، ومحوه: إخلاؤه عن[3] النُّور؛ فإنَّ ما يُرَى فيه نورُ الشَّمس، وآيةُ النَّهار الشَّمسُ، وإبصارُها: نورُها الذي يقع به الإبصارُ.

﴿لِّتَبۡتَغُواْ﴾ تعليلٌ لجعلِ آيةِ النَّهار مبصرةً.

﴿فَضۡلٗا﴾: رزقاً ﴿مِّن رَّبِّكُمۡ﴾ والابتغاءُ: الطَّلَبُ، والمعنى: لتقدروا في بياض النَّهار على تحصيل أسباب المعاشِ.

---

(١) «الحكيم» من (م).

(٢) في (ف): «وآثار».

(٣) في (ك): «من».

وفي عبارة الفضل إشارة إلى أنَّه لا يجبُ على الله تعالى أن يرزقَ عبادَه، وإنَّما ذلك تفضُّلاً، ففيه رَدٌّ على المعتزلة.

﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ﴾ تعليلٌ لمحو آية اللَّيل؛ أي: تعلموا باختلاف الجديدين عددَ السِّنين وجنسَ الحساب، وما تحتاجون إليه منه، أو: الحسابَ المتعلِّق بالأوقات، على أنَّ[1] التَّعريف للعهد، بقرينة ﴿عَدَدَ السِّنِينَ﴾، أو بنقص نور القمر شيئاً فشيئاً؛ لأنَّ معرفة السَّنة القمريَّة المعتبَرة عند العرب بذلك.

﴿وَكُلَّ شَيْءٍ﴾ كلمة ﴿وَكُلَّ﴾ للتَّكثير والتَّفخيم، لا للتَّعميم والإحاطة، كما سبق إلى وَهمِ مَن قال: مما تفتقرون إليه في دينكم ودنياكم[2].

﴿فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ بيَّنَّاه بياناً كافياً. والمقامُ مقامُ الامتنان بإتمام الإحسان، لا مقام الإلزام والإفحام[3]، كما سبقَ إلى بعض الأفهام.

***

(١٣) - ﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾.

﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ﴾ أرادَ بالطَّائر: حظَّه من الخير والشَّرِّ، كأنَّه طير إليه من عشِّ الغيب ووكر[4] القدر.

لما كانوا يتيمَّنون ويتشاءمون بسُنوح الطَّائر وبُروحه، استُعِيْرَ لِمَا هو[5] سببُ الفرحِ والتَّرح مِنْ قدَرِ اللهِ تعالى.

---

(١) «أن» سقط من (ك).

(٢) المراد البيضاوي القائل: وَكُلَّ شَيْءٍ تفتقرون إليه في أمر الدين والدنيا.

(٣) في (ف) و(م): «والإقحام».

(٤) تحرفت في النسخ إلى: «وذكر»، والمثبت من «تفسير البيضاوي».

(٥) في (ف): «هي».

﴿فِي عُنُقِهِ﴾ خصَّ العُنُق بالإضافة إليه مِن بين سائر الأعضاء؛ لأنَّ فيه يكون الزائن من القلائد والأطواق، والشَّائن من الأغلال والأوهان، فاستُعِيْرَ لمحلِّ إلزام الخير والشَّرِّ.

﴿وَنُخْرِجُ لَهُ﴾ اللَّام للاختصاص ﴿يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ يعني: وقتَ الموت، فإنَّه القيامة الصُّغرى. قال عليه السلام: «مَن مات فقد قامَتْ قيامتُه»[1].

﴿كِتَابًا﴾: هيكلاً مصوَّراً يصوِّر[2] أعمالَه.

﴿يَلْقَاهُ مَنْشُورًا﴾ لظهور تلك الهيئات فيه بالفعل مفصَّلةً، لا منطويةً كما كانت قبلَ ذلك عندَ كونها فيه بالقوَّة، وهما صفتان للكتاب، أو الأوَّل صفة والثاني حال من مفعوله.

وقرئ: (يُلقَّاهُ) على البناء للمفعول[3]، مِنْ لُقِّيتُه كذا.

* * *

(١٤) ـ ﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾.

﴿اقْرَأْ كِتَابَكَ﴾ على إرادة القول، فيقرأُ قارئاً كان أو غيرَ قارئ؛ لأنَّ الأعمال

---

(١) أخرجه الديلمي في «مسند الفردوس» (١١١٧) من حديث أنس رضي الله عنه. قال العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٣٦٨٠) (٢/ ١٠١٣): (رواه ابن أبي الدنيا في «كتاب الموت» بإسناد ضعيف). ورواه الطبري في «تفسيره» (٢٣/ ٤٦٨) موقوفاً من حديث المغيرة بن شعبة رضي الله عنه. وهذا القول نقله المؤلف عن الرازي في «تفسيره» (٢٠/ ٣١١)، وهو خلاف الظاهر.

(٢) في (م): «مصدراً مصور»، وفي (ك): «مصدراً بصور».

(٣) قرأ بها ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٩).

هناك متمثلةٌ[١] بصورها وهيئاتها، يعرفها كلُّ أحد، لا على سبيل الكتابة بالحروف فلا يعرفَها إلا مَن يقرأ، وهذا وجهُ ما روي عن قتادة: يقرأ ذلك اليومَ مَن لم يكن في الدنيا قارئاً.

﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ﴾ الباء مزيدة للإشارة إلى لصوق ذلك الوصف ولزومه لها.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ قدِّم الظرف لتخصيص الحكم المذكور بذلك الوقت.

﴿عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾ حاسباً أو كافياً، نصبٌ على التمييز، وتعديتُه بـ(على) لتضمُّنه معنى الشهادة، وتذكيرُه على أن الحساب والشهادة مما يتولَّاه الرجال، فكأنه قيل: كفى بنفسك رجلاً حسيباً، وتقديم الصلة للإشارة إلى أنَّ لكلِّ امرئٍ يومئذ شأنٌ يغنيه عن الْتفاتٍ إلى غيره.

* * *

(١٥) ـ ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾.

﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ ﴾: فجزاءُ اهتدائِهِ له.

﴿وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ ﴾ فوبالُ ضلالِه عليها.

وأمَّا أنَّ الغير لا ينتفع ولا يتضرَّر بضلاله فلا دلالة فيما ذكر عليه، ولا صحَّة له أيضاً؛ لِـمَا قدَّمناه في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾.

﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾ لِمَا مرَّ من تفسيره في سورة الأنعام.

---

(١) في (م): «متمثلاً».

﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ الجمهور على أنَّ هذا في حكم الآخرة خاصَّة، وقالت فرقة: إنه في حكم الدُّنيا والآخرة. ذكره القرطبي[١].

وعلى كلَا التَّقديرَيْنِ لا دلالة فيه على أنَّه لا وجوب قبل الشَّرع: أمَّا على الأوَّل فظاهر، وأمَّا على الثَّاني فلأنَّه لا يلزم من تعليقِ مجموع الحكمَيْن على البعثة تعليقُ كلٍّ منهما عليها.

وإنَّما نفى الكينونة دون البعث لأنَّ المراد الإخبار عن عادته تعالى لا الوعدُ، فعدمُ العذاب مقطوعٌ به إلى وقت البِعْثَة.

وكلمة ﴿حَتَّىٰ﴾ لبيان غاية الأمن عن العذاب، لا لبيان[٢] غاية عدم العذاب حتى يتعيَّنَ العذاب عند البعثة.

ولَمَّا ذكر تعالى أنَّه لا يعذِّب أحداً حتى يبعثَ إليه رسولاً بَيَّنَ بعدَ ذلك علَّة[٣] إهلاكهم بعد البعث ـ وهي مخالَفة أمر المبعوث إليهم ـ فقال:

(١٦) ـ ﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا﴾.

﴿وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً﴾؛ أي: إذا تعلَّقَ إرادتُنا في الأزل لإهلاك قريةٍ بما فيها في وقتٍ مخصوصٍ.

﴿أَمَرْنَا﴾؛ أي: وُجِدَ منَّا الأمر قبلَ مجيء[٤] ذلك الوقت.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٤٣).

(٢) «غاية الأمن عن العذاب، لا لبيان» سقط من (م).

(٣) «علة» من (ك).

(٤) «مجيء» من (م).

﴿مُتۡرَفِيهَا﴾: منعَّميها[١]، خصَّهم بالذِّكْرِ ـ مع عموم الأمر[٢] للفريقَيْن بدلالةِ أنَّ الكلام في بيان سبب استحقاق أهل القرية لعذاب الاستئصال ـ لأنهم الرؤساء المتبوعون، ولأنهم مأمورون بنوعي العبادة البدني والمالي.

﴿فَفَسَقُواْ﴾ فَوُجِدَ[٣] الفِسْقُ ـ وهو الخروج عن الطَّاعة ـ منهم؛ أي: من أهل القرية كلِّهم؛ لِمَا نبَّهْتُ على أنَّ غير المترفين أيضاً مأمورون، لكنه استغنى بذكر المترفين عن غيرهم كما اكتفى بذكر الملائكة عن ذكر الجنِّ في قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قُلۡنَا لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ ٱسۡجُدُواْ﴾ [الإسراء: ٦١] على ما مرَّ تحقيقه في تفسير سورة البقرة.

وقرئ: (أَمِرْنا)[٤]، بمعنى: كثَّرنا، لقول العرب: أَمِرَ القومُ ـ بكسر الميم ـ ؛ أي: كثروا، وأمَرهم الله ـ بالفتح ـ؛ أي: كثَّرهم، فصارَتِ الحركة مما يصير به الفعل متعدِّياً، كما في شَتِرَتْ عينُ الرَّجل بكسر التَّاء، وشَتَرها الله بفتحها[٥].

---

(١) في (ف): «متنعمها».

(٢) في النسخ: «مع عدم الأمر»، والصواب المثبت. وانظر: «روح المعاني» (١٤/ ٤٤٤)، ولفظه: (مع توجه الأمر إلى الكل..)

(٣) في (ف) و(م): «فوجدوا».

(٤) نسبت ليحيى بن يعمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٦).

(٥) وفي كلام المؤلف هنا قصور؛ فإن هذه القراءة تنقض ما ذكره من أمر التعدية واللزوم في الفعل المذكور، لأن الرواية فيها بكسر الميم ومع ذلك فهي متعدية، وبها رد البعض ما ذكر من الكلام في قصر التعدية على الفتح واللزوم على الكسر، فذكروا أن كسر الميم لغةٌ كفتحها، ومعناها: كثرنا، حكى أبو حاتم عن أبي زيد: أَمَر الله مالَه وأمِره ـ بفتح الميم وكسرها ـ؛ أي: كثَّره. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١١٩)، و«معاني القرآن» للنحاس (٤/ ١٣٣)، و«البحر» (١٤/ ٤١) وفيه تفصيل المسألة.

ويؤيِّده قراءة: (آمَرْنا) بالمد[١]، و: (أمَّرْنا) بالتَّشديد[٢].

﴿فِيهَا﴾ فيه دلالة[٣] على أنَّ هلاك نفس القرية أيضاً داخل[٤] تحت المراد، فلا مجاز في لفظ القرية[٥]، كما لا مجاز في الإرادة والأمر.

﴿فَحَقَّ عَلَيْهَا﴾؛ أي: على القرية بما فيها.

﴿ٱلْقَوْلُ﴾: هو وعيد الله تعالى الذي قاله رسولهم عليه السلام.

﴿فَدَمَّرْنَٰهَا﴾ التَّدمير: الإهلاك مع طمس[٦] الأثر وهدم البناء مع إهلاك أهلها.

﴿تَدْمِيرًا﴾ ذكر المصدر للمبالغة في العذاب الواقع بهم.

* * *

(١٧) ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنَ ٱلْقُرُونِ مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ ۗ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ (كم) في موضع نصب بـ ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِنَ ٱلْقُرُونِ﴾ بيان لـ (كم) وتمييز له؛ أي: كثيراً من القرون أهلكنا.

﴿مِنۢ بَعْدِ نُوحٍ﴾ خصَّه بالذِّكْرِ لأنَّه أوَّلُ مَنْ حَلَّتْ بقومه عقوبة الاستئصال.

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾ يدرِك بواطنها وظواهرها، فيعاقب عليها.

---

(١) نسبت لخارجة عن نافع. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٦).

(٢) نسبت لأبي عثمان النهدي، ورويت عن أبي عمرو وعاصم في غير المشهور عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٦).

(٣) «دلالة» سقط من (ف)، و«فيه» سقط من (ك).

(٤) في (ك) و(م): «داخلة».

(٥) «في لفظ القرية» من (م).

(٦) في (ف) و(م): «طمث».

وتقديم الخبير لتقدُّم متعلَّقه[١] من المعتقدات والنِّيَّات؛ فإنَّها أقدم على الأعمال الظَّاهرة التي هي متعلَّقات البصر، والعقاب عليها أشدُّ، والعفو عنها أقلُّ.

* * *

(١٨) - ﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾.

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ﴾: مَنِ استمرَّ على إرادة الدَّار العاجلة ولم ينقطع عنها، دلَّ على ذلك زيادة ﴿كَانَ﴾[٢] هنا دون قَسِيمه، وأما اعتبارُ قصر الإرادة عليها بمعونة[٣] المقابلة فيردُّه عدم صحَّة اعتباره في المقابل، ولا وجه لتخصيصه[٤] مع الاشتراك في العلَّة.

﴿عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ﴾ قيَّد المعجَّل والمعجَّل[٥] له بالمشيئة والإرادة على اختلاف العبارة؛ لأنَّه لا يجدُ كلُّ مريدٍ ما أراده، ولا كلُّ واحدٍ جميعَ مراده.

ومدلولُ الكلام: أنَّ حصول المرام موقوفٌ على مشيئة الله تعالى، وأمَّا أنَّه لا دخل فيه للهمِّ وللإرادة فلا دلالة عليه فيه؛ فإنَّه يجوز أن يكون ذلك[٦] من الأسباب العادية، ومشيئة الله تعالى إنَّما تتعلَّق بشيءٍ بعد تمام الأسباب العادية إلَّا في خوارق العادات.

---

(١) في النسخ: «وتقديم الخبر تقديم متعلقه»، والصواب المثبت. انظر: «روح المعاني» (١٤/ ٤٤٩).

(٢) «كان» سقط من (ف).

(٣) في (ك): «المعونة».

(٤) في (ك) و(م): «للتخصيص».

(٥) «والمعجل» من (م).

(٦) «ذلك» من (م).

و﴿لِمَن نُّرِيدُ﴾ بدل من ﴿لَهُۥ﴾ بدلَ البعض من الكل.

وقرئ: (يشاء)[١]، والضمير فيه لله تعالى؛ ليطابق المشهورة[٢].

﴿ثُمَّ جَعَلْنَا﴾: صيَّرنا ﴿لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا﴾ حال من الضمير في[٣] ﴿لَهُۥ﴾، أو من ﴿جَهَنَّمَ﴾.

﴿مَذْمُومًا مَّدْحُورًا﴾: مطروداً من رحمة الله تعالى.

***

(١٩) ـ ﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا﴾.

﴿وَمَنْ أَرَادَ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا﴾: حقَّها من السَّعي، وهو الإتيان بالأوامر والانتهاء عن المناهي بالجدِّ.

قال الرَّاغبُ: السَّعيُ: المشيُ السَّريع، وهو دونَ العَدو، ويُستعمَل للجدِّ في الأمر خيراً كان أو شرًّا[٤].

وفائدة اللَّام اعتبار النِّيَّة والإخلاص

﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ هو الشَّرط الأعظم، فلا ينبغي السَّعيُ إلَّا به.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٦)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٤٦)، و«البحر» (١٤/ ٤٤).

(٢) في (ف): «المشهور».

(٣) «الضمير في» من (م).

(٤) انظر: «المفردات في غريب القرآن» (مادة: سعى).

﴿فَأُولَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى مَنِ اتَّصف بهذه الأوصاف ﴿كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ من الله تعالى؛ أي: مقبولاً عنده مثاباً عليه.

* * *

(٢٠) ـ ﴿كُلّٗا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾.

﴿كُلّٗا﴾ كِلَا[١] الفريقَيْن، والتَّنوين بدلٌ مِنَ المضاف إليه ﴿نُّمِدُّ﴾ الإمدادُ: المواصلةُ بالشَّيء ﴿هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ﴾ بدل[٢] من ﴿كُلّٗا﴾ بدل تفصيل[٣].

﴿مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ﴾ متعلِّق بـ ﴿نُّمِدُّ﴾، والعطاء بمعنى المعطَى.

﴿وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا﴾: ممنوعاً عن عباده؛ مؤمناً كان أو كافراً.

* * *

(٢١) ـ ﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾.

﴿ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ﴾ في العطاء، وانتصاب ﴿كَيۡفَ﴾ بـ ﴿فَضَّلۡنَا﴾ على الحال.

﴿وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ﴾ من درجات الدُّنيا، و﴿دَرَجَٰتٖ﴾ منصوب على التَّمييز.

﴿وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا﴾؛ أي: التَّفاوت فيها أكبر[٤]؛ لأنَّه بالجنَّة ودرجاتها وبالنَّار ودركاتها.

---

(١) في (ك) و(م): «كل من».

(٢) في (م): «بدلان»، وفي (ك): «بدلا».

(٣) في (ف) «من تفصيل»، والمثبت من (ك) و(م)، والمعنى: بدل من ﴿كُلّٗا﴾ بدلَ كلٍّ على جهة التفصيل؛ أي: نمد هؤلاء المعجل لهم وهؤلاء المشكور سعيهم. انظر: «روح المعاني» (١٤/ ٤٥٥).

(٤) «أكبر» من (م).

(٢٢) ـ ﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾.

﴿ لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ ﴾ الخطاب للإنسان، أو للنَّبيِّ عليه السلام والمراد أمَّته.

والجَعْلُ بمعنى التَّصيير بالعقد[1].

﴿فَتَقْعُدَ ﴾: فتبقى عاجزاً؛ فإن القعود ممَّا يُكنى به عن العجز.

﴿مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴾: جامعاً على نفسك الذَّمَّ من الملائكة والمؤمنين، والخذلانَ من الله تعالى.

* * *

(٢٣) ـ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴾.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾: أمرَ أمراً مقطوعاً به ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ ﴾: بأن لا تعبدوا ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ ويجوز أن تكون (أنْ) مفسِّرة، و(لا) ناهية.

قال القرطبي: في مصحف عبد الله: (ووصَّى ربك)، وذكر أبو حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه[2]: (ووصَّى ربك) فالتصقت إحدى الواوين بالصَّاد، فقُرِئتْ: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ ﴾؛ إذ لو كان على القضاء ما عصى اللهَ أحدٌ. وقالَ الضَّحَّاك مثلَ ذلك.

---

(١) «بالعقد» من (م). والتصيير يكون بالفعل نحو: صيرت الحديد سيفاً والسبيكة سواراً، وقد يكون بالقول كالتسمية في ﴿ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ ﴾ وقد يكون بالعقد. انظر: «حاشية الشهاب» (٢/ ١٦).

(٢) «أنه» من (ف).

ثم أبى أبو حاتم أن يكون ابن عبَّاسٍ قال ذلك، وقال: لو قلنا هذا لطعن الزَّنادقة في مصحفنا، وأمَّا التَّعليل الذي نسبوه إليه فهو منافٍ لِمَا نُقِلَ عنه مِن أنَّه ليسَ قضاءَ حكمٍ بل هو قضاءُ أمرٍ[1].

﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ﴾: وبأن تحسنوا بالوالدين ﴿إِحْسَانًا﴾ ويجوز أن تتعلَّق الباء بالإحسان، وقد مرَّ في تفسير سورة[2] الأنعام تحقيقُ وجهِ جواز تقدُّم صلة المصدر.

﴿إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا﴾ ﴿إِمَّا﴾ هي (إنْ) الشَّرطيَّة زيدت عليها (ما) تأكيداً لها، ولذلك صحَّ دخول النُّون المؤكِّدة في الفعل، و﴿أَحَدُهُمَا﴾ فاعل ﴿يَبْلُغَنَّ﴾، وبدلٌ من الألف الراجع إلى الوالدين على قراءة: ﴿يَبْلُغَانِّ﴾[3]، و﴿كِلَاهُمَا﴾ عطف على ﴿أَحَدُهُمَا﴾ على الاحتمالَين، ولا احتمال لأن يكون تأكيداً لضمير ﴿يبلغان﴾، لا لكونه معطوفاً على البدل؛ لأنَّه لا يقتضي أن يكون بدلاً فإن عطف التأكيد على البدل شائع، بل لأنَّ فيه دلالة على أنَّ التَّأكيد غير مراد في المقام؛ لأنَّ فائدة تأكيد التَّثنية الشُّمول والإحاطة، ولو قصدت تلك الفائدة لَمَا قيل: ﴿أَحَدُهُمَا﴾، فالمانع ذكره لا عطفه على البدل.

وإنَّما قيَّد بقوله: ﴿عِندَكَ﴾ لأنَّ مراعاة الأدب مع طول المصاحبة أشقُّ، فكانت مظنَّة التَّقصير، فتدُورك به.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٥٠)، وانظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٠)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٦). و«تفسير ابن أبي حاتم» (٧/ ٢٣٢٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٤٧). وجاء في هامش (ف): «وحكي عن الضحاك بن مزاحم أنه قرأها: (ووصى ربك)، قال: إنهم ألصقوه بالصاد، فصار قافاً. من تفسير البغوي. منه».

(٢) في (ك): «مر تفسيره في سورة».

(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٩).

وإنَّما خَصَّ حالةَ الكبر لأنَّ مَنْ بلغَها يسوءُ خُلُقُه، فكان فيه تقويةٌ لِمَا ذُكِرَ آنفاً من المظنَّة، وأيضاً هي حالة يحتاجان فيها إلى برِّه؛ لتغيُّر الحال عليهما بالضَّعف.

﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ﴾ أراد تعميم النَّهي لكلٍّ منهما، لا تقييدَه بحالة اجتماعهما؛ لعدم تحمُّله أحدَ التَّقديرَيْن.

﴿أُفٍّ﴾: صوتٌ يدلُ على التَّضجُّر، وقيل: اسم الفعل الذي هو أتضجَّر، وهو مبني على الكسر لالتقاء الساكنين.

وتنوينه في قراءة نافع وحفص للتَّنكير، وقرئ بالفتح على التَّخفيف[1]، وقرئ منوناً وبالضَّم للإتباع[2].

والنَّهي عن هذه اللَّفظة الدَّالة على التَّضجر والبَرَم[3] يُفصح عن النَّهي عن سائر أنواع الإيذاء بطريق الدِّلالة.

وقال الأصمعيُّ: الأفُّ: وسخ الأذن، والتُّفُّ وسخ الأظفار، فكثر استعماله حتى ذكر في كلِّ ما يُتأذَّى به[4]. وعلى هذا يكون النَّهي عن الكلِّ بطريق العبارة.

﴿وَلَا تَنْهَرْهُمَا﴾ النَّهْرُ: الزَّجْرُ والغِلْظَة.

﴿وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا﴾ وهو السَّالمُ عن كلِّ عيب.

---

(١) قرأ نافع وحفص بالتنوين وكسر الفاء، وابن كثير وابن عامر بفتح الفاء من غير تنوين، وباقي السبعة بكسرها من غير تنوين. انظر: «التيسير» (ص: ١٣٩).

(٢) انظر: «الكشاف» (٢/ ٦٥٧)، وفيه: (وقرئ: أفّ، بالحركات الثلاث، منوناً وغير منون: الكسر على أصل البناء، والفتح تخفيف للضمة والتشديد كثم، والضم إتباع كمنذ). وانظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٦)، و«المحتسب» (٢/ ١٨).

(٣) (البرم): السآمة والضجر. انظر: «القاموس» (مادة: برم).

(٤) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (١٤/ ١٨١).

(٢٤) ـ ﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴾.

﴿ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ ﴾؛ أي: قل لهما قولاً كريماً بدلَ القول اللَّئيم، وهو أفٍّ، وافعل لهما الفعل اللَّطيف بدل الفعل العنيف، وهو النَّهْرُ. نهى[1] عن قولٍ وفعلٍ، وأمر بقولٍ وفعلٍ بدلاً عنهما.

وفي تقرير الثَّاني وجهان:

أحدهما: الطَّائر إذا أراد الطَّيران والارتفاع نشرَ جناحه[2]، وإذا أراد ترك ذلك خفض جناحه، فصار خفض الجناح مجازاً مرسلاً مرتَّباً على الكناية عن فعل التَّواضع.

والثَّاني: أنَّ الطَّيرَ[3] إذا ضمَّ فرخه إليه للتَّربية خفضَ له جناحَه، فخفضُ الجناح في الأصل كناية عن حسن التَّدبير، فكأنَّه قيل للولد: اكفل والديك بضمِّهما إلى نفسك كما فُعِلَ ذلك بك حال صغرك، يرشدك إلى هذا قوله: ﴿كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا﴾، ويقوِّي الأوَّل إضافة الجناح إلى الذُّل بطريق الاستعارة التَّخييلية.

وقرئ: (الذِّلّ) بالكسر[4]، وهو الانقياد.

﴿مِنَ ٱلرَّحْمَةِ﴾: من فَرْط رحمتك إليهما، حيث افتقرا إلى مَن كان[5] أفقر خلق الله إليهما.

---

(١) في (ف): «نهر».

(٢) في (ك): «جناحيه».

(٣) «أن الطير» من (م).

(٤) نسبت لأبي بكر الصديق رضي الله عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٦).

(٥) في (ف) و(م): «حيث افتقر إلى من هو»، وسقطت «هو» من (ك). والمثبت من المصادر. انظر: «الكشاف» (٢/ ٦٥٨)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٥٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٦٧).

﴿وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا﴾: وادعُ اللهَ تعالى أن يرحمهما برحمته الباقية، ولا تكتفِ برحمتك الفانية، والكفر لا يمنع عن ذلك ما داما حيَّيْن؛ لأنَّ الهداية إلى الإيمان من جملة الرَّحمة بل من معظمها. وصحَّة التَّثنية في قوله:

﴿كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ باعتبار أن التربية لا تكون إلا عن رحمة، فذكرُ تلك التربيةِ ذكرٌ للرحمة اقتضاءً، فكأنه قال: كما رحماني وربَّياني صغيراً، وبالعبارة المذكورة نبّه على العلة الموجِبة للإحسان إليهما واسترحامَ الله تعالى لهما، وهي تربيتُهما له صغيراً، وتلك الحالة مما يزيد إشفاقاً لهما ورحمةً؛ إذ هي تذكير بحالة إحسانهما له وقتَ أنْ لا يقدر على الإحسان لنفسه.

* * *

(٢٥) ـ ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا﴾.

﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ﴾ من قَصْدِ البرِّ إليهما، واعتقادِ ما يجب لهما من التَّوقير. وكأنَّه تهديدٌ على أنْ يُضْمِرَ لهما كراهةً واستثقالاً[1].

﴿إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ﴾: قاصدين الصلاح ﴿فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ﴾ الأوَّابُ: الرَّجَّاعُ عن ذنبه بالتَّوبة.

﴿غَفُورًا﴾ ما فرط منهم عند حرج الصَّدر من أذيَّة أو تقصير، وفيه تشديدٌ عظيمٌ.

ويجوز أن يكون عامًّا لكلِّ تائبٍ، ويندرج فيه الجاني على أبويه التَّائبُ من جنايته اندراجاً أوَّليًّا؛ لوروده على أثره.

* * *

(١) في (م): «واستقلالاً».

(٢٦) ـ ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾.

﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ لَمَّا أمرَ ببرِّ الوالدين أمرَ بصلة القرابة.

والحقُّ هنا: ما يتعيَّن له من صلة الرَّحم، وسدِّ الخلَّة، والمواساة عند الحاجة بالمال والمعونة بكلِّ وجهٍ.

﴿ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ ﴾ قد مرَّ تفسيرهما.

﴿ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴾ أصل التَّبذير: التَّفريق، من إلقاء البِذر في الأرض، وهو تفريق حبَّاته.

والفرق بينه وبين الإسراف: أنَّ الإسراف تجاوزٌ في الكميَّة، وهو جهل بمقادير الحقوق، والتَّبذيرُ تجاوزٌ عن موضع الحقِّ، فهو جهلٌ بمواقعها، وكلاهما مذمومان، والثَّاني أدخلُ في الذَّمِّ، ويُفصح عن التَّفاوت بينهما قوله: ﴿ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤١]، وقوله:

(٢٧) ـ ﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾.

﴿ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ ﴾: أتباعَهم الملازِمين لهم، فإنَّ العرب تسمِّي الملازم للشيء أخاً له، فتقول: أخو المكارم: إذا كان مواظباً عليها.

﴿ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴾: كثيرَ الكفران لِنِعَمه، جَحوداً لحقوقه. ودخول (كان) فيه إخبارٌ لعادته ومذهبه[1].

* * *

(١) في (م) زيادة: «في القديم».

(٢٨) ـ ﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾.

﴿وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا﴾؛ أي: إن عرضَتْ لك حاجةٌ أحوَجَتْك إلى الإعراض عن هؤلاء المحتاجين لضيقِ يدٍ انتظارَ الرِّزق ترجوه من الله تعالى.

﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾ فلا تدعْ تعهُّدَهم بالقول الجميل، والميسورُ مَن يُسِرَ الأمرُ، مثل: سُعِد ونُحِس.

كان النَّبيُّ عليه السلام إذا سُئِلَ ولم يكن عنده ما يعطيه سكتَ انتظاراً لرزقٍ يأتي من الله تعالى؛ كراهةَ الرَّدِّ، فنزلَتْ هذه الآية، فكان بعد ذلك إذا سُئِلَ ولم يكن عنده ما يعطي قال: «رزقنا الله وإيَّاكم من فضله»[1].

وذلك قوله: ﴿فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا﴾؛ أي: لا تسكت فيكونَ إيحاشاً لهم، ولا تؤيسهم[2] فيكونَ إيلاماً لهم.

ولا يجوز أن يتعلق ﴿ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ﴾ بالجواب؛ لأنَّ ما بعد الفاء لا يعمل فيما قبلها في غير باب (أمَّا) وما يلحق بها في المذهب المنصور، إلَّا إذا أريد التَّعلُّقُ المعنويُّ، فيُضمَرُ ما يَنصبه[3]، ويُجعل المذكور جارياً مجرى التفسير.

***

---

(١) ذكرته كتب التفسير دون. انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٣٦)، و«التفسير الوسيط» للواحدي (٣/ ١٠٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٥٠).

(٢) في (ك): «توئسهم»، وفي (ف): «تومسهم»).

(٣) في النسخ: «فيضمن ما تضمنه». والتصويب من «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٧)، و«روح المعاني» (١٤/ ٤٨٨).

(٢٩) ـ ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴾.

﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ ﴾ تمثيلان لمنع الشَّحيح وإتلاف المبذر، نهى عنهما أمراً بالاقتصاد الذي هو بين التَّبذير والإمساك، وأمَّا الكرم فلا اختصاصَ له ببذل النَّوال، بل يعمُّ سائر الأحوال.

﴿فَتَقْعُدَ﴾: فتبقى عاجزاً.

﴿مَلُومًا﴾: يلومُك النَّاسُ على الشُّحِّ، وهذا أثر المنهيِّ أولاً[1].

﴿مَّحْسُورًا﴾: منقطعاً عن النَّفقة والتَّصرُّف بسبب التَّبذير، وهذا أثر المنهي ثانياً.

والأوجه أن يكون كلاهما مرتَّباً على الثَّاني، وأمَّا الأوَّل فقد اكتُفي فيه[2] بما فُهم من تمثيله على أقبح وجهٍ في التَّصوير.

***

(٣٠) ـ ﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا ﴾.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ ﴾: يوسعه ويضيِّقه لمن يشاءُ، لا لعجزٍ ولا لبخلٍ.

﴿إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا﴾ عالماً بخفيَّات أمورهم.

﴿بَصِيرًا﴾ بمصالحهم، فيوسع لقومٍ ويضيِّق لآخرين على مقتضى علمه وحكمته.

ويجوز أن يكون المعنى: أنَّ البسط والقبض يليق له تعالى العالِـمِ بالسَّرائر

---

(١) في النسخ: «ولا»، والصواب المثبت.

(٢) في (ك) و(م): «اكتفى به».

والظَّواهر، وأمَّا العباد فحقُّهم أن يقتصدوا، أو أنَّه تعالى يبسط تارة ويقبض أخرى، فاستنُّوا بسنَّته ولا تُفْرِطوا[١] ولا تُفرِّطوا، وعلى كِلا التَّقديرَيْن يكون جارياً مجرى الاستئناف للتَّعليل.

ويجوز أن يكون تمهيداً لقوله:

* * *

(٣١) ـ ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾.

﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾: مخافة فقرٍ، وكان هذا نهياً عن وأدِ البنات، وكانوا يفعلونه.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ﴾ لا أنتم، فلا وجهَ لقتلهم بسبب الرِّزق، وزيادة قوله:

﴿وَإِيَّاكُمْ﴾ لبيان أنَّ رزق الآباء أيضاً على الله تعالى، فكيف يتولَّى رَزْقَ الغير مَن يعجزُ عن رَزْق نفسه.

﴿إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا﴾ لِـمَا فيه من قطع التَّناسل وانقطاع النَّوع.

قرأ الجمهور: ﴿خِطْـًٔا﴾ بكسر الخاء وسكون الطاء والهمزة والقصر، وقرأ ابن عامر: ﴿خَطَـًٔا﴾ بفتح الخاء والطَّاء والهمزة والقصر[٢]، وقرأ ابن كثير: ﴿خِطَآءً﴾ بكسر الخاء وفتح الطَّاء والهمزة[٣] والمدِّ[٤].

---

(١) «ولا تفرطوا» من (م).

(٢) هي رواية ابن ذكون عنه. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٠).

(٣) «والهمزة» من (م).

(٤) انظر: «التيسير» (ص: ١٣٩ ـ ١٤٠).

وقال النَّحاسُ: لا أعرف لهذه القراءة وجهاً[1]، ولذلك جعلها أبو حاتم غلطاً.

وقال أبو علي: هي مصدر خاطأ يُخاطئ، وإنْ كنَّا لا نجد: خاطأ، ولكن وجدنا: تخاطأ، وهو مطاوع خاطأ فدلَّنا عليه[2].

والخِطْءُ والخَطَأ مصدر خَطِئ يَخْطأُ كالحِذْر والحَذَر.

ويقال: خَطِئَ: إذا أثم، وأخطأ: ضدُّ تعمَّد.

والخِطْءُ ـ بالكسر ـ لا يكون إلَّا تعمُّداً، والخَطَأ ـ بالفتح ـ قد يكون عمداً، وقد يكون خطأً.

* * *

(٣٢) ـ ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾.

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰٓ ﴾ بمباشرةِ مقدِّماته، وهذا نهيٌ عنه بأبلغ وجهٍ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً ﴾: فعلةً ظاهرةً في القبح متناهيةً فيه.

﴿وَسَآءَ سَبِيلًا ﴾: وبئس طريقاً طريقُه، لا لأنَّه غصب على الإبضاع؛ لأنَّه غير لازم له، بل لأنَّه يؤدِّي إلى النَّار.

* * *

(٣٣) ـ ﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴾.

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ١٤٧).

(٢) انظر: «الحجة» لأبي علي الفارسي (٥/ ٩٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٥٢)، و«البحر» (١٤/ ٦٧ ـ ٦٨)، وعنه نقل المؤلف.

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ ﴾ قتْلَها بأنْ عصَمها وحقن دمها بالإسلام، أو بالعهد.

﴿إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلَّا بحقٍّ يوجب قتلَها كالرَّجم، أو يبيحه كالقِصاص.

قيل: إلَّا بإحدى ثلاثٍ: كفرٍ بعد إيمانٍ، وزناً بعد إحصانٍ، وقتلِ مؤمن معصوم عمداً. وفيه نظرٌ ذكرناه في تفسير[1] سورة الأنعام[2].

﴿وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا﴾ غير موجَب لقتله، ولا مبيحٍ له، سواءٌ كان عمداً أو خطأ، فإن الظُّلم غير مشروط بالعمد، شهد[3] بذلك أنهم شرطوا الأوَّل في الشَّهيد دون الثَّاني.

﴿فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ﴾: هو مَن له حقُّ الطَّلب بدمه شرعاً.

﴿سُلْطَانًا﴾ تسلُّطاً بالمؤاخذة بمقتضى القتل على مَن عليه.

﴿فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ﴾ نهيٌ عمَّا كانت الجاهلية تفعلُه مِن قتلِ الجماعة بالواحد.

قرأ ابن عامر وحمزة والكسائي بتاء المخاطبة جزماً، والخطاب للوليِّ، وقرأ الباقون بياء الغائبة جزماً، والضمير يرجع إلى الوليِّ[4].

ورجوعه إلى القاتل وتوجيهُ الخطاب إليه، تأباه عبارة الإسراف؛ فإنَّ حقَّه النَّهيُ عن القتل مطلقاً.

---

(١) «تفسير» من (ك).

(٢) لم يرد أي نظر على ما ذكر من هذه الثلاثة عند تفسير شبيهتها في سورة الأنعام.

(٣) في (ف): «شهيد».

(٤) انظر: «التيسير» (ص: ١٤٠). ونسبها لحمزة والكسائي فقط. وقال في «البحر المحيط» (١٤/ ٧٢): في نسخة من «تفسير ابن عطية»: «وابن عامر. وهو وهم».

﴿إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا﴾ تعليلٌ للنَّهي على الاستئناف، والضَّمير للوليِّ لتناسق الضَّمائر.

ونصرُه بتسليط الله تعالى إيَّاه على القاتل، وأمرِ[1] الولاة بمعاونته.

ووجه التَّعليل: أنَّ الوليَّ إن[2] أسرف في القتل وتجاوز عن حدِّ الشَّرع ينقلب عليه الأمر ويدخل تحت القاتلِ ظلماً.

***

(٣٤) - ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾.

﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ﴾ قد مرَّ الكلام في نظيره[3].

والنَّفسُ ميَّالة إلى المال والمباشرةِ دون القتل، ولهذا خُصَّ النَّهيُ عن القربان بالأوَّلين.

﴿إِلَّا بِٱلَّتِى﴾: إلَّا بالطَّريقة الَّتي ﴿هِىَ أَحْسَنُ﴾ الطَّرائق.

﴿حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾ قد مَرَّ في (سورة الأنعام).

﴿وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ﴾ عامٌّ لِمَا عقده الإنسان بينه وبين ربِّه، وما عقده بينه وبين آدميٍّ في غير معصية.

﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾؛ أي: مسئولاً عنه، فحذف الجارُّ وأوصل ﴿مَسْـُٔولًا﴾ إلى الضَّمير، كما في قوله: ﴿وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠] أي: به.

---

(١) في (ف): «وأمره».

(٢) في (ك) و(م): «إذا».

(٣) «في نظيره» من (م)، والمراد ما جاء في شبيهة هذه الآية من سورة الأنعام.

وقيل: إنَّ العهد يُسـأَلُ تبكيتاً لناقضه، فيُقال: لم نقضْتَ؟ كما تسأَلُ الرَّحم عن وصلِها وقطعها.

قيل: ويجوز أنْ يُراد: صاحبُ العهد كان مسؤولاً، وعلى هذا لا يظهر وجهٌ للعدول[1] عن الضَّمير إلى الاسم الظاهر.

وقيل: أي: مطلوباً يُطلَب من العاهد أن لا يضيِّعه ويفيَ به.

وفيه تعسُّفٌ لفظاً ومعنًى؛ أمَّا الأوَّل فظاهر إذ حينئذٍ يكون المسؤول عدمَ تضييعه لا نفسَه، وأمَّا الثَّاني فأظهر؛ لأنَّه حينئذ لا يزيد على معنى: أوفوا بالعهد، وقد ذُكِرَ في مقام التَّعليل له على الاستئناف.

* * *

(٣٥) ـ ﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴾.

﴿ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ ﴾؛ أي: لا تبخَسوا فيه، وفائدةُ قوله: ﴿إِذَا كِلْتُمْ﴾ ـ أي: وقتَ كيلِكم ـ تضمُّنُ النَّهي عن الكيل بنقصانٍ مّا ثم تكميلِه[2] بعد زمان.

﴿وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾ القسطاسُ: الميزانُ صغيراً كان أو كبيراً، وقيل: هو القبَّان، لفظٌ روميٌّ عُرِّبَ، والإجراء على قانون لغة العرب ليس بشرط في التَّعريب على ما حقَّقناه في رسالتنا المعمولة فيه.

و﴿ٱلْمُسْتَقِيمِ﴾: السَّويُّ.

﴿ذَٰلِكَ خَيْرٌ﴾ في الدُّنيا؛ لأنَّه أمانةٌ توجب المحمَدة والرَّغبة في معاملته.

---

(١) في (ك): «العدول».

(٢) في (ف) و(م): «تم تكميله»، وفي (ك): «تم كيله». والصواب المثبت. والمراد: أنْ لا يَتأخَّرَ الإيفاءُ عن وقتِ الكيلِ، بأنْ يكيلَ به بنقصانٍ ما ثُم يوفِّيه بَعْدُ.

﴿وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾: عاقبةً؛ إذ لا يبقى عليه تَبعةٌ في الآخرة، تفعيلٌ من آل: إذا رجع. ففيه نفع الدَّارين.

* * *

(٣٦) - ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾.

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌۚ﴾ لا تَتبع[1] ما لا علم لك به من قولٍ أو فعلٍ، نهى أنْ يقولَ ما لا يعلمُ وأنْ يعملَ بما لا يعلم، ويدخل فيه التَّقليد على العمياء، يقال: قَفَوْتُه وقَفَيْتُه: إذا تَبِعْتَ أثره، ومنه القافَة[2] لتتبُّعهم الآثار، وقافيةُ كلِّ شيء[3] آخرُه.

﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ﴾: إشارة إلى الثلاثة المذكورة، ولا اختصاص له بالعقلاء.

قال الزَّجَّاج ووافقه الطَّبري: إنَّ العرب تعبِّر عمَّا يعقل وعمَّا لا يعقل بـ(أولئك)، وأنشد قول الشاعر:

والعيشَ بعدَ أولئكَ الأيَّامُ[4]

---

(١) بتشديد التاء وتخفيفها. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٣١).

(٢) في (ف) و(م): «القافية».

(٣) في (ف): «كلٍّ»، وفي (ك): «كلِّ بيت».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٣٩)، و«تفسير الطبري» (١٤/ ٥٩٦)، و«البحر» (١٤/ ٧٧).
وفي قوله: «ووافقه الطبري» نظر؛ لأنه يوهم المتابعة، في حين أنهما متعاصران، ولفظ أبي حيان أكثر دقة حيث قال: (وحَكَى الزَّجَّاج أنَّ العرب تُعبِّرُ عمَّن يَعْقِلُ وعمَّا لا يَعقلُ بأولئك، وأَنشدَ هو والطَّبريُّ...). والبيت لجرير. انظر: «ديوانه» (٢/ ٩٩٠)، وفيه: (أولئك الأقوام)، وصدره:

ذُمَّ المنازلَ بعدَ منزلةِ اللِّوى

وإنْ نُظر إلى[1] غلبة استعماله في العقلاء فنقول: لَمَّا كانت تلك الأعضاء مسؤولةً عن أحوالها شاهدةً على صاحبها أُجْرِيَتْ مجرى العقلاء.

﴿كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ ﴿عَنْهُ﴾ في موضع نصب، والضَّمير عائد على معنى ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: عن كلِّ واحدٍ ممَّا تقدَّم، و﴿مَسْـُٔولًا﴾ فيه ضمير يعود على ﴿كُلُّ﴾[2] من حيث اللَّفظ، وهذا الضَّمير هو المفعول الذي لم يُسمَّ فاعله.

ويجوز أن يكون ﴿مَسْـُٔولًا﴾ مسنداً إلى ﴿عَنْهُ﴾ كقوله: ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]، والمجرور بالحرف لا يلتبس بالمبتدأ، ومنع تقديم الفاعل وما يقوم مقامه كان لذلك.

ولا دلالة في الآية على أنَّ العبدَ مؤاخذٌ بالعزيمة؛ إذ يجوز أن يكون ما سُئِلَ عنه الفؤاد الظُّنونَ والعقائد.

* * *

(٣٧) - ﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾.

﴿وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ المشي إنَّما يكون في الأرض، فالتَّقييد به لقطع المجاز شائعٌ فيه كما في الذَّهاب.

﴿مَرَحًاۖ﴾ نصب على الحال؛ أي: ذا مرح[3]، ولا بُدَّ مِنَ التَّقدير؛ لأنَّ المبالغة المستفادةَ من التَّوصيف بالمصدر لا تناسب المقام؛ لأنَّ المرادَ النَّهيُ عن أصل المرح، لا عن المبالغة.

---

(١) «إلى» من (م).

(٢) «كل» زيادة من (م).

(٣) في النسخ: «ذات مرح»، والصواب المثبت. انظر: «الكشاف» (٢/ ٦٦٧)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٥٥)، و«البحر» (١٤/ ٧٩).

وقرئ: (مَرِحاً) بالكسر[1].

والمرحُ: هو الخيلاء والكبر، وقد دلَّ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨] على أنَّ المرح هو مشي المختال.

﴿إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ﴾ بشدَّة وَطأتك ﴿وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا﴾ بتطاوُلك، وهو تهكُّم بالمختال.

* * *

(٣٨) ـ ﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾.

﴿كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ﴾ قرئ بالرَّفع والإضافة إلى السَّيِّئ منه؛ لأنَّه سبق ذكر المأمور به والمنهيِّ عنه، فكان القبيح بعضَه.

وقرئ منوَّناً غيرَ مضافٍ[2]، على أنَّها خبرُ ﴿كَانَ﴾، والاسم ضمير ﴿كُلُّ﴾، والإشارة إلى المنهيات من الخصال المذكورة.

﴿عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا﴾ بدل من ﴿سيئة﴾، أو صفةٌ لها، ولا حاجة إلى الحمل على المعنى؛ لأنَّها في حكم الصِّفات، ولا اعتبار بتأنيثه، ويجوز أن يكون حالاً من المستكِنِّ في ﴿كَانَ﴾، أو [في] الظرف[3] على أنه صفةٌ لـ ﴿سَيِّئُهُ﴾.

والمراد به: المبغوض المقابل للمرضيِّ، لا ما يقابل المراد[4].

---

(١) نسبت ليحيى بن يعمر. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧).

(٢) القراءة الأولى بالرفع والإضافة قراءة الكوفيين وابن عامر، والقراءة الثانية بالنصب والتنوين؛ أي: «سيئةً» قرأ بها الباقون. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٠).

(٣) في النسخ: «ظرف»، والصواب المثبت. انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٥٥)، و«البحر» (١٤/ ٨١)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥١٥).

(٤) في (ف): «لا مقابل المراد»، وفي (ك): «لا تقابل المراد»، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في =

(٣٩) ـ ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدۡحُورًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى الأحكام المتقدِّمة ﴿مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ﴾؛ أي[١]: من الأشياء الموضوعة في مَواضعَها، متعلق بـ﴿أَوۡحَىٰٓ﴾، أو بدلٌ من ﴿مِمَّآ﴾[٢]، أو حال من الضَّمير المنصوب المحذوف العائد على ﴿مَّا﴾.

﴿وَلَا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ كرَّره للتَّنبيه على أنَّ التَّوحيد مبدأ الأمر[٣] ومنتهاه، ورتَّب عليه أوَّلاً ما هو عائدُه في الدُّنيا، وثانياً ما هو نتيجته[٤] في العُقْبى، فقال:

﴿فَتُلۡقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا﴾ تلوم نفسك ﴿مَّدۡحُورًا﴾: مطروداً مبعَداً، على سبيل الإهانة والاستخفاف به.

***

(٤٠) ـ ﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًاۚ إِنَّكُمۡ لَتَقُولُونَ قَوۡلًا عَظِيمًا﴾.

﴿أَفَأَصۡفَىٰكُمۡ رَبُّكُم بِٱلۡبَنِينَ﴾ خطاب للذين قالوا: الملائكة بنات الله تعالى. والهمزة للإنكار؛ [أي][٥]: أفخصَّكم ربُّكم على وجه الخلوص والصَّفاء بأفضل الأولاد وهم البنون، لم يجعل فيهم نصيباً لنفسه.

= «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٥٦)، وفيه: (لا ما يقابل المراد لقيام القاطع على أن الحوادث كلها واقعة بإرادته تعالى).

(١) «أي» من (م).

(٢) في (ك) و(م): «أو بدل من ما»، والمثبت من (ف)، وهو الصواب.

(٣) في (ف): «للأمر».

(٤) في (ف): «نتيجة».

(٥) زيادة يقتضيها السياق.

﴿وَٱتَّخَذَ مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنَٰثًا﴾: بناتاً لنفسه، هذا خلاف المعقول، والتَّعبير عن البنات بالإناث لإظهار جهةِ خساستهن.

﴿إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ بإضافة الأولاد إليه، وهي خاصَّةُ بعض الأجسام لسرعة زوالها، ثمَّ بتفضيل أنفسكم عليه حيث تجعلون له ما تكرهون، ثم بجعل الملائكة الذين هم من أشرف[1] الخلائق أدونَهم.

* * *

(٤١) ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِيَذَّكَّرُوا۟ وَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا نُفُورًا﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا﴾: كرَّرنا هذا المعنى بوجوهٍ مِنَ التَّقرير، فتركُ الضَّمير لأنه معلوم.

﴿فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾: في مواضعَ منه، ويجوز أنْ يُرادَ بـ ﴿هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾: إبطالُ إضافة[2] البنات إليه تعالى؛ لأنه ممَّا صرَّفه وكرَّر ذكره، بتقدير: ولقد صرَّفنا القولَ في هذا المعنى، أو أوقعنا التَّصريف[3] فيه.

وقرئ: (صَرَفْنا) بالتَّخفيف[4]، وكذلك:

﴿لِيَذَّكَّرُوا۟﴾ قرئ مشدداً ومخففاً[5]؛ أي: كرَّرناه ليتَّعظوا ويعتبروا ويطمئنُّوا إلى ما يحتجُّ به عليهم.

---

(١) في (م): «أشراف».

(٢) «إضافة» زيادة من (م).

(٣) في (ف) و(م): «التعريف»، وفي هامش (م): «التصريف».

(٤) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧).

(٥) قرأ حمزة والكسائي بإسكان الذال وضم الكاف مخففاً، والباقي بفتحها مشدداً. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٠).

﴿وَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التَّصريف المذكور ﴿إِلَّا نُفُورًا﴾ عن الحقِّ، والنُّفورُ مقابلُ الطَّمأنينة.

***

(٤٢) - ﴿قُل لَّوْ كَانَ مَعَهُۥٓ ءَالِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟ إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ سَبِيلًا﴾.

﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا تَقُولُونَ﴾ أيّها المشركون، والكاف في موضع نصب؛ أي: مثلَما، وقرئ بالياء[1]، على أنَّ الكلام مع الرَّسول عليه السلام.

﴿إِذًا لَّٱبْتَغَوْا۟﴾؛ أي: طلبوا متواصلين ﴿إِلَىٰ ذِى ٱلْعَرْشِ﴾؛ أي: مغالَبته وإفساد ملكه، أشير إلى ذلك بالتَّعبير عنه تعالى بـ ﴿ذِى ٱلْعَرْشِ﴾.

﴿سَبِيلًا﴾ لأنَّهم شركاؤه على الغرض المذكور، كما يفعل الملوك بعضُهم بعضاً، وهذا على وفق قوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢].

***

(٤٣) - ﴿سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾.

﴿سُبْحَٰنَهُۥ﴾ تنزَّه تنزيهاً ﴿وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا﴾: تعالياً ﴿كَبِيرًا﴾: متباعداً غايةَ البُعْد عمَّا يقولون.

***

(٤٤) - ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾.

﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ ۚ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ وينزِّه عما هو

---

(١) قرأ ابن كثير وحفص بالياء، والباقون بالتَّاء. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٠).

مـن عوارض الإمـكان ولواحـق الحـدوث بدلالتـه على الصَّانـع القديـم الواجب لذاتـه قطعـاً لسلسـلة الحاجة.

﴿وَلَكِن لَّا تَفْقَهُونَ﴾ أيُّها القاصرون عن النَّظر الصَّحيح ﴿تَسْبِيحَهُمْ﴾ في[1] عبارة قوله: ﴿تَفْقَهُونَ﴾ دلالة على أنَّ تسبيحهم من جنس ما يُفْهَم بدقَّة النَّظر؛ لا[2] من جنس ما يدرك بآلة السَّمع، فتعيَّن حمله على معنى الدِّلالة، ولم يبقَ وجهٌ للحمل على المشترك بينها وبين اللَّفظ.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا﴾ حيث لم يعاجلكم بالعقوبة على الغفلة والشِّرك ﴿غَفُورًا﴾ لمن تاب منكم.

* * *

(٤٥) ـ ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾.

﴿وَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ حِجَابًا﴾ يسترك عنهم.

عن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنها قالت: لما نزلت سورة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ﴾ [المسد: ١] أقبلت العوراء أمُّ جميل بنت حرب وفي يدها فِهْرٌ والنَّبيُّ ﷺ قاعد في المسجد ومعه أبو بكر رضي الله عنه، فلمَّا رآها أبو بكر قال: يا رسول الله، لقد أقبلَتْ وأخاف أن تراك، قال رسول الله ﷺ: «إنها لن تراني»، وقرأ قرآناً، فوقفَتْ على أبي بكرٍ ولم ترَ رسولَ اللهِ ﷺ[3].

---

(١) في (ف): «وفي».

(٢) في (ف): «لأنه».

(٣) روى نحوه البزار في «مسنده» (١٥)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٥)، وابن حبان في «صحيحه» (٦٥١١) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

ومَن وهَم أنَّه حجاب الفَهْم، كأنَّه ما فَهِم أنَّه بينهم وبين القرآن، لا بينهم وبين النبي ﷺ.

﴿مَّسْتُورًا﴾ عن أعين النَّاس؛ أي: ليس من جنس الحجُب الظَّاهرة.

* * *

(٤٦) ـ ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۚ وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِى ٱلْقُرْءَانِ وَحْدَهُۥ وَلَّوْا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَـٰرِهِمْ نُفُورًا﴾.

﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً﴾: أغطيةً، جمع كنان، وإنَّما لم يقل: (وجعلنا قلوبهم في أكنَّة) مع أنَّه أبلغ في تصوير المعنى المقصود؛ للإشعار بأنَّه أمرٌ عارضٌ كسبيٌّ، لا ذاتيٌّ خَلْقيٌّ، فإنَّ كلَّ مولودٍ يُولَد على الفطرة السَّليمة.

﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾: كراهةَ أن يفقهوه[1]، والضَّمير لما يُدْعَون إليه، ويجوز أن يكون مفعولاً لِمَا دلَّ عليه قوله: ﴿وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: منعناهم أن يفقهوه.

﴿وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ لم يقل: (أن يسمعوه)؛ اكتفاءً بما فُهِمَ بقرينة قرينه[2].

وهذه حكايةٌ لِـمَا كانوا يقولونه، على ما دلَّ عليه قوله: ﴿فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ ۝٤ وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا فِىٓ أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ وَفِىٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنۢ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ﴾ [فصلت ٤ ـ ٥].

قوله[3]: ﴿فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[4] صريحٌ في أنَّ عدمَ سماعهم بسبب إعراضهم

---

(١) «كراهة أن يفقهوه» من (م).

(٢) «قرينه» من (ك).

(٣) في (ف): «قولهم».

(٤) من قوله: «﴿وَقَالُوا۟ قُلُوبُنَا...﴾...» إلى هنا سقط من (ك).

لا لمانعٍ في آذانهم، فقولهم: ﴿وَفِيٓ ءَاذَانِنَا وَقْرٌ﴾ إظهارُ كراهة منهم، لا إخبارٌ عن عارضتهم، ومَن غفل عن هذا قال: ولَمَّا كان القرآن معجزاً من حيث اللَّفظُ والمعنى أثبَتَ لمنكريه ما يمنع عن فهم المعنى وإدراكَ اللَّفظ.

ولم يدرِ أنَّ الأوَّل موقوف على الثَّاني، فالجعل الثَّاني على تقدير كونه حقيقةً كان[1] في الأمرين.

وأيضاً مبنَى ما ذكره على أنْ يكون الضَّمير في ﴿يَفْقَهُوهُ﴾ للقرآن، ويأباه قوله: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾ إذْ لا وجهَ للعدول عن الضَّمير إلى الاسم الظَّاهر.

وأيضاً ما في الآية الأخرى قوله: ﴿مِّمَّا تَدْعُونَآ إِلَيْهِ﴾ بدلَ: ﴿أَن يَفْقَهُوهُ﴾ ظاهر في خلافه.

﴿وَحْدَهُۥ﴾: واحداً غيرَ مشفوعٍ به آلهتُهم.

قال سيبويه: (وحدَه): اسمٌ موضوع موضعَ المصدر وهو: إيحاد، الموضوعُ موضع الحال وهو: مُوْحِد[2].

﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ نُفُورًا﴾: نافرين من استماع التَّوحيد، على أنَّ النُّفور جمعُ نافر، كشهود في جمع شاهد، ويجوز أن يكون مصدراً على غير الصَّدر[3]، أو كان قوله: ﴿وَلَّوْاْ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِمْ﴾ بمعنى: نفروا، وهذا دليل على أنهم قادرون على الاستماع، لا وقر في آذانهم حقيقةً.

* * *

---

(١) في (ف): «كما».

(٢) انظر: «الكتاب» (١/ ٣٧٦ ـ ٣٧٨)، و«البحر» (١٤/ ٩١).

(٣) في النسخ: «المصدر»، والصواب المثبت. انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٩٦)، و«البحر» (١٤/ ٩١).

(٤٧) ـ ﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾.

﴿ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ ﴾: بسببه الدَّاعي إلى الاستماع؛ مِن الهزء بك وبالقرآن، ومن اللَّغو.

﴿إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾ ظرف لـ ﴿أَعْلَمُ﴾، وكذا: ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾: يتناجَوْنَ بالطَّعْنِ في القرآن؛ أي: نحن أعلم بغرضهم من الاستماع في حالَتي الإصغاء والإعراض بالتَّناجي.

و﴿نَجْوَىٰٓ﴾: مصدر، ويحتمل أن يكون جمع نَجِيٍّ.

﴿إِذْ يَقُولُ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا ﴾ بدلٌ من ﴿وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰٓ﴾ على وضع (الظالمين) موضعَ الضَّمير للدِّلالة على أن تناجيَهم بقولهم هذا.

والمسحورُ: مَنْ سُحِرَ فاختلَّ به عقلُه.

* * *

(٤٨) ـ ﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴾.

﴿ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ في أمر الحشر والبعث، بدلالة قوله تعالى: ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴾ [يس: ٧٨].

وإنَّما قال هنا: ﴿ٱلْأَمْثَالَ﴾ لأنَّهم ضربوه بعبارات شتَّى وصورٍ متعدِّدة.

وقيل: مثَّلوك بالشَّاعر والسَّاحر والكاهن والمجنون.

ويردُّه أنَّهم ما مثَّلوه عليه السلام بما ذُكِرَ[1]، بل قالوا تارةً: إنه ساحر، وأخرى:

(١) «بما ذكر» من (م).

إنه شاعر..، إلى غير ذلك، وأيضاً لو كان المعنى ما ذكر لقيل: فيك، لا ﴿لَكَ﴾؛ لأنَّه عليه السلام حينئذ يكون[١] مَن ضُرِبَ فيه الأمثال.

﴿فَضَلُّوا﴾ عن الحقِّ ﴿فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ إليه.

***

(٤٩) ـ ﴿وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

﴿وَقَالُوا أَءِذَا كُنَّا عِظَامًا﴾ بيانٌ لِـمَا ضربوه، ولولا الفَصْلُ بينه وبين المبيَّن بالجمل التَّفريعيَّة لكان حقُّه التَّصديرَ بالفاء التَّفصيليَّة.

والعامل في (إذا) ما دلَّ عليه ﴿لَمَبْعُوثُونَ﴾، تقديره: أَنُبعث إذا كنَّا عظاماً، والاستفهام للإنكار.

﴿وَرُفَاتًا﴾ صدِّر بالواو العاطفة إخراجاً له مخرجَ الاستقلال في كونه منشأً للاستبعاد.

والرُّفاتُ: الأجزاء المفتَّتة[٢] مِنْ كلِّ شيء مكسَّر، ولِمَا فيه من زيادة معنى التَّفتُّت أُوثِرَ على الحُطَام، ولم يُلْتَفَتْ إلى ما فيه من صنعة الجناس.

﴿أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ على الإنكار والاستبعاد لِـمَا بَيْن غضاضة الحيِّ ويبوسة الرَّميم من المباعدة والمنافاة. و﴿خَلْقًا﴾: مصدرٌ أو حال.

***

(٥٠) ـ ﴿قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

﴿قُلْ﴾ جواباً لهم: ﴿كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾ ردَّ قوله: ﴿كُونُوا﴾ على قولهم:

---

(١) «يكون» من (م).

(٢) في (ك): «المتفتتة».

﴿كُنَّا﴾، كأنَّه قيل: كونوا حجارة أو حديداً ولا تكونوا عظاماً، فإنَّه يقدر على إحيائكم، أوثر في الحجارة صيغةُ الجمع رعاية للمناسبة لـ ﴿كُونُواْ﴾، والعدول في الحديد إلى صيغة الإفراد لِـمَا في مفرده من صنعة[1] الجناس مع الجديد.

* * *

(٥١) - ﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾.

﴿أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ﴾؛ أي: ممَّا يكبر عندكم عن قَبول الحياة؛ لكونه أبعد شيء منها، فإنَّ قدرته تعالى لا تقصُر عن إحيائكم؛ لاشتراك الأجسام في قَبول الأعراض، فكيف إذا كنتم عظاماً ورفاتاً وقد كانت غضَّة موصوفة بالحياة قبلُ[2]؟! والشَّيء أصلٌ لِـمَا عهد فيه مما لم يُعهد.

وإنَّما قال: ﴿فِي صُدُورِكُمْ﴾ لأنَّ أثر الاستعظام البليغ يظهر فيها، فإنَّ القلب يضطرب عند ذلك لِـمَا يعتريه من الخشية.

﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ ٱلَّذِى فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ وكنتم تراباً، وما هو أبعدُ منه من الحياة.

﴿فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ﴾ يقال: أنغضَ رأسَه؛ أي: حرَّكه كالمتعجِّب من الشَّيء، وكلُّ حركة في ارتجاف نَغْضٌ.

والعدول من التَّعدية إلى (إلى) لتضمُّنه التَّوجُّه والالتفات.

---

(١) في (ف): «صنعة»، وسقطت «من» من (ك) و(م).

(٢) في (ف): «قيل».

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ انتصابه على الخبر أو الظَّرف، و﴿أَن يَكُونَ﴾ اسم ﴿عَسَىٰٓ﴾، أو خبره والاسم مضمر.

أجابهم بقرب وقوعه، لا لأنَّ كلَّ آتٍ قريبٌ، بل لأنَّه مضى أكثر الزَّمان وبقي أقلُّه.

ولم يجبهم[1] بتعيين وقته لأنَّ ذلك مما استأثره الله تعالى بعلمه.

ولم يوردوا تلك الأسئلة استرشاداً بل عناداً واستهزاءً، وقد أُخْرِجَتْ أجوبتهم بطريق الجِدِّ[2] والتَّحقيق وعدم المبالاة باستهزائهم، وفيه نوعُ تمهيد للأمر بحسن المجادلة الآتي ذكرُه.

* * *

(٥٢) - ﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِۦ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ﴾ بدلٌ من ﴿قَرِيبًا﴾.

والدُّعاءُ: النِّداء إلى المحشر بكلامٍ يسمعه الخلائق؛ قال عليه السَّلام: «إنَّكم تُدْعَونَ يوم القيامة بأسمائكم وأسماءِ آبائكم، فأحسِنوا أسماءَكم»[3].

﴿فَتَسْتَجِيبُونَ﴾ الاستجابة: موافقة الدَّاعي فيما دعَا إليه بالفعل لأجل دعائه.

---

(١) في (ك): «يجئهم».

(٢) في (ك): «الحد».

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٦٩٣)، وأبو داود (٤٩٤٨)، من طريق عبد الله بن أبي زكريا الخزاعي عن أبي الدرداء رضي الله عنه، ولم يسمع عبد الله من أبي الدرداء رضي الله عنه. انظر: «المراسيل» (ص: ٩٧).

﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ حال منهم؛ أي: حامدين لله[١] تعالى على الإحياء، أو على كمال قدرته؛ عن سعيد بن جبير رضي الله عنه: ينفضون التُّراب عن رؤوسهم، ويقولون: سبحانك اللَّهم وبحمدك[٢].

﴿وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (تظنون) معلَّقة عن العمل، فالجملة بعده في موضع نصب، وقلَّما ذكر النَّحويُّون في أدوات[٣] التَّعليق (إنْ) النَّافية.

وانتصاب ﴿قَلِيلًا﴾ على أنَّه نعتٌ لزمانٍ محذوفٍ؛ أي: إلَّا زماناً قليلاً؛ كقوله: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾ [الكهف: ١٩]، ويجوز أن يكون نعتاً لمصدرٍ محذوفٍ.

***

(٥٣) - ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾.

﴿وَقُل لِّعِبَادِى﴾ يعني: المؤمنين ﴿يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾: الكلمةَ التي هي أحسن، ولا يخاشِنوا المشركين.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ﴾: يلقي بينهم الفساد بالوسوسة، ويغري بعضهم على بعض لتقعَ بينهم المشارَّة[٤] والمشاقَّة، وقد مَرَّ في آخر (الأعراف) تحقيق معنى النَّزغ.

﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾: ظاهرَ العداوة.

---

(١) في (ف): «الله».

(٢) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (٧/ ٢٣٣٤).

(٣) في (ك): «أداة»، وفي (م): «أدات».

(٤) المشارَّة: المخاصمة. انظر: «مختار الصحاح» (مادة: شرر).

أُمِروا بحسن المجادلة، ونُبِّهوا على أنَّه قد يكون من الشيطان إجراء[1] وإغواء، وذُكِّروا بعداوته القديمة لهم.

***

(٥٤) ـ ﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾.

﴿ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ ﴾ بالتَّوفيق للإسلام ﴿أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ ﴾ بالإماتة على الكفر.

وكلمة ﴿أَوْ﴾ للدلالة على الانفصال الحقيقي بين الشَّيئين.

والجملة تفسير لـ ﴿ٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، وما بينهما اعتراض؛ أي: قولوا لهم هذه الكلمة ونحوَها، ولا تصرِّحوا بأنَّهم مِن أهل النَّار؛ فإنه يَهيجهم على الشَّرِّ.

قيل: مع أنَّ ختام أمرهم غيبٌ لا يعلمه إلَّا الله.

وفيه: أنَّ الظَّاهر عموم النَّهي للتَّصريح بما ذُكِرَ، ولو كان مؤوَّلاً بمعنى: أنَّ عملَهم عملُ أهل النَّار، وهذه الضَّميمة لا تصلح علَّة له.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾: موكولاً إليك أمرهم تقسرهم على ما أُمروا به.

وإنما قال: ﴿عَلَيْهِمْ ﴾ دون: إليهم؛ إفادةً لمعنى القسر والإلجاء.

***

(٥٥) ـ ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾.

---

(١) في (م): «إعزاء».

﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾ فيختارُ منهم لنبوَّته وولايته مَن يليقُ بهما[١]، وهو رَدٌّ لاستبعاد قريش أن يكون يتيمُ أبي طالب نبيًّا، وأن يكون العراةُ الجُوَّعُ أصحابَه.

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ بالرِّسالة، وبكونه صاحب شريعة، وبكونه من أولي العزم، وبكونه خاتم الأنبياء.

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا﴾ يعني: أنَّ[٢] داود عليه السلام وإن لم يكن من أولي العزم، ولا صاحبَ شريعة، لكنَّه من جملة المفضَّلين بالرِّسالة؛ حيث أوتي كتاباً، وقد مَرَّ ما يتعلق بالزَّبور من الكلام في آخر سورة النِّساء[٣].

* * *

(٥٦) ـ ﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِۦ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا ﴾.

﴿ قُلِ ٱدْعُواْ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُم ﴾ أنَّها آلهة ﴿مِّن دُونِهِۦ﴾ تعالى، كالملائكة وعُزَيرٍ والمسيح عليهم السلام.

﴿فَلَا يَمْلِكُونَ﴾: فلا يستطيعون ﴿كَشْفَ ٱلضُّرِّ عَنكُمْ﴾ كالمرض والفقر[٤] والقحط ﴿وَلَا تَحْوِيلًا﴾: ولا تحويلَ ذلك منكم إلى غيركم.

* * *

---

(١) في (م): «بها».

(٢) «أن» من (م).

(٣) لم يرد هناك سوى قوله: (وقرئ: ﴿زُبُورًا﴾ بالضم، وهو جمع زِبْرٍ بمعنى مَزبورٍ).

(٤) في (ف): «والقهر».

(٥٧) ـ ﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓۚ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا ﴾.

﴿ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ ﴾؛ أي: يدعونهم آلهةً[١] ﴿يَبۡتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلۡوَسِيلَةَ ﴾: القُرْبَة بالطَّاعة.

﴿أَيُّهُمۡ أَقۡرَبُ﴾ بدل من واوِ ﴿يَبۡتَغُونَ ﴾؛ أي: يبتغي مَن هو أقربُ منهم إلى الله الوسيلة، فكيف بغيرِ الأقرب؟!

﴿وَيَرۡجُونَ رَحۡمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ﴾ كسائر العباد، فكيف يزعمون أنهم آلهة؟!

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحۡذُورٗا﴾: حقيقاً بأنْ يَحذره كلُّ أحدٍ حتى الملائكة والرُّسل.

***

(٥٨) ـ ﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَوۡ مُعَذِّبُوهَا عَذَابٗا شَدِيدٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾.

﴿وَإِن مِّن قَرۡيَةٍ إِلَّا نَحۡنُ مُهۡلِكُوهَا﴾: مخرِّبوها ﴿قَبۡلَ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ عن مقاتل: وجدت في كتب الضَّحَّاك في تفسير هذه الآية: أمَّا مكَّة فيخربها الحبشة، وتهلك[٢] المدينة بالجوع، والبصرة بالغرق، والكوفة بالتُّرك، والجبال بالصَّواعق والرَّواجف، ثمَّ ذكرها بلداً بلداً[٣].

---

(١) في النسخ: «يدعون آلهة»، والصواب المثبت، يعني: أولئك الذين يدعونهم ويسمونهم آلهة. انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ١٠٦)، و«البحر» (١٤/ ١١٠)، و«روح المعاني» (١٤/ ٥٦٠).

(٢) «تهلك» سقط من (ك).

(٣) انظر: «الكشاف» (٢/ ٦٧٤).

﴿أَوْ مُعَذِّبُوهَا﴾؛ أي: معذِّبو أهلِها، على أنَّ المجاز في الإسناد دون المسنَد، وإلَّا لقيل: أو معذِّبوهم.

﴿عَذَابًا شَدِيدًا﴾ بالقتل وأنواع البليَّة.

﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ﴾: في اللَّوح المحفوظ ﴿مَسْطُورًا﴾: مكتوباً.

* * *

(٥٩) ـ ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾.

﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ المقترَحة، استُعير المنع للتَّرك؛ للمبالغة، ولا يجوز استعارته للصَّرف؛ لأنه أيضاً ممتنعٌ في حقِّه تعالى.

والباء للتَّعدية؛ فإنَّ أرسل يتعدى بنفسه وبالباء، قال كُثَيِّرٌ:

لقدْ كذبَ الواشونَ ما بُحْتُ عندَهم ... بِسِرٍّ ولا[1] أرسلْتُهم برسولِ[2]

﴿إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾: إلَّا لتكذيب أمثالهم في الطَّبع من الأمم السَّالفة كعاد وثمود؛ يعني أنَّها لو أُرْسِلَتْ لكذَّبوا بها تكذيبَ أولئك الأمم، واستوجبوا الاستئصال على مقتضى مستثناه، وهو خلاف مقتضى الحكمة، لا لأنَّ فيهم مَن يؤمنُ؛ لأنَّه غير مانع مِن[3] استئصال المعاندين خاصَّة كما وقع في قوم نوح عليه السلام، بل لأنَّ فيهم مَنْ يلد مَن يؤمن.

---

(١) في (ك) و(م): «وما».

(٢) انظر: «ديوانه» (ص: ٢٧٨) وفيه: (بليلى) بدل «بسر»، و(برسيل) بدل «برسول».

(٣) في (ك) و(م): «عن».

ثمَّ ذكرَ بعضَ مَنْ كذَّبَ بالآيات المقترحة فاستؤصِلَ بقوله:

﴿وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ﴾ باقتراحهم ﴿مُبْصِرَةً﴾ نصب على الحال، وهي قراءة الجمهور، وقرئ بالرَّفع[1] على إضمار مبتدأ؛ أي: هي مبصرةٌ، أضيف الإبصار إليها مجازاً لَمَّا كانت يبصرها النَّاسُ.

وقرئ: (مَبْصَرَةً) بفتح الصَّاد، اسم مفعول[2].

﴿فَظَلَمُواْ بِهَا﴾؛ أي: جحدوا بها.

﴿وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْءَايَٰتِ﴾ المقترَحة ﴿إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ من نزول العذاب المستأصِل، وإن لم يخافوا نزل.

* * *

(٦٠) - ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ فِي ٱلْقُرْءَانِۚ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ﴾: واذكر إذ أوحينا إليك ﴿إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِۚ﴾ فهُم في قبضة قدرته، وأحاط بقريش؛ أي: أهلكهم؛ يعني في وقعة بدر، والتَّعبير بالماضي لتحقُّق وقوعه.

﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ﴾ ليلةَ المعراجِ، وكانت رؤيةَ عينٍ إلَّا أنَّها لَمَّا كانت باللَّيل سُمِّيَتْ[3] رؤيا، كما يُقال: بات يفعل كذا: إذا فعل ليلاً، فيسمَّى ما يفعله:

---

(١) نسبت لزيد بن علي. انظر: «البحر المحيط» (١٤/ ١١٤).

(٢) نسبت لقتادة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٦٧).

(٣) «سميت» سقط من (ف) و(م).

بيوتةً[١] وإنْ لم يكن نوماً، فلا متمسَّك فيه[٢] لمن زعم أنَّها كانت في المنام، بل نقول: إنْ تمسَّكَ به يكون حجَّةً عليه لا له؛ لأنَّ رؤيا المنام لا فتنة فيها، وما كان أحدٌ ينكرها، وقد كانت تلك الرؤية فتنة على ما نطقَ به قوله:

﴿إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ وهي ارتدادُ قومٍ من المسلمين حين أخبرهم النَّبيُّ عليه السلام أنَّه أُسْرِيَ به.

﴿وَٱلشَّجَرَةَ ٱلْمَلْعُونَةَ﴾ عطف على ﴿ٱلرُّءْيَا﴾، وهي شجرة الزَّقُّوم، واللَّعنُ لطاعمها، وإنَّما وصفت هي به مجازاً للمبالغة، أو قيل ذلك لأنَّها في أَبْوَرِ مكانٍ من الرَّحمة، وهي أصل الحميم، أو لأنَّها مكروهة، ويأباهما قوله:

﴿فِي ٱلْقُرْءَانِ﴾ قال أبو جهل ومَنْ معه: هذا محمَّدٌ يتوعَّدكم بنار تحرق الحجارة، ثمَّ يزعم أنها تنبت الشَّجرة، والنَّار تحرق الشَّجرة؟! وما نعرف الزَّقُّوم إلَّا التَّمر بالزُّبد. ثمَّ أمرَ أبو جهل جاريةً له فأحضر تمراً وزبداً، وقال لأصحابه: تزقَّموا، فافتتن بهذه المقالة[٣] بعضُ الضعُّفاء[٤].

ولم[٥] يعلموا أنَّ مَنْ قدرَ أن يحمي وَبَر السَّمندل[٦] من أن تأكله النَّار،

---

(١) في (ف) و(م): «سيّوتة».

(٢) «فيه» من (م).

(٣) في (م): «المقابلة».

(٤) روى نحو هذه القصة الإمام أحمد في «المسند» (٣٥٤٦)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٧٢٠)، وانظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٦٨).

(٥) في (ف) و(م): «وما».

(٦) في (ف) و(م): «من وبور السمندر». والسمندل: طائر بالهند لا يحترق بالنار، وسماه بعض أهل اللغة: سندل بغير ميم، ومنهم من سماه: سمند بغير لام، وقيل: إنه حيوان كالفأر، ولك أن تقول: إنه فارسيّ بالراء ـ كما وقع في أشعارهم ـ وعرب باللام. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٤٥).

وأحشاءَ النَّعامة من أذى الجمر، قدرَ أن يخلق في النَّار شجرةً لا تحرقها.

وقرئ بالرَّفع على الابتداء[1]، والخبر محذوف؛ أي: والشَّجرةُ الملعونةُ في القرآنِ كذلك.

﴿وَنُخَوِّفُهُمْ﴾ بأنواع التَّخويف ﴿فَمَا يَزِيدُهُمْ﴾ التَّخويف ﴿إِلَّا طُغْيَٰنًا﴾: عتوًّا ﴿كَبِيرًا﴾: متجاوزاً عن الحدِّ.

* * *

(٦١) ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ قد مَرَّ تفسيرُه.

﴿قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾: لمن خلقتَه من طينٍ، فنصب على نزع الخافض، ويجوز أن يكون حالاً من الرَّاجع إلى الموصول؛ أي: خلقتَه وهو طين، إنكارٌ وتعليل على ما صرَّح به في قوله: ﴿أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢]، أو من الموصول؛ أي: أسجد له وأصله[2] طين؟! ويَرِدُ عليه أنَّه حينئذ يضيع قوله: (خلقته).

* * *

(٦٢) ـ ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٢/ ٦٧٦)، و«البحر المحيط» (١٤/ ١٢١).

(٢) في (ف): «وهو»، والمثبت من باقي النسخ، وعبارة «الكشاف» (٢/ ٦٧٦) جمعت بينهما، حيث قال: (حال من الموصول والعامل فيه (أسجد)، على: أأسجد له وهو طين، أي: أصله طين).

﴿ قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ ﴾ الكاف للخطاب لا محلَّ له من الإعراب على ما مرَّ تحقيقه في سورة الأنعام، و﴿هَٰذَا﴾ مفعول أوَّل، و﴿ٱلَّذِى﴾ صفتُه، والمفعول الثَّاني محذوف لدلالة صلته عليه.

والمعنى: أخبرني عن هذا الذي كرَّمته عليَّ بأمري بالسُّجود له لِمَ كرمته عليَّ؟!

والإكرامُ: اسمٌ جامعٌ لكلِّ ما يُحمَدُ عليه، وتعديته بـ (على) لتضمُّنه معنى التَّفضيل.

﴿لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ كلام مبتدأٌ، واللَّام موطِّئة للقسم، وجوابه:

﴿لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾: لَأقود منهم حيث شئتُ، من قولهم: حنكْتُ الفرسَ: إذا جعلْتَ في فيه الرَّسَن، وكذلك: احتَنَكْتُه.

﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾ لا أقدر على أن أقاوم شكيمتَهم، وهم الذين ذكرهم الله تعالى في قوله: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ﴾ [الإسراء: ٦٥].

قال الحسنُ: ظنَّ ذلك لأنه وسوسَ [إلى] آدمَ عليه السلام فلم يجد له عزماً[(١)].

* * *

(٦٣) ـ ﴿ قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴾.

﴿ قَالَ ٱذْهَبْ﴾ لشأنك الذي اخترتَه. أمره أمرَ إهانةٍ، وعقَّبه بذكر ما جزاه بسوء فعله من جزائه وجزاء أتباعه فقال:

﴿فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ﴾: جزاؤك وجزاؤهم، فغلَّب المخاطب على الغائب.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ١١٧)، وما بين معكوفتين منه.

﴿جَزَآءً﴾ نصبٌ على المصدر بإضمار فعله، أو بما في ﴿جَزَآؤُكُمْ﴾ من معنى: تُجازَون، أو حالٌ موطِّئة لقوله:

﴿مَّوْفُورًا﴾: مكمَّلاً لا نقصان فيه عن قَدْرِ الاستحقاق، مِنْ وَفَرْتُه وَفْراً[1].

* * *

(٦٤) ـ ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾.

﴿وَٱسْتَفْزِزْ﴾: واستَخِفَّ، أصله القطع بشدَّةٍ، يقال: فزَّ الثَّوبَ: إذا قطَّعه بشدَّةِ تخريق، والمعنى[2]: استزِلَّه بقطعك إيَّاه عن الحقِّ.

﴿مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم﴾ أن تستفزَّ ﴿بِصَوْتِكَ﴾: بدعائك إلى الفساد.

﴿وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم﴾ الإجلاب: السَّوق بجلَبَةٍ من السَّائق، وهو الصِّياح.

﴿بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ﴾: بأعوانك من راكب وراجلٍ، والرَّجْل: اسم جمعٍ لراجل، كرَكْبٍ وصَحْبٍ، اسم جمعِ راكبٍ وصاحبٍ.

وقرئ بكسر الجيم[3]، [وبالضم] وهي لغةٌ فيه كنَدِسٍ ونَدُسٍ[4].

﴿وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ﴾ بحملهم على جمعها من غير وجهها[5] وإنفاقها في غير حقِّها.

---

(١) «وفراً» ز من (م).

(٢) في (ف): «المعنى».

(٣) قرأ حفص بكسر الجيم، والباقون بإسكانها. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٠).

(٤) في (ك) و(م): «كفرس ونوس»، وفي (ف): «كفرس وندس»، والمثبت من «الكشاف» (٢/ ٦٧٨)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٦١)، وما بين معكوفتين منهما.

(٥) «من غير وجهها» من (م).

﴿وَٱلْأَوْلَٰدِ﴾ بالحثِّ على تحصيلهم بالوجه المحرَّم، والاشتراك فيهم بتسميتهم بعبد العُزَّى ونحوه، والتَّضليل بالحمل على الأديان الزَّائغة.

﴿وَعِدْهُمْ﴾ المواعيدَ الباطلة، كشفاعة الآلهة والاتِّكال على كرامة الآباء، وتأخير التَّوبة بطُول الأمل.

﴿وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ اعتراضٌ لبيان مواعيده. والغرورُ: ما اغتُرَّ به.

***

(٦٥) ـ ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾.

﴿إِنَّ عِبَادِى﴾ يعني: المخلصين، والإضافة للتَّشريف.

﴿لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ﴾: على إغوائهم ﴿سُلْطَٰنٌ﴾: قدرة[1].

﴿وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلًا﴾ لهم[2] يتوكَّلون به في الاستعاذة منك.

***

(٦٦) ـ ﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى لَكُمُ ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾.

﴿رَّبُّكُمُ ٱلَّذِى يُزْجِى﴾؛ أي: هو الذي يزجي، والإزجاءُ: السَّوق.

﴿لَكُمُ﴾: لمنافعكم ﴿ٱلْفُلْكَ فِى ٱلْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦٓ﴾: من رزقه.

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا﴾ حيث سهَّل لكم ما تعسَّر من أسبابه.

***

---

(١) في (ف): «وقدرة».

(٢) «لهم» من (م).

(٦٧) ـ ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾.

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِي ٱلْبَحْرِ﴾: خوفُ[1] الغرق ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ﴾: ذهب عن أوهامكم[2] مَن تدعونه في حوادثكم.

﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وحدَه؛ فإنَّه حينئذ لا يخطر ببالكم سواه، ولا تدعون لكشفه إلَّا إيَّاه.

وقيل: ضَلَّ كلُّ مَنْ تعبدونه من إعانتكم إلَّا إيَّاه.

وفيه: أنَّ هذا المعنى لا اختصاص له بوقتِ الخوف.

﴿فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ﴾: خلَّصكم عن هول البحر وأخرجكم ﴿إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْۚ﴾ عن الإخلاص في العبادة.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ كالتَّعليل للإعراض، ولم يخاطبهم بذلك، بل أسنده إلى الجنس لطفاً بهم.

* * *

(٦٨) ـ ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾.

﴿أَفَأَمِنتُمْ﴾ الهمزةُ للإنكار، والفاء للعطف على محذوفٍ تقديره: أنجوْتُم فأمِنْتم فحملكم ذلك على الإعراض.

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ الخسفُ: أنْ تُهارَ الأرضُ بالشَّيء، وتعديتُه بنفسه، و﴿بِكُمْ﴾ حالٌ؛ أي: مصحوباً بكم.

---

(١) في (ك): «فرق».

(٢) «عن أوهامكم» من (م).

قال الجوهري: خَسَفَ به الأرضَ؛ أي: غاب به فيها[١].

و﴿جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾: ناحيةُ الأرض، وسمَّاه جانباً؛ لأنه يصير بعد الخسف جانباً.

﴿أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: ريحاً تَحصِبُ؛ أي: ترمي بالحصباء رمياً متتابعاً.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ وَكِيلًا﴾ يحفظكم من ذلك. وفي[٢] عبارة ﴿ثُمَّ﴾ إشارةٌ إلى أنَّه تعالى يحفظهم مرَّة، ولا يعود إليه بعد الكفران والعودِ إلى الشِّرك.

* * *

(٦٩) - ﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُواْ لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ تَبِيعًا﴾.

﴿أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ﴾[٣]: في البحر، لم يقل: (إليه)؛ إذ لا يلزم من العود إلى الشَّيء التَّلبُّس[٤] به.

﴿تَارَةً أُخْرَىٰ﴾ بخَلْق الدَّاعي إلى ذلك.

﴿فَيُرْسِلَ[٥] عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ ٱلرِّيحِ﴾: لا تمرُّ بشيءٍ إلا قصَفته؛ أي: كسرته بشدَّة.

﴿فَيُغْرِقَكُم﴾ قرئ بالتَّاء[٦]، على إسناده إلى ضمير الرِّيح.

---

(١) انظر: «الصحاح» (مادة: خسف).

(٢) في (ف): «في».

(٣) في (م): «نعيدكم» بالنون، وهي قراءة ابن كثير وأبي عمرو، قرأا: ﴿أن نخسف﴾ ﴿أو نرسل﴾ ﴿أن نعيدكم﴾ ﴿فنرسل﴾ ﴿فنغرقكم﴾ بالنُّون في الخمسة، وقرأ باقي السبعة بالياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٠).

(٤) في (ف): «التلبيس».

(٥) في (م): «فنرسل»، وهي قراءة سبعية كما تقدم.

(٦) قرأ بها أبو جعفر من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٠٨).

﴿بِمَا كَفَرْتُمْ﴾: بسبب كفرانكم نعمة الإنجاء.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِۦ﴾: بسبب ما فعلنا ﴿تَبِيعًا﴾: مُطالباً به[1] يَتْبعنا بانتصار. قال الفرَّاء: التَّبيعُ: طالبُ الثَّأرِ[2].

* * *

(٧٠) - ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾.

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ تكريماً مشتركاً فيما بينهم، بحيث لا يختصُّ ببعض دون آخر[3]، ولهذا أتى بصيغة الجمع، والمراد: الكرامة البدنيَّة، ولهذا عبَّر عنهم بوصف البنوَّة.

وعبارته وإن كانت لم تتناول آدم عليه السَّلام، لكن دلالته متناولة له عليه السلام، وذلك أنَّ ترتيب التَّكريم على وصف البنوَّة المضافة إليه لا تخلو عن دلالة على أنَّه عليه السلام منشأُ التَّكريم ومبدؤه، فلا حاجة إلى تأويل بني آدم بنوع الإنسان، بل لا وجه له؛ إذ حينئذ تفوت الدِّلالة على التَّكريم المشترك[4].

ولما أَبهمَ في جهة التَّكريم للتَّعظيم، وأَتى بالتَّعميم في جانب المكرَّم حيث ذكره بصيغة الجمع النَّصِّ في التَّكثير، دون اسم الجنس المحتمِل للقليل والكثير[5]،

---

(١) «به» سقط من (ك).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٧).

(٣) في (ف): «دون بعض آخر».

(٤) «المشترك» من (م).

(٥) في (م): «للقليل والتكثير»، وفي (ف): «التقليل والكثير». والمثبت من (ك)، ويصح أيضاً: «للتقليل والتكثير».

تضمَّنَ أوَّل الكلام وآخره المبالغة، فكان أحرى أن يصدَّر طرف الكلام بحرف التَّأكيد مرَّة بعد أخرى.

قيل: ومن جملة كرامته أنَّ كلَّ حيوان يتناول طعامه بفمه إلَّا الإنسان، فإنَّه يرفعه إليه بيده.

وفيه نظر؛ لأنَّ القردة مع أنَّها من الحيوانات الخسيسة تشاركه فيما ذكر، فلا يصلح كرامةً، ولا أنْ يُعَدَّ خاصيَّة له.

﴿وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾؛ أي: حفظناهم فيهما، فإنَّ الحمل يتضمَّن الحفظ عادة، حتى لم تُخسف بهم الأرض، ولم يُغرقهم الماء، أو: حملناهم على الدَّوابِّ والسُّفنِ، من حملْتُه: إذا جعلْت له ما يركبه.

﴿وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ﴾ مِنْ ضُروب الملاذِّ وفنون النِّعَم ما لم يجعله لشيءٍ من سائر[1] الحيوانات.

لَمَّا فرغَ عن تفصيل بعض[2] وجوه تكريمهم[3] البدنيِّ شرعَ في الإخبار عن تكريمهم النَّفسانيِّ، وأجملَ فيه إشعاراً بقصور العبارة عن تفصيله.

﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ﴾ تفضيلاً مشتركاً كذلك ﴿عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ بالشَّرف والكرامة.

أتى بالتَّأكيد هاهنا اهتماماً لكونه معنويًّا، بخلاف تلك الأحوال الثَّلاثة، ولأنَّ

---

(١) في (م): «الشيء لسائر».

(٢) «بعض» من (م).

(٣) بعدها في (م) زيادة: «لواحد»، ولا يظهر لذكرها معنى.

الأحكام المذكورة من شواهد هذا[١] الحكم، فكأنَّ شهاداتها تأكَّدَتْ بعضُها ببعض، فظهر أثر تلك الشَّهادات في الدَّعوى.

ولَمَّا كان سياق الكلام في النِّعم المشتركة بين أفراد الإنسان شريفِها وخسيسِها ـ على ما نبَّهت عليه آنفاً ـ ظهرَ وجه تخصيص الحكم المذكور بالكثير؛ فإنَّ كلَّ فردٍ من أفراد الإنسان غيرُ مفضَّل على جميع ما عداها، وذلك ظاهر فيه[٢]، ولا دلالة فيه[٣] على عدم تفضيل جنسه على جنس الملائكة؛ لأنَّ في تفضيل جنسٍ على جنسٍ آخر لا حاجة إلى تفضيل جميع أفراد الثَّاني، بل يكفي تفضيل فردٍ من الأوَّل على جميع أفراد الثَّاني.

* * *

(٧١) ـ ﴿يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَٰمِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ بِيَمِينِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَٰبَهُمْ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾.

﴿يَوْمَ نَدْعُواْ﴾ نصب بإضمار (اذكر)، أو ظرفٌ لِمَا دلَّ عليه ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾.

وقيل: هو على الإغراء؛ أي: احذروا يوم ندعو.

[وقرئ: (يُدْعَو)] على قلب الألف واواً في لغةِ مَن يقول: أَفْعَو، [في: أَفْعَى]، ويجوز أن يقال: إنها علامة الجمع، كما في: ﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجْوَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [الأنبياء: ٣]، أو ضميرُه، و﴿كُلَّ﴾ بدل منه، والنونُ محذوفة لقلَّة المبالاة بها؛ فإنَّها ليست إلا علامة الرَّفع، وهو قد يقدَّر كما في: يدعى[٤].

---

(١) «هذا» من (م).

(٢) «فيه» سقط من (ك).

(٣) «فيه» من (م).

(٤) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٦٢)، والكلام وما بين معكوفتين منه. وانظر القراءة المذكورة أيضاً =

﴿كُلَّ أُنَاسٍ﴾: كلَّ جماعةٍ من الإنس. والأناس[١]: أصل النَّاس، وهو اسم جمعٍ، وقد مرَّ بيانه في أوائل سورة البقرة.

﴿بِإِمَٰمِهِمۡ﴾: بمن ائتموا به من نبيٍّ أو مقدَّمٍ في الدِّين أو كتابٍ أو دِين.

وقيل: بكتاب أعمالهم؛ فإنه يرجع إليه في تعرُّف الأعمال.

ويردُّه: أنَّ المدعوَّ إلى كتاب الأعمال كلُّ واحد من الإنس، لا كلُّ جماعة منه؛ لعدم الاشتراك بين الاثنين في كتابٍ واحدٍ.

وقيل: بأمَّهاتهم، جمع أمٍ، كخِفافٍ في جمع خُفٍّ، والحكمة في ذلك: إجلال عيسى عليه السلام، وإظهار شرف الحسنَيْنِ، وأن لا يفتضح [أولاد] الزنا[٢].

ويردُّه أيضاً ما أشرنا إليه من كلِّ أمٍّ ليست مما يشترك فيه[٣] جماعة من الإنس.

ثم إنَّ ثالث ما ذكر من وجوه الحكمة مردودٌ بما ذكر في الصَّحيحَيْن من الحديث الدَّال على أنَّ النَّاس يُدعَوْن في الآخرة بأسمائِهم وأسماءِ آبائهم[٤].

= في «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٧٣)، و«البحر» (١٤/ ١٣٧)، ونسباها للحسن.

(١) في (ف): «وأناس»، وسقطت من (ك).

(٢) انظر: «الكشاف» (٢/ ٦٨٢)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٦٢)، وما بين معكوفتين منهما.

(٣) في (ك): «فيها»، وفي (م): «فيهما».

(٤) يشير إلى ما رواه البخاري (٦١٧٧)، ومسلم (١٧٣٥)، من حديث ابن عمر رضي الله عنه، ولفظ مسلم: «إذا جَمَعَ اللهُ الأوَّلِينَ والآخِرِينَ يومَ القيامة يُرْفَعُ لكلِّ غادرٍ لواءٌ فيقالُ: هذه غَدْرةُ فلانِ بنِ فلانٍ»، قال القرطبي: (فقولُه: «هذه غدرة فلان ابن فلان» دليلٌ على أنَّ الناس يُدْعَون في الآخرة بأسمائهم وأسماء آبائهم، وهذا يَرُدُّ على مَن قال: إنما يُدْعَوْن بأسماء أمَّهاتهم لأن في ذلك سَتراً على آبائهم). انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ١٣١). قلت: وأوضح منه ما رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢١٦٩٣)، وأبو داود (٤٩٤٨)، من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه، لكن إسناده ضعيف لانقطاعه، وقد تقدم في تفسير هذه السورة عند قوله تعالى: ﴿يَوۡمَ يَدۡعُوكُمۡ فَتَسۡتَجِيبُونَ بِحَمۡدِهِۦ﴾.

﴿فَمَنْ أُوتِيَ﴾ من المدعوِّين ﴿كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ﴾؛ أي: كتابَ عمله.

﴿فَأُولَئِكَ﴾ أورده جمعاً على معنى (مَن)، وقد حُمل على اللفظ أوَّلاً فأُفرد في قوله: ﴿كِتَابَهُ﴾، وفي قوله: ﴿بِيَمِينِهِ﴾.

﴿يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ﴾ لكمال صحوهم، ووفور عقلهم، والذين يؤتَون كتابهم بشمالهم فهم لتحيُّرهم وتردُّدهم لا يقرؤون كتابهم، وأشير إليه في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ [الحاقة: ٢٥] حيث لم يذكر[١] القراءة فيه.

وفي قوله: ﴿يَا لَيْتَنِي﴾ دلالةٌ ظاهرة على أنَّه لا يحبس ألسنتهم عن التَّكلُّم، وتعليق القراءة على إتيان الكتاب باليمين لا يخلو عن الدِّلالة على ما أشير[٢] إليه بعدم ذكر القراءة في مقابله.

﴿وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾؛ أي: لا يُنقصون عمَّا يَستحِقُّون من الجزاء أدنى شيءٍ، وقد مرَّ شرح الفتيل في سورة النِّساء.

***

(٧٢) ـ ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾.

﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى﴾؛ أي: مَن كان في هذه الدَّار أعمى عن النَّظر في آيات الله تعالى وغيره فهو في الآخرة أعمى.

ولما نزل هذه الآية جاء عبد الله بن أمِّ مكتوم إلى رسول الله ﷺ وقال:

---

(١) في (ك): «يذكروا».

(٢) في (ف): «يشير».

يـا رسـول الله، أنـا فـي الدُّنيـا أعمى أفأكـون في الآخـرة أعمـى؟ فأنـزل الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِي فِي ٱلصُّدُورِ﴾ [الحج: ٤٦][(١)].

فـلا دلالـةَ فيمـا ذكـر علـى أنَّ مَنْ أوتـي كتابَـه بشـماله لا يقـدر علـى القراءة لعـدم بصـرِه، وقـد مرَّ في تفسـير قولـه تعالـى: ﴿ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: ١٤] ما يقلع عِرْق الشُّـبهة.

وقد جُوِّزَ أن يكون الثَّاني بمعنى التَّفضيل، ويعضد ذلك ظاهر ما عطف عليه من قوله: ﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾، ومِنْ ثمَّة قرأ أبو عمرو الأوَّل ممالاً والثَّاني مفخَّماً[(٢)]، لا لأنَّ أفعل التَّفضيل تمامه بـ (مِن)، فكانت ألفُه في حكم الواقعة في وسط الكلام، وأمَّا الأوَّل فلم يتعلَّق به شيء، فكانت ألفه واقعةً في الطَّرف متعرِّضة[(٣)] للإمالة[(٤)]؛ لأنَّه منقوض بالإمالة في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ﴾ [البقرة: ٦١]، بل لأنَّه أراد أبو عمرو أنْ يفرِّق بينهما لَمَّا اختلف معناهما، واجتمعا في آيةٍ واحدةٍ، وإنَّما أمال الأوَّل دون الثَّاني لِمَا ذُكِرَ؛ فإنَّه يصلح للإحجاز[(٥)] وإن لم يصلح للغلبة.

﴿وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ منه؛ لبطلان الاستعداد وفقدان الآلة والمهلة.

* * *

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٧/ ٢٧)، وأورده البيضاوي في تفسير سورة الحج مقدما له بـ (قيل)، وهي صيغة التمريض عنده، وقال الشهاب: لعل تمريضه لعدم ثبوته عنده لأنّ ابن أم مكتوم رضي الله عنه لا يخفى عليه مثله. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٣٠٣).

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ١٤٠).

(٣) في (ف) و(م): «معترضة»، وفي «الكشاف»: «معرضة».

(٤) انظر: «الكشاف» (٢/ ٦٨٣)، وهنا آخر كلامه، وما بعده تعقب من المؤلف عليه.

(٥) «للإحجاز» كذا في النسخ، وجاء في هامش (م): «لعله: للإحجاج».

(٧٣) - ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾.

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ ﴾ (إن) هي المخفَّفة، واللَّام هي الفارقة، والمعنى: إنَّ الشَّأن قاربوا بمبالغتهم أن يخدعوك فاتنين بالاستنزال.

﴿عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ من الأحكام.

﴿لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ﴾: غيرَ ما أوحينا إليك.

نزلت في ثَقيفٍ، قالوا: لا ندخل في[1] أمرك حتى تعطيَنا خصالاً نفتخرُ بها على العرب، لا نُعْشَر ولا نُحْشَر ولا نُجبِّي في صلاتنا، وكلُّ رباً لنا فهو لنا، وكلُّ رباً علينا فهو موضوع عنَّا، وأنْ تمتِّعنا باللَّات سنةً، وأنْ تحرِّم واديَنا كما حرَّمتَ مكَّة، وإن قالت العربُ: لم فعلْتَ ذلك؟ فقل: إنَّ الله أمرني به[2].

وقيل: في قريش، قالوا: لا نمكِّنكَ من استلام الحجر حتى تُلِمَّ بآلهتنا وتمسكها بيدك[3].

---

(١) في (ف): «من».

(٢) ليس له رواية يحتج بها، فقد ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١١٨) عن ابن عباس، وأورده ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٦٧) في نزول هذه الآية وقال: رواه عطاء عن ابن عباس. ثم ذكر نحوه عن عطية عن ابن عباس. وذكره أيضاً (٢/ ١٩٦) في نزول قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ ﴾ [النساء: ١١٣] وقال: هذا قول ابن عباس في رواية الضحاك. وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٠٠): ذكره الثعلبي عن ابن عباس من غير سند. وقال العراقي كما في «روح المعاني» (١٥/ ٣٢): لم نجده في كتب الحديث. قلت: رواه ابن شبة في «أخبار المدينة» (٨٨٤) عن الكلبي.

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ١١٧)، و«زاد المسير» (٥/ ٦٧)، قال ابن الجوزي: قاله سعيد بن جبير وهذا باطل.

﴿وَإِذًا﴾؛ أي: لـو اتَّبعْـتَ مرادهـم ﴿لَّاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا﴾ وخليلُهـم بـريءٌ من خلَّـة اللهِ تعالى.

* * *

(٧٤) ـ ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾.

﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ﴾ ولولا تثبيتُنا إيَّاكَ ﴿لَقَدْ كِدتَّ﴾: قاربْتَ ﴿تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ جواب ﴿وَلَوْلَآ﴾ يقتضي إذا كان مثبتاً امتناعَه لوجود ما قبله، فمقاربةُ الشَّيء القليل من الرُّكون ـ وهو الميل اليسير ـ لم يقع منه عليه السَّلام، فضلاً عن وقوع ذلك الشَّيء القليل من الميل اليسير، وهذا غايةُ المبالغة في تنزيهه عليه السلام عن الميل إلى أهوائهم[١]، والكون في صدد نفيه دلالة ظاهرة على أن قوله تعالى: ﴿لَيَفْتِنُونَكَ﴾ بيانُ قصدهم، لا فعلُه عليه السلام؛ أي: لو[٢] قاربْتَ.

* * *

(٧٥) ـ ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾.

﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾ الضِّعفُ بمعنى[٣]: المضاعف، وكان أصل الكلام: لأذقناك عذاباً ضِعفاً في الحياة الدُّنيا وعذاباً ضِعفاً في الممات، ثم حذف الموصوف، وأُقيْمَتِ الصِّفة مقامَه، وهو الضِّعف، ثم أضيف الصِّفة إضافة الموصوف، فقيل: ﴿ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ﴾، والمعنى: لضاعفنا لك العذاب المعجَّل للعصاة في الحياة الدُّنيا، وما نؤخِّره لهم لِـمَا بعد الموت.

---

(١) في (ك) و(م): «هواهم».

(٢) «لو» سقط من (ف).

(٣) «بمعنى» سقط من (ك).

وفي ذكر الكيدودة وتقليلِ الميل مرَّةً بعد أخرى مع إتْباعها الوعيدَ الشَّديد بالعذاب المضاعف في الدَّارين دليلٌ بيِّنٌ على أنَّ مَن كانت درجته أرفعَ ونِعَمُ الله تعالى عليه أسبغَ كانَ وعدُ الله تعالى في حقِّه أبلغَ.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾ يدفع عنك عذابَنا بالغلَبة علينا.

* * *

(٧٦) - ﴿وَإِن كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَافَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

﴿وَإِن كَادُوا﴾ الضَّمير لأهل مكَّة ﴿لَيَسْتَفِزُّونَكَ﴾ قد مرَّ معنى الاستفزاز.

﴿مِنَ الْأَرْضِ﴾؛ أي: من أرض مكَّة ﴿لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا﴾ متعلِّق بـ ﴿كَادُوا﴾.

﴿وَإِذًا﴾؛ أي: لو أخرجوك منها ﴿لَا يَلْبَثُونَ خَلْفَكَ﴾: بعدَكَ، وقرئ: ﴿خِلَافَكَ﴾ وهو لغة فيه[١]؛ أي: لم يُمهلوا ﴿إِلَّا قَلِيلًا﴾: قَدْرَ ما ينزل بهم العذابُ.

وما أخرجوه عليه السلام منها، بل خرجَ بنفسه امتثالاً لأمر الهجرة، نعم أزعجوه عليه السلام، لكن التَّعليق على الإخراج لا على الإزعاج.

وقيل: الضَّمير ليهود المدينة، و﴿الْأَرْضِ﴾ أرضُها، وذلك أنَّهم أرادوا المكرَ برسول الله ﷺ، [فقالوا له: إن هذه الأرض ليست بأرض الأنبياء، وإنما أرض الأنبياء بالشام][٢] ولكنَّك تخاف الرُّوم، فإنْ كنْتَ نبيًّا فاخرج إليها، فإنَّ الله سيحميك كما

---

(١) قرأ ابن عامر وحفص والكسائي: ﴿خِلَافَكَ﴾، بكسر الخاء وفتح اللام وألف بعدها، والباقون بفتح الخاء وإسكان اللام. انظر: «التيسير» (ص: ١٤١).

(٢) ما بين معكوفتين من «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٧٦).

حمى سائر الأنبياء عليهم السلام، فوقع ذلك في قلبه لِمَا يحبُّ[١] من إسلامهم، فرحل من المدينة مرحلةً، فأنزل الله تعالى هذه الآية[٢].

وعلى هذا أيضاً لم يوجد إخراجه عليه السلام، كما هو الظَّاهر من قوله: ﴿وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا﴾.

وقرئ: (لا يلبثوا)[٣]، منصوباً بـ ﴿وَإِذًا﴾[٤] على أنَّه معطوف على قوله: ﴿وَإِن كَادُواْ﴾، لا على خبر (كاد)، فإنَّ ﴿وَإِذًا﴾ لا يعمل إلَّا إذا كان معتمِداً ما بعدها على ما قبلها.

* * *

(٧٧) ـ ﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴾.

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ﴾ نصب على المصدر؛ أي: سَنَّ اللهُ ذلك سُنَّةً، وهو أن يُهلك كلَّ أمَّة أخرجوا رسولهم من بين أظهرهم، فالسنَّة للمرسِل، والإضافة إلى المرسَل[٥] لأدنى ملابَسةٍ، دلَّ على ذلك قوله:

﴿وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا﴾: تغييراً.

* * *

---

(١) في (ف) و(م): «يجب».

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٧٦). ورواه بنحوه البيهقي في «دلائل النبوة» (٥/ ٢٥٤) عن عبد الرحمن بن غَنْم.

(٣) انظر: «المختصر في القراءات الشاذة» (ص: ٧٧).

(٤) في (ك): «بإذن».

(٥) في (ك): «للمرسل».

(٧٨) ـ ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾.

﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾: لزوالها، وقيل: لغروبها، وأصله: الميل، وهو ينتظِم المعنيين؛ قال ابن عطيَّة: الدُّلوكُ: هو الميل في اللُّغة[1] فأوَّلُ الدُّلوك هو الزَّوال، وآخرُه هو الغروب[2].

وقال الماوردي: مَن جعل الدلوك اسماً لغروبها فلأنَّ الإنسان يدلُكُ عينيه براحته ليتبيَّنها حالةَ المغيب، ومَن جعله اسماً لزوالها فلأنَّه يدلك عينيه لشدَّة شعاعها عند ذلك[3].

واللَّام للسَّبب؛ لأنَّها إنَّما تجب بزوال الشَّمس.

﴿إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾: هو اجتماع اللَّيل وظلمته، وهو وقت صلاة العشاء الأخيرة.

وقيل: المراد بالصَّلاة: صلاة المغرب، وقوله: ﴿لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ إِلَىٰ غَسَقِ ٱلَّيْلِ﴾ بيانٌ لمبدأ الوقت ومنتهاه، على أنَّ الدُّلوك هو الغروب، واستُدلَّ به على امتداد الوقت إلى غروب الشَّفق.

﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ﴾: وصلاةَ الصُّبح، سُمِّيَتْ قرآناً لأنَّه ركنُها[4] كما سُمِّيَتْ ركوعاً وسجوداً لذلك، ولكنْ لا دلالة فيه على ذلك[5]، كما لا دلالة في تسميتها

---

(١) «في اللغة» سقط من (ك)، و«اللغة» سقط من (ف)، والمثبت من (م) وهو الموافق لـ«المحرر الوجيز».

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٤٧٧).

(٣) انظر: «النكت والعيون» (٣/ ٢٦٣).

(٤) في النسخ: «ركنه»، والمثبت من «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٦٤)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٨٩).

(٥) أي: على الركنية.

قنوتاً على أنَّ القنوت ركنها، وكذا لا دلالة فيه على وجوب القراءة فيها؛ لجواز أن يكون التجوُّز بها لكونها[١] مندوبة في الصَّلاة، نعم لو كان المجاز في ﴿ٱلْفَجْرِ﴾ بأن يكون المراد منه الصلاةَ في ذلك الوقت لدلَّ الأمر بإقامتها على الوجوب فيها[٢] عبارةً، وفي غيرها دلالة.

وانتصب ﴿قُرْءَانَ﴾ عطفاً على ﴿ٱلصَّلَوٰةَ﴾ قاله الفرَّاء[٣]. أو على الإغراء؛ أي: فعليك بقراءة الفجر، قاله الزَّجَّاجُ وعزاه إلى البصريِّين[٤].

﴿إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ «تشهده ملائكة اللَّيل وملائكة النَّهار»، رواه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النَّبيِّ ﷺ، وقال: هذا حديث حسن صحيح[٥].

والآية جامعةٌ للصَّلوات الخمس إنْ فُسِّرَ الدُّلوكُ بالزَّوال، ولصلاة اللَّيل فقط إن فُسِّرَ بالغروب.

***

(٧٩) ـ ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ﴾ (مِن) للتَّبعيض، والفاءُ ناسقةٌ على مضمَرٍ؛ أي: قُم فتهجَّد به؛ أي: بالقرآن.

---

(١) أي: القراءة.

(٢) «فيها» من (م).

(٣) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٢٩)، وفيه: «أي: وأقم قرآن الفجر».

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ١٤٢). وعنه نقل المؤلف القولين، ولم نجد قول الزجاج عند غيره.

(٥) رواه الترمذي (٣١٣٥). وانظر حديث أبي هريرة عند البخاري (٦٤٨)، ومسلم (٦٤٩).

والتَّهجُّد: التَّيقُّظ من النَّوم، لا تركُ النَّوم[1] مطلقاً.

قال الحجَّاج بنُ عمرٍو صاحبُ النَّبيِّ عليه السلام: أيحسب أحدكم إذا قام في اللَّيل كلِّه أنَّه قد تهجَّد؟! إنَّ التهجُّدَ الصلاةُ بعد رقدة، ثمَّ الصَّلاة بعد رقدة، ثم الصَّلاة بعد رقدة، كذلك كانت صلاة رسول الله ﷺ[2].

وهو من الهجود، يقال: تهجَّد: إذا ألقى الهجود ـ وهو النَّوم ـ عن نفسه، وهذا الفعل جارٍ مجرى تَحوَّبَ وتَحرَّجَ وتأثَّمَ وتحنَّثَ: إذا ألقى ذلك عن نفسِه.

﴿نَافِلَةً لَّكَ﴾: زائدةً على[3] تلك الفرائض المذكورة في الآية السَّابقة، والزَّائد حقُّه أن يكون من جنس المزيد عليه، فالتَّهجدُ من الفرائض، وإنَّما قال ﴿لَّكَ﴾: لأنَّه ليس بفرض في حقِّ أمَّته، وقد روي عنه عليه السلام: «ثلاثة عليَّ فريضة ولأمَّتي تطوُّع: قيام اللَّيل، والوتر، والسِّواك»[4].

ومَن زعمَ أنَّه تطوُّع في حقِّه أيضاً فسَّر النَّافلةَ بالزِّيادةِ؛ أي: زيادةً لك في الدَّرجات، وذلك لأنَّه عليه السلام مغفورٌ له، فهو إذا تطوَّع بما ليس بواجب عليه كان ذلك زيادةً في درجاته، وغيرُه من الأمَّة تطوُّعهم كفَّارات لذنوبهم، وتدارُكٌ لخللٍ يقعُ في الفرائض.

---

(١) «لا ترك النوم» من (م).

(٢) رواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٣/ ٢٢٥) بإسناد فيه ابن لهيعة، وابن أبي خيثمة بإسناد فيه عبد الله ابن صالح كاتب الليث. وحسن إسناده ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٢/ ١٦) لاعتضاد الروايتين، وقال الآلوسي: أغرب الحجاج بن عمرو. انظر: «روح المعاني» (١٥/ ٥٤). قلت: والحجاج بن عمرو مختلف في صحبته، وقال أبو نعيم: شهد صفين مع علي. انظر: «الإصابة» (٢/ ٣٥).

(٣) في (م): «عن».

(٤) رواه الطبراني في «الأوسط» (٣٢٩٠)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٨/ ٢٦٤): فيه موسى بن عبد الرحمن الصنعاني وهو كذاب.

﴿عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا﴾ ﴿مَقَامٗا﴾ نصب على الظَّرف على تقدير العامل أو تضمينه؛ إذ لا يصلحُ[1] للعمل في مثل هذا الظَّرف إلَّا فعلٌ فيه معنى الاستقرار، ويجوز أن يكون حالاً؛ أي: ذا[2] مقامٍ محمود.

وروى التِّرمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «المقام المحمود هو المقام الذي أشفع فيه لأمَّتي»، وقال: هذا حديث حسن[3].

فالمقام: الموضع الذي يقوم فيه الإنسان للأمور الجليلة، ومعنى كونه محموداً: أنه تعالى يقيمه عليه السلام فيه فيشفع، فيَحمده الخلقُ.

* * *

(٨٠) ـ ﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ وَٱجۡعَل لِّي مِن لَّدُنكَ سُلۡطَٰنٗا نَّصِيرٗا﴾.

﴿وَقُل رَّبِّ أَدۡخِلۡنِي مُدۡخَلَ صِدۡقٖ وَأَخۡرِجۡنِي مُخۡرَجَ صِدۡقٖ﴾ المدخل والمخرج بضم الميم بمعنى: الإدخال والإخراج.

والصِّدق: بمعنى المرضيِّ، يقال: رجلُ صِدْقٍ؛ أي: مرضيُّ الخُلُق.

وقرئ: (مَدْخَلَ) و(مَخْرَجَ) بفتح الميم[4]، بمعنى الدُّخول والخروج، على معنى: أدخلْني فأدخلَ دخولاً وأخرجْني فأخرجَ خروجاً.

وقيل: المراد إدخاله مكَّة ظاهراً عليها، وإخراجه منها آمناً.

---

(١) في (ف): «يصح».

(٢) في النسخ: «ذات»، والمثبت من «الكشاف» (٢/ ٦٨٧).

(٣) روى نحوه الترمذي (٣١٣٧).

(٤) نسبت لعلي بن أبي طالب وأُبي رضي الله عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٧).

وقيل: إدخاله الغار وإخراجه منه سالماً.

وقيل: إدخاله المدينة وإخراجه من مكَّة.

وفيه: أنَّ المناسب حينئذٍ تقديم[١] الإخراج على الإدخال.

وقيل: ﴿أَدْخِلْنِى﴾ فيما أمرتَني به، ﴿وَأَخْرِجْنِى﴾ عمَّا نهيتَني عنه.

والظَّاهرُ أنَّه عامٌّ في جميع موارده عليه السلام ومصادره، دنياويَّةً وأخراويَّةً.

وقيل: المراد: الإدخال في القبر والإخراجُ منه؛ ليتَّصل بقوله: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾.

﴿وَٱجْعَل لِّى مِن لَّدُنكَ﴾ مَرَّ تفسير (لدن) في آل عمران.

﴿سُلْطَـٰنًا نَّصِيرًا﴾: حجَّةً تنصرني على المخالف، أو: مُلْكاً ينصر الإسلام على الكفر، فاستجاب له بقوله: ﴿فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَـٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦].

والنَّصرُ: التَّمكينُ من الانتصار من العدوِّ.

* * *

(٨١) ـ ﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾.

﴿وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ﴾ الإسلامُ ﴿وَزَهَقَ ٱلْبَـٰطِلُ﴾؛ أي: ذهب الكفر، يقال: زهق[٢] روحُه: إذا خرج.

﴿إِنَّ ٱلْبَـٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾؛ أي: لم يزل مضمحِلًّا.

* * *

(١) في (ف): «تقدم».

(٢) في (ف): «رهوق».

(٨٢) ـ ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾.

﴿ وَنُنَزِّلُ ﴾ قرئ بالتَّخفيف والتَّشديد[١].

﴿مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ ﴿مِنَ ﴾ للتَّبيين، كقوله تعالى: ﴿مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ ﴾ [الحج: ٣٠] قدَّم المبهَم اهتماماً؛ أي: كلُّ شيءٍ نزلَ من القرآن فهو شفاء للمؤمنين، يستصلِحون به دينهم، ويتَّعظون به في دنياهم، فموقعُه منهم[٢] موقعُ الشِّفاء من المرضى.

وعن النَّبيِّ عليه السلام: «مَنْ لم يستشفِ بالقرآنِ فلا شفاهُ اللهُ»[٣].

أو للتَّبعيض، وليس معناه أنَّه منقسمٌ إلى ما هو شفاء، وإلى ما ليس بشفاء، بل المعنى أنَّه نزلَ شيئاً فشيئاً، فالنَّازل في كلِّ وقتٍ بعضٌ.

﴿مَا هُوَ شِفَآءٌ ﴾ كلُّه ﴿وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ بتفريج الكروب، وتطهير العيوب، وتكفير الذُّنوب، مع ما تفضَّل به تعالى من الثَّواب في تلاوته.

﴿وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا ﴾؛ أي: نقصاناً؛ لتكذيبهم وكفرهم، قال قتادةُ: ما جالسَ أحدٌ القرآنَ إلَّا قامَ بزيادةٍ أو نقصانٍ[٤].

* * *

---

(١) قرأ أبو عمرو بالتخفيف وباقي السبعة بالتشديد. انظر: «التيسير» (ص: ٧٥).

(٢) «منهم» من (م).

(٣) رواه الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٢٩) من حديث رجاء الغنوي، وفي إسناده أحمد بن الحارث الغساني وهو متروك. انظر: «الكافي الشاف» (ص: ١٠٢). ورجاء الغنوي لا يصح حديثه ولا تصح له صحبة، كما في «التمهيد» (٢/ ٤٩٥).

(٤) رواه أبو عبيد في «فضائل القرآن» (ص: ٥٦).

(٨٣) ـ ﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ ۖ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ كَانَ يَـُٔوسًا ﴾

﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ ﴾ بالصِّحة والسَّعة ﴿أَعْرَضَ ﴾ عن ذكر الله كأنَّه مستغنٍ عنه ﴿وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ﴾ تأكيدٌ للإعراض؛ لأنَّ الإعراضَ عن الشَّيء: أن يولِّيه عرضَ وجهِه. والنَّأي بالجانب: أن يلوِيَ عنه عطفه ويولِّيه ظهره.

ويجوز أن يكون كنايةً عن الاستكبار؛ لأنه من عادة المتكبِّرين.

وقرئ: ﴿نَاءَ﴾ على القلب[1]، أو على أنه بمعنى: نهض.

﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ ﴾؛ أي: مرض أو فقر ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾: شديدَ اليأس من رَوح الله تعالى.

* * *

(٨٤) ـ ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾.

﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾: على طريقته التي تشاكل حاله في الهدى والضَّلالة، يقال: طريق ذو شواكِلَ؛ وهي الطُّرق[2] التي تتشعَّب منه، ويشهدُ لذلك قوله:

﴿فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَىٰ سَبِيلًا ﴾: أسدُّ مذهباً وأبيَنُ طريقةً.

* * *

(٨٥) ـ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ﴾ الذي يحيَى به بدن الإنسان ويدبِّره[3].

---

(١) وهي قراءة ابن ذكوان. انظر: «التيسير» (ص: ١٤١). وفي (ف): «بالقلب».

(٢) في (ف) و(ك): «الطريقة».

(٣) أي: عن حقيقة الروح الذي هو مدبِّرُ البدنِ الإنساني ومبدأُ حياتِه. انظر: «تفسير أبي السعود» (٥/ ١٩٢).

﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنۡ أَمۡرِ رَبِّي﴾ من الإبداعات الكائنة بأمر (كنْ) من غير مادَّةٍ ومدَّةٍ وتولُّدٍ من أصلٍ كأعضاء جسده.

وفيه إشارة إلى أن الرُّوح ممَّا لا يمكن معرفة ذاته إلَّا بعوارض تميِّزه[١] عمَّن يلتبس به، فلذلك اقتصر على هذا الجواب كما اقتصر موسى عليه السلام في جواب: ﴿وَمَا رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٣] بذكر بعض صفاته، وهذا القدْر من البيان لا ينافي الإبهام المذكور فيما روي أنَّ اليهود قالوا لقريش: اسألوه عن أصحاب الكهف، وعن ذي القرنين، وعن الرُّوح؛ فإنْ أجابَ عنها أو سكتَ فليس بنبيٍّ، وإنْ أجابَ عن بعضٍ وسكتَ عن بعضٍ فهو نبيٌّ، فبيَّنَ لهم القصَّتين وأبهم أمر الرُّوح[٢]؛ لأنَّ السُّؤال كان عن حقيقته، وهي باقية على إبهامها.

وقيل: ﴿ٱلرُّوحِ﴾ جبريلُ عليه السلام.

وقيل: خلق أعظم[٣] من الملَك.

﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ تستفيدونه بتوسُّط حواسِّكم؛ فإنَّ اكتساب العلوم النَّظرية من الضَّروريَّات المستفادة من المحسوسات غالباً، ولذلك قيل: مَن فقدَ حسًّا فقد[٤] فقدَ علماً، وأكثر الأشياء لا يدركه الحسُّ.

***

(٨٦) - ﴿وَلَئِن شِئۡنَا لَنَذۡهَبَنَّ بِٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيۡنَا وَكِيلًا﴾.

---

(١) «تميزه» من (م).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٦٩) عن قتادة.

(٣) في (ف): «عظيم».

(٤) «فقد» من (ك).

﴿ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ﴾ ﴿لَنَذْهَبَنَّ﴾ جوابُ قسمٍ محذوف مع نيابته عن جزاء الشَّرط، واللَّام الدَّاخلة على (إنْ) موطِّئةٌ للقسم، والمعنى: إنْ شئنا ذهبنا بالقرآن ومحوناه عن الصُّدور والمصاحف.

﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا ﴾؛ أي: لا تجد بعد الذَّهاب مَن يتوكَّل علينا باسترداده[1] وإعادته محفوظاً مسطوراً.

***

(٨٧) ـ ﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾.

﴿إِلَّا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ لكن لا نشاء ذلك رحمةً من ربِّك.

وقيل: إلَّا أن يرحمك ربُّك فيردَّه عليك، كأن رحمته تتوكل[2] عليه بالردِّ، وهذا امتنانٌ من الله تعالى ببقاء القرآن محفوظاً بعد المنَّة العظيمة في تنزيله.

﴿إِنَّ فَضْلَهُۥ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ﴾؛ إذ جعلَك سيِّد ولدِ آدم، وأعطاكَ المقامَ المحمود، وأنزل عليك هذا الكتاب، وأبقاه محفوظاً.

***

(٨٨) ـ ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾.

﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ ﴾ لم يذكر الملَكَ معهما، لا لأنَّه قادر على الإتيان بمثله؛ لأنَّه مردود بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾

---

(١) في (م): «باسترداد به»، وفي (ك): «باستردادته».

(٢) في (ك): «متوكل».

[النساء: ٨٢]، بل لأنَّ الفعل المذكور ممَّا لا يليق لشأنه، ولا يجوز أن يُنْسَبَ إليه؛ لأنَّهم معصومون لا يفعلون إلا ما يُؤْمَرون.

﴿عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ في كمال بلاغته وحسنِ نظمه وجَودةِ تأليفه.

﴿لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ﴾ جواب قسم محذوف دلَّ عليه اللَّام الموطِّئة، ولولا هي لكان جوابَ الشرط بلا جزمٍ؛ لكون الشَّرط ماضياً.

والعدول عن الضمير إلى الاسم الظاهر لتفخيم شأن ما عَجزَ عنه الثَّقلان.

ولما كان الاجتماع على أمرٍ قد يُوجَد بدون المظاهرة فيما بينهم كاجتماع المجتهدين على حكمٍ شرعيٍّ قال:

﴿وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾: ولو تظاهروا على ما اتَّفقوا عليه من المعارضة بإتيان مثله، ولا يصلح هذا أن يكون تقريراً لقوله: ﴿ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِۦ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾؛ لأنَّ المقدِرة[1] على الإتيان بمثله أصعب من القدرة على استرداد عينه، ونفيُ الشَّيء إنَّما يقرِّر نفيَ[2] ما دونه، لا ما فوقَه.

* * *

(٨٩) - ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِى هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ﴾ مَرَّ تفسيرُه في هذه السُّورة.

﴿مِن كُلِّ مَثَلٍ﴾ من كل معنًى هو كالمثل في غرابته وحُسن موقعه.

﴿فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ﴾ (أبى) مُتأوَّل بالنَّفي؛ أي: فلم يرضوا ﴿إِلَّا كُفُورًا﴾: إلَّا جحوداً.

---

(١) في (ف): «القدرة».

(٢) «نفي» سقط من (ك).

(٩٠) ـ ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾.

﴿ وَقَالُوا ﴾ تعنُّتاً واقتراحاً بعدما لزمتْهم الحجَّة ببيان إعجاز القرآن وانضمام غيره من المعجزات: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ﴾ قرئ بالتَّخفيف والتَّشديد[1].

﴿لَنَا مِنَ الْأَرْضِ﴾: أرضِ مكَّة.

﴿يَنبُوعًا﴾: هو عينٌ ينبع ماؤه؛ أي: يفور، يَفْعولٌ من نبعَ الماءُ، كيَعْبوبٍ من عبَّ الماء[2]: إذا زَخر.

***

(٩١) ـ ﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا ﴾.

﴿ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ ﴾ هذا بالتَّشديد بالإجماع[3] لمكان ﴿ الْأَنْهَارَ ﴾.

﴿ خِلَالَهَا ﴾ وسطها ﴿تَفْجِيرًا ﴾؛ أي: يكون لك بستانٌ يشتمِل على ذلك.

***

(٩٢) ـ ﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا ﴾.

﴿ أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا ﴾ يعنون قولَ الله تعالى: ﴿أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ ﴾ [سبأ: ٩] وهو القطَع[4] لفظاً ومعنًى.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بفتح التاء وضم الجيم مخففًا، والباقون بضم التَّاء وكسر الجيم مشددًا. انظر: «التيسير» (ص: ١٤١).

(٢) في النسخ: «عبة الأرض»، والمثبت من «الكشاف» (٢/ ٦٩٣)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٦٦)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ١٩٤)، و«روح المعاني» (١٤/ ١١٦).

(٣) «بالإجماع» من (م).

(٤) في (م): «كقطع».

وقرئ: ﴿كِسْفاً﴾ بالسُّكون[1]، وهو فِعْلٌ بمعنى مفعولٍ، كالطِّحْن، أو مخفَّف من المفتوح كسِدَرٍ وسِدْرٍ.

﴿أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا﴾؛ أي: عياناً، والقَبيل بهذا المعنى المناسب للمقام الخالي عن التعسُّف مذكورٌ في «الصِّحاح»[2].

***

(٩٣) - ﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾.

﴿أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ﴾: من ذهبٍ، وقد قرئ به[3]، وأصله الزِّينة.

﴿أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ في معارجها، يقال: رقَى في السلَّم: إذا صعد إليها.

﴿وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ﴾: ولن نصدِّق لرقيِّك، فاللَّام للصِّلة، يقال: آمن له: إذا أذعن له، على ما مرَّ في سورة يوسف عليه السلام.

﴿حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا﴾ من السَّماء فيه تصديقك.

﴿نَّقْرَؤُهُۥ﴾ فلا يحتاج إلى نقلك إيَّاه. وهذا القيد لعدم اعتمادهم النَّبيَّ عليه السلام في تبليغ القرآن.

﴿قُلْ﴾ وقرئ: ﴿قالَ﴾[4]؛ أي: قال رسول الله ﷺ:

---

(١) قرأ نافع وعاصم وابن عامر بفتح السين والباقون بإسكانها. انظر: «التيسير» (ص: ١٤١).

(٢) انظر: «الصحاح» (مادة: قبل).

(٣) رويت عن عبد الله، وهي من قبيل التفسير لا القراءة. انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ٨٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٤٨٥)، و«البحر المحيط» (١٤/ ١٧٨).

(٤) وهي قراءة ابن كثير وابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤١).

﴿سُبۡحَانَ رَبِّي﴾ تعجُّباً[١] من اقتراحاتهم عليه، أو تنزيهاً لله تعالى من أن يأتي، أو يُتحكَّم عليه.

﴿هَلۡ كُنتُ إِلَّا بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾ كسائر الرُّسل بشراً مثلهم، وكان الرُّسل لا يأتون قومهم إلَّا بما[٢] يُظهِرُ اللهُ تعالى عليهم من الآيات، فليس أمرُ الآيات إليَّ، إنَّما هو إلى الله تعالى، فما بالُهم يتجبَّرون[٣] عليَّ.

***

(٩٤) ـ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ﴾ قد مرَّ تفسير المنع في هذه السُّورة.

﴿أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾: وما منعهم عن الإيمان بعد نزول الوحي ومجيء القرآن.

﴿إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرٗا رَّسُولٗا﴾: إلَّا قولُهم هذا، وكان المانع اعتقادَهم بموجَب ما قالوا مِن أنَّ اللهَ تعالى أجَلُّ مِنْ أن يكون رسولُه من جنس البشر، إلَّا أنَّه عبَّرَ عنه بالقول تنزيلاً له وإخراجاً عن حيِّز الاعتقاد.

***

(٩٥) ـ ﴿قُل لَّوۡ كَانَ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَلَٰٓئِكَةٞ يَمۡشُونَ مُطۡمَئِنِّينَ لَنَزَّلۡنَا عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكٗا رَّسُولٗا﴾.

---

(١) في (ف): «تعجيباً».

(٢) «بما» من (م).

(٣) في (م): «يتحيرون».

﴿قُل﴾ في جوابهم: ﴿لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ﴾ يتصرَّفون فيها بمشي قاطنين[1] فيها، وليس لهم قدرة الصُّعود إلى السماء، فيسمعون من أهلها ويعلمون ما يجب علمُه.

﴿لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا﴾ ليكون من جنسهم فيفهمون كلامه ويسكنون إليه، فأمَّا أنتم فبشرٌ[2]، فبعثني الله إليكم بشراً مثلكم؛ لتكون قلوبكم أسكن إليه، وأنتم لكلامه أفهم؛ فإنَّ مقتضى الحكمة أن يكون الرَّسول من جنس المرسَل إليه.

و﴿مَلَكًا﴾ حال من ﴿رَّسُولًا﴾، ويحتمِل أن يكون موصوفاً به، وكذا الحال في ﴿بَشَرًا﴾.

* * *

(٩٦) ـ ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا﴾.

﴿قُلْ﴾ جواباً لهم ـ حين قالوا: مَنْ يشهدُ لك[3] بأنَّك رسولُ الله؟ ـ:

﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ﴾ نصبَ ﴿شَهِيدًۢا﴾ على التَّمييز؛ أي: حسبي الله تعالى من الشهداء، أو على الحال؛ أي: كفى بالله تعالى في حال شهادتنا.

والعدول من (بيننا) إلى ما فيه[4] التَّكريرُ للتَّأكيد.

---

(١) في (ف): «بالخير»، وفي (ك) لعلها: «فالحين».

(٢) «فبشر» سقط من (ك).

(٣) «لك» من (م).

(٤) بعدها في (ك): «من».

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ بخفيَّات أسرارهم ﴿بَصِيرًا﴾: مطَّلعاً على ما يظهر من أفعالهم وأقوالهم فيجازيهم عليه.

وفيه تسليةٌ لرسول الله ﷺ، وتهديدٌ للكفَّار.

***

(٩٧) - ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِهِۦ ۖ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا ۖ مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَـٰهُمْ سَعِيرًا﴾.

﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ﴾ أتى هاهنا بضمير الجمع؛ تنبيهاً على أنَّ نسبة الضَّالين إلى المهتدين نسبةُ الجماعة إلى الواحد، ولذلك قال:

﴿أَوْلِيَآءَ﴾ مع أن نفي الولي الواحد أبلغ.

﴿مِن دُونِهِۦ﴾ يهدونهم.

﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ﴾ مسحوبين عليها، أو: ماشين عليها.

روي في «الصحيحين» أنه قيل لرسول الله ﷺ: كيف يمشون على وجوههم؟ قال: «إنَّ الذي أمشاهم على أرجلهم قادر على[1] أن يمشيَهم على وجوههم»[2].

﴿عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾ إنهم يحشرون على هذه الصِّفة، ثم يخلق لهم ذلك قبل دخولهم في النَّار:

فأبصروا؛ لقوله تعالى ﴿وَرَءَا ٱلْمُجْرِمُونَ ٱلنَّارَ فَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾ [الكهف: ٥٣].

وتكلموا؛ لقوله تعالى: ﴿دَعَوْا۟ هُنَالِكَ ثُبُورًا﴾ [الفرقان: ١٣].

---

(١) «على» من (م).

(٢) روى نحوه البخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦)، من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

وسمعوا؛ لقوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان: ١٢].

وقيل: لا يبصرون ما يُقرُّ أعينَهم، ولا يسمعون ما يلذُّ مسامعهم، ولا ينطقون ما يُقبل منهم.

ويردُّه: أنَّ[١] قولَه تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [يس: ٦٥] صريحٌ في نفي القدرة على مطلَق التكلُّم عنهم، وأن قوله تعالى: ﴿وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ﴾ [يس: ٦٥] دلَّ على أن ذلك في الموقف قبل الانصراف عنه إلى النَّار، وبهذا اندفع احتمالُ أن يكون ذلك بعد الدُّخول فيها أو عند المشارفة عليها.

﴿مَّأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ كُلَّمَا خَبَتْ﴾: سكن لهبها.

الخَبْوُ: سكون النَّار عن الالتهاب، وما قيل: بأنْ أكلَتْ جلودهم ولحومهم[٢]، يردُّه قولُه تعالى: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَٰهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[٣] [النساء: ٥٦]؛ لأنَّه صريحٌ في النَّار لا يُتجاوز في تعذيبهم عن حدِّ الإنضاج إلى حدِّ الإغراق والإفناء[٤].

﴿زِدْنَٰهُمْ سَعِيرًا﴾: توقُّداً، وإنَّما قال: ﴿زِدْنَٰهُمْ﴾ دون: زدناها؛ بناءً على أنَّهم

---

(١) «أن» سقط من (م).

(٢) القائل هو البيضاوي في «التفسير» (٣/ ٢٦٨)، وهذا المذكور أعلاه لفظه، متابعاً الزمخشري القائل: كلما أكلت جلودهم ولحومهم وأفنتها فسكن لهبها، بدِّلوا غيرها، فرجعت ملهبة مستعرة، كأنهم لما كذبوا بالإعادة بعد الإفناء جعل الله جزاءهم أن سلط النار على أجزائهم تأكلها وتفنيها ثم يعيدها، لا يزالون على الإفناء والإعادة، ليزيد ذلك في تحسرهم على تكذيبهم البعث، ولأنه أدخل في الانتقام من الجاحد. انظر: «الكشاف» (٢/ ٦٩٥).

(٣) «غيرها» سقط من (ك) و(م).

(٤) ذكر على هذا الكلام ردودٌ ومناقشة تنظر في «روح المعاني» (١٥/ ١٣٣).

وَقودُها، على ما نطق به قوله تعالى: ﴿وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ﴾[1] [البقرة: ٢٤].

***

(٩٨) ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالُوٓا۟ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا﴾ قد مَرَّ تفسيرُه في هذه السُّورة.

***

(٩٩) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾؛ أي[2]: أو لم يعلموا ذلك علماً يقوم مقام العيان في حقِّ الإيقان.

﴿أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ وإذا قدر على خلق مثلهم قدرَ على إعادتهم خلقاً جديداً.

﴿وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلًا لَّا رَيْبَ فِيهِ﴾ هو[3] الموت، أو القيامة.

﴿فَأَبَى ٱلظَّٰلِمُونَ إِلَّا كُفُورًا﴾: جحوداً.

***

(١٠٠) ـ ﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّىٓ إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾.

---

(١) «والحجارة» من (م).

(٢) «أي» من (م).

(٣) في (ف): «وهو».

﴿قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ﴾ ﴿أَنتُمْ﴾ فاعلٌ لفعلٍ محذوفٍ يفسِّرُه ما بعده، تقديره: لو تملكون، فحذف (تملك) وأبدل من الضَّمير المتَّصل الذي هو الواو ضميرٌ منفصل وهو ﴿أَنتُمْ﴾ لسقوط ما يتَّصل به من اللَّفظ، كقوله:

وإنْ هو لم يحمل على النَّفسِ ضيمها[1]

وفيه دلالة على اختصاص المخاطبين في الإمساك مع الإيجاز.

﴿خَزَآئِنَ رَحْمَةِ رَبِّيٓ﴾؛ أي: خزائنَ نِعَمه.

﴿إِذًا لَّأَمْسَكْتُمْ﴾؛ أي: لأمسكتموها.

﴿خَشْيَةَ ٱلْإِنفَاقِ﴾: لأجْل خوف الفقر.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ قَتُورًا﴾: مضيِّقاً للنَّفقة.

وزيادة ﴿وَكَانَ﴾ لبيان أنَّ الإنسان مجبول على الشُّحِّ والضِّنة، ومَن يوقَ شحَّ نفسه إنَّما يوقَ بعِصْمة الله تعالى إيَّاه، وما ذكر جوابُ قولهم: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] حتى نتوسَّع في المعيشة؛ أي: لو توسَّعتُم لبخلتُم أيضاً.

* * *

(١٠١) - ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾.

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ ۖ﴾ قد مَرَّ تفسيرُه في سورة الأعراف، وليس

---

(١) للسموءل، انظر: «ديوانه» (ص: ٩٣)، وعجز البيت:

فليس إلى حسن الثناء سبيلُ

انفجار الماء من الحجر وانفلاقُ البحر ونَتْقُ الطُّور منها، بدلالة أنَّ الخطاب في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ [الإسراء: ١٠٢] لفرعون، وهذه الآيات بعضها بعد هلاكه وبعضها عنده.

﴿فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: فاسأل علماء بني إسرائيل ﴿إِذْ جَآءَهُمْ﴾؛ أي: جاء أسلافهم.

والعامل في ﴿إِذْ﴾ محذوفٌ، تقديره: فاسأل عن حديث أو قصَّة بني إسرائيل إِذْ جَاءَهُمْ

﴿فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا﴾؛ أي: ساحراً، قاله الفرَّاء وأبو عبيدة[1]، فوضع المفعول موضع الفاعل، كما تقول: هذا مشؤوم وميمون؛ أي: شائم ويامن، ويشهد لذلك قوله:

(١٠٢) ـ ﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾.

﴿قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَآ أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ﴾ فإنَّه ظاهر في ردِّ أن تكون تلك الآيات سحراً.

قرأ الكسائي: ﴿عَلِمْتُ﴾ بالضم[2]؛ أي: قال موسى: علمْتُ أنا، وقرأ الباقون: بالفتح؛ أي: علمْتَ أنت يا فرعون؛ لأنه عاند مع علمه؛ لقوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤].

يقول: إنَّك لصحَّة عقلك وسلامة حسِّك تعلم أنَّ ما جئْتُ به من الآيات

(١) انظر: «زاد المسير» (٣/ ٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ١٨٣).

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ١٤١).

ليس بسحرٍ، بل هي حجَّة الله تعالى، التي مَن تأمَّلها استبصر فيها؛ أي: تيقَّنَ أنَّها مِن عنده تعالى.

وانتصب ﴿بَصَآئِرَ﴾ على الحال، والعامل فيه محذوف، تقديره: أنزلها بصائر.

﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَـٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾: هالكاً وخاسراً، وقيل: مصروفاً عن الخير.

وكان موسى عليه السلام عالماً بذلك بيقين، وإنما قال: (أظن) إظهاراً للتَّفريط في تقرير ما ادَّعاه، وفائدته: دفع وهم المبالغة فيه، وصونُه عن مظنَّة الإفراط[1].

* * *

(١٠٣) ـ ﴿فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾.

﴿فَأَرَادَ﴾ فرعون ﴿أَن يَسْتَفِزَّهُم﴾: أن يُخرج موسى عليه السلام وقومَه بالنَّفي أو القتل، وقد مرَّ في هذه السُّورة ما يتعلق بمعنى الاستفزاز.

﴿مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾: أرضِ مصر، أو الأرضِ مطلقاً.

﴿فَأَغْرَقْنَـٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا﴾: فحاق به مكرُه.

* * *

(١٠٤) ـ ﴿وَقُلْنَا مِنۢ بَعْدِهِۦ لِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱسْكُنُوا۟ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ ٱلْـَٔاخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾.

---

(١) كذا علل الظن في كلام موسى عليه السلام، وكلام الزمخشري في ذلك أوضح وألصق بالسياق حيث قال: (قارع ظنه بظنه، كأنه قال: إن ظننتني مسحوراً فأنا أظنك مَثْبُوراً هالكاً، وظني أصح من ظنك، لأن له أمارةً ظاهرة وهي إنكارك ما عرفتَ صحته، ومكابرتك لآيات الله بعد وضوحها، وأما ظنك فكذب بحت؛ لأن قولك مع علمك بصحة أمري: (إني لأظنك مسحوراً) قول كذاب. انظر: «الكشاف» (٢/ ٦٩٨).

﴿وَقُلْنَا مِنْ بَعْدِهِ﴾: من بعد فرعون وإغراقه ﴿لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ﴾ التي أراد أن يستفزَّكم منها.

هذا على تقدير دخول موسى عليه السلام ومَن معه من بني إسرائيل[1] مصرَ بعد هلاك فرعون ظاهرٌ[2]، وأما على تقدير عدم ذلك ـ على ما ذهب إليه بعضهم ـ فلا بُدَّ من تعيين التَّعريف في ﴿الْأَرْضَ﴾ للجنس، أو القولِ بأنَّ الأمر المذكور[3] لأولادِ مَن معه عليه السلام لا لهم[4].

﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ﴾ يعني: قيام القيامة ﴿جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا﴾: مختلطِين.

اللَّفيف: ما اجتمع من النَّاس من قبائل شتَّى، قال الأصمعي: اللَّفيف جمعٌ، وليس له واحد، وهو مثلُ الجميع[5].

* * *

(١٠٥) ـ ﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا﴾.

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ﴾؛ أي: ما أنزلنا القرآن إلى سماء الدُّنيا إلَّا محفوظاً عن اعتراء البطلان، وما نزل على الرَّسول إلَّا كذلك.

وتكرير (الحق) باسمه الظَّاهر للتَّفخيم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا﴾ بالثَّواب للمطيعين ﴿وَنَذِيرًا﴾ بالعقاب للعاصين، وليس لك شيء وراء ذلك.

---

(١) «من بني إسرائيل» من (م).

(٢) في (م): «ظاهراً».

(٣) «المذكور» من (م).

(٤) في (ك) و(م): «لأبيهم» بدل «لا لهم».

(٥) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٢٠٤).

(١٠٦) ـ ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾.

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ﴾: نزَّلناه مفرَّقاً منجَّماً، وقرئ بالتَّشديد[١]؛ لكثرة نجومه.

﴿لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾: تثبُّتٍ وترسُّلٍ[٢]، فإنَّه أيسر للحفظ، وقرئ بالفتح[٣]، وهو لغةٌ فيه.

﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ على حسب الأسباب ومقتضى الحكمة.

* * *

(١٠٧) ـ ﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهِۦٓ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا ﴾.

﴿قُلْ ءَامِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوْ لَا تُؤْمِنُوٓا۟﴾ يتضمَّن الإعراض عنهم، والاحتقار لهم، وعدمَ الاكتراث بهم، فإنَّ إيمانهم بالقرآن لا يزيده[٤] فضلاً، وامتناعَهم عنه لا يورثه نقصاً.

وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ ـ وهم مؤمنو أهل الكتاب مثلَ عبد الله بن سلام وأضرابِه ـ تعليل له؛ أي: إن لم تؤمنوا به فقد آمن به مَن هو خيرٌ منكم.

﴿مِن قَبْلِهِۦٓ﴾: من قبلِ نزولِ القرآنِ.

﴿إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ القرآن[٥] ﴿يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا﴾: تعظيماً لأمر الله تعالى، وشكراً لإنجاز وعده في الكتب السابقة ببعثة محمَّد عليه السلام.

---

(١) نسبت لأبي وابن عباس ومجاهد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٨).

(٢) في (ك): «ترتل»، وفي (م) زيادة: «وترسل عنهم».

(٣) نسبت لقتادة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٨).

(٤) في (ك) و(م): «يزيدهم»، وهو تحريف.

(٥) «القرآن» من (م).

والخُرورُ: السُّقوط بسرعة، وإنما ذكر الأذقان مبالغةً في التَّحامل على الجبهة والأنف، حتى كأنَّه يلصقُ الذقن[١] بالأرض، واللَّام بمعنى: على، وقيل: للاختصاص. وفيه ما فيه.

وانتصابُ ﴿سُجَّدًا﴾ على الحال.

* * *

(١٠٨) ـ ﴿وَيَقُولُونَ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾.

﴿وَيَقُولُونَ﴾؛ أي: في سجودهم: ﴿سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ﴾ عن خُلف الوعد ﴿إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا﴾: إنه[٢] كانَ وعدُه كائناً لا محالة.

* * *

(١٠٩) ـ ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾.

﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ﴾ كرَّره لاختلاف الحال أو السَّبب؛ فإنَّ الأول للشكر عند إنجاز الوعد، والثَّاني لِـمَا أثر فيهم من مواعظ القرآن[٣].

﴿يَبْكُونَ﴾ أتى هاهنا بالفعل إشعاراً للتَّجدد؛ فإنَّ منشأ البكاء ـ وهو[٤] التَّفكُّر والتَّذكُّر ـ ممَّا يتجدَّد، بخلاف منشأ السُّجود.

﴿وَيَزِيدُهُمْ﴾ سماعُ القرآن ﴿خُشُوعًا﴾ كما[٥] يزيدهم علماً ويقيناً بالله، وقد مرَّ تفسير الخشوع في سورة البقرة[٦].

---

(١) «الذقن» من (م).

(٢) في (ك): «إن».

(٣) «القرآن» زيادة من (م).

(٤) في (ك): «هو»، وسقط من (م).

(٥) في (ك): «لما»، وسقط من (ف).

(٦) عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ﴾. ووقع في (ف): «آل عمران».

(١١٠) ـ ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتْ بِهَا وَٱبْتَغِ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾.

﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ نزلت حين سمع المشركون رسول الله ﷺ يقول: «يا الله، يا رحمن»، فقالوا: إنه ينهانا أن نعبدَ إلهاً آخر، وهو يدعوه[١]!

والمراد: التَّسوية بين اللَّفظين بأنهما يطلَقان على ذاتٍ واحدة وإن اختلفا في اعتبار الإطلاق:

عباراتُنا شتَّى وحُسْنُكَ واحدٌ وكلٌّ إلى ذاك الجمالِ يشيرُ[٢]

والدُّعاء بمعنى التَّسمية، وهو يتعدَّى إلى مفعولَيْن، حذف أولهما استغناءً عنه. و﴿أَوِ﴾ للتخيير.

وقيل: نزلت حين قالت اليهود: إنَّك لَتُقِلُّ ذكرَ الرَّحمن وقد أكثرَه الله ـ تعالى ـ في التَّوراة[٣].

والمعنى: أنهما سيَّان في حسن الإطلاق والإفضاء إلى المقصود، ويعضده قوله:

﴿أَيًّا مَّا تَدْعُواْ﴾ أصله: أيًّا ما تدعوه فهو حسنٌ، فوُضِعَ موضعَه.

﴿فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ للمبالغة والدَّلالة على ما هو الدَّليل عليه. وكونها حُسنى لدلالتها على صفات الجلال والإكرام.

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٢٣).

(٢) انظر: «البرهان في علوم القرآن» (٢/ ١٦٠).

(٣) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٤/ ٨٨)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ٩٩) عن الضحاك.

والتَّنوين في ﴿أَيًّا﴾ عوض عن المضاف إليه، و﴿مَّا﴾ صلة لتأكيد ما في (أيّ) من الإبهام، والضَّمير في (له) للمسمَّى؛ لأنَّ التَّسمية له لا للاسم.

﴿وَلَا تَجْهَرْ بِصَلَاتِكَ﴾: بقراءةِ صلاتك، على حذف المضاف؛ حتى لا يَسمع المشركون؛ فإن ذلك يحملهم على السَّبِّ واللَّغو فيها.

﴿وَلَا تُخَافِتْ بِهَا﴾ كلَّ المخافتة حتى لا تُسمع مَن خلفَك من المؤمنين.

والمخافتةُ: خفضُ الصَّوت.

﴿وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ﴾: بينَ الجهر والمخافتة ﴿سَبِيلًا﴾: وسطاً؛ فإنَّ خير الأمور أوسطُها.

وقيل: معناه: لا تجهر بصلاتك كلِّها، ولا تخافت بها بأسرها، وابتغ بين ذلك سبيلاً؛ بالإخفات نهاراً والجهرِ ليلاً.

* * *

(١١١) - ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾.

﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا﴾ فيه ردٌّ لمن قال: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ولمن قال: ﴿الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]، ولمن قال: الملائكة بنات الله.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ﴾: في الألوهيَّة، وفيه رَدٌّ للثَّنويَّة القائلين بتعدُّد الآلهة.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ﴾ من اليهود؛ لأنَّهم أذلُّ النَّاس، ففيه رد لقولهم: ﴿نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ﴾ [المائدة: ١٨].

وقال الحسين بن الفضل: يعني: لم يذلَّ فيحتاجَ إلى وليٍّ وناصرٍ، فيجيرَه من الذُّلِّ بعزَّته وكبريائه[١].

وهذا قول حسن يعضده قوله:

﴿وَكَبِّرۡهُ تَكۡبِيرَۢا﴾ التَّكبير أبلغ لفظةٍ للقرب في معنى التَّعظيم والإجلال، وإنَّما أكَّدَ بالمصدر تحقيقاً له، وإبلاغاً في معناه.

ولَمَّا كان اتِّخاذ الوليِّ قد يكون للانتصار والاعتزاز به والاحتماءِ من الذُّلِّ، وقد يكون بالتَّفضُّل والرَّحمة لمن والى[٢] من عباده الصَّالحين، كانَ النَّفيُ لمن ينتصر به من أجل المذلَّة، أو كان مورد الولاية يحتمل هذين الوجهَيْن، فنفى الجهةَ التي لأجْل النقص[٣]، بخلافِ الولد والشَّريك فإنهما نُفيا على الإطلاق لعدم احتمالهما الوجهَين في شأنه تعالى.

وإنَّما رتَّب الحمد على وصفه بنفي الولد والشَّريك[٤] والذُّل؛ لأنَّ مَن هذا وصفه هو الذي يقدر على إيلاء كلِّ نعمة، فهو الذي يستحق كلَّ الحمد.

وهذه السُّورة الكريمة ابتدأت بتنزيه الله تعالى واختُتمت به.

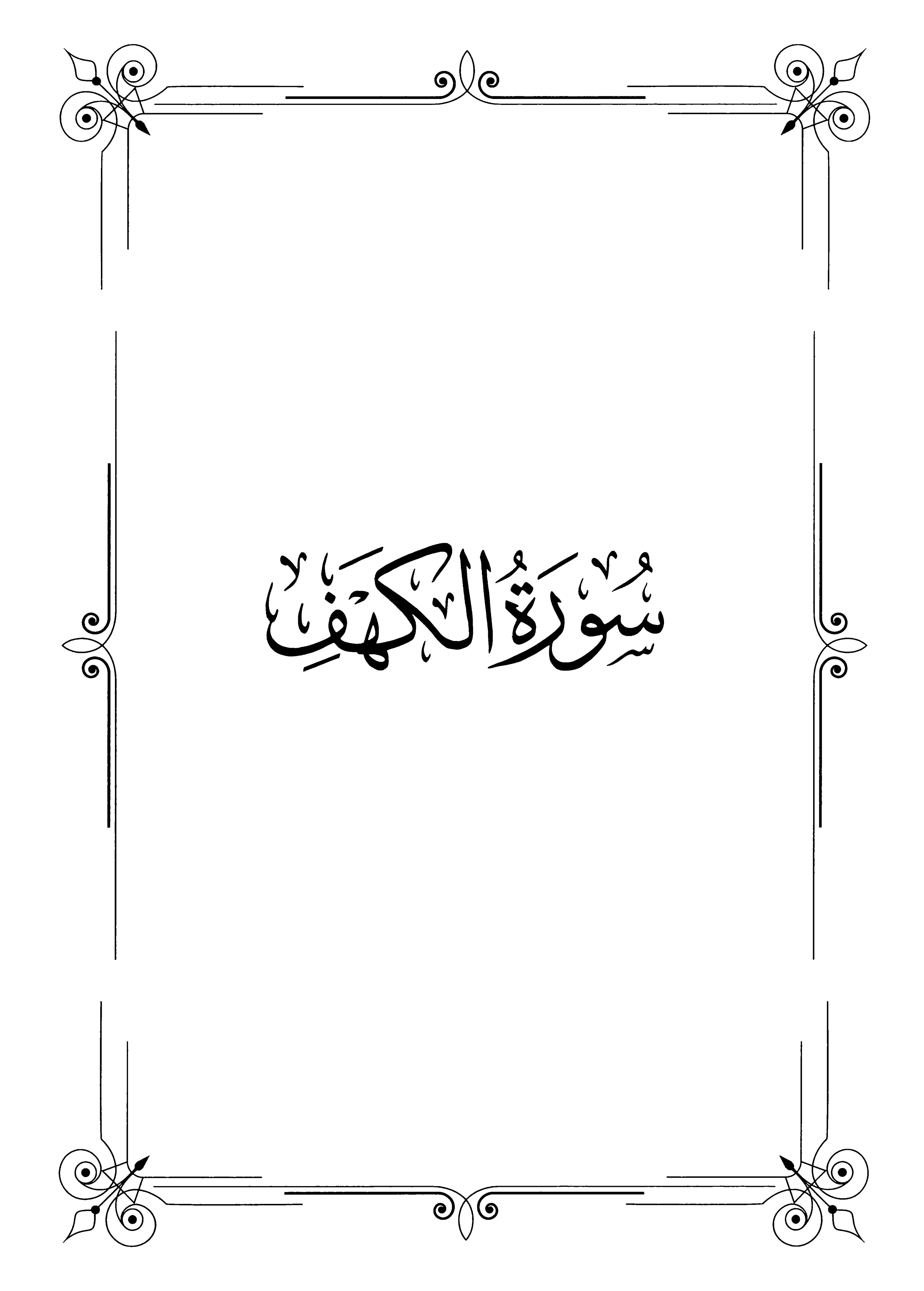
* * *

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ١٩٤).

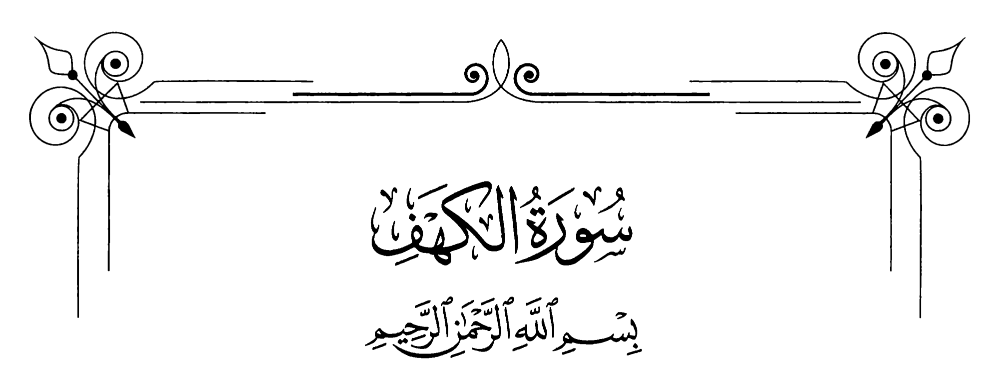
(٢) في (ف): «ولي».

(٣) في (م): «النقض».

(٤) من قوله: «بخلاف الولد...» إلى هنا من (م).



سُورَةُ الكَهفِ



سورة الكهف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ﴾ في ترتيب استحقاق الحمد على إنزال القرآن تنبيهٌ على عظمِ شأنه مِن بينِ النِّعم الجِسام، وذلك بهدايته إلى ما فيه كمالُ العباد، ودعوتهِ إلى ما به انتظامُ صلاح المعاش والفلاح في المعاد.

﴿وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ مِنْ تتمَّة الصِّلة على أنَّه عطف بيان، إذ المعنى: أنزل على عبده الكتاب الكامل في بابه.

قال ابن السِّكيت: كلُّ ما ينتصبُ كالحائط والعُود يقال فيه: عَوَج بالفتح، والعِوَج بالكسر: ما كان في أرضٍ أو دِينٍ أو معاشٍ[١].

وما قيل: إنه بالكسر في المعاني، مردود[٢] بقوله تعالى: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا﴾ [طه: ١٠٧].

وتنكيره لتعميم النَّفي أنواعَ الانحراف عن سَنَن الاستقامة، من جهة الاختلال في التَّركيب، والاختلاف في النظم، والتنافي في المعنى.

***

---

(١) انظر: «إصلاح المنطق» لابن السكيت (ص: ١٢٥).

(٢) في هامش (م): «رد لصاحب الكشاف والقاضي».

(٢) ـ ﴿قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾.

﴿قَيِّمًا﴾ على الكتب السَّابقة بالتَّغيير[١] والتَّقرير، أو بمصالح العباد، فيكون وصفاً له بالتَّكميل بعد وصفه بالكمال.

وقيل: المراد إثبات الاستقامة والاعتدال. فاتَّجه عليه السُّؤال عن فائدة الجمع بينه وبين العوج؛ فإن المفهوم من أحدهما عَيْنُ ما فُهم من الآخر.

وأجيب: بأنَّ فائدته التَّأكيد، فربَّ مستقيمٍ مشهودٍ له بالاستقامة لا يخلو عن أدنى عوج عند السَّبر والتفحُّص[٢].

ويَرِدُ عليه[٣] ـ بعد الإغماض عن أنَّ ما ذكر فيما شهد له العباد ـ: أنَّ ذلك إنما يصحِّح ذكرَ النَّفي عقيب الإثبات دون العكس، وبعدَ اللُّتيَّا والتي أنَّ التَّأسيس خيرٌ من التَّأكيد، والإفادة أولى من الإعادة.

وانتصابه على الحال من ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾، لا من الضمير في ﴿لَّهُۥ﴾[٤]؛ لِمَا فيه من الرَّكاكة التي يجب تنزيه كلام[٥] الله تعالى عنها.

---

(١) في (م): «في التغيير».

(٢) في (م): «السبر والتفصح»، وفي (ف): «السير والفحص»، وفي «الكشاف» (٢/ ٧٠٢): (السبر والتصفح).

(٣) في هامش (م): «رد لصاحب الكشاف».

(٤) في هامش (م): «رد العلامة البيضاوي».

(٥) «كلام» من (م).

ولا حاجة إلى تقدير مضمر[١]؛ لأنَّ مبناه أن يتعيَّن عطف ﴿وَلَمْ يَجْعَل﴾ على ﴿أَنزَلَ﴾، وقد عرفتَ فساد ذلك المعنى[٢].

﴿لِّيُنذِرَ﴾ أطلقه لعموم الجنس وعدم اختصاصه بأحد الفريقين، على ما أفصح عنه قوله تعالى: ﴿أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ [يونس: ٢] وفي إطلاقه هنا[٣] دفعُ وهم الاختصاص السابق إلى الفهم من قوله: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ﴾ [الكهف: ٤].

﴿بَأْسًا﴾ عذاباً ﴿شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ تقدَّم الكلام عليه في سورة هود عليه السلام.

﴿وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ﴾: بأنَّ لهم، وإنْ ضمَّن ﴿وَيُبَشِّرَ﴾ معنى يبيِّن لم يحتجْ إلى الباء.

﴿أَجْرًا حَسَنًا﴾: ثواباً جميلاً في الجنَّة، وأمَّا نفس الجنَّة ففي التَّبشير بها يكفي الإيمان، ولا حاجة إلى العمل الصَّالح عند أهل الحقِّ.

* * *

(٣) ـ ﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا﴾.

﴿مَّٰكِثِينَ فِيهِ﴾: في الأجر، أو[٤] في محلِّه ﴿أَبَدًا﴾ لا إلى غاية.

* * *

(٤) ـ ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾.

﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾ خصَّهم بالإنذار بعدَ ما عمَّ الجميعَ؛

---

(١) في هامش (م): «رد لصاحب الكشاف».

(٢) في (م): «المبنى».

(٣) في (ك): «هذا».

(٤) «أو» من (ك).

لغاية فحش صنيعهم، ورتَّبه على القول إشعاراً بأنهم استحقُّوا الإنذار به مع قطع النَّظر عن الاعتقاد، وأبهم المنذَر به ليذهب الوهم كلَّ مذهب، وفيه ما لا يخفى من التَّهويل به.

* * *

(٥) - ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾.

﴿مَّا لَهُم بِهِۦ﴾؛ أي: بما قالوا ﴿مِنْ عِلْمٍ﴾: شيءٌ من العلم؛ لاستحالة المعلوم. والجملة في موضع الحال؛ أي: قالوا جاهلين به.

﴿وَلَا لِآبَآئِهِمْ﴾؛ أي: قلَّدوا[1] فيه آباءهم وهم مثلُهم في الجهل.

﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً﴾[2]: عظُمَتْ مقالتُهم هذه في الافتراء على الله تعالى.

قراءة الجمهور بالنَّصب على التَّمييز، وقرئ بالرَّفع على الفاعليَّة[3]، والأوَّل أولى وأبلغ؛ لما فيه من الإبهام والتَّبيين.

وفيه معنى التَّعجُّب، ومرجعُه إلى تعظيم الأمر في قلوب السَّامعين، كأنَّه قيل: ما أكبرَ كلمةً!

﴿تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْۚ﴾ صفة للكلمة، ووصفها بذلك مع أنَّ العلم الضَّروري حاصلٌ بأنَّ شأن جنسها ذلك، فلا بُدَّ له من فائدة، وهي الإشعار بأنَّه لا ينبغي أن

---

(١) في النسخ: «قدروا»، ولعل الصواب المثبت.

(٢) في النسخ: «كبرت كلمة تخرج»، والصواب المثبت.

(٣) نسبت للحسن وعيسى. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٨).

تتَّصف هذه الكلمة بقصد قلبي[١] لوضوح بطلانها، فكأنَّه قيل: تخرج بنفسها بلا إخراج منهم، ففيه تأييد لقوله: ﴿مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ﴾.

﴿إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾: إلَّا قولاً كذباً.

* * *

(٦) ـ ﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾.

﴿فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ (لعلَّ) للتَّرجي في المحبوب والإشفاق في المحذور. والبخع والبخوع: الإهلاك من شدَّة الوَجد.

﴿عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ﴾ عبَّر عن إدبارهم وتباعُدهم عن التَّصديق بالقرآن على وجهٍ فصيحٍ، شبَّهه وإياهم حين تولَّوا عنه ولم يؤمنوا به، وما تداخله من الوَجْد والأسف على تولِّيهم، بمَن فارقَه أحبَّتُه، فهو يتساقط حسراتٍ على آثارهم، ويَبخَع على نفسه وجداً عليهم، فالاستعارة تمثيليَّة.

وقرئ على الإضافة[٢]، وهو للاستقبال إن قرئ: ﴿إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟﴾ بالكسر، وللمضي إن قرئ بالفتح[٣]، بمعنى: لأنْ لا يؤمنوا، فلا يجوز إعمال ﴿بَٰخِعٌ﴾ إلَّا إذا جعل حكاية حال[٤] ماضية لتصوير تلك الحالة في ذهن السَّامع واستحضارها.

---

(١) في (ف): «يغضد قلبي»، وفي (م): «بقصد قلب».

(٢) أي: (باخعُ نفسِك)، ذكرها ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥/ ١٠٤) عن سعيد بن جبير وأبي الجوزاء وقتادة. وهي في «الكشاف» (٢/ ٧٠٤) دون نسبة، والكلام منه.

(٣) ذكرها ابن خالويه في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٨)، والكسر قراءة الجمهور.

(٤) في (ف): «جعل حالاً»، وفي (ك) و(م): «جعل حالها»، والمثبت من هامش (م).

﴿بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾: القرآن.

﴿أَسَفًا﴾ مفعول له؛ أي: لفَرْط الحزن، ويجوز أن يكون حالاً.

* * *

(٧) ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى ٱلْأَرْضِ﴾ من الزَّخارف، يرشدك إلى هذا قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ﴾ [يونس: ٢٤].

﴿زِينَةً لَّهَا﴾ مفعول ثانٍ لـ ﴿جَعَلْنَا﴾ بمعنى: صيَّرنا، ويحتمل الحالَ على أنَّه بمعنى: أوجدنا.

﴿لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ في تعاطيه، وحسنِ عمل[1] الزُّهد فيها، وترك الاغترار بها، ثمَّ زهَّد في الميل بقوله:

(٨) ـ ﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾.

﴿وَإِنَّا لَجَٰعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾: تراباً لا نبات فيه. والجُرُز: الأرض[2] التي قطع نباتها، من الجَرْزِ بمعنى القَطْع.

فيه[3] تسلية لرسول الله ﷺ وفقراء المؤمنين عمَّا احتوته أيدي المترَفين من زينتها.

* * *

(١) في (م): «العمل».

(٢) «الأرض» من (م).

(٣) «فيه» من (م).

(٩) ـ ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُواْ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾.

﴿ أَمْ حَسِبْتَ ﴾: بل أَحَسِبْتَ ﴿أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ﴾ الكهف: الثُّقْب المتَّسع في الجبل، وما لا يتَّسع منه فهو غار. ذكره القرطبيُّ[١].

والرَّقيم: اسمُ الجبل، أو الوادي، أو القرية[٢]، أو الكلب، أو لوحٌ رُقِمَتْ فيه أسماؤهم وجُعِلَتْ على باب الكهف.

وقيل: الرَّقيم: أصحاب الغار الذي انطبق عليهم فذكرَ كلُّ واحدٍ منهم[٣] أصلحَ عمله، وفي هذا خبر معروف أُخْرِجَ في «الصحيحين»[٤].

وقال قومٌ: أخبر الله عن أصحاب الكهف، ولم يخبر عن أصحاب الرَّقيم بشيء.

﴿كَانُواْ ﴾ في بقائهم أحياءً مدَّةً مديدة بلا غذاء.

﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴾؛ أي: أحسبْتَ أنَّ أصحاب الكهف والرَّقيم كانوا مِنْ بينِ[٥] آياتنا عجباً؟ فليس كذلك، بل كلُّ آياتنا عجبٌ، وفي آياتنا ما هو أعجب منهم.

وقال القشيريُّ: أزال موضع الأعجوبة من أوصافهم حيث أضافه إلى نفسه بقوله: ﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا ﴾، فقلبُ[٦] العادة من الله ليس بمستبدَعٍ[٧].

* * *

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢١١)، وفيه: (النقب المتسع...).

(٢) «أو القرية» زيادة من (م).

(٣) «منهم» سقط من (ك).

(٤) رواه البخاري (٢٢٧٢)، ومسلم (٢٧٤٣)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٥) «بين» زيادة من (ك).

(٦) في (ك): «وتعليب»، وفي (م): «ونقليب»، وفي (ف): «وتغليب». والمثبت من «لطائف الإشارات».

(٧) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٧٨).

(١٠) ـ ﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾.

﴿إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ﴾ حين الالتجاء إليه، وروي أنَّهم كانوا شبَّاناً من أبناء الأشراف أرادهم دقيانوس الملك على الشِّرك، فأبوا وهربوا إلى الكهف[1].

﴿فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً﴾: من خزائن رحمتك الموجبة للمغفرة والرِّزق والأمن.

﴿وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا﴾ الذي نحن عليه من مفارقة الكفار.

﴿رَشَدًا﴾ نصير بسببه مهتدين، أو اجعل[2] أمرنا كلُّه هدًى.

والرَّشَد: إصابة الطَّريق المؤدِّي إلى البغية، وكذا الرُّشْد والرَّشاد.

وأصل التَّهيئة: إحداث هيئة الشَّيء.

***

(١١) ـ ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾.

﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ﴾؛ أي: منعناهم أن يسمعوا.

قال قطرب: هذا كقول العرب: ضرب الأمير على يد الرَّعية؛ أي: منعهم عن الفساد، وضرب السَّيِّد على يد عبده المأذون [له في التجارة]: إذا منعه من التَّصرف[3].

---

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٦/ ١٤٧) عن محمد بن إسحاق.

(٢) في (ك): «إذا جعل». والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٧٤).

(٣) انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ١٥٧)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٢٠). وما بين معكوفتين منهما.

وتخصيص الآذان بالذِّكر لأنَّ النَّوم قلَّما ينقطع إلَّا من جهتِهنَّ، ولا يستحكِم إلَّا مع تعطُّلها، أشير إلى ذلك في قوله عليه السَّلام: «ذاك رجلٌ بالَ الشَّيطان في أذنه»[1].

والذَّاهبون إلى أنَّ المعنى: ضربنا عليها حجاباً من أنْ تَسمعَ، ذاهلون عن أنَّ الحجاب لا يناسب آلةَ السمع، ولذلك أُدخل السَّمعُ في قوله تعالى: ﴿خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْۖ وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧] تحت الختم دون التَّغشية، على ما اعترفوا به وذكروه في تفسيره.

﴿فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ﴾ ظرفان لـ﴿فَضَرَبْنَا﴾.

﴿عَدَدًا﴾ قال الزَّجَّاج: أي: تُعَدُّ عدًّا[2] لكثرتها؛ لأنَّ القليل يُعرَف مقداره من غيرِ عدٍّ[3]، فإذا كثر عُدَّ[4].

وأمَّا قوله: ﴿دَرَٰهِمَ مَعْدُودَةٍ﴾ فهو على القلَّة؛ لأنَّهم كانوا يَعدُّون القليل ويزنون الكثير.

* * *

(١٢) ـ ﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا﴾.

﴿ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ﴾؛ أي: من نومهم، يقال لمن أُحيي أو أقيم من نومه: مبعوث؛ لأنَّه كان ممنوعاً من الانبعاث والتَّصرف.

---

(١) رواه البخاري (٣٢٧٠)، ومسلم (٧٧٤)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٢) في (ك): «عدداً».

(٣) في (ف): «عدد».

(٤) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ٢٧١).

﴿لِنَعْلَمَ﴾ عبارة عن خروج ذلك الشَّيء إلى الوجود ومشاهدتِهِ، وهذا على نحو كلام العرب، وإلَّا فقد كان الله عَلِمَ. ذكره القرطبي[١]، فلا حاجة إلى إثبات التَّعليقَيْن لعلمه تعالى حاليٍّ أو استقباليٍّ[٢].

﴿أَيُّ الْحِزْبَيْنِ﴾ المختلفَيْن؛ منهم أو من غيرهم.

﴿أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾ ضَبَط أمداً لزمانِ لبثهم.

والأمدُ: الغايةُ، وما في ﴿أَيُّ﴾ من معنى الاستفهام علَّق عنه ﴿لِنَعْلَمَ﴾، فهو مبتدأٌ و﴿أَحْصَىٰ﴾ خبره، وهو فعل ماضٍ، و﴿أَمَدًا﴾ مفعوله[٣]، و﴿لِمَا لَبِثُوا﴾ حالٌ منه[٤]، أو مفعول له[٥].

وقيل: إنه المفعول، واللَّام مزيدةٌ، و(ما) موصول[٦]، و﴿أَمَدًا﴾ تمييز.

وقيل: ﴿أَحْصَىٰ﴾: اسم تفضيل من الإحصاء بحذف الزَّوائد، كقولهم: هو أحصى للمال، وأفلسُ من ابن المُذَلَّق[٧].

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٢١).

(٢) رد على البيضاوي في قوله: (﴿لِنَعْلَمَ﴾: ليتعلق علمنا تعلقاً حالياً مطابقاً لتعلقه أولًا تعلقاً استقبالياً). انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٧٤).

(٣) في (ف) و(ك): «مفعول له».

(٤) أي: من ﴿أَمَدًا﴾ النكرة وجاز لتقدمه. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٧٩).

(٥) قوله: «أو مفعول له» فاللام للتعليل لازمةٌ لكونه غيرَ مصدر صريح وغيرَ مقارنٍ أيضاً، و(ما) مصدرية غير وقتية. انظر المصدر السابق.

(٦) قوله: «وقيل..» الخ، مرَّضه لأنَّ اللام لا تزاد في مثله، و(ما) موصولة بمعنى الوقت، والعائد محذوف؛ أي: فيه، وجوِّز فيها على هذا المصدرية وهو بعيد. انظر المصدر السابق. والممرض هو البيضاوي، وعنه نقل المؤلف.

(٧) رجل من عبد شمس بن سعد بن زيد مناة، وكان لا يجد في أكثر أوقاته في بيته قوت ليلة =

ورُدَّ عليه بأن بناء اسم التَّفضيل من غير الثَّلاثي المجرد شاذٌّ فلا يُقاس عليه، ولأنَّ ﴿أَمَدًا﴾ لا ينصب بأفعل؛ لأنَّه لا يعمل، ولا بـ ﴿لَبِثُوٓاْ﴾؛ لعدم سداد المعنى عليه، فإنْ زعمْتَ نصبه بإضمار فعل يدلُّ عليه ﴿أَحْصَىٰ﴾ كما في قوله:

وأضـــربَ منَّـــا بالسُّـــيوفِ القوانســـا[١]

[على: نضرب القوانسا] فقد أبعدْتَ المتناوَل وهو قريب، حيث أبيْتَ أنْ يكون فعلاً، ثمَّ رجعْتَ مضطراً إلى تقديره[٢].

لكنَّه مردودٌ:

أمَّا أوَّلاً: فلأنَّ دعواه الشُّذوذَ مذهب أبي عليٍّ، وعند سيبويه هو قياس، وبه أخذ الزَّجَّاج، وعلى اختيار ابن عصفور: أنَّ الهمزة إذا كان لغير النَّقل كـ: أشكلَ الأمرُ، وأظلمَ اللَّيل، يجوز أن يقال: ما أشكلَ هذه المسألة! و: ما أظلم هذا اللَّيل! والهمزة في ﴿أَحْصَىٰ﴾ ليست للنَّقل[٣].

وأما ثانيًا: فلأنَّ قولَه: إن أفعل لا يعمل؛ ليس بصحيح؛ لأنه يعمل في التَّمييز، ومَن زعم أن ﴿أَحْصَىٰ﴾ اسم تفضيل لم يجعله مفعولاً به، بل جعله تمييزاً، ومثله ما[٤] يقال: زيد أقطع النَّاس سيفاً.

= واحدة. انظر: «جمهرة الأمثال» (٢/ ١٠٧).

(١) عجز بيت للعباس بن مرداس، وصدره:

أكـــرَّ وأحمـــى للحقيقـــة منهـــم

انظر: «الأصمعيات» (ص: ٢٠٥)، و«الحماسة» بشرح المرزوقي (١/ ٤٤١)، و«الخزانة» (٨/ ٣١٩).

والقوانس: جمع قونس، وهو أعلى بيضة الفارس.

(٢) انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٠٦) وما بين معكوفتين منه.

(٣) انظر: «البحر المحيط» (١٤/ ٢٣٢).

(٤) في (ك) و(م): «بما».

وأمَّا ثالثاً: فلأنه يجوز أن يكون[(١)] نصب ﴿أَمَدًا﴾ على نزع الخافض، تقديره: لما لبثوا من أمدٍ، على أنَّ الأمد بمعنى المدَّة. ولعل هذا مراد الطَّبري حيث ذهب إلى[(٢)] نصب ﴿أَمَدًا﴾ بـ ﴿لَبِثُوٓاْ﴾[(٣)].

وأمَّا رابعاً: فلأن اسم التفضيل ينصب المفعول به في مذهب الكوفيين، فلا اضطرار إلى تقدير فعل، إنما ذلك على تقدير ثبوت نزول القرآن على مذهب البصريين، وأنَّى ذلك[(٤)].

* * *

(١٣) ـ ﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ عَلَيۡكَ نَبَأَهُم بِٱلۡحَقِّۚ إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾.

﴿نَّحۡنُ نَقُصُّ﴾ قد مرَّ تفسيره في سورة يوسف عليه السلام.

﴿عَلَيۡكَ نَبَأَهُم﴾ النَّبأُ: خبرٌ ذو شأن ﴿بِٱلۡحَقِّۚ﴾: بالصِّدق.

﴿إِنَّهُمۡ فِتۡيَةٌ﴾: جمع فتًى، كصبيٍّ وصِبْيَة ﴿ءَامَنُواْ بِرَبِّهِمۡ﴾ الرَّبُّ: السَّيِّد النَّاظر في مصلحة عبيده، وللإشعار بذلك عدل عن: آمنوا بنا.

﴿وَزِدۡنَٰهُمۡ هُدٗى﴾ بالتَّثبيت.

* * *

---

(١) «أن يكون» من (م).

(٢) في (ك): «إلى أن».

(٣) انظر: «تفسير الطبري» (١٥/ ١٧٨).

(٤) انظر: «البحر المحيط» (١٤/ ٢٣٢)، وهذه الردود على الزمخشري منقولة منه مع شيء من الاختصار والتصرف.

(١٤) ـ ﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾.

﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾ من المجاز: ربط الله على قلبه: صبَّره، ومنه: رابط الجأش، لمَّا كانَ الخوف والقلق يزعج القلوب عن مقارِّها ـ ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ ﴾ [الأحزاب: ١٠]؟ ـ قيل في مقابِله: ربط قلبه، إذا تمكَّن وثبت، وهو تمثيل.

والعدول من التَّعدية إلى (على) من باب: (يجرحْ في عراقيبها)[1]؛ للمبالغة.

﴿إِذْ قَامُوا ﴾ على قدم الصِّدق، مجازٌ؛ يُقال: قام إلى أمر كذا: إذا عزم عليه بغاية الجِدِّ.

﴿فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ﴾ لم يقل: (رباً) لأنَّ جهة توحُّده تعالى ألوهيَّةً لا ربوبيَّة.

﴿لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴾ والله لقد قلنا إذاً قولاً[2] شططاً.

والشَّططُ: الخروج عن الحدِّ بالغوا فيه، يقال: شَطَّ منزلُ فلان: إذا جاوز القَدْر في البعد، مصدر وُصِفَ به للمبالغة.

* * *

(١٥) ـ ﴿ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴾.

---

(١) قطعة من بيت لذي الرمة يمدح نفسه، وهو في ديوانه (١/ ١٥٦)، وتمامه:

وإن تعتذر بالمحل عن ذي ضروعها ... إلى الضيف يجرح في عراقيبها نصلي

(٢) «قولًا» من (ك).

﴿ هَٰٓؤُلَآءِ﴾ مبتدأ ﴿قَوۡمُنَا ﴾ عطف بيان ﴿ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةٗۖ ﴾ خبره. وهو إخبار في معنى إنكار.

﴿لَّوۡلَا يَأۡتُونَ ﴾ ﴿لَّوۡلَا ﴾ حرف تخضيضٍ بمعنى: هلَّا، صحبه الإنكار.

﴿عَلَيۡهِم﴾ على ألوهيَّتهم ﴿بِسُلۡطَٰنِۢ بَيِّنٖۖ﴾: بحجَّة بالغة ظاهرة.

فيه دليل على فساد التَّقليد في أصول الدِّين.

﴿فَمَنۡ أَظۡلَمُ مِمَّنِ ٱفۡتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبٗا ﴾ بنسبة الشَّريك إليه تعالى.

***

(١٦) ـ ﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأۡوُۥٓاْ إِلَى ٱلۡكَهۡفِ يَنشُرۡ لَكُمۡ رَبُّكُم مِّن رَّحۡمَتِهِۦ وَيُهَيِّئۡ لَكُم مِّنۡ أَمۡرِكُم مِّرۡفَقٗا﴾.

﴿وَإِذِ ٱعۡتَزَلۡتُمُوهُمۡ ﴾ خطاب مِن بعضِهم لبعضٍ، والاعتزال يشمل الجسمانيَّ والقلبي من مفارقة قومهم ومعتقداتهم.

﴿وَمَا يَعۡبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ عطف على الضَّمير المنصوب، سواءٌ كان (ما) موصولة[1] أو مصدريَّة، والاستثناء متَّصل إن كانوا يعبدون الله تعالى مع آلهتهم، ومنقطِع إن لم يعرفوه[2] تعالى.

ويجوز أن تكون ﴿وَمَا﴾ نافيةً على أنَّه إخبار من الله تعالى عن الفتية[3] بالتَّوحيد، معترِض بين (إذ) وجوابه تحقيقاً لمضمون الجملة.

---

(١) في (ك) و(م): «موصولاً».

(٢) في (م): «يعرفونه».

(٣) في النسخ: «الغيبة»، والتصويب من البيضاوي وأبي السعود والآلوسي.

﴿فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم﴾: يبسطِ الرِّزق لكم ويوسِّع عليكم ﴿مِّن رَّحْمَتِهِۦ﴾ في الدَّارين.

﴿وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا﴾: ما ترتفقون به؛ أي: تنتفعون. قالوا ذلك ثقةً بفضل الله وقوَّةً في رجائهم.

وقرئ: ﴿مَرْفِقاً﴾ بفتح الميم وكسر الفاء[1].

قال الجوهري: مَنْ قرأ: ﴿مِّرْفَقًا﴾، جعله مثل مِقْطَعٍ، ومن قرأ: ﴿مَرْفِقاً﴾ جعله اسماً مثل مَسْجِدٍ، ويجوز: مَرْفَقاً؛ أي: رفقاً، مثل: مَطْلَعٍ، ولم يُقرأ [به][2].

* * *

(١٧) ـ ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾.

﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت﴾ الخطاب للنَّبيِّ عليه السلام، أو لكلِّ أحد[3]، والمعنى: إنَّك لو رأيتهم لرأيتهم كذا، لا أنَّ المخاطب رآهم على التَّحقيق.

﴿تَزَّاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ﴾: تنحَّى وتميل، فلا يقع شعاعها عليهم فيؤذيَهم، وأصله: تتزاور، فأُدغمت التَّاء في الزَّاي.

---

(١) وهي قراءة نافع وابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٢).

(٢) انظر: «الصحاح» للجوهري (مادة: رفق)، وما بين معكوفتين منه.

(٣) في (ف): «واحد».

وقـرئ بحذفها[١]، وقرئ: ﴿تـزورُّ﴾ كتَحْمَـرُّ[٢]، و(تَزْوارُّ) كتَحْمَـارُّ[٣]، وكلُّها مـن الزَّور بمعنـى الميل.

﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ﴾: جهة اليمين[٤]، وحقيقتُها: الجهة المسمَّاة باليمين.

﴿وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ﴾ قال الخليل في «كتاب العين»: إذا عدلْتَ عن شيء في مسيرك قلت: قرضْتُ يمنةً أو يسرةً[٥].

في تعدية القرض إيَّاهم دون الكهف ـ على خلاف تعدية ﴿تَّزَاوَرُ﴾ ـ دلالةٌ على أنَّ الشَّمس كانت تدخل الكهف إذا غربت إلَّا أنَّه لا يقع شعاعها عليهم كيلا ينتبهوا؛ فإنَّ لشعاع الشَّمس وحرها تأثيراً في الانتباه، وهذا من تتمَّة ما قصد بالضَّرب على آذانهم.

﴿ذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ يعني: يمين الكهف وشماله؛ لقوله:

﴿وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ﴾؛ أي: هـم فـي متَّسـع داخلَ الكهف، بحيـث لا يراهم مَن كان ببابـه، وينالهـم رَوح الهـواء، ولا يؤذيهـم كـربُ الكهـف، وهذا أيضاً مِـنْ تتمَّة مـا ذُكِرَ.

قيل: وذلك لأنَّ باب الكهف في مقابَلة بنات النَّعش[٦]، وأقربُ المشارق

(١) قرأ بها عاصم وحمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٢).

(٢) قرأ بها ابن عامر، والمصدَّر بها قراءة الحِرْميين وأبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٢).

(٣) نسبت للجحدري وأيوب السختياني وابن أبي عبلة وغيرهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩)، و«المحتسب» (٢/ ٢٥).

(٤) «جهة اليمين» زيادة: في (م).

(٥) انظر: «العين» (٥/ ٥٠).

(٦) بنـات نعش: سـبع كواكب تشـاهد جهة القطب الشـمالي، شـبهت بحملة النعش. انظـر: «المعجم =

والمغارب إلى محاذاته مشرقُ[١] رأس السرطان ومغربُه، والشمسُ إذا كان مدارها مدارَه تطلع مائلةً عنه مقابِلةً لجانبه الأيمن، وهو الذي يلي[٢] المغرب، وتغرب محاذية لجانبه الأيسر، فيقع شعاعها على جانبيه[٣]، ويحلِّل عفونته، ويعدِّل هواءه، ولا يقع عليهم فيؤذيَ أجسامهم ويُبليَ ثيابهم.

ومَبناه الغُفول عمَّا في تعرُّضهم من الدِّلالة على دخول الشَّمس في الكهف عند غروبها، ثمَّ إنَّ ما ذكره[٤] من حكم مقابلة بنات النعش يختلف باختلاف الأقاليم طولاً وعرضاً.

ثمَّ إنَّ قوله: (ولا يقع عليهم فيؤذي أجسامهم ويبلي ثيابهم) إخراجٌ لِمَا وقع في شأنهم من خوارق العادات عن حدِّها ببيان أسبابها العاديَّة، على أن ما ذكره لا يصلح سبباً كافياً.

﴿ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ قالوا: ﴿ذَٰلِكَ﴾ ليسَ إشارة إلى الإيواء، ولا إلى التَّزاور والتَّعرض، بل إلى حفظ الله تعالى إيَّاهم في ذلك الكهف تلك المدَّة الطَّويلة.

مَن تبرَّأ عن اختياره في احتياله، وصدق رجوعه إلى الله تعالى في أحواله، ولم

= الوسيط» (مادة: نعش).

(١) في (ك) و(م): «ومشرق»، والمثبت من (ف) وهو الموافق لما في البيضاوي وأبي السعود والآلوسي.

(٢) في النسخ: «وهي التي تلي»، والتصويب من البيضاوي وأبي السعود والآلوسي.

(٣) في النسخ: «جانبها»، والمثبت من البيضاوي، وعند أبي السعود: (جنبيه)، وعند الآلوسي: (جنبه).

(٤) في (ك): «ذكر».

يستعن[١] بغير الله مِن أشكاله؛ آواه إلى كهف أفضاله، وكفاه جميع أشغاله، وهيَّأ له محلًّا يتفيَّأ فيه من برد ظلاله بكمال إقباله[٢].

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ﴾ بالتَّوفيق ﴿فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾ الذي أصاب الفلاح.

ثناءٌ عليهم بأنهم جاهدوا في الله تعالى، وأسلموا له وجوههم، فلطَف بهم، وأرشدهم إلى نيل تلك الكرامة.

﴿وَمَن يُضْلِلْ﴾ الإضلال من الله تعالى بخلقِ دواعي الإضلال، وعند المعتزلة مؤوَّل بالخذلان.

﴿فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾: مَن يليه ويرشده، والخطاب للنَّبيِّ ﷺ، أو لكلِّ أحدٍ كما في السَّابق واللَّاحق.

* * *

(١٨) ـ ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾.

﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا﴾ لانفتاح عيونهم وتنفُّسهم، وأمَّا تقلُّبُهم فإنَّما يقع أحياناً، فلا يصلح سبباً لحسبان كلِّ[٣] لكلِّ مَن يراهم.

وأيقاظ: جمع يَقظ، بضم القاف وكسرها، وهو من[٤] اليقظان.

﴿وَهُمْ رُقُودٌ﴾: نيام.

---

(١) في (م): «يستغن».

(٢) انظر: «لطائف الإشارات» (٢/ ٣٨٢).

(٣) في (ف) و(ك): «سببا لكل».

(٤) «من» زيادة من (م).

﴿وَنُقَلِّبُهُمْ﴾ أضاف التَّقليب[١] إلى نفسه لأنَّه بتخليقه، خالياً عن الأسباب العادية وشرائطها.

﴿ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: ولو لم يُقلَّبوا لأكلتهم الأرض[٢].

و﴿ذَاتَ﴾ منصوب على الظَّرف؛ لِمَا مَرَّ أنَّ حقيقتها الجهة.

وقرئ: (ويقلبهم) بالياء، والضَّمير لله، و: (تقلُّبَهم) على المصدر منصوباً بالفعل[٣]، يدلُّ عليه ﴿وَتَحْسَبُهُمْ﴾؛ أي: وترى تقلُّبهم.

﴿وَكَلْبُهُم﴾ أكثر المفسرين على أنَّه كلبٌ حقيقةً، وكان لصيد أحدهم أو زرعه أو غنمه. ذكره القرطبي[٤].

فلا تأييد في قراءة: (وكالبُهم)[٥] ـ أي: صاحبُ كلبهم ـ لِمَا قيل: إنَّه كلب راعٍ مرُّوا به، فتبعهم وتبعه الكلب، بل التَّأييدُ بخلافه؛ إذ الظَّاهر منها أن يكون الكالب من الفتية.

وقالت فرقة: لم يكن كلباً حقيقةً، وإنَّما كان أحدَهم وقد كان قعد عند باب الكهف طليعةً لهم؛ كما سمِّي النَّجم التَّابع للجوزاء كلباً.

---

(١) في (م): «التقلب».

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ١٨٦ و١٩١).

(٣) انظر: «المحتسب» لابن جني (٢/ ٢٦)، و«الكشاف» (٢/ ٧٠٩) والكلام منه، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٠٣)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٢٤١).

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٣٠).

(٥) انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٠٩)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٢٤٢).

وقد حكى أبو عُمر المُطَرِّز أنَّه قرئ: ﴿وكالئهم﴾[1]، وحُمل على هذا الرَّجلِ؛ إذ[2] بَسْطُ الذِّراعين واللُّصوقُ بالأرض مع رفع الوجه للتطلُّع[3] هيئةُ الرَّبيئةِ المستخفي بنفسه.

ويحتمل أن يراد بالكالب: الكلب.

﴿بَاسِطٌ ذِرَاعَيْهِ﴾ أُعمل اسم الفاعل وهو بمعنى المضيِّ؛ لأنَّها حكايةُ حالٍ ماضيةٍ، ولم يُقصد الإخبار عن فعل الكلب.

وعند الكسائي وهشامٍ، وأبي جعفرٍ من البصريين[4]: كونُه بمعنى المضيِّ غيرُ مانعٍ من العمل.

والذِّراع: من طرف المرفق إلى طرف الإصبع الوسطى.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٠٤)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٣٧)، و«البحر» (١٤/ ٢٤٢).
ووقع في النسخ تحريف في الاسم وفي القراءة، فالقراءة وقعت فيها: «وكالبهم»، أما الاسم فوقع فيها: «أبو عمرو المطرزي»، والصواب المثبت، وأبو عمر هو محمد بن عبد الواحد البغدادي الزاهد المعروف بالمطرز، لازم ثعلباً فأكثر عنه حتى سمي بغلام ثعلب، توفي سنة (٣٤٥هـ). انظر: «وفيات الأعيان» (٤/ ٣٢٩)، و«سير أعلام النبلاء» (١٥/ ٥٠٨).

(٢) في النسخ: «إذا»، والصواب المثبت.

(٣) في (ف) و(م): «للتطليع».

(٤) «من البصريين» كذا ذكر المؤلف، والذي في «البحر المحيط» (١٤/ ٢٤٢) والكلام منه: (ذهب الكسائي وهشام ومن أصحابنا أبو جعفر بن مضاء)، فلعل المؤلف استبدل (من أصحابنا) بـ (من البصريين)، والصواب والله أعلم أن مراد أبي حيان بأصحابه هو: الأندلسيون، فأبو جعفر المذكور هو أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن مضاء اللخمي، وهو قرطبي جياني الأصل توفي بإشبيلية سنة (٥٩٢هـ)، وكان محدثاً مقرئاً مجتهداً في العربية. انظر: «الديباج المذهب» (١/ ٢١٠).

﴿بِٱلْوَصِيدِ﴾: بالباب، ولم يكن للكهف بابٌ، فالمراد منه موضع الباب، ولذلك قال أبو روق: فم الشِّعب.

﴿لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: لو شاهدتَهم، أصله: الإشراف على الشَّيء ناظراً إليه، ويكنى به[1] عن المشاهدة الكاملة، والخطاب لمن في: ﴿وَتَرَى ٱلشَّمْسَ﴾.

وقرأ ابن كثير بالتَّشديد للمبالغة[2]، وقرئ بضم الواو[3].

﴿لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِرَارًا﴾: لأعرضْتَ بوجهك عنهم، وانتصب ﴿فِرَارًا﴾ على المصدر إمَّا لـ (فررْتَ) محذوفةً، وأما لـ (ولَّيت)؛ لأنه بمعنى: لفررْتَ، أو على العلَّة، أو على الحال.

﴿وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا﴾: خوفاً يملأ صدرَك بما ألبسهم الله تعالى من الهيبة.

وقيل: لطول أظفارهم وشعورهم وأجرامهم.

وقيل: لوحشة مكانهم. ويأباه قوله: ﴿مِنْهُمْ﴾.

والصَّحيح في أمرهم على ما قال ابن عطية: أنَّ الله تعالى حفظ لهم الحالة التي ناموا عليها ليكون لهم ولغيرهم فيهم آيةٌ، ولم يُنكر النَّاهض إلى المدينة

---

(١) بعدها في (م): «أي».

(٢) قوله: «وقرأ ابن كثير...»، كذا قال، ولعله سهو أو سبق قلم، فليس هنا خلاف في القراءة، ويدل على سهو المؤلف عبارة البيضاوي (٣/ ٢٧٦): (وقرأ الحجازيان: ﴿لَمُلِّئْتَ﴾ بالتشديد للمبالغة) وستأتي.

(٣) نسبت لابن وثاب والأعمش. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤٥١)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٨)، و«المحتسب» (١/ ٥٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٠٤)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٢٤٣).

إلَّا معالم الأرض والبناء، ولو كانت في نفسه حالة ينكرها لكانت عليه أهمَّ[١].

وأيضاً لَمَا قال بعضهم لبعض[٢]: ﴿لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

وقيل: لانفتاح[٣] عيونهم.

وقيل: لوحشة مكانهم[٤].

وبالجملة: كان النَّاس محجوبين عنهم[٥] بالرُّعب؛ لئلَّا يصلوا إليهم.

وقرئ: ﴿وَلَمُلِّئْتَ﴾ بالتَّشديد[٦] للمبالغة.

و﴿رُعْبًا﴾ مفعول ثانٍ، أو تمييز، وقرئ ﴿رُعُباً﴾ بضمِّ العين[٧].

* * *

(١٩) - ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَٰهُمْ﴾ البعثُ: التَّحريك عن سكون؛ أي: أيقظناهم من نومهم على ما كانوا عليه من هيآتهم لم يتغيَّر شيء من أبدانهم وثيابهم.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٠٥).

(٢) «لبعض» زيادة من (ك).

(٣) في (ف): «لانتفاخ».

(٤) هذا القيل تكرار لا داعي له.

(٥) «عنهم» من (م).

(٦) قرأ بها ابن كثير ونافع. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٣).

(٧) قرأ بها ابن عامر والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٣).

﴿لِيَتَسَآءَلُواْ بَيۡنَهُمۡۚ﴾: ليسأل بعضُهم بعضاً، ويتعرَّفوا ما لهم وما صنع الله تعالى بهم، فيَعتبروا ويستدلُّوا على عظم قدرة الله تعالى، ويزدادوا يقيناً، ويشكروا ما أنعم الله به عليهم، ويستبصِروا به أمر البعث.

﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ كَمۡ لَبِثۡتُمۡۖ قَالُواْ لَبِثۡنَا يَوۡمًا أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾ دخلوا الكهف في أوَّل النَّهار فنظروا حين استيقظوا فإذا هو آخرُه[1]، فقالوا: ﴿لَبِثۡنَا يَوۡمًا﴾، ثمَّ رأوا من الشمس بقيَّة فقالوا: ﴿أَوۡ بَعۡضَ يَوۡمٖۚ﴾، وكان عندهم كذلك، فلم يوصَفوا فيه بالكذب، ولم[2] يؤاخَذوا به.

﴿قَالُواْ رَبُّكُمۡ أَعۡلَمُ بِمَا لَبِثۡتُمۡ﴾ إنكاراً عليهم من بعضهم.

استدلَّ ابنُ عبَّاس رضي الله عنهما بهذه الآية على أنَّ الصَّحيح من الأقوال في عددهم أنهم سبعة؛ بناءً على أنَّ أقلَّ الجمع ثلاثة[3].

قيل: إنهم دخلوا الكهف غدوةً، وكان انتباههم بعد الزَّوال، فظنُّوا أنَّهم في يومهم، فلمَّا نظروا إلى طول أظفارهم وأشعارهم قالوا ذلك. وفيه نظر قد مرَّ وجهه.

ولَمَّا أخذهم ما يأخذ مَن نام طويلاً من الحاجة إلى الطَّعام قالوا:

﴿فَٱبۡعَثُوٓاْ أَحَدَكُم﴾ كأنَّهم قالوا: خذوا فيما يهمُّكم، ودعوا أمر ذلك إلى الله تعالى.

﴿بِوَرِقِكُمۡ﴾ قرئ بكسر الرَّاء وسكونها، والتَّثقيل وإدغام القاف في الكاف،

---

(١) في (ف): «آخر»، وفي (م): «آخر النهار».

(٢) في (ف) زيادة «يقل».

(٣) يعني: ﴿قَالَ قَآئِلٞ مِّنۡهُمۡ﴾ هذا واحد، ثم: ﴿قَالُواْ لَبِثۡنَا..قَالُواْ رَبُّكُمۡ﴾ فالجمع في كل من ﴿قَالُواْ﴾ الأول والثاني إذا كان أقله ثلاثة أصبحوا ستة، فيكون المجموع سبعة.

وبالتَّخفيف مكسور الواو مدغماً وغير مدغم، ورُدَّ الإدغام لالتقاء السَّاكنين على غير حدِّه[١].

والوَرِقُ: الفضَّةُ المضروبة. نصَّ عليه في «الصحاح» و«القاموس»[٢].

كانوا قد استصحبوا حين خرجوا دراهمَ لنفقتهم، وكانت حاضرةً عندهم، فلهذا أشاروا إليها بقولهم: ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾.

﴿إِلَى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هي طَرَسوس.

﴿فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ﴾ الضَّمير للمدينة والمراد أهلها بطريق الاستخدام، والمصير في أمثال هذا إلى الحذف مِن ضِيق العَطَن[٣].

﴿أَزْكَىٰ طَعَامًا﴾: أكثر بركة، قال ابنُ عبَّاس وعليٌّ رضي الله عنهما: إنَّه الأرزُّ[٤]؛ فإنَّه يزاد بالطَّبخ، وهو من تدبير قليل البضاعة.

---

(١) قرأ أبو عمرو وأبو بكر وحمزة بإسكان الراء وباقي السبعة بكسرها. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٣). وقرأ أبو رجاء بكسر الواو والراء والإدغام، وقرأ ابن محيصن بكسر الواو وإسكان الراء والإدغام. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩)، و«الكشاف» (٢/ ٧١٠)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٠٥)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٢٤٥). ونقل المؤلف كل ما ذكر من «تفسير البيضاوي»، وقال الشهاب شارحا ومعلقا: والتخفيف تسكين الراء والتثقيل كسرها مع فتح الواو فيهما، وقوله (أي: البيضاوي): وغير مدغم، لم يذكره جار الله، وأمّا التثقيل وكسر الواو فلم يقرأ به. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٨٥).

(٢) انظر: «الصحاح» (مادة: ورق)، و«القاموس المحيط» (مادة: ورق).

(٣) (من ضيق العطن)؛ أي: من ضيق مجاله في المعاني والبيان، والأصل في (العطن): مبركُ الإِبل عند الماء. وقوله: « والمصير في أمثال هذا...» إلى هنا من (م).

(٤) لم أقف عليه، وذكره القرطبي دون عزو كما سيأتي.

وفـي «تفسـير القرطبـي»: قيل: إنهم أمروه أن يشـتري مـا يُظنُّ أنَّه طعـام اثنين أو ثلاثـة لئـلا يُطَّلَـع عليهـم، ثـم إذا طبـخ كفى جماعـة، ولهـذا قيل: ذلـك الطعام الأرز[1].

﴿فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ﴾؛ أي: ويتكلَّـفْ فـي اسـتعمال[2] دقائـق التَّدبيـر فـي دخـول المدينـة وشـرائه الطَّعـام، فـلا يُعلـم بـه فـي ذهابـه وإيابه.

﴿وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾: ولا يفعلنَّ ما يؤدي إلى الشُّعور بكم.

***

(٢٠) - ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾.

والضمير في: ﴿إِنَّهُمْ﴾ عائدٌ على ما دلَّ عليه المعنى من أهل تلك المدينة.

﴿إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ﴾: إنْ يطَّلعـوا عليكـم، أو إن يظفـروا بكـم ﴿يَرْجُمُوكُمْ﴾: يقتلوكـم برمـي الحجـارة ﴿أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾: يصيِّروكـم فيهـا.

وقيل: العود على معناه الشَّائع؛ لأنهم كانوا أوَّلاً على دينهم ثم آمنوا، وإنما لم يقل: (إليها) لأنَّه لا يلزم من العود إلى الشيء التلبُّسُ به.

﴿وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا أَبَدًا﴾: ولن تفوزوا بخير أبداً إن ارتدَّيتُّم[3].

***

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٣٧).

(٢) في (ف): «استعماله».

(٣) في (ف) و(ك): «ارددتم».

(٢١) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ﴾ المفعول محذوف، تقديره[1]: أعثرناهم عليهم؛ أي: كما أنمناهم وبعثناهم لتزداد[2] بصيرتهم أطلعناهم عليهم، وأصله: أنَّ مَنْ عثر برجله على شيء وهو غافل نظر إليه حتى يعلمه، فاستُعير العثور للظهور.

﴿لِيَعْلَمُوٓا۟﴾؛ أي: ليعلم الذين أطلعناهم على حالهم ﴿أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ﴾ بالبعث، أو الموعود الذي هو البعث ﴿حَقٌّ﴾ لأنَّ حالهم في نومتهم[3] وانتباههم بعد المُدَد المتطاولة كحالِ مَن يموت ثم يُبعَث.

﴿وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَآ﴾: وأنَّ القيامة لا ريب في إمكانها؛ فإنَّ مَنْ توفَّى أنفسهم وأمسكها ثلاث مئةٍ سنينَ حافظاً أبدانَهم عن التَّحلُّل والتَّفتُّت، ثمَّ أرسلها إليهم قَدَرَ أن يتوفَّى نفوس جميع النَّاس ممسكاً إيَّاها إلى أن يَحشر أبدانها فيردَّها عليهم.

﴿إِذْ يَتَنَٰزَعُونَ﴾ ظرف لـ ﴿أَعْثَرْنَا﴾.

﴿بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ﴾ أمْرَ الفتية حين أماتهم الله تعالى ثانياً، فقال بعضهم[4]: ماتوا، وقال آخرون: ناموا نومَهم أوَّل مرَّة.

---

(١) في (ك) و(م): «التقدير».

(٢) في (ف) و(م): «ليزدادوا».

(٣) في (ك): «نومهم».

(٤) في (ك): «قوم»، وسقطت من (ف).

﴿فَقَالُواْ ٱبۡنُواْ عَلَيۡهِم﴾؛ أي: على باب كهفهم ﴿بُنۡيَٰنٗاۖ﴾ لئلَّا يتطرَّق إليهم النَّاس والدَّواب، ولا يتعرض لهم السِّباع.

﴿رَّبُّهُمۡ أَعۡلَمُ بِهِمۡ﴾ بأحوالهم أنَّهم ماتوا أو ناموا.

﴿قَالَ﴾ ولم يقل: (وقال) لأنَّه لم يُذْكَر في معرض المنازعة.

﴿ٱلَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰٓ أَمۡرِهِمۡ﴾؛ أي: قال عظماؤهم بعد الاتِّفاق على البناء عليهم:

﴿لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيۡهِم مَّسۡجِدٗا﴾ يُصلَّى فيه ويُتبرَّك بمكانهم.

* * *

(٢٢) ـ ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞۗ فَلَا تُمَارِ فِيهِمۡ إِلَّا مِرَآءٗ ظَٰهِرٗا وَلَا تَسۡتَفۡتِ فِيهِم مِّنۡهُمۡ أَحَدٗا﴾.

﴿سَيَقُولُونَ﴾ الضمير لمن خاض في قصَّتهم في زمن رسول الله ﷺ من أهل الكتاب والمؤمنين:

﴿ثَلَٰثَةٞ﴾ هم ثلاثة رجال ﴿رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾؛ أي: جعَلهم أربعةً بانضمامه إليهم، قيل: هو قول اليهود.

﴿وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ﴾ قاله النَّصارى، وإنما لم يذكره بالسِّين اكتفاء بعطفه على ما هو فيه.

﴿رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِ﴾: يرمون رمياً بالخبر الخفيِّ الذي لا مطَّلع لهم عليه.

﴿وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ﴾ قاله المسلمون بإخبار الرَّسول عليه

السلام عن جبريل[١] على ما أنبأ عنه إخراج هذا القول[٢] عن حيِّز الرَّجم بالغيب.

وأمَّا إتباعُه قولَه: ﴿قُل رَّبِّىٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم﴾ فلا دخل له في الإنباء المذكور.

ولا دلالة في قوله: ﴿مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ﴾ أنَّ ذلك القليل من جنس الإنس حتى يتمشَّى أن يُقال: أثبت العلم بهم لطائفةٍ بعد ما حصر أقوال الطَّوائف في الثَّلاثة المذكورة؛ فإنَّ عدم إيراد الرَّابع في نحو هذا المحل دليل العدم، مع أنَّ الأصل ينفيه، ثم ردَّ الأوَّلَيْنِ بالإتباع المذكور ليتعيَّن الثَّالث[٣].

وأمَّا التَّمسُّك بالواو بأنْ يقال: إنَّها[٤] دخلت على الجملة الواقعة صفةً للنَّكرة، تشبيهاً لها بالواقعة حالاً عن المعرفة؛ لتأكيد لصوق الصِّفة بالموصوف، والدِّلالة على أنَّ اتِّصافه بها أمر ثابت[٥] = فضعيفٌ؛ لأنها من المحكيِّ لا من الحكاية، فدلالتُها على الثُّبوت عند القائل، لا عند الله تعالى.

نعم لو قيل: إنَّها تدلُّ على تصديق القائلين بأنَّهم سبعة؛ لأنَّها عاطفة على كلام[٦] مصدَّق، تقديره: نعم وثامنهم كلبهم؛ كما إذا قال قائل: زيدٌ شاعرٌ، وقيل: وفقيهٌ أيضاً؛ أي: نعم، وفقيه أيضاً.

---

(١) في (ف) و(ك): «وحي»، والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٧٧).

(٢) في (ف): «إخراج»، وفي (ك): «إخراجه».

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٧٧). وقوله: ثم رد بصيغة الماضي معطوف على حصر، وقيل إنه مصدر مجرور معطوف على ما حصر وما مصدرية. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٨٨).

(٤) في (ف) و(ك): «بالواو بأنها».

(٥) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٧٧)..

(٦) في (ف) و(ك): «الكلام».

وفي الخبر: سئل النبي ﷺ أنتوضأ بما أَفضلت الحمر؟ قال: «وبما أفضلت السِّباع»[١]. قال السُّهيْلي: يريد: نعم وبما أفضلت السِّباع[٢].

وقال جماعة ومنهم الإمام أبو منصور الماتُريدي: لم يبيِّن اللهُ تعالى ذلك لأهل الكتاب ولا لنبيِّه عليه السلام، ولو كان أعلمه لم يقل: ﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾؛ لأن علمه به يغنيه عن السُّؤال عنهم[٣].

﴿فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا﴾: فلا تجادل أهل الكتاب في شأن أصحاب الكهف إلَّا جدالاً ظاهراً غير متعمّق فيه، وهو أن تقصَّ عليهم[٤] ما أوحى الله تعالى إليك فحسب، من غير تجهيلٍ لهم ولا تعنيفٍ لهم في الرَّدِّ عليهم.

﴿وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا﴾: ولا تستفتِهم من جهتهم. قاله[٥] ابن عبَّاس ومجاهد وقتادة[٦].

روي أنه عليه السلام سأل نصارى نجران عنهم فنهي عن السُّؤال. ذكره القرطبي[٧].

---

(١) رواه الدارقطني في «سننه» (١٧٥) و(١٧٦) من حديث جابر رضي الله عنه وضعفه. وضعف الحديث النووي في «المجموع» (١/ ٢٣٢).

(٢) انظر: «أمالي ابن سمعون» (١/ ٣٨٤)، و«حاشية ابن القيم على سنن أبي داود» (١٤/ ٧٦).

(٣) انظر: «تأويلات أهل السنة» (٧/ ١٥٦).

(٤) «عليهم» من (ف).

(٥) في النسخ: «قال»، والصواب المثبت.

(٦) رواه عنهم الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٢٢ ـ ٢٢٥).

(٧) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٤٩). وانظر أيضاً: «معاني القرآن» (٢/ ١٣٨)، و«الوسيط» للواحدي (٣/ ١٤٣).

(٢٣) ـ ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾.

﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ﴾: لأجل شيء تعزم عليه ﴿إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ﴾ الشَّيء.

إنَّما قال: ﴿فَاعِلٌ﴾ بالتَّنوين دون الإضافة لمكان قوله:

﴿غَدًا﴾ ومبنَى ذلك على قاعدةٍ ذكرناها في تفسير: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: ٣٠].

***

(٢٤) ـ ﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾.

﴿إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾: إلَّا بـأنْ يشـاء الله؛ أي: إلا ملْتبسـاً بمشـيئة الله[1] قائلاً: إن شاء الله.

وهـذا نهـيُ تأديـبٍ مِـن اللهِ تعالـى لنبيِّـه عليـه السـلام حيـن قالـت اليهـود لقريـش: سـلوه عن الـرُّوح، وعن أصحـاب الكهـف، وذي القرنين. فسـألوه فقال: «ائتونـي غـداً أخبركم» ولم يَسـتثنِ، فأبطَّـأ[2] عليه الوحي حتَّى شـقَّ عليـه، وكذَّبته قريشٌ[3].

فقولـه: ﴿غَدًا﴾ بمعنـاه الحقيقـيِّ، لا بمعنـى مـا يُسـتقبل مـن الزَّمـان، وعدمُ اختصـاص الحكـم بـه مـن جهـة دلالة النَّـص لا مـن جهـة عبارته.

---

(١) في (ف) و(ك): «أي ملتبساً أي بمشيئته».

(٢) في (ف): «فبطأ».

(٣) انظر: «الكشاف» (٢/ ٦٦٨). ورواه ابن إسحاق في «السير والمغازي» (ص: ٢٠١): حدثني رجل من أهل مكة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما، فذكره مطولاً.

﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ﴾؛ أي: مشيئةَ ربِّك، وقل: إن شاء الله، كما رُوي أنَّه لما أنزل قال عليه السلام: «إن شاء الله»[(١)].

﴿إِذَا نَسِيتَ﴾ إذا فرَط منك نسيانٌ لذلك ثمَّ تذكَّرتَه.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ولو بعد سنةٍ ما لم يحنث[(٢)].

قال القرطبي: هذا في تداركه التبرُّك[(٣)] بالاستثناء للتَّخلُّص[(٤)] عن الإثم، وأما الاستثناء المغيِّر حكماً فلا يصحُّ إلَّا متَّصلاً[(٥)].

ويجوز أن يكون المعنى: واذكر ربَّك بالتَّسبيح والاستغفار إذا نسيت الاستثناء؛ مبالغةً في الحثِّ عليه.

﴿وَقُلۡ عَسَىٰٓ أَن يَهۡدِيَنِ رَبِّي﴾: يدلَّني ﴿لِأَقۡرَبَ مِنۡ هَٰذَا رَشَدٗا﴾: لأقرب رشداً وأظهرَ دلالةً على أنِّي نبيٌّ مِن نبأ أصحاب الكهف، وقد فعل ذلك، من حيث آتاه من قصص الأنبياء والإخبار بالغيوب ما هو أعظم من ذلك وأدلُّ[(٦)].

والظَّاهر أن يكون المعنى: إذا نسيْتَ شيئاً فاذكر ربَّك عند نسيانه[(٧)]، وذِكْرُ ربِّك عند نسيانه أن تقول: عسى ربِّي أن يهديني لشيء آخر بدلَ هذا المنسيِّ أقرب منه

---

(١) في «الفتح السماوي» للمناوي (٢/ ٧٩٤): أخرجه ابن مردويه.

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٢٥)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١٠٦٩)، والحاكم في «المستدرك» (٧٨٣٣) وصححه.

(٣) «التبرك» سقط من (ف) و(ك)، وفي (م): «الترك»، والمثبت من «تفسير القرطبي».

(٤) في النسخ: «والتخلص» والمثبت من «تفسير القرطبي».

(٥) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٥١).

(٦) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٧٨).

(٧) «عند نسيانه» من (م).

رشداً، أو[1] أدنى خيراً ومنفعةً منه، ولعلَّ النِّسيان كان خيراً؛ لقوله تعالى: ﴿أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ﴾ [البقرة: ١٠٦].

***

(٢٥) - ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾.

﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ﴾ يريد لبثهم فيه أحياءً مضروباً على آذانهم.

﴿ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ﴾ قرأ حمزة والكسائي بالإضافة[2]، على وضع الجمع موضع الواحد في التَّمييز، كقوله: ﴿بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ [الكهف: ١٠٣].

ومَن قال: على وضع الجمع موضع الواحد، ويحسِّنه هاهنا أنَّ علامة الجمع فيه جبر لِمَا حذف من الواحد، وأنَّ الأصل في العدد إضافته إلى الجمع[3] = فقد تدافع طرفا كلامه؛ لأنَّ مبنى قوله: (على وضع الجمع موضع الواحد) هو أن يكون الأصل الإضافةَ إلى الواحد[4].

وقرأ الجمهور بتنوين ﴿مِائَةٍ﴾ ونصبِ ﴿سِنِينَ﴾ على أنَّه عطفُ بيان، وحملُه على البدليَّة ضعيفٌ؛ لأنَّه يلزم أن لا يكون العدد مقصوداً[5].

﴿وَازْدَادُوا تِسْعًا﴾ قيل: إنهم لبثوا ثلاثَ مئةِ سنةٍ شمسيَّةٍ بحساب الأمم، ولما

---

(١) في (ك): «و».

(٢) انظر: «التيسير» (ص: ١٤٣).

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٧٨).

(٤) في هامش (م): «قال القرطبي نقلاً عن أبي علي: هذه الأعداد التي تضاف في المشهور إلى الآحاد قد تضاف إلى الجموع. منه».

(٥) في (ف) زيادة: «وأن».

كان الإخبار هنا للعرب ذُكرت التِّسع؛ إذ المفهوم عندهم من السِّنين القمريَّة، فهذه الزِّيادة هي ما بين الحسابَيْن، فهو بيان لما أجمله تعالى قبلُ.

وقيل: إنَّه حكاية كلام أهل الكتاب؛ فإنَّهم اختلفوا في مدَّة لبثهم، كما اختلفوا في عددهم؛ فقال بعضهم: ثلاث مئةٍ، وقال بعضهم: ثلاثَ مئة وتسعَ سنين.

* * *

(٢٦) - ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾.

ويعضده قراءةُ ابن مسعود رضي الله عنه: (وقالوا لبثوا)[1]، وقولُه تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ﴾.

﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: ما غاب فيهما وخفيَ من أحوال أهلهما[2]، وأنَّه هو وحده العالمُ به.

﴿أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾ أمران معناهما: إنشاءُ التَّعجب.

والهاء في ﴿ بِهِۦ﴾ لله، محلُّه الرَّفع على الفاعليَّة عند سيبويه؛ لأنَّ أصله عنده: صار ذا بصر، كأَغَدَّ البعيرُ: صار ذا غدة، ثمَّ نُقِلَ إلى التَّعجُّب، وغُيِّرَ إلى صيغة الأمر؛ لأنَّه إنشاءٌ، والتَّعجُّب إنشاءٌ، فبرزَ الضَّمير لأنَّ ضمير الغائب لا يستتر في أمر المخاطب، وزِيْدَ الباء فيه لتأكيد التَّعجُّب، ولخلوه عن الضم لم تختلف صيغته بحسب اختلاف المخاطب إفراداً وتثنية وجمعاً[3].

---

(١) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٤/ ٢٢٦)، و«تفسير الثعلبي» (٦/ ١٦٥).

(٢) في (ك): «أحوالها».

(٣) من قوله: «ولخلوه عن الضم..» إلى هنا من (م).

وعند الأخفش: منصوبٌ على المفعوليَّة، والفاعل ضمير المخاطب، وهو كلُّ أحدٍ، والهمزة للتعدية، والباء مزيدة.

وعند بعضهم: الهمزة للصيرورة والباء للتعدية[١].

والإتيان بصيغة التَّعجب للدِّلالة على أنَّ أمره تعالى في الإدراك خارج عمَّا عليه إدراك السَّامعين والمبصِرين؛ إذ لا يحجبه شيء، ولا يتفاوت دونه لطيف وكثيف، وصغير وكبير، وخفيٌّ وجليٌّ.

﴿مَا لَهُم﴾: لأهل السَّماوات والأرض ﴿مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِيٍّ﴾: من متولٍّ لأمورهم.

﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِۦٓ﴾: في قضائه ﴿أَحَدًا﴾ منهم، ولا يجعل له فيه مدخلاً[٢].

وقرئ بالتاء والجزم على النَّهي[٣].

* * *

(٢٧) - ﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا﴾.

﴿وَٱتْلُ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ﴾: من القرآن، ولا تَسمع لما يَهذون به من طلب التَّبديل.

﴿لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ﴾؛ أي: لا يقدر أحدٌ غيره على تبديلها.

---

(١) «والباء للتعدية» من (م)، وهو الموافق لما في «روح المعاني» (١٥/ ٢٩٧)، وهذا القول عزاه الآلوسي للزجاج.

(٢) في (م): «مدخلًا فيه».

(٣) وهي قراءة ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٣).

﴿وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلۡتَحَدًا﴾: ملتجأً تعدِل إليه إن هممْتَ به.

* * *

(٢٨) ـ ﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَا تُطِعۡ مَنۡ أَغۡفَلۡنَا قَلۡبَهُۥ عَن ذِكۡرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمۡرُهُۥ فُرُطٗا﴾.

﴿وَٱصۡبِرۡ نَفۡسَكَ﴾: واحبسها وثبِّتها ﴿مَعَ ٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ رَبَّهُم بِٱلۡغَدَوٰةِ وَٱلۡعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجۡهَهُۥۖ﴾ قد مرَّ تفسيره في سورة الأنعام.

﴿وَلَا تَعۡدُ عَيۡنَاكَ عَنۡهُمۡ﴾؛ أي: لا تَصرف عيناك النَّظرَ عنهم إلى غيرهم، من عدَوْتُه عن الأمر: صرفتُه عنه، وما تصرفُه العين ليس إلا النَّظر، فحُذِفَ لظهوره.

قيل: ولا تجاوزهم نظرَك إلى غيرهم، وتعديتُه بـ (عن) لتضمينه معنى نبا[1]. وفيه: أنَّ عدا بمعنى جاوز يتعدَّى بنفسه وبـ (عن).

قال الجوهري: عدَاه: جاوزه، وما لي عن فلان مَعْدًى؛ أي: تجاوُزٌ إلى غيره[2].

ثمَّ إنَّ معنى الصَّرف أمسُّ للمقام من معنى التَّجاوز.

وقرئ: (ولا تُعْدِ) [و: (لا تُعَدِّ)] من أعداه وعدَّاه[3].

---

(١) أي: لما ضمِّن معنى (نبا) عدِّي تعديته، يقال: نبا الشيء عنه ينبو؛ أي: تجافى وتباعد، ونبا بصري عن الشيء: إذا اقتحمه ولم يعلق به. انظر: «حاشية شيخ زاده على البيضاوي» (٥/ ٤٧٢).

(٢) انظر: «الصحاح» (مادة: عدا).

(٣) قرأ الحسن: (ولا تُعْدِ) بضم التاء وكسر الدال، وقرأ الحسن وعيسى: (ولا تُعَدِّ). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩)، و«الكشاف» (٢/ ٧١٧)، والكلام وما بين معكوفتين منه.

﴿تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ حال من الكاف على المشهورة[١]، ومن الضَّمير المستتر في الفعل على غيرها، والعامل على الأوَّل أيضاً الفعل السَّابق؛ كما[٢] سبق في قوله: ﴿مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا﴾[٣].

ويجوز أن يكون حالاً من الفاعل، وتوحيد الضَّمير لأنهما عضوٌ واحد في الحقيقة، أو لاتحاد الإحساس، أو للاكتفاء بأحدهما عن الآخر، واستبشاعُ[٤] إسناد الإرادة إلى العين مندفعٌ بأنَّها كناية عن إرادة صاحبها، كما يقال: تستلذُّه العين أو السَّمع، وإنَّما المستلِذُّ الشَّخصُ.

﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ﴾: مَن جعلنا قلبه غافلاً ﴿عَن ذِكْرِنَا﴾ وقرئ: (أغفَلَنَا قَلْبُهُ)[٥] بإسناد الفعل إلى القلب، على معنى: حَسِبَنا قلبُه غافلين[٦] عن ذكرنا إيَّاه بالمؤاخذة.

﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ قيل: نزلَتْ في أميَّة بن خلف، وذلك أنَّه دعا النَّبيَّ عليه السلام إلى تبعيد الفقراء عنه وتقريب صناديد قريش[٧].

---

(١) في (ف) و(ك): «المشهور»، والمثبت من (م)، والمراد: القراءة المشهورةُ في السبعة المتواترة. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٩٦).

(٢) في (ك) و(م): «لما».

(٣) في (م): «فاتبع ملة..». وفي «روح المعاني» (١٥/ ٣١٣) نقلا عن «الكشف»: «بل ملة...».

(٤) في (ك): «واستتباع»، وفي (ف): «والاستتباع». والمثبت من (م)، وهو الموافق لما في المصدر السابق.

(٥) نسبت لعمرو بن فائد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩).

(٦) في (ف): «غافلًا».

(٧) انظر: «تفسير الثعلبي» (٦/ ١٦٦)، و«زاد المسير» (٥/ ١٣٣).

﴿وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا﴾؛ أي: مجاوزاً فيه الحدَّ. ذكره الجوهري[١].

* * *

(٢٩) ـ ﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّـٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

﴿وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ﴾ ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبرُ مبتدأ محذوف، و﴿مِن رَّبِّكُمْ﴾ حال مؤكِّدة، أو خبرٌ بعد خبر؛ أي: جاء الحقُّ وزاحت[٢] العلل، فلم يبقَ إلَّا اختيارُكم لأنفسكم ما شئتم.

﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ ليس هذا بترخيص وتخييرٍ بين الإيمان والكفر، وإنَّما هو وعيدٌ وتهديدٌ، وجيء بلفظ الأمر والتَّخيير لأنَّه لـمَّا مكَّن مِن اختيار أيِّهما شاء، فكأنَّه مخيَّر[٣] مأمورٌ بأنْ يتخيَّر ما شاء من النجدَيْن.

قيل: هو لا يقتضي استقلالَ العبدِ بفعله؛ فإنَّه وإن كان بمشيئته، فمشيئتُه ليست بمشيئة[٤].

وكأنَّه زعم أنَّ الأمر بالإيمان والكفر يكون أمراً بجعلهما وإيجادهما حتى قال ما قال، والحقُّ كون[٥] العبد مأموراً بالكسب فقط، وماذا بعد الحقِّ إلَّا الضَّلال.

---

(١) انظر: «الصحاح» (مادة: فرط).

(٢) في (ك): «وراحت».

(٣) «مخير» من (ك) و(ك)، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٢/ ٧١٩)، والكلام منه.

(٤) هذا كلام البيضاوي في «تفسيره» (٣/ ٢٧٩).

(٥) في (ف) لعلها: «حرر».

﴿إِنَّآ أَعۡتَدۡنَا﴾: هيَّأنا ﴿لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمۡ سُرَادِقُهَا﴾ هو ما يُمَدُّ فوقَ صحن الدَّار. ذكره الجوهري[(١)].

فارسيٌّ معرَّب، أصله: سَراطاق، لا سَرَايَرْدَه، كما تُوهِّم.

وما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه على ما خرَّجه الترمذي ـ وقال فيه: حسن صحيح ـ من قوله عليه السلام: «لِسُرادق النَّار أربعُ جُدُرٍ...»[(٢)] يعضدُ ما ذكرنا، ويردُّ ما قيل: إنَّه الحجرة[(٣)] التي تكون حول الفسطاط، وما قيل: إنَّه الحائط.

﴿وَإِن يَسۡتَغِيثُواْ﴾ من العطش.

﴿يُغَاثُواْ بِمَآءٖ كَٱلۡمُهۡلِ﴾ أي: يؤتوا بماء كالمهل[(٤)]، وإنَّما قال: يُغاثوا على طريقة:

تحيَّـــة بينهـــم ضـــربٌ وجيـــعُ[(٥)]

---

(١) انظر: «الصحاح» (مادة: سردق).

(٢) رواه الترمذي (٢٥٨٤)، وقال: هذا حديث إنما نعرفه من حديث رشدين بن سعد، وفي رشدين مقال، وقد تكلم فيه من قبل حفظه. والمؤلف في نقل التصحيح عن الترمذي تابع في ذلك القرطبي في «تفسيره» (١٣/ ٢٦٢).

(٣) كذا في النسخ: «الحجرة»، ومثله في مطبوع «الكشاف» (٢/ ٧١٩)، وجاء في «تفسير البيضاوي» بهامش «حاشية الشهاب» (٦/ ٩٨)، و«فتوح الغيب» للطيبي (٩/ ٤٦٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٢١): (الحجزة) بالزاي، قال الشهاب: قوله (أي: البيضاوي): (الحجزة) بالزاي المعجمة؛ أي: ما يحجز ويمنع من الوصول إليه من خندق ونحوه، أو بالمهملة؛ أي: الحظيرة التي تجعل حوله.

(٤) «أي: يؤتوا بماء كالمهل» زيادة من (م).

(٥) عجز بيت لعمرو بن معدي كرب. انظر: «الكتاب» (٣/ ٥٠)، و«النوادر» لأبي زيد (ص: ١٥٠)، و«الخزانة» (٩/ ٢٦٥)، وقال البغدادي: ولم أره في شعره. وصدره:

وخيـــلٍ قـــد دَلَفْـــتُ لهـــا بخيـــلٍ

تهكُّماً.

والمُهْلُ: هو ماءٌ غليظٌ كدُرْديِّ الزَّيت[١]. ذكره ابن عباس رضي الله عنهما[٢]، ويوافقه ما في حديث التِّرمذي عن النَّبيِّ عليه السلام أنَّه قال: « كعَكَرِ الزَّيْتِ»[٣].

﴿يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ﴾: من فَرْط حرارته إذا قُدِّمَ ليُشرَب، وهو صفة ثانية لـ (ماءٍ)، أو حال منه؛ لأنَّه قد وُصِفَ فحَسُن مجيء الحال منه، أو من (المهل)، أو الضميرِ في الكاف.

﴿بِئْسَ ٱلشَّرَابُ﴾ المخصوصُ بالذَّمِّ محذوف تقديره: بِئْسَ الشَّرَابُ هو؛ أي: الماء الذي يغاثون به.

﴿وَسَآءَتْ﴾ النَّـارُ ﴿مُرْتَفَقًا﴾: متَّـكأً، وأصلـه: الاتِّـكاء علـى المرفـق، وهـذا لمشـاكلة قولـه: ﴿وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾، وإلَّا فـلا ارتفـاق لأهل النَّـار ولا اتِّـكاء، إلَّا أن يكـون كنايـةً عـن عـدم النُّـوم، كما فـي قوله:

نـام الخلـيُّ وبِـتُّ اللَّيـل مرتفِقـاً[٤]

---

(١) دردي الزيت: عكره وما يستقر منه في قعر الإناء. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٩٨).

(٢) رواه هناد بن السري في «الزهد» (٢٨٣)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٢٤٩).

(٣) رواه الترمذي (٢٥٨١) و(٢٥٨٤) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وقال: هذا حديث لا نعرفه إلا من حديث رشدين بن سعد، ورشدين قد تكلِّم فيه. وقد تقدمت قطعة منه قريباً.

(٤) صـدر بيت لأبي ذؤيـب الهذلي، وهو فـي «ديـوان الهذليين» (١/ ١٠٤)، و«مجاز القـرآن» لأبي عبيـدة (١/ ٤٠٠)، و«تفسير الطبـري» (١٥/ ٢٥٣)، و«الكشـاف» (٢/ ٦١٩)، وروايـة الديـوان: «مشـتجراً». وعجزه:

كأنَّ عَيْنِـيَ فِيهَـا الصَّـابُ مَذْبُـوحُ

الخلي: الذي لا هم له، والصاب: شجرة مرة لها لبن يحرق العين إذا أصابها، والمذبوح: المشقوق.

(٣٠) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾ التَّنكير للتَّقليل.

* * *

(٣١) ـ ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا﴾.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ﴾: إقامةٍ؛ إذ هو وسَط[١] الجنان.

وإنما جيء بلفظ الجمع لسعتها، بحيث كان كلُّ بقعة منها صالحةً لأنْ تكون جنَّة.

ويجوز أن يراد بالجنَّات: سائر الجنان، وإضافتها إلى ﴿عَدْنٍ﴾ لأنَّه معظمُها.

والجملة خبر ﴿إِنَّ﴾، وما بينهما اعتراض؛ أو[٢] هو أيضاً خبرٌ على قيام ﴿مَنْ أَحْسَنَ﴾ مقامَ الضمير؛ لأنَّ ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾: ﴿ٱلَّذِينَ[٣] ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ويأباه التَّقليل[٤] المستفاد من التَّنكير في ﴿عَمَلًا﴾، أو على أن الضمير[٥] مستغنًى عنه بعموم ﴿مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا﴾، كما هو مستغنًى عنه في قولك: نِعْمَ الرَّجلُ زيدٌ.

وأمَّا حذفه على أنَّ المعنى: مَن أحسن عملاً منهم. ففيه أنَّه يؤذِنُ تنوُّع ﴿ٱلَّذِينَ

---

(١) في (ف): «متوسط».

(٢) في (م): «إذ» وهو تحريف.

(٣) في (ف) و(م): «والذين».

(٤) في النسخ: «فيأباه التعليل»، والصواب المثبت. انظر: «روح المعاني» (١٥/ ٣٢٦).

(٥) «على أن الضمير» معطوف على «على قيام من أحسن..».

ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ إلى مَن أحسن عملاً، وإلى مَن لم يحسنه، ولا صحَّة له[١].

أو الخبر هو، و﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ﴾ كلام مستأنَف لبيان الأجر المبهَم.

ويجوز أن يكون الثَّاني بدلاً عن الأوَّل، فلا يحتاج الأوَّل إلى خبر، كما في قول الشَّاعر:

إنَّ الخليفةَ إنَّ اللهَ سربلَهُ ... سِرْبالَ مُلْكٍ به تُرْجَى الخواتيمُ[٢]

﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهِمُ ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ قد مرَّ تفسيره في سورة البقرة.

﴿ يُحَلَّوۡنَ ﴾: يُجعل لهم حليًّا، بنى التَّحلية للمفعول إشعاراً بأنَّهم يكرَّمون بذلك ولا يتعاطونه بأنفسهم.

﴿ فِيهَا مِنۡ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ ﴾ ﴿ مِن ﴾ الأولى للابتداء، والثَّانية للتَّبيين صفةٌ لـ﴿ أَسَاوِرَ ﴾، وتنكيرها لإبهام أمرها في الحسن، وهي جمع أسورة، والأسورة: جمع سِوار بالكسر: زينةٌ تُلْبَسُ في الزِّند من اليد.

وقال أبو عمرو: واحد الأساور: الأُسْوار بالضَّم[٣]، وهو بمعنى السِّوار، لا جمعُه.

﴿ وَيَلۡبَسُونَ ﴾ أسند فعل اللُّبس إليهم لأنَّ الإنسان يتعاطى ذلك بنفسه، خصوصاً إذا كان باديَ العورة[٤].

---

(١) هذا على على تقدير كون (مِن) تبعيضية، وليس بمتعين لجواز كونها بيانية، ولو سلم فلا بأس به، فإن الإحسان زيادة الإخلاص الوارد في حديث الإحسان: «أن تعبد الله كأنك تراه». انظر: «روح المعاني» (١٥/ ٣٢٦).

(٢) البيت لجرير. كما في «ديوانه» (بشرح محمد بن حبيب) (٢/ ٦٧٢).

(٣) في «الصحاح» (مادة: سور) عن أبي عمرو بن العلاء: (إسوار).

(٤) في (ك): «مأوى الصورة»، وفي (ف) و(م): «بادي الصورة»، والمثبت من «البحر المحيط» (١٤/ ٢٧٢).

﴿ثِيَابًا خُضْرًا﴾ لأنَّها أحسن الألوان وأكثرها طراوة، وقد روي فيها في ذلك أثر أنها تزيد في ضوء البصر(١).

﴿مِّن سُندُسٍ﴾: ما رقَّ من الدِّيباج ﴿وَإِسْتَبْرَقٍ﴾: ما غلظ منه، معرَّب فارسيُّه: اصطبرك.

جمع بين النَّوعَيْن للدِّلالة على أنَّ فيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين.

﴿مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ﴾: جمع أريكة(٢)، وهي السَّرير في الحجال، خصَّ الإتِّكاء لأنَّه هيئة المتنعِّمين.

﴿نِعْمَ ٱلثَّوَابُ﴾ الجنَّة ونعيمها ﴿وَحَسُنَتْ﴾ الأرائك ﴿مُرْتَفَقًا﴾: متَّكأً.

* * *

(٣٢) - ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾.

---

(١) رواه القضاعي في «مسند الشهاب» (٢٨٩) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما يرفعه: «النظر إلى الخضرة يزيد في البصر والنظر إلى المرأة الحسناء يزيد في البصر». وهو خبر باطل كما في «الميزان» ترجمة أبي الفضل محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحارث.
ونحوه رواه الخطيب البغدادي في «تاريخ بغداد» (٤/ ٢٨٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي إسناده أبو البختري القاضي رمي بالوضع. انظر: «المقاصد الحسنة» (ص: ٢٧٥).
وقد ذكر هذا الحديث ابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١١٢)، وكذا ابن القيم في «المنار المنيف» (ص: ٦٢) وغيرهما.
ورواه ابن عدي في «الكامل» (٣/ ١٤٤)، وأبو نعيم في «أخبار أصبهان» (١٠/ ٢٨٢) موقوفاً على ابن عبَّاس رضي الله عنهما، ولفظه: (ثلاث تجلو البصر: النظر إلى الخضرة...).

(٢) في (ف) و(ك): «أريك».

﴿وَٱضْرِبْ لَهُم﴾ للكافرين والمؤمنين ﴿مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ﴾ حالَ رجلَيْن مفروضَيْن أو موجودَيْن.

﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا﴾ وهو الكافر ﴿جَنَّتَيْنِ﴾: بُستانَيْن ﴿مِنْ أَعْنَٰبٍ﴾: من كروم.

والجملة بتمامها بيان التَّمثيل، فلا محلَّ لها من الإعراب[1]، أو صفة الرَّجلَيْن، [فموضعها النصب].

﴿وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ﴾؛ أي: جعلناه مُطيفاً[2] بهما، وهذا مما يُؤْثِره الدَّهاقين؛ أي: يجعلوها مؤزرةً[3] بالأشجار المثمرة.

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾: جعلها أرضاً جامعة للأقوات والفواكه.

وصف العمارة بأنها متواصلةٌ متشابكة لم يتوسطها ما يقطعُها ويفصل بينهما، مع الشَّكل الحسن والتَّرتيب الأنيق.

***

(٣٣) ـ ﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا ۚ وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾.

﴿كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا﴾: ثمرها، وإفراد الضَّمير لإفراد ﴿كِلْتَا﴾، ولو قيل: (أتتا) على المعنى لجاز، والمختار هو الأوَّل.

﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ﴾؛ أي: لم تنقص مِنْ أُكُلِها ﴿شَيْـًٔا﴾ يُعهَد في سائر البساتين.

---

(١) قوله: «فلا محل لها من الإعراب»، وقع بعد قوله: «أو صفة الرجلين»، والصواب المثبت. انظر: «البحر» (١٤/ ٢٧٥)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٣٦)، وما سيأتي بين معكوفتين منهما. ووقع في النسخ: «لا محل له..» والصواب المثبت.

(٢) في (ك): «جعله مطيفاً»، وفي (م): «جعلته مطبقاً»، وفي (ف): «جعلناه مطيقاً»، والصواب المثبت.

(٣) في (ف) و(ك): «مؤيدة».

﴿وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا﴾ ليدومَ شربها، فإنَّه الأصل، ويزيد بهاؤها.

***

(٣٤) ـ ﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾.

﴿وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ﴾؛ أي: أنواع المال؛ مِن ثمَّر ماله: إذا كثَّره.

﴿فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ﴾ الظَّاهر منه أنَّهما ليسا بأخوَين.

﴿وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ﴾؛ أي: يراجعه في الكلام ويجاوبه، من حارَ: إذا رجع.

﴿أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾: أولاداً، دلَّ على ذلك قول صاحبه: ﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾، والمراد الذُّكور؛ لأنهم ينفرون معه دون الإناث.

***

(٣٥) ـ ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا﴾.

﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ﴾ بصاحبه ليريَه ما فيها، ويعجِّبَه منها، ويفاخرَه بما ملَكَ من المال دونه.

وإفراد الجنَّة تجريد الكلام[1] لما سبق من الغرض، وصوناً له عمَّا يخيِّل أمراً آخر، والغرض هاهنا: بيان ما قاله عند دخول[2] جنَّته، والتَّعرُّض لتعدُّدها فضلةٌ في ذلك، وهذا كما تقول إذا رأيت لباساً طويلاً على امرأة قصيرة: اللباس طويل واللَّابس قصير، ولو قلت: اللابسة قصيرة، جئتَ بما هو لُكْنةٌ[3]

(١) قوله: «وإفراد الجنة تجريد الكلام»، كذا في النسخ، ولعله ضرب على ألف (إفراد) في (م)، ولعل صواب العبارة: (وأفرد الجنة تجريداً للكلام) بدلالة ما عطف عليه من قوله: «وصوناً».

(٢) في (ك): «دخوله».

(٣) في (ف): «لكنت»، وفي (م): «النكتة».

وفضـولُ قـول؛ لأنَّ الـكلام لـم يقـع فـي ذكـورة اللَّابـس وأنوثتـه، وإنمـا وقع في غـرضٍ وراءهما.

﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾ بتعريضها لسَخَطِ الله تعالى، بعُجبه وكفره، وهو أفحش الظُّلم.

﴿قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ﴾؛ أي[1]: تَهلِكَ ﴿هَٰذِهِۦٓ﴾: الجنَّة ﴿أَبَدًا﴾ وهذا لاغتراره بانتظام أحواله واطِّراح النَّظر في عواقب أمثاله.

* * *

(٣٦) ـ ﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴾.

﴿ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾: كائنةً.

﴿وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّي﴾ إقسامٌ منه لاعتقاده[2] أنَّه تعالى إنَّما أولاه ما أولى لاستئهاله واستحقاقه إيَّاه لذاته، وهو معه أينما يلقاه، على أنَّه إنْ رُدَّ إلى ربِّه على سبيل الفَرْض.

﴿لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا﴾: من جنَّته. وقرئ: ﴿منهما﴾[3]؛ أي: من الجنتين.

﴿مُنقَلَبًا﴾: مرجعاً وعاقبة؛ لأنها فانية، وتلك باقية، وانتصابه على التَّمييز.

* * *

(٣٧) ـ ﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِي خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾.

---

(١) في (م): «أن».

(٢) «لاعتقاده» من (م).

(٣) قرأ بها نافع وابن كثير وابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٣).

﴿ قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ﴾ أراد: خلْقَ أصله آدم عليه السلام، أو أصل مادَّته، وذلك أن ماء الرَّجل يتولَّد من أغذية حاصلة من تراب، فنبَّهه أوَّلاً على ما تولَّد منه بالواسطة، ثم على ما تولَّد منه بالذَّات فقال:

﴿ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ﴾ فإنَّها مادَّته القريبة.

﴿ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا﴾: جعلَكَ إنساناً ذكراً بالغاً مبلغَ الرِّجال سويًّا.

قيل: عدَلَكَ. ويردُّه قوله تعالى: ﴿فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٧].

جعل كفره بالبعث كفراً بالله تعالى؛ لأنَّ منشأ الشَّكِّ في قدرته تعالى[1]، ولذلك رتَّبَ الإنكار على خلقه إيَّاه من تراب، كأنَّه يقول: مَن اعترف بخلقه تعالى إيَّاه من التَّراب لا ينكر إعادته منها؛ لأنَّها أهون منه، فالإنكار بالثَّاني لا يجامع الاعتراف بالأوَّل.

* * *

(٣٨) ـ ﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾.

﴿ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾ استدراك من قوله: ﴿أَكَفَرْتَ﴾؛ لأنَّه استفهامُ إنكارٍ وتوبيخٍ، فهو في الحقيقة إخبار عن كفره.

وأصل ﴿ لَّٰكِنَّا۠ ﴾: لكنْ أنا، فحذفت الهمزة، فتلاقَتِ النُّونان، فكان الإدغام.

وقرئ بالألف في الوصل[2]؛ لتعويضها من الهمزة، أو لإجراء الوصل مجرى الوقف.

---

(١) في (م): «في قدرة الله تعالى».

(٢) وهي قراءة ابن عامر، وفي الوقف جميع السبعة يقرؤونها بإثبات الألف. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٣).

وقـرئ: (لكنْ أنا) على الأصل[١]، و﴿هُوَ﴾ ضمير الشَّـأن، وهـو بالجملة الواقعة خبـراً لـه خبرُ (أنا)[٢]، أو ضميـر ﴿ٱللَّهُ﴾ و﴿ٱللَّهُ﴾ بدلٌ، و﴿رَبِّي﴾ خبـرُه، والجملةُ خبر (أنا).

وقرئ: (لكنْ هو الله ربي)[٣]، و: (لكن أنا لا إله إلا الله ربي)[٤].

***

(٣٩) ـ ﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

﴿وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ﴾: وهلَّا قلْتَ عند دخولها:

﴿مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ ﴿مَا﴾ موصولةٌ مرفوعةُ المحل على أنَّه خبر مبتدأ محذوف تقديرُه: الأمرُ ما شاء الله، أو مبتدأٌ خبره محذوف تقديره: ما شاء الله كائن، أو شرطيَّةٌ منصوبة الموضع والجزاء محذوف، بمعنى: أيَّ شيءٍ شاء الله كان؛ إقراراً بأنَّها وما فيها بمشيئة الله تعالى، إن شاء أبقاها، وإن شاء أبادها[٥].

---

(١) نسبت لأبيٍّ والحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩)، و«الكشاف» (٢/ ٧٢٣).

(٢) في (م): «خبر إن» وسقطت من باقي النسخ، والمثبت من «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٨١)، والكلام منه.

(٣) نسبت لعيسى الثقفي. انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٢٣)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٢٨٤).

(٤) نسبت لابن مسعود. انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٢٣) وفيه: (لكن أنا لا إله إلا هو ربي)، وفي «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩) عن ابن مسعود: (لكن هو الله ربي لا إله إلا هو).

(٥) في النسخ: «أباها»، والمثبت من «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٨١)، والكلام منه. قال الشهاب في «الحاشية»: أبادها بمعنى: أفناها وأهلكها.

﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ وقلتَ: ﴿لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ﴾ اعترافاً بالعجز على نفسك، والقدرةِ لله تعالى، وأن ما تيسَّر[1] لك من تعميرها وتدبير أمرها فبمعونته وإقداره.

﴿إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ مَن رفع ﴿أقلّ﴾[2] جعله خبراً، وجعل ﴿أَنَا۠﴾ مبتدأً، والجملةَ مفعولاً ثانياً لـ ﴿تَرَنِ﴾، ومَن نصبه جعل ﴿أَنَا۠﴾ فصلاً أو تأكيداً للمفعول الأوَّل.

* * *

(٤٠) ـ ﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾.

﴿فَعَسَىٰ رَبِّيٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ﴾ في الدُّنيا أو في الآخرة لإيماني، وهو جواب الشَّرط.

﴿وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا﴾ على جنَّتك بكفرك ﴿حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾: مراميَ، واحده: حُسبانةٌ، قاله الأخفش وأبو عبيدة. وقال ابن الأعرابي: الصَّواعق[3].

﴿فَتُصْبِحَ﴾ دلَّ على إتيان الحسبان باللَّيل.

﴿صَعِيدًا زَلَقًا﴾: أرضاً اصطلم جميعُ ما عليها من النَّبات، كالرَّأس إذا حُلِقَ لا يبقى عليه شعر، مصدر بمعنى المفعول، مِن زَلَق رأسه زَلْقاً: إذا حلقه.

* * *

---

(١) في (ك): «يتيسر».

(٢) هو عيسى بن عمر. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥١٨)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٢٨٧).

(٣) انظر: «تهذيب اللغة» للأزهري (٤/ ١٩٣).

(٤١) ـ ﴿ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴾.

﴿ أَوْ يُصْبِحَ ﴾ عطف على ﴿ وَيُرْسِلَ ﴾، على تنويع ما ترجَّى إلى آفةٍ سماويَّة وآفةٍ أرضيَّة.

﴿ مَآؤُهَا غَوْرًا ﴾؛ أي: غائراً، مصدر بمعنى الفاعل، يقال: غار الماء غوراً: إذا سفلَ في الأرض.

﴿ فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ ﴾؛ أي[1]: للماء الغائر ﴿ طَلَبًا ﴾: لن تقدر على طلبه؛ لعدم بقاء الأثر منه.

* * *

(٤٢) ـ ﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴾.

﴿ وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ ﴾ الواو فصيحة عاطفة على مقدَّر هو تحقّق ظنّه، وثمرُه: أمواله، وإحاطتُه عبارةٌ عن إهلاكه بالكليَّة، وأصله من أحاط به العدو، فإنَّ قوماً قد أحاط بهم العدوُّ قلَّما ينجو منهم[2] شخصٌ، ثم استعمل في كلِّ إهلاك[3].

﴿ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ ﴾ كنايةٌ عن التَّحسُّر والنَّدم، فإنَّ النَّادم يقلِّب كفَّيه ظهراً لبطنٍ، فكأنَّه قيل: يندم.

﴿ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا ﴾: في عمارتها، فهو متعلِّق بـ ﴿ يُقَلِّبُ ﴾، ويجوز أن يكون حالاً؛ أي: متحسِّراً على ما أَنفقَ فيها.

---

(١) «أي» من (م).

(٢) «منهم» من (ك).

(٣) في (ك) و(م): «هلاك».

﴿وَهِيَ خَاوِيَةٌ﴾: ساقطةٌ ﴿عَلَىٰ عُرُوشِهَا﴾ بأن سقط عروشُها على الأرض، وسقط الكروم فوقها.

﴿وَيَقُولُ﴾ عطف على ﴿يُقَلِّبُ﴾، أو حال من ضميره.

﴿يَٰلَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّيٓ أَحَدًا﴾ تذكَّر موعظة أخيه، فعلم أنَّه أُتِيَ من جهة شركه وطغيانه، فتمنَّى لو لم يكن مشركاً حتى لا[1] يُهلك الله أمواله، ويحتمل أن تكون توبةً[2] عن الشِّرك وندماً على ما سبق منه.

* * *

(٤٣) ـ ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾.

﴿وَلَمْ تَكُن﴾ بالتَّاء والياء[3] ﴿لَّهُۥ فِئَةٌ﴾ قد مرَّ ما يتعلَّق باشتقاق (فئة) في آل عمران.

ولَمَّا افتخر بعزَّة نفَره أخبر تعالى أنَّه لم يكن له جماعة يُجْدونه نفعاً[4].

وحُمل: ﴿يَنصُرُونَهُۥ﴾ على المعنى دون اللَّفظ؛ أي: يقدرون على نصره بدفع الإهلاك، أو ردِّ المهلَك[5]، وأما الإتيان بمثله فليس من النَّصر؛ لأنه[6] المعونة بالقهر والغَلَبة، لا مطلق المعونة.

---

(١) «لا» من (م).

(٢) في النسخ: «توبته»، والمثبت من «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٨٢)، والكلام منه.

(٣) قرأ حمزة والكسائي بالياء، والباقون بالتاء. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٣).

(٤) في (م): «تبعاً».

(٥) (رد المهلك) بفتح اللام؛ أي: ردّه بعينه إن قيل بجواز إعادة المعدوم بعينه، أو بمثله إن لم نقل به. انظر: «حاشية الشهاب» (٧/ ١٠٤).

(٦) في (ف): «لأن».

﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: هو القادر وحده على ذلك.

﴿وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا﴾: قادراً على الانتصار بنفسه.

* * *

(٤٤) ـ ﴿هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾.

﴿هُنَالِكَ﴾: في ذلك المقام وتلك الحال ﴿ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ﴾: النُّصرة له وحدَه، لا يقدر عليها غيره، تقرير لقوله: ﴿وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾.

وقرئ بالكسر[١]، ومعناه: السُّلطان والملك؛ أي: هنالك السُّلطان والملك لله تعالى، لا يُغلب ولا يُمتنع عنه.

أو[٢] في مثل تلك الحالة الشَّديدة يتولَّى[٣] اللهَ تعالى ويؤمنُ به كلُّ مضطر، فيكون تنبيهاً على أن قوله: ﴿يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾ كان عن اضطرار وجزع ممَّا دهاه من شؤم[٤] كفره، ولولا ذلك لم يقلها.

ويجوز أن يكون المعنى: هنالك الولاية لله ينصر فيها[٥] أولياءه المؤمنين على الكفرة، وينتقم لهم، ويشفي صدورهم من أعدائهم، يعني: أنَّه نَصَر فيما فَعَل بالكافر صاحبَه المؤمن، وصدَّق قولَه: ﴿فَعَسَىٰ رَبِّىٓ﴾ الآية.

وقيل: ﴿هُنَالِكَ﴾ إشارة إلى الآخرة؛ أي: في تلك الدَّار الولاية لله تعالى؛

---

(١) أي: ﴿الوِلاية﴾ بكسر الواو، قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٣).

(٢) في النسخ: «و»، والمثبت من «الكشاف» (٢/ ٧٢٤).

(٣) في النسخ: «يقوى»، والمثبت من «الكشاف».

(٤) في (ك): «شدة»، والمثبت موافق لما في المصدر السابق.

(٥) في (ك) و(م): «بها»، والمثبت موافق لما في المصدر السابق.

كقولـه[1]: ﴿لِّمَنِ ٱلۡمُلۡكُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [غافر: ١٦]، ويعضده قولـه: ﴿هُوَ خَيۡرٞ ثَوَابٗا وَخَيۡرٌ عُقۡبٗا﴾.

وقرئ: ﴿الحقّ﴾ بالرَّفع والجرِّ[2]، صفةً لـ﴿ٱلۡوَلَٰيَةُ﴾ و﴿لِلَّهِ﴾.

وقرئ بالنَّصب[3] على المصدر المؤكِّد[4].

وقرئ: ﴿عُقباً﴾ بالسُّكون وبالضَّم[5]، وقرئ: (عُقْبَى)[6] على فُعْلَى، وكلُّها بمعنى العاقبة.

* * *

(٤٥) - ﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا كَمَآءٍ أَنزَلۡنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخۡتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلۡأَرۡضِ فَأَصۡبَحَ هَشِيمٗا تَذۡرُوهُ ٱلرِّيَٰحُۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ مُّقۡتَدِرًا﴾.

﴿وَٱضۡرِبۡ لَهُم﴾: ومثِّل لهم، من قولهم: هذه الأشياء على ضَرْبٍ واحد؛ أي: مثالٍ واحد.

﴿مَّثَلَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾: صفتَها الغريبةَ[7] في سرعة تَقضِّيها[8] وذهابِ نعيمها بعد إقبالها واغترار النَّاس بها.

---

(١) في النسخ: «لقوله»، والمثبت من المصدر السابق.

(٢) قرأ أبو عمرو والكسائي بالرفع، وباقي السبعة بالجر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٣).

(٣) نسبت لعمرو بن عبيد وغيره. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩)، و«الكشاف» (٢/ ٧٢٥)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥١٩).

(٤) أي: المصدر المؤكِّد لمضمون الجملة، والناصب له عامل مقدر كما تقول: هذا عبد الله حقاً؛ أي: الحق لا الباطل. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ١٠٥).

(٥) قرأ عاصم وحمزة بإسكان القاف، وباقي السبعة بضمها. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٣).

(٦) نسبت لعاصم في غير المشهور عنه. انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥١٩).

(٧) في (ك): «القريبة».

(٨) في (ك): «نقضها».

﴿كَمَآءٍ﴾ هو كماءٍ ﴿أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ﴾؛ أي: بالماء، والباء للسببيَّة؛ أي: فالتفَّ بسببه وخالط بعضُه بعضاً من كثرته وتكاثفه، ويجوز أن تكون للتَّعدية؛ أي: نجع في النبات حتى رَويَ ورفَّ[1].

وحقُّ هذه الباء أن تدخل في أقل المخلوطَيْن، وسلك هنا مسلك القلب؛ للمبالغة في كثرة الماء.

﴿فَأَصْبَحَ﴾؛ أي: أتى أمر الله، على ما أفصح عنه في سورة يونس عليه السلام، فالفاء فصيحة، نكتتها الإشعار بسرعة الزَّوال.

﴿هَشِيمًا﴾: متكسِّراً[2] من اليبس متفتِّتاً ﴿تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ﴾: تفرِّقه، وقرئ: (تُذْريه)[3]، والتَّشبيه تمثيليٌّ، شبَّه الهيئة[4] المنتزعة من أحوال الدنيا بالهيئة المنتزعة من أحوال النَّبات[5]، إلَّا أن إيلاء أداة التَّشبيه بالماء لا يخلو عن نوع إشعارِ شَبَهِ الدُّنيا بالماء في أنَّ قليله يَروي وكثيرَه يُردي، كما ورد في الخبر قال عليه السلام: «ذرِ الدُّنيا وخذ منها كالماء؛ فإنَّ القليل منها يكفي، والكثيرَ منها يُطغي»[6].

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾ من الإنشاء والإفناء ﴿مُّقْتَدِرًا﴾: قادراً.

---

(١) (نجع): دخل، من النجعة وهي الارتحال والحركة ـ وليس هنا بمعنى: نفع، من قولهم: نجع فيه الدواء إذا نفعه ـ وإذا دخل فيه فقد خالط أجزاءه حقيقة، و(روي) كرضي؛ أي: تمّ شربه، و(رفَّ) بمعنى: تحرك بلطف لرطوبته ونضرته. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ١٠٥).

(٢) في (ف) و(م): «منكسراً».

(٣) نسبت لابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩).

(٤) في (م): «والتشبيه تمثيل الهيئة».

(٥) في (ك) و(م): «النباتات».

(٦) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٨٩).

(٤٦) ـ ﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾.

﴿ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ﴾ لأنَّ في المال جَمالاً ونفعاً، وفي البنين قُرَّة ورفعاً.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾: الأعمال الخيِّرات التي تبقى ثمرتها للإنسان أبدَ الآباد، من أيِّ نوعٍ كان من أنواع القول والعمل.

وقيل: هي النيَّات والـهمَّات؛ لأن بها[1] يُقبَل العمل ويُرْفَع.

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ﴾ من المال والبنين ﴿ثَوَابًا﴾: عائدة.

﴿وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ إذ ينال بها صاحبها في الآخرة ما كان يؤمِّل بها في الدُّنيا.

* * *

(٤٧) ـ ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ ٱلْجِبَالَ وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَٰهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾.

﴿وَيَوْمَ﴾؛ أي: اذكُرْ يومَ ﴿تُسَيَّرُ الْجِبَالَ﴾ من سُيِّرتْ، وقرئ: ﴿نُسَيِّرُ﴾[2] من سيَّرنا، و: (تَسِيْرُ) مِنْ سارَتْ[3]؛ أي: تَسير في الجو كما يسير السَّحاب، كما قال في آية أخرى: ﴿وَهِىَ تَمُرُّ مَرَّ ٱلسَّحَابِ﴾ [النمل: ٨٨]، وهذا بعدَ كونها كالعِهن المنفوش.

ومَن ذهب إلى أنها تسير سيرَ السَّحاب ذهب إلى أن يكون المعنى: يُذهَب بها بأنْ تُجعَل هباءً منبثًّا، فذهب عن صوب الصَّواب.

---

(١) «بها» سقط من (ك)، و(ف).

(٢) قرأ الكوفيون ونافع ﴿نُسَيِّرُ﴾ بالنون وكسر الياء، وباقي السبعة بالتاء وفتح الياء، و﴿ٱلْجِبَالَ﴾ بالنصب على الأولى والرفع على الثانية. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٤).

(٣) نسبت لابن محيصن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩).

﴿وَتَرَى ٱلْأَرْضَ بَارِزَةً﴾: ظاهـرةً ليـس عليها ما يسـترها من جبلٍ ولا شـجر[1] ولا بنيان.

وقرئ: (وتُرَى) على بناء المفعول[2].

﴿وَحَشَرْنَٰهُمْ﴾ الحشرُ: السَّوق من جهاتٍ مختلفة إلى مكانٍ واحدٍ، ومجيئه ماضيًا بعد ﴿نُسَيِّرُ﴾ و﴿وَتَرَى﴾ لتحقيق الحشر.

وقيل: للدِّلالة على أن حشرهم قبل التَّسيير ورؤيتِها بارزة؛ ليعاينوا ويشاهدوا ما وعد لهم، كأنَّه قيل: وحشرناهم قبل ذلك، فلا حاجة إلى جعل الواو للحال بإضمار (قد)، بل لا وجه له، ويردُّه ما دلَّ على أنَّ ذلك قبل الحشر من الآيات، كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ ﴿١٣﴾ وَحُمِلَتِ ٱلْأَرْضُ وَٱلْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَٰحِدَةً﴾ [الحاقة: ١٣].

﴿فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ بالنُّون والياء[3]، يُقال: غادره: إذا تركه، ومنه الغدر[4]؛ لأنه ترك الوفاء، والغدير: ما غادره السَّيل.

* * *

(٤٨) - ﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَّقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍۭ ۚ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّن نَّجْعَلَ لَكُم مَّوْعِدًا﴾.

﴿وَعُرِضُوا۟ عَلَىٰ رَبِّكَ﴾ شُبِّهَتْ حالهم بحال الجند المعروضين على السُّلطان، ولا

---

(١) في (ك): «ولا من شجر».

(٢) نسبت لعيسى. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩).

(٣) قرأ بالنون الجمهور، وبالياء عاصم في غير المشهور عنه. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠).

(٤) في (ف): «الغدرة».

حاجة إلى ما قيل: لا ليعرفهم، بل ليأمرَ فيهم[١]، إنَّما الحاجة إليه إذا شُبِّهَتْ حاله تعالى بحال السُّلطان المعروض عليه جندُه.

﴿صَفًّا﴾ مفردٌ ينزَّل منزلة الجمع؛ أي: صفوفاً؛ لِـمَا ورد في الحديث الصحيح: «يَجمع الله الأوَّلِيْنَ والآخرِيْنَ في صَعِيْدٍ واحدٍ صُفوفاً»[٢]. ومَن غفل عن هذا قال: مصطفِّين ولا يحجب أحدٌ أحداً.

﴿لَّقَدْ جِئْتُمُونَا﴾ معمولٌ لقولٍ محذوفٍ تقديرُه: وقلنا، وهو حالٌ، ولا يجوز أن يكون عاملاً في ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ﴾ لِـمَا عرفْتَ أنَّه قبل الحشر، وهذا القول بعدَه.

﴿كَمَا خَلَقْنَاكُمْ﴾ نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: مجيئاً مثلَ مجيء خلقكم.

﴿أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾؛ أي: «حفاةً عراةً غُرْلاً» ؛ كما ورد في الحديث[٣].

وقيل: عراةً لا شيء معكم من المال والولد؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ٩٤].

﴿بَلْ﴾ للإضراب بمعنى: الانتقال من كلام إلى كلام ليس بمعنى الإبطال.

﴿زَعَمْتُمْ أَلَّن﴾ (أنْ) مخففَّة من الثَّقيلة، وفُصل بينها وبين الفعل بحرف النفي كما فُصل في قوله: ﴿أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُ﴾ [القيامة: ٣].

---

(١) قوله: (ليعرفهم) مضارع عرف منصوب، أو مصدر من التعرُّف مجرور، بيان لأن العرض قد يكون لتعرّف السلطان جنده، وقد يكون لتنفيذ أمره، والمقصود التشبيه بالاعتبار الثاني. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ١٠٧).

(٢) رواه البخاري (٣٣٦١)، ومسلم (١٩٤)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) رواه البخاري (٣٣٤٩)، ومسلم (٢٨٦٠)، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿نَّجۡعَلَ لَكُم مَّوۡعِدٗا﴾: مكانَ وعدٍ أو[1] زمان وعد لإنجاز[2] ما وُعدتم على ألسنة الأنبياء عليهم السلام من البعث والنشور.

***

(٤٩) - ﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَٰوَيۡلَتَنَا مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةٗ وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحۡصَىٰهَاۚ وَوَجَدُواْ مَا عَمِلُواْ حَاضِرٗاۗ وَلَا يَظۡلِمُ رَبُّكَ أَحَدٗا﴾.

﴿وَوُضِعَ ٱلۡكِتَٰبُ﴾: صحائفُ الأعمال في الميزان، أو في أيدي العباد، واحدٌ أريد به الجمع؛ لأنَّه جنسٌ.

﴿فَتَرَى ٱلۡمُجۡرِمِينَ مُشۡفِقِينَ﴾ الإشفاق: الخوف من وقوع المكروه مع تجويز أن لا يقع.

﴿مِمَّا فِيهِ﴾ من السَّيئات.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ الواو للحال: ﴿يَٰوَيۡلَتَنَا﴾ هذه لفظةُ مَن وَقعَ في شدَّةٍ.

والويل: الـهُلْك، والنِّداءُ لمن يحضر لهم، كأنَّهم قالوا: يا مَن بحضرتنا انظروا هلكتَنا.

﴿مَالِ هَٰذَا ٱلۡكِتَٰبِ﴾ (ما) استفهاميَّة مبتدأ، و(لِ هذا) في موضع الخبر، تقديره: أيُّ شيء لهذا الكتاب؟ تعجيبٌ لشأنه.

---

(١) في (م): «و».

(٢) قوله «لإنجاز» تحرف في النسخ إلى: «لا يجاوز»، والتصويب من «الكشاف» (٢/ ٧٢٦)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٨٣).

﴿لَا يُغَادِرُ﴾ جملةٌ حاليَّة ﴿صَغِيرَةً﴾: سيِّئةً صغيرةً، قدَّمها لأنها أدخلُ في التَّعجيب ﴿وَلَا كَبِيرَةً﴾ يعني: لا يترك شيئاً من المعاصي.

﴿إِلَّآ أَحْصَىٰهَا﴾ الإحصاء هنا كنايةٌ عن الضَّبط والحفظ، وإسناده إلى حفظ الكتاب مجازٌ.

﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟﴾ من خيرٍ وشرٍّ ﴿حَاضِرًا﴾: موجوداً[1] في الخارج، على ما دلَّ عليه قوله: ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ ٱلنَّاسُ أَشْتَاتًا لِّيُرَوْا۟ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [الزلزلة: ٦]، لا بوجوده[2] في الكتابة؛ لأنَّه إعادةٌ[3] للمعنى السابق.

﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ بإحضارِ ما لم يعملوا، ولا بعدمِ إحضار[4] بعضِ ما عملوا.

* * *

(٥٠) ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾ لَمَّا بيَّنَ حالَ المغرور بالدُّنيا، وكانَ السَّببُ تسويلَ الشَّيطان، زهَّدهم أوَّلاً في زخارفها، ثمَّ نفَّرهم عن الشَّيطان بتذكير[5] ما بينهم من العداوة القديمة.

---

(١) في (م): «موجودة»، وفي (ف): «بوجود».

(٢) في (ك): «موجود».

(٣) في (م): «أعاد».

(٤) في (ك): «ولا بإحضار».

(٥) في (ف): «بتذكر».

﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ﴾ استئنافٌ للتعليل، كأنَّه قيل: ما له لم يسجد؟ فقيل: كان من الجنِّ.

﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾: فخرج عن أمره تعالى بترك السُّجود، والفاءُ للتَّسبيب.

ومَن قال: هذا الكلامُ المعترِضُ تعمُّدٌ من الله تعالى لصيانة الملائكة عن وقوع شبهة في عصمتهم[1]. فقد سها حيث أساءَ في عبارة التَّعمُّد.

﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ﴾ الهمزة للإنكار والتَّعجُّب[2]، والفاء للعطف على مقدَّرٍ تقديره: أتعلمون[3] أنه عدوُّ الله تعالى وعدوُّ أبيكم فتتخذونه ﴿وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾: تستبدلونهم بي.

قال الشَّعبيُّ: سألني رجل فقال: هل لإبليس زوجة؟ فقلْتُ: إنَّ ذلك عرسٌ لم أشهده، ثمَّ ذكرْتُ قولَه: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾، فعلمْتُ أنَّه لا يكون ذريَّةٌ إلَّا من زوجة، فقلْتُ: نعم[4].

﴿وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ﴾ ولم يقل: أعداءٌ، في مقابَلة ﴿أَوْلِيَآءَ﴾؛ إنباءً عن اتِّحادهم في أمر العداوة، وشدَّة اتفاقهم على ذلك.

﴿بِئْسَ لِلظَّـٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ من الله تعالى إبليسُ وذريَّتُه.

* * *

(١) القائل هو الزمخشري في «الكشاف» (٢/ ٧٢٧). ووقع في النسخ: «بصيانة الملائكة».

(٢) لو قال: «للتعجيب» لكان أولى. انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٢٧)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٨١).

(٣) «أتعلمون» زيادة: في (م).

(٤) روى نحوه ابن الجوزي في «أخبار الظراف» (٥٤).

(٥١) ـ ﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾.

﴿مَّآ أَشْهَدتُّهُمْ﴾ وقرئ: (ما أشهدناهم)[(١)].

﴿خَلْقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: [و] لا أشهدْتُ[(٢)] بعضَهم خلقَ بعضٍ، كقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٢٩]، ففي إحضار إبليس وذريَّتِه خلقَ السَّماوات والأرض وإحضارِ بعضهم خلقَ بعضٍ توطئةٌ لنفي الاعتضاد، والذي[(٣)] ذكره بقوله:

﴿وَمَا كُنتُ مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾؛ يعني: ما كنْتُ متَّخذُهم ﴿عَضُدًا﴾؛ أي: أعواناً.

فوُضع ﴿ٱلْمُضِلِّينَ﴾ موضعَ الضَّمير ذمًّا لهم بالإضلال واستبعاداً للاعتضاد[(٤)] بهم، فإذا لم يكونوا عضداً لي في الخلق، فما لكم تتخذونهم شركاءَ لي في العبادة؟!

وقيل: الضَّمير للمشركين، والمعنى: ما أشهدتُهم خلقَ ذلك؛ أي: لم أستعنْ بهم وبرأيهم، وما أوقفتُهم على أسرار ملكي، فلا فضيلة[(٥)] لهم دون غيرهم، حتى لو آمنوا تبعهم النَّاس كما يزعمون، فلا تلتفت إلى قولهم طمعاً في نصرتهم للدِّين؛ فإنَّه لا ينبغي لي أن اعتضد بالمضلِّين لديني.

---

(١) نسبت ليزيد بن القعقاع وعون العقيلي والسجستاني. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٩).

(٢) ما بين معكوفتين من «الكشاف» (٢/ ٧٢٨)، وكلمة «لا» من (ك) و(م).

(٣) في (ك): «الذي».

(٤) في النسخ: «الاعتضاد»، والمثبت من «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٧٤).

(٥) «فلا فضيلة» من (م).

ويعضده قراءة: ﴿وما كنْتَ﴾[١] على خطاب الرَّسول عليه السلام.

ويجوز أن يقال: فيه ردٌّ لأرباب التَّنجيم وأصحاب الهيئة والمتبحِّرين في علم الطِّب[٢].

وقرئ: ﴿مُتَّخِذَ ٱلْمُضِلِّينَ﴾ على الأصل، و: (عَضْداً) بالتَّخفيف، و: (عُضُداً) بالإتْباع، و: (عَضَداً) كخَدَمٍ[٣]: جمع عاضد، مِن عضده: إذا قوَّاه، والأصل فيه: عَضُدُ اليد، ثم وُضع موضع العون والتَّقوية؛ لأنَّ اليد قوامُها العَضُدُ، وإنَّما أُوقع الواحد موقعَ الجمع؛ لأنَّه في سياق النَّفي أبلغ.

***

(٥٢) ـ ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم مَّوْبِقًا ﴾.

﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ ﴾؛ أي: للكفَّار؛ وقرئ بالنُّون[٤]، وإنَّما لم يقل: (شركاءنا) على هذه القراءة[٥] لأنَّ المقامَ مقامُ إظهار التَّوحيد.

﴿نَادُوا۟ شُرَكَآءِىَ﴾ في عبادتكم ﴿ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ﴾ أنَّهم شفعاؤكم؛ ليمنعوكم من عذابي.

---

(١) قرأ بها أبو جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣١١).

(٢) بياض في (ف)، وسقط من (ك)، والمثبت من (م).

(٣) انظر هذه القراءات في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠)، و«الكشاف» (٢/ ٧٢٨)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٨٤)، وعنه نقل المؤلف.

(٤) قرأ بها حمزة. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٤).

(٥) «على هذه القراءة» زيادة من (م).

﴿فَدَعَوْهُمْ﴾ فنادوهم للإعانة ﴿فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ﴾: فلم يغيثوهم[(١)].

﴿وَجَعَلْنَا بَيْنَهُم﴾ بين الدَّاعين والمدعوِّين ﴿مَّوْبِقًا﴾: حاجزاً؛ لقوله: ﴿فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ﴾ [يونس: ٢٨].

قال ابن الأعرابيِّ: كلُّ شيء حاجزٍ بين شيئين فهو مَوْبِقٌ.

أو: جعلنا تواصلهم في الدُّنيا مهْلِكاً في الآخرة. قاله الفراء[(٢)].

يقال: وَبَقَ يَبِقُ وُبُوقاً، ووَبِقَ يَوْبَقُ وَبَقاً[(٣)]: إذا هلك، والموبِقُ: اسمُ مكانٍ أو مصدرٌ.

* * *

(٥٣) ـ ﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا﴾.

﴿وَرَءَا الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾: رأوها مِن مكانٍ بعيدٍ فظنُّوا أنَّها تأخذهم في الحال، وفي الخبر: «إنَّ الكافرَ يرى جهنَّم ويَظنُّ أنَّها مواقِعَتُه مِنْ مسيرةِ أربعينَ سنةً»[(٤)].

والمواقعةُ: ملابسةُ الشَّيءِ بشدَّة، ومنه: وقائع الحروب[(٥)].

---

(١) وفي: (ك): «فلم يعينوهم». وفي (ف): «فلم يستغيثوهم».

(٢) انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٤٧).

(٣) في النسخ: «وبوقاً»، والمثبت من «الصحاح» (مادة: وبق).

(٤) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١١٧١٤)، وأبو يعلى في «مسنده» (١٣٨٤)، ونحوه عند الحاكم في «المستدرك» (٨٧٦٦) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. وصححه الحاكم، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٣٦): وإسناده حسن على ما فيه من ضعف.

ويشهد له ما رواه ابن حبان في «صحيحه» (٧٣٥٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بإسناد حسن.

(٥) في (ف): «الحرب».

﴿وَلَمْ يَجِدُواْ عَنْهَا مَصْرِفًا﴾: انصرافاً، أو: مكاناً ينصرفون إليه.

* * *

(٥٤) ـ ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾.

﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍۚ﴾: من كلِّ نوعٍ من أنواع المعاني الغريبة. وتصريفُه: تنقيله في وجوه البيان على تمكين الأفهام.

﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾: أكثرَ الأشياء التي يتأتَّى منها الجدال.

والجَدْلُ[1]: شدَّة الفَتْل من المذهب[2] بطريقِ الحِجاجِ، ولا يلزم أن يكون بالباطل، ولذلك احتيجَ إلى التَّقييد به في قوله تعالى: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [الكهف: ٥٦].

وانتصابه على التَّمييز.

* * *

(٥٥) ـ ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ قُبُلًا﴾.

﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ﴾: من الإيمان[3] ﴿إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾: الرَّسولُ أو القرآن ﴿وَيَسْتَغْفِرُواْ رَبَّهُمْ﴾: ومن الاستغفار عن الذُّنوب.

---

(١) في (ك) و(م): «والجدال»، والصواب المثبت. انظر: «تهذيب اللغة» (١٠/ ٣٤٢)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ١٦٦).

(٢) «من المذهب» من (م).

(٣) أي: وما منع الناس من أن يؤمنوا، فـ﴿أن﴾ مصدرية مقدر قبلها حرف الجر: من.

﴿إِلَّآ﴾ تقديرُ أو طلبُ ﴿أَن تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾: وهو الاستئصال، فحذف المضاف وأُقِيْمَ المضافُ إليه مقامَه.

﴿أَوْ يَأْتِيَهُمُ ٱلْعَذَابُ﴾: عذاب الآخرة.

﴿قِبَلاً﴾ بكسر القاف وفتح الباء: عياناً، وقرئ بضمهما[1]، وهو لغة فيه، أو جمع قبيل بمعنى: ضُروب، وقرئ بفتحتين، وهو أيضاً لغة[2]، وانتصابه على الحال من أحد المفعولين.

***

(٥٦) - ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا﴾.

﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ بالثَّواب والعقاب، للمطيعين والعاصين.

﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ﴾: باقتراح الآيات بعد ظهور المعجزات، وإنكارِ كون البشر رسلاً[3] من الله تعالى.

﴿لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ﴾: ليزيلوا بالجدل ﴿ٱلْحَقَّ﴾ عن مقرِّه ويُبطلوه، من إدحاض القدم وهو إزلاقها[4].

﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى﴾؛ يعني: القرآنَ ﴿وَمَآ أُنذِرُوا۟﴾: والذي أُنذروه من العقاب، أو: إنذارهم.

---

(١) قرأ الكوفيون بضمتين، وباقي السبعة بكسر القاف وفتح الباء. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٤).

(٢) انظر: «غريب القرآن» لابن قتيبة (ص: ٢٦٩)، و«الكشاف» (٢/ ٧٢٩).

(٣) في (ف) و(م): «رسولاً».

(٤) في (م): «الندم وهو إزلاقها»، وفي (ف): «العدم وهو إذلاقها»، وفي (ك): «القدم وهو انزلاقها»، والصواب المثبت. انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٢٩)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٨٥).

﴿هُزُوًا﴾: استهزاء، وقرئ بالسُّكون[١]، وهو ما يُستهزء به.

* * *

(٥٧) ـ ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِىَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا ۖ وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا﴾.

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن ذُكِّرَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ﴾: بالقرآن.

﴿فَأَعْرَضَ عَنْهَا﴾: فلم يتذكر حين ذُكِّرَ ولم يتدبَّر.

﴿وَنَسِىَ﴾ عاقبةَ ﴿مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ﴾؛ أي: لم يتذكَّر ما يترتَّب على فعله من العذاب.

والتَّعبير عن عدم التَّذكُّر[٢] بالنِّسيان للمبالغة، وإنما حَسُن التجوُّز عن الجملة باليدين لأنَّ المسْنَد[٣] ممَّا يُكسب، وهما أقوى آلته.

﴿إِنَّا جَعَلْنَا﴾ مرتبط بقولـه: ﴿وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ على أنَّه تعليل لإصرارهم علـى مـا كانوا عليه، ومـا بينهما من قولـه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ﴾إلخ جملةٌ معترضـةٌ في تقبيح حالهم.

﴿عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا﴾ قـد مـرَّ تفسـيرُه فـي سـورة بنـي إسرائيل.

﴿وَإِن تَدْعُهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ فَلَن يَهْتَدُوٓا۟﴾ فلا يكون منهم اهتداء البتَّة لشدَّة تصميمهم.

﴿إِذًا أَبَدًا﴾ مـدَّةَ التَّكليفِ كلِّها، و﴿إِذًا﴾ جزاءٌ وجوابٌ للرَّسـول عليه السـلام،

---

(١) قرأ بها حمزة عند الوقف، وكذا في الوصل لكن مع إبدال الواو همزاً. انظر: «التيسير» (ص: ٧٤).

(٢) في النسخ: «التذكير»، والصواب المثبت. وسقطت «عدم» من (ف) و(ك).

(٣) في (ف): «السند».

على تقدير قوله: ما لي لا أدعوهم[1]؟ فإنَّ حرصه عليه السلام على إسلامهم يدلُّ عليه.

***

(٥٨) ـ ﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِ ۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾.

﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ﴾: البليغ المغفرة ﴿ذُو ٱلرَّحْمَةِ ﴾: الموصوف بالرَّحمة.

ثم استشهد على ذلك بإمهال أهل مكَّة مع إفراطهم في عداوة الرسول عليه السلام، فقال:

﴿لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُوا۟ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَ ﴾ في الدُّنيا.

﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ ﴾ وهو يوم القيامة، أو يوم بدر.

﴿لَّن يَجِدُوا۟ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلًا ﴾: منجاً ولا ملجأً، يقال: وأَلَ: إذا نجا، [و]وأَلَ إليه: إذا التجأ إليه.

***

(٥٩) ـ ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ أَهْلَكْنَٰهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا۟ وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِم مَّوْعِدًا ﴾.

﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ يريد: قرى الأوَّلين من ثمودَ وعادٍ وقوم لوط وأضرابهم، إشعارٌ لهم إليها ليعتبروا.

و﴿وَتِلْكَ ﴾ مبتدأ، و﴿ٱلْقُرَىٰٓ ﴾ صفةٌ أو عطفُ بيان، والخبر:

---

(١) في النسخ: «ما لي أدعوكم» والصواب المثبت. انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٣٠)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٨٥)، و«البحر» (١٤/ ٣١٢)، و«تفسير أبي السعود» (٥/ ٢٣٠)، و«روح المعاني» (١٥/ ٣٩٩).

﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ ويجوز أن تكون ﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ الخبر، و﴿أَهْلَكْنَٰهُمْ﴾ جملةٌ حاليَّة، كقوله تعالى: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ﴾ [النمل: ٥٢]، وأن تكون ﴿وَتِلْكَ ٱلْقُرَىٰٓ﴾ نصباً بإضمار: (أهلكنا) على شريطة التَّفسير.

و﴿ٱلْقُرَىٰٓ﴾ مجازٌ عن أهلها، وذلك خير من تقدير المضاف، ولا بدَّ من أحدهما؛ ليكون مرجع الضمائر.

﴿لَمَّا ظَلَمُوا۟﴾ مثلَ ظلم أهلِ مكَّة[1]، وفيه إشعارٌ بعلَّةِ الإهلاك تحذيراً منها، وبهذا استدلَّ ابنُ عصفور على حرفيَّة (لمَّا)، وأنها ليست بمعنى (حين)؛ لأنَّ الظَّرف لا دلالة فيه على العلَّة[2].

وإنَّما تُرك مفعول ﴿ظَلَمُوا۟﴾ تنزيلاً له منزلة اللَّازم؛ ليذهبَ الوهمُ كلَّ مذهبٍ.

﴿وَجَعَلْنَا﴾: وضربْنا ﴿لِمُهْلَكِهِم﴾ المُهْلَك بضم الميم وفتح اللَّام: الإهلاك.

﴿مَّوْعِدًا﴾: وقتاً معلوماً لا يتأخَّرون عنه، كما ضربنا لأهل مكَّة يوم بدر.

وقرئ بفتح الميم واللَّامُ مفتوحةٌ أو مكسورة[3]؛ أي: لهلاكهم.

* * *

(٦٠) ـ ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾.

---

(١) في (م): «مثل ظلم مكة».

(٢) انظر: «البحر المحيط» (١٤/ ٣١٣)، و«الجنى الداني في حروف المعاني» لبدر الدين المرادي (ص: ٥٩٥).

(٣) قرأ أبو بكر بفتح الميم واللام، وحفص بفتح الميم وكسر اللام، وباقي السبعة بضم الميم وفتح اللام. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٤).

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ﴾ مقدَّر بـ: اذكُر[١].

﴿لِفَتَىٰهُ﴾ هو[٢] يوشع بن نون، ابنُ أخت موسى عليه السلام، وإنَّما قيل: (فتاه)؛ لأنَّه كان يخدمه ويتبعه، وقيل: كان يأخذ منه العلم، والعرب تسمِّي التِّلميذ فتًى وإن كان شيخاً.

﴿لَآ أَبْرَحُ﴾: لا أزال أسير، فحذف الخبر لدلالة حالهِ ـ وهو السَّفر ـ وقولهِ: ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ من حيث إنها غاية مضروبة تستدعي ما هي غاية له.

ويجوز أن يكون الخبر ﴿حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ﴾ على أن يكون أصل الكلام: لا يَبرح مسيري[٣]، فينقلب الضَّمير والفعل بحذف المضاف وإقامة المضاف إليه مقامه.

وأن يكون[٤] المعنى: لا أبرح ما أنا عليه؛ يعني: ألزمُ المسيرَ والطَّلبَ ولا أتركه ولا أفارقه حتى أبلغَ، كما تقول: لا أبرح المكانَ، فلا يستدعي الخبرَ.

و﴿مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾: ملتقاهما، وهما: الكُرُّ والرَّسُّ بأرمينية. قاله السُّديُّ[٥].

وقيل: بحرا فارس والرُّوم. ويَرِدُ عليه: أنهما لا يلتقيان، ولا يقرب أحدهما من الآخر.

---

(١) في (ك) و(م): «مقدر بالذكر».

(٢) في (ك) و(م): «وهو».

(٣) في (ف): «مسير»، وفي (م): «فسيرى»، وفي هامشها: «لعلها: مسيري».

(٤) أي: (ويجوز أن يكون) كما هي عبارة الزمخشري. انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٣١).

(٥) رواه ابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٤٢٣)، وذكره أبو العباس القرطبي في «المفهم» (٦/ ١٩٥)، وتلميذه القرطبي المفسر في «تفسيره» (١٣/ ٣١٦)، وتحرفت (الرس) في النسخ إلى: «الراس»، والمثبت من المصادر. وانظر: «معجم البلدان» (٣/ ٤٤).

وفي «التَّيسير»[1]: كان البحرُ الذي[2] يعملون فيه أصحابُ السَّفينة ما بين بحر فارس إلى بحر الروم.

وإذ لا اتِّصال بينهما فلا صحَّة لهذا الكلام أيضاً.

ولعل (فارس)[3] محرَّف من: فاس، وهي بالمغرب[4] حاضرةُ البحر، من أجلِّ المدن القديمة، ويعضده ما قاله محمَّد بن كعب: إنَّ مجمعَ البحرين عند طنجة[5]، وما قاله أبيُّ بن كعب: إنَّه بإفريقية[6].

وقول الخضر لموسى عليهما السلام حين سلَّم عليه: «وأنَّى بأرضك السَّلام»[7] يدلُّ على أنَّ ملاقاتهما لم تكن بين بحر فارس والرُّوم؛ لأنَّ تلك الأرض أرضُ بني إسرائيل وما يقرب منها، وهي منشأ السَّلام[8] ومعدن الإسلام.

وقرئ: (مَجْمِعَ) بكسر الميم[9].

قال الجوهري: الموضع مَجْمَعٌ ومَجْمِعٌ؛ كمَطْلَعٍ ومَطْلِعٍ[10].

---

(١) «التيسير في التفسير» لنجم الدين، أبي حفص: عمر بن محمد النسفي الحنفي، المتوفى بسمرقند سنة (٥٣٧). انظر: «كشف الظنون» (١/ ٥١٩).

(٢) في (ف): «كان الذين».

(٣) في (ك): «بحر فارس».

(٤) في (ك) و(م): «بالغرب».

(٥) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٠٩).

(٦) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣١٦).

(٧) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٨) في (م): «الإسلام».

(٩) نسبت لعبد الله بن عبيد بن مسلم بن يسار. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠).

(١٠) انظر: «الصحاح» (مادة: جمع).

﴿أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا﴾ الحُقُبُ: الدَّهر، وقيل: ثمانون سنة، وقيل: تسعون؛ أي: أسير زماناً طويلاً، والمعنى: حتى بلوغ المجمع ومُضيِّ الحُقب.

روي في «الصحيحين»: أنَّ موسى عليه السلام قام خطيباً في بني إسرائيل، فسئل: أيُّ النَّاس أعلم؟ فقال: أنا، فعتب اللهُ عليه إذ لم يردَّ العلم إليه، فأوحى إليه: إن لي عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك. فقال موسى: يا ربِّ، وكيف لي به؟ قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مِكْتَلٍ، فحيثما فقَدْتَ الحوت فهو ثَمَّ، فأخذ حوتاً فجعله في مكتل ثمَّ انطلق، وانطلق معه فتاه يوشَعُ بنُ نونٍ، حتى إذا أتيا الصَّخرة وضعا رؤوسهما فناما، واضطرب الحوت في المكتل فخرج منه، فسقط في البحر[1].

قيل: اضطراب الحوتِ كان بعد ما استيقظَ يوشع عليه السَّلام، وتوضَّأ من عين الحياة، فانتضح الماء عليه، فعاش ووثب في الماء[2].

***

(٦١) ـ ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا﴾.

﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾؛ أي: مجمع البحرين، و(بين): ظرف أضيف إليه على الإتباع.

﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ [أي: نسيا] تفقُّدَ أمره وما يكون منه [مما جعل] أمارةً على الظَّفر بالمطلوب[3].

---

(١) رواه بنحوه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) ورد نحو هذا ضمن رواية البخاري (٤٧٢٧)، وهي زيادة أنكرها الداودي كما في «فتح الباري» (٨/ ٤١٥)، وانظر كلامه ثمة.

(٣) انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٣٢)، وما بين معكوفتين منه.

ولا وجهَ لما قيل: نسيَ موسى عليه السلام أن يطلبه ويتعرَّفَ حالَه، ويوشعُ عليه السلام أن يذكر له ما رأى من حياته ووقوعه في البحر؛ لأنَّ هذا النِّسيان منه قبل ذلك، على ما دلَّ عليه قوله:

﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ﴾ الفاء فصيحة تُفصح عن مقدَّرٍ يدلُّ على حياة الحوت وسقوطه في البحر، على ما نقل فيما سبق.

﴿سَرَبًا﴾؛ أي: جَعَل سبيله في البحر كالسَّرب، وهو الثُّقب الذي يُدخل فيه فيُسلك منه إلى موضع، وفي الحديث المارِّ ذكره: «وأمسكَ اللهُ عن الحوت جِرْيَةَ الماءِ، فصار عليه مثل الطاق»[1].

وأمَّا السَّارب في قوله تعالى: ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ فبمعزَلٍ عن هذا؛ لأنَّه بمعنى الظَّاهر، صرَّح به الجوهري[2]، ودلَّ عليه بقوله: ﴿مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ﴾ [الرعد: ١٠] مقابَلته.

ونصبُه على المفعول الثَّاني، و﴿فِي ٱلْبَحْرِ﴾ حالٌ منه، أو من السَّبيل، ويجوز تعلقه بـ (اتخذ).

***

(٦٢) ـ ﴿فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾.

﴿فَلَمَّا جَاوَزَا﴾ مجمع البحرين، وفي الحديث المذكور: «فانطلقا بقيَّة يومهما وليلتهما حتى إذا كان من الغد».

﴿قَالَ﴾ موسى ﴿لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ ما نتغدَّى به.

---

(١) رواه البخاري (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) انظر: «الصحاح» (١/ ١٤٦) (مادة: سرب).

﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا﴾ قيل: لم ينصَبْ موسى عليه السلام في سفرٍ غيره، ويؤيِّده التَّقييد بقوله:

﴿هَٰذَا﴾ وقيل في الحديث المذكور: إنه عليه السَّلام لم ينصَبْ حتى جاوز الموعد.

﴿نَصَبًا﴾: تعباً وعناءً.

قيل: عنى هنا[1]: الجوع، ولا يخفى أنَّ الفعل وتعديتَه إنَّما يناسبان الأوَّل.

وجه الارتباط بين الكلامَيْن: أنَّ القعود للتغدِّي يتضمَّن الاستراحة، فكأنَّه قال: آتنا غداءنا حتى نتغدى ونستريح زماناً.

* * *

(٦٣) - ﴿قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾.

قال له فتاه: ﴿أَرَءَيْتَ﴾: أعلمْتَ ما دهاني[2] ﴿إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ﴾؛ أي: أقمنا عندها.

﴿فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ﴾؛ يعني: أَمْرَ ذكرِه، في مَعْرِضِ الاعتذار لِمَا جرى في الحوت من المعاهدة، وذلك[3] على ما ذكر في «صحيح البخاري»: أنَّ موسى عليه السلام قال له: لا أكلِّفُكَ إلَّا أنْ تخبرني بحيث يفارقك الحوت. فقال: ما كَلَّفْتَ كثيراً[4].

---

(١) في (ف): «عناؤه».

(٢) في (م): «دعاني».

(٣) في (ف): «وذكر».

(٤) رواه البخاري (٤٧٢٦) من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

﴿وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ﴾ بـدل مـن الضَّميـر؛ أي: ما أنسـاني ذكرَه إلَّا الشَّيطان.

وفي مصحف عبد الله: (وما أنسانيه أنْ أذكِّرَكَهُ[١] إلَّا الشَّيطان)[٢]؛ أي: وسوسني وشغلني بغيره حتى نسيْتُ، والحال وإن[٣] كانت لغرابتها أجلَّ من ذلك، إلَّا أنَّه لَمَّا اعتاد مشاهدة[٤] أمثالها عند موسى عليه السلام وألفها قلَّ اهتمامه بها، فهو اعتذار عن نسيانه.

﴿وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾؛ أي: اتِّخاذاً عجباً، والمفعول الثَّاني الظَّرف.

وإنَّما كان عجباً لخروجه من المكتل، وحياته بعد كونه مشويًّا أو مأكولاً بعضٌ منه، وإمساك جريةِ[٥] الماء عليه.

وقيل: سبيلاً عجباً.

وفيه: أنَّ أكثر العجائب ليس بحال السَّبيل، وأيضاً لو كان المعنى ذلك لقيل: واتخذ في البحر سبيلاً عجباً[٦].

وهو من كلام يوشع عليه السلام.

وقيل: قال موسى عليه السلام في جوابه: ﴿عَجَبًا﴾؛ أي: تعجُّباً.

---

(١) في النسخ: «أذكر له»، والمثبت من مصادر التخريج الآتية.

(٢) انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٣٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٢٩)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٣٢٦).

(٣) في (م): «والحال إن».

(٤) في (ف) و(ك): «بمشاهدة».

(٥) في (ك): «جري»، والمثبت هو الموافق لما تقدم قريباً في الحديث.

(٦) وفيه مناقشة ذكرها الشهاب في «الحاشية» (٦/ ١١٨).

وقيل: الفعل لموسى عليه السلام؛ أي: اتخذ موسى عليه السلام سبيل الحوت في البحر.

ويردُّهما تأخير ﴿قَالَ﴾ عنه.

* * *

(٦٤) - ﴿قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا﴾.

﴿قَالَ ذَٰلِكَ﴾ الإشارة إلى فَقْدِ الحوت؛ لما مرَّ في الحديث أنَّه قيل: «فحيثما فقدْتَ[1] الحوت فهو ثمَّة».

﴿مَا كُنَّا نَبْغِ﴾ تقديره: نبغيه؛ أي: نطلبُه؛ لأنَّه أمارة المطلوب.

﴿فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا﴾؛ أي: على طريقهما الذي جاءا منه.

﴿قَصَصًا﴾: اتِّباعاً لذلك الأمر، فانتصَب على المصدريَّة بإضمار (يقصَّان)، على ما أفصح عنه النَّبيُّ ﷺ في الحديثِ المارِّ ذكرُه حيث قال في تفسيره: «فرجعا يقصَّان آثارَهما حتى انتهيا إلى الصَّخرة، فإذا رجل مسجًّى ثوباً، فسلَّم عليه موسى، فقال الخَضِرُ: وأنَّى بأرضِكَ السَّلام؟ فقال: أنا موسى، قال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، أتيتُكَ لتعلِّمني ممَّا عُلِّمْتَ[2] رُشْداً»[3].

* * *

(٦٥) - ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾.

﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ هذه إضافة تشريفٍ واختصاصٍ، وهو الخَضِرُ، اسمه

---

(١) في (ك): «فقد».

(٢) في (ف): «علمته».

(٣) رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

إيليا، شهد بذلك الحديث المذكور[١]، واتَّفق عليه الجمهور، وروى الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّما سمِّيَ الخَضِرُ خَضِراً لأنَّه جلسَ على فروةٍ بيضاءَ فاهتزَّتْ تحتَه خضراء»[٢]، والفروة هنا: وجه الأرض. قاله الخطَّابيُّ[٣].

﴿ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا﴾ الرَّحمة هنا: النُّبوَّة[٤]، كما في قوله: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف: ٣٢].

﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا﴾ ممَّا يَختصُّ بنا، ولا يُعلَم إلَّا بتوفيقنا، وقد مرَّ ما يتعلَّق بـ (لدن) في (آل عمران).

﴿عِلْمًا﴾: هو علم الغيوب.

* * *

(٦٦) - ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾.

﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ﴾ على هذه المصلحة.

بدأ بالاستفهام والاستئذان، ووصف نفسه بالاتِّباع، ومدحَه بالعلم، وأظهر الرَّغبة فيما عنده من العلم، وهذا غاية التَّواضع من موسى عليه السلام، وتعليمٌ لِمَن طلبَ العلم من غيره، ولا يناسِبُهُ تقدير الشَّرط على أن يكون المعنى: على شرط أن تعلِّمَني.

---

(١) يعني بأن اسمه الخضر، رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه.

(٢) رواه الترمذي (٣١٥١)، وهو عند البخاري (٣٤٠٢).

(٣) انظر: «أعلام الحديث» للخطابي (٣/ ١٥٥٣).

(٤) في (ف) و(م): «الرحمة هنا الرحمة والنبوة».

﴿مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا﴾: علماً ذا رشد، وهو إصابة[١] الخير. وقرئ بفتحتين[٢]، وهما لغتان كالبُخْل والبَخَل.

وهو مفعول ﴿تُعَلِّمَنِ﴾، أو مصدر في موضع الحال، وذو الحال الضَّمير في ﴿أَتَّبِعُكَ﴾، ومفعول ﴿عُلِّمْتَ﴾ العائد المحذوف، وكلاهما منقولان من (عَلِم) الذي له مفعول واحد، ويجوز أن يكون علَّةً لـ ﴿أَتَّبِعُكَ﴾.

وكون موسى عليه السلام صاحبَ شريعة لا ينافي أن يتعلَّم من غيره ما لا حاجةَ إليه في شريعته.

* * *

(٦٧) ـ ﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾.

﴿قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ أراد نفي الصَّبر معه، إلَّا أنَّه بالغَ فيه حيث نفى استطاعته على أبلغِ وجهٍ وآكَدِه كأنَّه لا يصحُّ ولا يستقيم، دلَّ على ذلك قوله:

(٦٨) ـ ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾.

﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ﴾ والصَّبرُ: تجرُّع مرارة حبس النَّفس ومنعِها[٣] عمَّا تُنازِعُ إليه.

﴿عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا﴾؛ أي: إنَّ صبرك على ما لا خبرة لك به مستَبْعَدٌ، وهذا كالتَّعليل للنَّفي السَّابق، ومجيئُه بالواو شائع.

وفيه تدارُكٌ لِمَا عسى أنْ يُتوهَّم أنَّه نَسب إليه عليه السلام عدمَ التثبُّت.

---

(١) في (م): «وإصابة».

(٢) وهي قراءة أبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٤).

(٣) في النسخ: «ومنعه»، ولعل الصواب المثبت.

قيل: فيه إبداء [عُذرٍ] له[١]؛ حيث لا يمكنه الصَّبر لِمَا يرى من المناكير؛ لأنَّ الأنبياء عليهم السلام لا يجوز لهم السُّكوت عند ذلك.

وفيه: أن ثالثها ليس بمنكَرٍ شرعاً ولا عقلاً، وأيضاً قد عرفْتَ أنَّ المنفيَّ نفسُ الصَّبر معه؛ لا استطاعتُه.

و﴿خُبۡرٗا﴾ تمييزٌ، أو مصدر على غير الصدر[٢]؛ لأنَّ ﴿لَمۡ تُحِطۡ﴾ بمعنى: لم تَخْبَره، والخبير بالأمور هو العالم بخفاياها وما يُختبَرُ منها.

* * *

(٦٩) ـ ﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾.

﴿قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا﴾ معكَ، غيرَ منكِرٍ عليك.

وتعليق الوعد بالمشيئة للاستثناء، ولا بُدَّ منه صوناً للوعد عن الخُلف؛ فإنَّه لا يجوز خصوصاً في حقِّ الأنبياء عليهم السلام.

﴿وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا﴾ عطف على ﴿صَابِرٗا﴾؛ أي: صابراً وغيرَ عاصٍ، كقوله تعالى: ﴿صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَ﴾ [الملك: ١٩]؛ أي: وقابضاتٍ.

أو على ﴿سَتَجِدُنِيٓ﴾، فلا محل لها من الإعراب.

وفيه: أنَّه حينئذ لا يكون مقيَّداً بالمشيئة، ولا بُدَّ منه[٣] كيلا يلزمَ الخلف المذموم، حيث وعد أنْ لا يعصيَ له في أمرٍ، وقد أمره بترك السُّؤال، ولم يُطعه[٤] فيه.

---

(١) في النسخ: «فيه إبداله»، وما بين معكوفتين زيادة من «البحر المحيط» (١٤/ ٣٣٠).

(٢) في النسخ: «المصدر»، والصواب المثبت. انظر: «البحر» (١٤/ ٣٣١).

(٣) أي: ولا بد من التقييد بالمشيئة.

(٤) في (ف) و(م): «تعطه»، وقال في هامش (م): «لعله يطعه»، وفي (ك): «يعظه».

وإنَّما قلنا: فلا محل له من الإعراب مع أنَّه مَقول القول على هذا الوجه؛ لأنَّه لا تأثير للعامل في المعنى، وإنَّما أثره حينئذ مجرَّد اللَّفظ، والجملة هناك ليست واقعة موقع المفرد ليكتَسيَ حكمه محلًّا.

وهذا تواضع آخر من موسى عليه السلام بعد تمنُّعٍ كان من الخَضِر عليه السلام، ثم يحكم عليه بوجهٍ آخر على ما أفصح عنه قولُه:

(٧٠) ـ ﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى عَن شَىْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴾.

﴿ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعْتَنِى فَلَا تَسْـَٔلْنِى ﴾ وقرئ بالنُّون الثَّقيلة[1].

﴿عَن شَىْءٍ﴾ أنكرتَهُ منِّي ولم تعلم وجهَ صحَّته.

﴿حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ حتى أنبِّئَكَ ببيانه.

وهذا من الخضر عليه السلام تأديبٌ وإرشادٌ، ولو صبرَ ودأبَ لرأى العجبَ، لكنَّه أكثرَ من الاعتراض، فتعيَّن الفراق والإعراض[2].

* * *

(٧١) ـ ﴿ فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِى ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَا ۖ قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا ﴾.

﴿ فَٱنطَلَقَا ﴾؛ أي: انطلق موسى والخضر عليهما السلام، وأمَّا يوشع عليه السلام فقد صرفه موسى عليه السلام وردَّه إلى بني إسرائيل، وفي الحديث السابق ذكرُه: «فانطلقا يمشيان على ساحل البحر»، وفي الحديث المذكور:

---

(١) وهي قراءة نافع وابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٤).

(٢) في (ف): «والاعتراض».

«فمـرَّتْ سـفينة فكلَّموهم أن يحملوهم، فعرفـوا الخضر فحملوهمـا[١] بغير نول».

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾ (ركبَ) متعدٍّ، وإنَّما[٢] قيل: ﴿فِي ٱلسَّفِينَةِ﴾ إظهاراً لِمَا في ركوبها خاصَّة من بين المراكب من معنى الدُّخول.

﴿خَرَقَهَا﴾ قال عليه السلام في الحديث المذكور: «فلما ركبا في السَّفينة لم يفجأ إلا والخضر قد قلعَ لوحاً من السفينة بالقَدُومِ».

قال أبو العالية: لم يرَ الخضرَ حين خرق السَّفينة غيرُ موسى عليه السلام، وكان عبداً لا يَراهُ إلَّا مَن أرادَ الله أن يريه[٣]، ولو رآه القومُ حينئذٍ لمنعوه مِنْ خَرْقِ السَّفينة[٤].

﴿قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا﴾؛ أي: فعلْتَ ذلك وغرضُكَ إغراقُ أهلها.

وقرئ بالتَّشديد للتَّكثير[٥]، وقرئ بالياء ورفع ﴿أهلُها﴾[٦]؛ أي: فعلتَه لشيءٍ[٧] يُغرق أهلها، وقيل: إنها لام العاقبة، والأُولى أَولى في مقام الإنكار.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾: منكراً، مأخوذ من الأَمِر؛ لأنَّه الفاسد الذي يحتاج إلى

---

(١) في (ف): «فحملوهم»، وهو الموافق لرواية البخاري (٤٧٢٥). والمثبت من باقي النسخ وهو الموافق لما رواه البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠/ ١٧٠).

(٢) في (ف): «وأما».

(٣) في (ك): «يراه».

(٤) رواه ابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» للسيوطي (٥/ ٤٢٥)، وهو في «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٢٨).

(٥) نسبت للحسن وأبي رجاء. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠).

(٦) أي: ﴿ليَغْرقَ أهلُها﴾، وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٤).

(٧) في (ك): «أي فعلته شيء». وفي (م): «ما فعلته شيء».

أن يؤمَر بتركه، ومنه أَمِرَ القوم: إذا كثروا؛ أي: احتاجوا إلى مَن يأمرهم وينهاهم، ومنه الأمر من الأمور؛ أي: الشَّيء الذي من شأنه أن يؤمَر فيه، ولهذا لم يكن كلُّ شيء أمراً، ومن هنا[1] ظهر وجه إيثار ﴿شَيْـًٔا﴾ على (أمراً) مع ما فيه من صنعة الجناس.

ولو كان الأمر هنا بمعنى العظيم ـ كما قيل ـ لروعي حسنُ التناسب[2] لفظاً، وقيل: أمراً إمراً؛ لعدم المانع من جهة المعنى حينئذ.

***

(٧٢) ـ ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾.

﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ ظاهره تذكير للقول السابق، وباطنه تقرير لصعوبة الصَّبر معه، وإشارة إلى منكَر ارتكبه موسى عليه السلام، وهو عدم محافظته الوعد، فكأنَّه قصد المعارضة، ولهذا ضمَّنَ كلامه الاعتذار عن ذلك، على ما أفصح عنه قوله تعالى:

(٧٣) ـ ﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرْهِقْنِى مِنْ أَمْرِى عُسْرًا﴾.

﴿قَالَ لَا تُؤَاخِذْنِى بِمَا نَسِيتُ﴾ من أمري؛ أي: بسبب نسياني.

والمؤاخذة على ترك التَّحفُّظ لا على النِّسيان؛ لأنَّه غير مقدور، ولذلك لم يقل: على ما نسيْتُ، فكأنَّه قال: ما صدر عنِّي ما صدرَ إلَّا بسبب أمرٍ غير مقدور، وصيغة النَّهي كقرينها قد تجيء للالتماس، وهو المناسب للمقام.

﴿وَلَا تُرْهِقْنِى﴾ الإرهاقُ: إدراك الشَّيء ممَّا يغشاه، ومنه: غلام مراهق: إذا قارب أن يغشاه حالُ البلوغ.

---

(١) في (ك) و(م): «ههنا».

(٢) في (ف): «التأديب».

﴿مِنْ أَمْرِى﴾: هو اتِّباعُه إيَّاه.

﴿عُسْرًا﴾؛ أي: ولا تُغشني عُسْراً من أمري؛ يعني: ولا تعسِّر عليَّ متابعتَكَ بالمؤاخذة على ما صدرَ بسبب النِّسيان، ويسِّرها على الإغضاء.

و﴿عُسْرًا﴾ مفعولٌ ثانٍ لـ (ترهق)، وقرئ بضمَّتين[١].

* * *

(٧٤) ـ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا فَقَتَلَهُۥ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا﴾.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمًا﴾ وفي الحديث السَّابق ذكره: «ثم خرجا به من السَّفينة، فبينما هما يمشيان على السَّاحل إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده».

﴿فَقَتَلَهُۥ﴾ فما[٢] قيل: كان قتله بفتل عنقه، أو بضرب رأسه بالحائط، مردودٌ بنصِّ الحديث الصَّحيح، وكذا ما قيل: أضجعه فذبحه.

والفاء هنا للدلالة على عدم تراخي القتل عن لقاء الغلام، بخلاف خرق السفينة، فإنَّه لم يتعقَّب الرُّكوب كذلك فلم يذكر الفاء ثمَّة.

ولَمَّا كان القتلُ قتلَ معصوم ـ حقيقةً أو ظاهراً، على اختلافٍ في صغره ـ لم يتمالك[٣] أن يعترضَ، ولا دخلَ في ذلك لدلالة الفاء على عدم التَّروِّي والاستكشاف.

---

(١) قراءة أبي جعفر المدني. انظر: «النشر» (٢/ ٢١٦)، و«إتحاف الفضلاء» (ص: ١٨٥).

(٢) في (ك) و(م): «مما».

(٣) في (ك): «يتماسك». وفي (م): «يتملك».

﴿قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةً﴾ وقرئ: ﴿زاكية﴾[١].

قال الكسائي: هما لغتان، مثل ﴿قَاسِيَةً﴾ و﴿قسيَّة﴾[٢] [المائدة: ١٣].

وقال أبو عمرو: الزَّاكية التي لم تذنب قطُّ، والزَّكيَّة: التي أذنبت وتابت. ولذلك اختار الأولى[٣].

وهذا على ما قاله الجمهور: أنه كان صغيراً غيرَ بالغ.

وقال الحسن والكلبي: كان بالغاً يقطع الطَّريق، ويعضده:

﴿بِغَيْرِ نَفْسٍ﴾؛ أي: من غير أن قتلَتْ نفساً، يفهم منه أنه لو كان مِن[٤] قَتْلِ نفسٍ لم يكن به بأس، والظَّاهر منه كبر الغلام لأنَّ الصَّغير لا يُقاد، ولا تنبيه فيه على أنَّ القتل لا يُباح إلَّا حدًّا أو قصاصاً، كيف ولا صحَّة للحصر على ما نبَّهْتُ عليه في تفسير سورة الأنعام.

﴿لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾: منكراً، وقرئ بضمَّتين[٥].

اختلفوا أيَّما أبلغ ﴿إِمْرًا﴾ أو ﴿نُكْرًا﴾، فقيل: هنا القتل واقعٌ وهناك مترقَّب فـ ﴿نُكْرًا﴾ أبلغ.

وقيل: هذا [قتلُ واحدٍ وهناك] إهلاكُ جماعة فـ ﴿إِمْرًا﴾ أبلغ.

---

(١) في (ك) و(م): «زاكية، وقرئ: زكية». وقرأ الكوفيون وابن عامر بتشديد الياء من غير ألف، وباقي السبعة بالألف وتخفيف الياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٤).

(٢) قرأ حمزة والكسائي بتشديد الياء من غير ألف، وباقي السبعة بالألف وتخفيف الياء. انظر: «التيسير» (ص: ٩٩).

(٣) انظر: «حجة القراءات» لأبي زرعة (ص: ٤٢٤).

(٤) في «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٢) والكلام منه: (عن).

(٥) قرأ بها نافع وأبو بكر وابن ذكوان. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٤).

قال ابن عطيَّة: وعندي أنَّ ﴿إِمۡرًا﴾ أفظع وأهول من حيث هو متوقَّعٌ عظيمٌ، و﴿نُّكۡرًا﴾ أبينُ[١] في الفساد؛ لأن مكروهه قد وقع[٢].

ومَن غفل عن هذا قال: ولعلَّ تغيير النَّظم بأنْ جُعل خرقُها واعتراضُ موسى عليه السلام مستأنفاً، وفي الثَّانية جُعل قتله من جملة الشَّرط واعتراضُه جزاءً؛ لأنَّ القتل أقبح، والاعتراضَ عليه أَدْخَلُ، فكان جديراً بأنْ يُجعل عمدة الكلام[٣]. فالوجه في التَّغيير ما قد عرفتَه من أن تعقيب القتل للِّقاء دون الخرق للركوب اقتضى ذلك.

* * *

(٧٥) ـ ﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾.

﴿قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا﴾ في زيادة ﴿لَّكَ﴾ مشافهةٌ بالعتاب زجراً وإغلاظٌ ليس في الأوَّل؛ لأنَّ مُواقعةَ التَّساؤل في ثانيهِ بعد التَّقدُّم إلى ترك السُّؤال واعتذارٍ بالنِّسيان أقطع وأفظع في مخالفة ما كان أَخذ على نفسه من الصَّبر وعدم العصيان.

* * *

(٧٦) ـ ﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۢ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا﴾.

﴿قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۢ بَعۡدَهَا﴾: بعد هذه المرَّة، أو هذه المسألة.

---

(١) في (ف): «بين».

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٢)، وما بين معكوفتين منه.

(٣) انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٨٩).

﴿فَلَا تُصَاحِبْنِي﴾ وإن طلبت صحبتك، وقرئ: (فلا تُصْحِبْنِي)[1]، قال الكسائي: فلا تتركني أصحبك[2].

﴿قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾؛ أي: بلغْتَ مِن قِبَلي مبلغاً تُعذَر به في ترك مصاحبتي.

وعن رسول الله ﷺ: «رحم الله أخي موسى استحيى فقال ذلك، ولو لبث[3] مع صاحبه لأبصر أعجب الأعاجيب»[4].

وقرئ: ﴿لَدُنِي﴾ بتخفيف النون وضم الدال، وبالتخفيف والسكون وفتح اللَّام، وبضمِّ اللَّام وسكون الدَّال[5].

---

(١) نسبت للجحدري والنخعي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨١).

(٢) انظر: «النكت والعيون» (٣/ ٣٣٠)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٣٣).

(٣) في (م): «ثبت».

(٤) انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٣٦ ـ ٧٣٧)، ورواه أبو داود (٣٩٨٤)، والنسائي في «الكبرى» (١١٢٤٨)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وورد نحوه من حديث أُبيٍّ المتقدم عند البخاري (١٢٢)، ومسلم (٢٣٨٠)، ولفظ مسلم: «رحمة الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجَّل لرأى العجب، ولكنَّه أخذته من صاحبه ذمامة، ﴿قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾ [الكهف: ٧٦]، ولو صبر لرأى العجب».

(٥) قرأ نافع بضم الدال وتخفيف النون، وأبو بكر بإسكان الدال وإشمامها الضم وتخفيف النون، والباقون بضم الدال وتشديد النون. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٥). وقال أبو بكر بن مجاهد: (وروى أبو عبيد عن الكسائي عن أبي بكر عن عاصِم في كتاب القراءات: (لُدْني) بضم اللَّام وتسكين الدَّال وهو غلط). فقال أبو علي الفارسي: (يشبه أن يكون التغليط من أبي بكر أحمد في وجه الرواية، فأما من جهة اللغة ومقاييسها فهو صحيح). وذكرها الأزهري وقال: (هي لغة لبعض العرب، كان الضمة في الدال، فنقلت إلى اللام). انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص: ٣٩٦)، و«معاني القراءات» للأزهري (٢/ ١١٧)، و«الحجة» للفارسي (٥/ ١٦٢).

وقرئ: (عُذُراً) بضمَّتين[١].

***

(٧٧) ـ ﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا﴾.

﴿فَانطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ﴾: قرية[٢] بجزيرة الأندلس، روي ذلك عن أبي هريرة[٣]. وقيل: بالجزيرة الخضراء، وقيل: إنها برقة، وأما ما قيل: إنها أنطاكية، وما قيل: إنها أُبُلَّة[٤]، وبصرة، فمبناه على أن يكون أحد البحرين بحرَ فارسَ، وقد عرفتَ ما فيه.

وقيل: إنها باجروان أرمينية، وذلك على[٥] ما قيل: إنَّ البحرين بنهر الكرِّ والرسِّ[٦].

﴿ٱسۡتَطۡعَمَآ﴾ الاستطعام: سؤال الطَّعام[٧]، والمراد به هنا بقرينة آخر الكلام: سؤالُ الضِّيافة والقِرى.

﴿أَهۡلَهَا﴾ كرَّر ذكر الأهل تعظيماً لهم، ولأنَّ المراد من الأهل في الأوَّل:

---

(١) نسبت لعيسى. انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٣)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٣٣٧).

(٢) «قرية»: ليست في (ك) و(م).

(٣) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٣)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٣٤).

(٤) في (ك): «ايليا». وقد اختلفت المصادر فيها بين: (أَيْلة) و(الأُبُلة). انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٣٤).

(٥) «على» زيادة من (ك).

(٦) في (ك): «والراس»، وقد تقدم أنه تحريف.

(٧) في (ك): «للطعام».

البعض، كما هو المتبادِر المعتاد، والمراد به في الثَّاني: الكل، فكان المناسبُ إعادتَه باسمه الظَّاهر؛ لأنَّ الظَّاهر من الضَّمير عوده على ما ذكر أوَّلاً بعينه، وعن النبي ﷺ: «لئاماً[1]، فطافا في المجالس فاستَطعما»[2].

﴿فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾ وقرئ: (أن يُضِيفُوهما)[3]. يقال: ضافَه: إذا كان له ضيفاً، وأضافه وضيَّفه: أنزله وجعله ضيفَه، هذا حقيقة الكلام، ثم شاع الضِّيافة كنايةً عن القِرى والإطعام، وبهذا انطبق مقتضى المقام.

﴿فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ﴾ الانقضاض: السُّقوط بسرعة، وانقضَّ: انفعل، مطاوع قضَضْتُه، وقيل: افعلَّ من النَّقض، كاحمرَّ من الحمرة.

وقرئ: (أن يُنْقَضَ)[4]، و(أن ينقاصَ) بالصَّاد المهملة[5]، من انقاصَت السن: إذا انشقت طولاً، والإرادةُ مستعارة للمشارَفة كالهم والعزم.

﴿فَأَقَامَهُۥ﴾ ذكر في الحديث المارِّ ذكرُه «أنَّه قال بيده»؛ أي: أشار إليه بها، وهو الأشبه بسائر أفعاله.

---

(١) في (ك): «لئام»، والمثبت موافق لرواية مسلم.

(٢) هو إحدى روايات حديث أبي بن كعب السابق الذي ساق المصنف أطرافاً منه، رواها مسلم (٢٣٨٠).

(٣) نسبت لابن الزبير وأبي رزين وأبي رجاء وسعيد بن جبير. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨١).

(٤) بلا نسبة في «المحتسب» (٢/ ٣١)، ونسبت لأبي بن كعب في «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٣٤)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٣٣٩).

(٥) نسبت لابن مسعود رضي الله عنه، وكذا: (ينقاض) بالضاد المعجمة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨١).

﴿قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَّخَذْتَ﴾ افْتَعَل من تَخِذَ، كاتَّبع من تَبِع، وليس من الأخذ عند البصريين، وقرئ: ﴿لتَخِذْتَ﴾[1]؛ أي: لأخذْتَ، واختلفوا في إظهار الذَّال وإدغامها[2].

﴿عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ كانت الحالُ حالَ اضطرار وافتقار إلى المَطعم، وقد أَلزمتهما[3] الحاجة إلى آخر كسب المرء، وهو المسألة، فلم يجدا مواسياً، فلمَّا أقام الجدار لم يتمالك موسى عليه السلام لِمَا رأى مِنَ الحِرْمان ومساس الحاجة أن قال ذلك، وبما قرَّرناه تبيَّن وجه تقديم استطعامهما عن أهل القرية وإبائهم[4] التضييف.

* * *

(٧٨) - ﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ﴾؛ أي: هذا الاعتراضُ الأخير سببُ فراقنا بحكم ما شرطْتَ على نفسك.

وإضافة الفراق إلى البَيْن إضافةُ المصدر إلى الظَّرف على الاتِّساع، وقرئ على الأصل[5].

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٥).

(٢) أظهرها ابن كثير وحفص، وأدغمها باقي السبعة. انظر: «التيسير» (ص: ٤٤).

(٣) في (ف): «لزمتهما»، وفي (ك) و(م): «لزمتها». والصواب المثبت.

(٤) زاد في (ك): «عن».

(٥) أي: (فراقٌ بيني وبينَك)، ونسبت لابن أبي عبلة. انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٤٠)، و«زاد المسير» (٥/ ١٧٨)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٣٤٢).

وتكريرُه بالإضافة إلى أحدهما مرَّة، وإلى الآخر أخرى مع كفاية: بيننا؛ لمعنى التَّأكيد. قاله سيبويه[١].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: كان قول موسى عليه السلام في السَّفينة والغلامِ لله تعالى، فلم يكن سبباً للفراق، وكان قوله في الجدار لنفسه في طلب شيءٍ من الدُّنيا فكان سبباً له[٢].

﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾: سأخبرك بما في باطن ما لم تقدر أن تصبرَ عليه لكونه منكراً، أو غير مناسِبٍ للحال بحسب الظَّاهر. والسِّين للتَّأكيد.

* * *

(٧٩) ـ ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾.

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ﴾ لقومٍ ضعفاء لعارضتهم البدنيَّة كالزَّمانة والعمى والخرس، أو لعجزهم عن دفع الظلم، وهذا كما تقول لرجلٍ غنيٍّ وقع في وهلةٍ أو خَطْبٍ: مسكين؛ مرحمةً لحاله وشفقةً عليه، فلا دلالة فيه على أن المساكين تُطلق على مَن يملك مالاً إذا لم يكفه.

﴿يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ﴾ قد مرَّ ما يتعلَّق بتعيين البحر.

﴿فَأَرَدْتُّ أَنْ أَعِيبَهَا﴾ أجعلَها ذاتَ عيب، تفريع على كون السَّفينة للمساكين. وقوله:

﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ﴾ كالتَّعليل للتَّفريع، ومجيئه بالواو كثير في القرآن؛ منها قوله

---

(١) انظر: «الكتاب» (٢/ ٤٠٢).

(٢) رواه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٢١).

تعالى: ﴿وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧]، فعلى هذا نظمُ الكلام في غاية الحُسن، ومَن لم يتنبَّه له تكلَّف في توجيهه[1].

﴿وَكَانَ وَرَآءَهُم﴾: أمامَهم، وقد قرئ به[2]، أو خلفَهم وكان رجوعهم إليه.

﴿مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ﴾ صحيحةٍ سالمةٍ، وقد قرئ بكلٍّ منهما[3].

﴿غَصْبًا﴾ من صاحبها.

* * *

(٨٠) - ﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ﴾ فيه تغليبٌ.

﴿مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا﴾: يُغْشيهما ﴿طُغْيَٰنًا﴾ عليهما ﴿وَكُفْرًا﴾ لنعمتهما بعقوقه[4]، ويُلحق بهما شرًّا، ويقرنَ بإيمانهما طغيانَه وكفره[5]، فيجتمعَ في بيت واحد مؤمنان وطاغٍ كافرٍ.

أو يُعديَهما بدائه[6]، ويضلَّهما بضلاله، فيرتدَّا بسببه، ويَطغَيا ويكفرا بعد الإيمان.

---

(١) في (ك) و(م): «يتكلف في توجيهه».

(٢) قرأ بها ابن عباس رضي الله عنهما كما رواه عنه البخاري (٣٤٠١)، ومسلم (٢٣٨٠).

(٣) قرأ ابن عباس: (صالحةٍ) كما في رواية الصحيحين السابقة، أما قراءة: (سالمة) فلم أقف عليها.

(٤) تحرفت في النسخ إلى: «بعقوبة»، والمثبت من «الكشاف» (٢/ ٧٤١)، و«تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٩٠).

(٥) في (م): «وكفرانه».

(٦) في النسخ: «بذاته»، والمثبت من «الكشاف»، وفي «تفسير البيضاوي»: (بعلته).

أو بممالأته إيَّاهما[١] على طغيانه وكفره حبًّا.

وإنَّما خشيَ ذلك لأن الله تعالى أعلمه.

وقرئ: (فخافَ ربُّك)[٢]؛ أي: كَرِه كراهةَ مَن خاف سوءَ عاقبته[٣].

قيل: ويجوز أن يكون قوله: ﴿فَخَشِينَآ﴾ حكايةَ قوله تعالى، ولا يلائمه.

* * *

(٨١) ـ ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾.

﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا﴾: أن يرزقَهما بدله ولداً.

﴿خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً﴾: طهارةً من الذُّنوب والأخلاق الرديَّة.

﴿وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ الرُّحْمُ والرَّحمةُ مصدران كالكُثْرِ والكَثْرةِ؛ أي: رحمة وعطفاً على والديه، وقرئ: (رَحِماً) بالتَّخفيف[٤].

وانتصابه على التَّمييز، و(أفعل) هنا ليس للتَّفضيل؛ لأنَّ ذلك الغلام الكافرَ لا زكاة فيه، والمناسب للمقام أن لا يكون فيه رُحْماً أيضاً، على أنَّ التَّفضيل بين

---

(١) كذا في النسخ، والصواب: (بممالأتهما إياه)، وفي «تفسير البيضاوي»: (بممالأته) وإسقاط (إياه)، وهو صواب أيضاً.

(٢) هي قراءة ابن مسعود رضي الله عنه. رواها عنه الطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٥٧). ونسبت لأبي بن كعب رضي الله عنه. انظر: «معاني القرآن» للفراء (٢/ ١٥٧)، و«الكشاف» (٢/ ٧٤١).

(٣) في (ف): «عاقبته». والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «تفسير البيضاوي» مع حاشية الشهاب (٦/ ١٩٩)، وقال الشهاب: قوله: كراهة من خاف سوء عاقبة؛ أي: ككراهته، إشارة إلى أنه استعارة إذ الخوف لا يليق بجنابه تعالى، وقيل: إنّ الخوف مجاز مرسل عن لازمه وهو الكراهة.

(٤) نسبت لابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠).

التَّمييزين[١] بحمل أحدهما على التَّفضيل دون الآخر، لا يخلو عن نوعِ خللٍ في حسن النَّظم.

***

(٨٢) ـ ﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾.

﴿وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾ هي القرية المذكورة قبلها.

﴿وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا﴾: هو كلُّ مالٍ مدخور[٢] من ذهب وفضة، وروي مرفوعاً أنه كان ذهباً وفضة[٣].

وعن قتادة: أُحِلَّ الكنز لمن قبلنا وحُرِّمَتِ الغنيمة[٤].

ولا دلالة فيه على أنَّه كان للأب الصَّالح حتى يُحتاج إلى الاعتذار بأنَّ الكنز المذموم ما لا تُؤدَّى زكاته.

﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾ اعتداد بصلاح أبيهما، وحفظ[٥] لحقِّه فيهما.

قيل: كان بينهما وبين الأب الصَّالح سبعة آباء.

﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا﴾: قوَّتهما. قال الجوهري: هو ما بين ثماني

---

(١) في (م): «التمييز».

(٢) في (ك): «مذخور».

(٣) رواه الترمذي (٣١٥٢) من حديث أبي الدرداء رضي الله عنه. وقال: غريب.

(٤) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٤٠٧)، وروى الطبري شطره الأول في «تفسيره» (١٥/ ٣٦٥).

(٥) في (م): «وحفظه».

عشرة إلى ثلاثين[١]. والمراد: الإدراك إلى قوَّة الرَّأي لا إلى الحُلُم.

﴿وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾ يعني: أراد الله تعالى بقاءَ ذلك المال مدفوناً محفوظاً عن أيدي التغلُّب إلى زمان بلوغهما مبلغَ الرِّجال الكاملينَ في الرَّأي، القادرين على استخراج الكنز سالماً عن تعدِّي الغير؛ فإنَّ الصِّبيان والرِّجال العاجزين عن التَّدبير لا يقدرون على ذلك.

أسند الإرادة أوَّلاً إلى نفسه وإلى الله تعالى؛ لأنَّ التبديل بمباشرته إهلاكَ الغلام، وخلقِ اللهِ تعالى البدل، وثالثاً إلى الله تعالى وحده لأنَّه لا مدخل له أصلاً في بلوغ الغلامين أشدَّهما، ولأنَّ الأوَّل شرٌّ، والثَّالث خيرٌ، والثَّاني ممتزجٌ.

ولك أن تقول: في إضافة الفعل إلى نفسه على صيغة الانفراد نوعُ قصور في مراعاة أدب الكلام، فلا يُلتزم[٢] إلا لعلَّة، وهي موجودة في الأوَّل ومفقودةٌ في الثَّاني، ولا مجال للإضافة إلى نفسه في الثَّالث، وتلك العلَّة صونُ جناب العزَّة أن يُعزَى إليه ما هو شرٌّ ظاهر.

﴿رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ﴾: نعمةً منه، وهي المالُ الحاصل بالسُّهولة، الواصلُ إلى صاحبه بلا كُلْفةِ الكسب.

وانتصابه على الحال، وقيل: مفعولٌ على أنَّ الرَّحمة بمعناها الشائع، أو مصدرٌ منصوب بـ ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ﴾ لأنَّه بمعنى: رحمهما، وأما تعلُّقه بمحذوف تقديره: فعلتُ ما فعلتُ رحمةً من ربِّك؛ فلا يلائمه قوله:

﴿وَمَا فَعَلْتُهُۥ﴾؛ أي: ما فعلتُ ما رأيتَه ﴿عَنْ أَمْرِى﴾: عن رأيي، إنَّما فعلتُه بأمر الله تعالى.

---

(١) انظر: «الصحاح» (مادة: شدد).

(٢) في (ك): «يلزم».

﴿ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا﴾ أصله: تَستطع، فحذف التَّاء تخفيفاً.

* * *

(٨٣) ـ ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا﴾.

﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ﴾ اليهود امتحاناً، أو مشركو مكَّة.

﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ هو إسكندر الملك اليوناني المقدوني، وتلقيبُه بذي القرنين لِـمَا روي مرفوعاً أنَّه مَلَكَ قَرْنَي الدُّنيا شرقَها وغربها[١]، قال الشَّاعر وهو التُّبَّعُ اليماني:

قــد كان ذو القرنيــن جــدِّي مسـلماً ... ملـكاً تديـنُ لـه الملـوكُ وتسـجدُ

بلـغَ المشـارقَ والمغـاربَ يبتـغي ... أسـبابَ أمـرٍ مـن حكيـمٍ مرشـدِ[٢]

وما قيل: إنه إسكندر الرُّومي ملك فارس والرُّوم، مردودٌ بأنَّه تلميذ أرسطو، ومذهبه مذهب الفلاسفة، وذو القرنين هذا لا شبهة في إسلامه وولايته، إنَّما[٣] الخلاف في نبوَّته.

قال القرطبي: والظَّاهر من علم الأخبار[٤] أنَّ إسكندر اثنان:

---

(١) انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٤٣). وقال ابن حجر في «الكافي الشاف» (ص: ١٠٤): (لم أجده مرفوعاً، وإنما رواه الدارقطني في «المؤتلف» من رواية عبد العزيز بن عمران، عن سليمان بن أسيد، عن الزهري قال: إنما سمي ذا القرنين لأنه بلغ قرن الشمس من مغربها وقرن الشمس من مطلعها).

(٢) انظر: «فتوح مصر» (١/ ١٠٣)، و«تاريخ دمشق» (١٧/ ٣٣٢)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٧٠). مع اختلاف في بعض ألفاظه.

(٣) في (ف): «وإنما».

(٤) في (ف): «العلماء الأخبار»، وفي (ك) و(م): «الأخبار»، والمثبت من «تفسير القرطبي».

أحدهما: كان على عهد إبراهيم عليه السلام، وهو الذي قضى له حين تحاكموا في بئر السبع بالشام.

والآخر: كان قريباً من عهد عيسى عليه السلام[١].

﴿قُلْ﴾ في جوابهم: ﴿سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ﴾ من ذي القرنين ﴿ذِكْرًا﴾: خبراً.

* * *

() ـ ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا﴾.

﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: أعطيناه التَّمكين فيها، وزيادةُ اللام للاختصاص.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ﴾ من مهمَّات الملك ﴿سَبَبًا﴾ أصل السَّبب: الحبل[٢]، ثمَّ تُوسِّع فيه حتى صار يُطلَق على ما يُتوصَّل به إلى الغرض.

* * *

(٨٥) ـ ﴿فَأَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

﴿فاتَّبَعَ سَبَباً﴾ الفاء فصيحة، تقدير الكلام: أراد بلوغ المغرب فاتَّبع طريقاً يوصله إليه حتى بلغ. وقرئ بقطع الألف مخفَّفة التَّاء[٣].

* * *

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٦٦). ووقع في النسخ: «موسى عليه السلام»، والمثبت من المصدر.

(٢) في (ف): «الجعل».

(٣) قرأ الكوفيون وابن عامر: ﴿فَأَتْبَعَ﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ﴾ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ﴾ في الثلاثة بقطع الألف مخففة التَّاء، والباقون بوصل الألف مشددة التاء. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٥).

(٨٦) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾؛ أي: كثيرةِ الحَمْأة، وهي الطِّينة السَّوداء، من حَمِئَتِ البئر حَمَأً بالتَّحريك: إذا كثرَتْ حمأتُها[1].

وقرئ: ﴿حامِيَةٍ﴾[2]؛ أي: حارَّة.

وقيل: لا تَنافيَ بينهما؛ لجواز أن تكون العين جامعةً للوَصْفَين، أو تكون ﴿حَمِئَةٍ﴾ من الحمأة، فخفِّفَتِ الهمزة وقُلِبَتْ ياء لانكسار ما قبلها، ويأبى عن ذلك ما جرى بين ابن عباس ومعاوية رضي الله عنهما.

وتفصيلُه على ما ذكره القرطبي: أنَّ ابن عباس رضي الله عنهما قال: أقرأنيها أبيٌّ كما أقرأه رسول الله ﷺ: ﴿فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ﴾، وقال معاوية رضي الله عنه: هي ﴿حامِيَةٍ﴾، فقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم: وأنا مع أمير المؤمنين، فجعلوا كعباً بينهم حكماً، وقالوا: يا كعب، كيف تجدها في التَّوراة؟ فقال: أجدها: تغرب في عينٍ سوداء، فوافقَ ابنَ عبَّاس رضي الله عنهما[3].

فإنه على تقدير التَّوفيق بين القراءتَيْن على أحد الوجهَيْن المذكورَيْن لَـمَا تمشَّى الخلاف المزبور، ففيه تجهيل لهؤلاء الأعلام.

---

(١) في القرطبي: (حَمَأْتُ البئرَ حَمْأً ـ بالتسكين ـ: إذا نَزَعْتَ حَمْأَتَها، وحَمِئتِ البئرُ حَمَأً ـ بالتحريك ـ: كَثُرَتْ حَمْأَتُها).

(٢) قرأ بها ابن عامر وأبو بكر وحمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٥).

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٦٩). والخبر رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٤١١)، والطبري في «تفسيره» (١٥/ ٣٧٥)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ١٦٤ ـ ١٦٥).

وما ذكره القفَّالُ: ليس المراد أنَّه انتهى إلى الشَّمس غرباً وشرقاً حتى وصل جِرمها؛ لأنَّها تدور مع السَّماء حولَ الأرض من غير أن تلتصق بالأرض، وهي أعظم من أن تدخل في عينٍ من عيونها، بل هي أكبر منها أضعافاً مضاعفة[١] = مبناه على أصولٍ فلسفيَّةٍ لا تعويل عليها[٢].

ومنهم مَن تعمَّق وقال: لعله بلغ ساحل المحيط فرآها كذلك، إذ لم يكن في مطمحِ بصره غير الماء، ولذلك قال: ﴿وَجَدَهَا تَغْرُبُ﴾، ولم يقل: كانت تغرب.

ويرِدُ عليه أن الوجدان يدل على الوجود، ولو كان المعنى على ما ذكر لقيل: رآها تغرب، ثم إن في إطلاق العين على البحر المحيط ما لا يخفى على ذي بصيرة.

﴿وَوَجَدَ عِندَهَا﴾ عند تلك العين ﴿قَوْمًا﴾ كانوا كفَّاراً، فخيَّره فيهم بين الأمرين.

﴿قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ مَن قال: إنَّه كان نبيًّا تمسَّك بهذا الخطاب، ومَن أنكره قال: كان الخطاب على لسانِ نبيٍّ في عهده، واحتمالُ الإلهام لا يجدي؛ لأنَّ الدَّعوة إلى الحقِّ لا تكون إلَّا من نبيٍّ أو نائبه.

﴿إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ﴾ بالقتل على الكفر ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ﴾ لم يقل: لهم؛ دلالةً على الثُّبوت والاستقرار.

﴿حُسْنًا﴾؛ أي: ذا الحسنَى فيهم؛ دعوتهم إلى الله تعالى وتوحيده.

---

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٧٠).

(٢) بل ما قاله القفال رحمه الله هو الأقرب إلى الصواب عدا ما ذكره من كون الشمس تدور حول الأرض، وتتمة كلامه كما في المصدر السابق: (بل المرادُ أنَّه انتهَى إلى آخِرِ العِمَارةِ مِن جهة المغربِ ومِن جهةِ المشرِقِ، فوجدها في رأْيِ العين تَغْرُبُ في عينٍ حَمِئَةٍ، كما أنَّا نشاهدُها في الأرضِ الملساءِ كأنَّها تدخلُ في الأرضِ...).

وما قيل: خيَّر الله تعالى بين القتل والأسر، وسمَّاه: إحساناً في مقابلةِ القتل = يأباه قوله: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾ إلخ؛ لأنه دلَّ على أنَّه آثر الدَّعوة، وقد كان في التخيير[1] بلفظ: ﴿وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمۡ حُسۡنٗا﴾[2]، وإضمارِ متعلَّق التَّعذيب مع إظهار متعلَّق الحسنى، إيماءٌ إلى ترجيح الشِّقِّ الثَّاني، فنبَّه له[3] وآثر ما يحقُّ الإيثار.

***

(٨٧) ـ ﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾.

﴿قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ﴾: أمَّا مَن دعوتُه فظلمَ نفسه بعدم قَبول الدَّعوة والاستمرار على الكفر.

﴿فَسَوۡفَ نُعَذِّبُهُۥ﴾ أتى بحرف التسويف إشعاراً بما يتخلل بين اختيارهم عدم قَبول الدَّعوة وتعذيبِهم بالقتل من الإمهال بتكرار الدَّعوة إظهاراً لإصرارهم على الكفر. وبنون العظمة في ﴿نُعَذِّبُهُۥ﴾ على عادة الملوك في قولهم: نحن فعلنا.

﴿ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ﴾ كان خطابه لأتباعه، فإنَّه تعالى لَمَّا خيَّره بينَ الأمرَيْنِ المذكورَيْنِ أعلم بذلك أتباعه.

[وقيل: فيه إشعارٌ بأنَّ التَّخْييرَ لذي القرنين ليس مِن اللهِ تعالى، إذ لو كان كذلك لكانَ التَّركيبُ] ثم يُرَدُّ إليك [فتعذبه][4].

﴿فَيُعَذِّبُهُۥ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابٗا نُّكۡرٗا﴾: عذاباً منكراً لم يُعهد مثلُه.

---

(١) في (ك) و(م): «التنجيز».

(٢) في النسخ: «إما أن تتخذ فيهم حسنى».

(٣) في (ف): «فسر له»، وفي (ك): «فسهله».

(٤) ما بين معكوفتين مستفاد من «البحر» (١٤/ ٣٥٩)، ولا يستقيم السياق إلا بمثله.

(٨٨) ـ ﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾.

﴿وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ مما يقتضيه الإيمان ﴿فَلَهُۥ﴾ في الدَّارين.

﴿جَزَاءُ الْحُسْنَى﴾: جزاءُ الفعْلةِ الحُسنى.

وقرئ منوَّناً منصوباً على الحال[١]؛ أي: فله المثوبةُ الحسنى مجزيًّا بها، أو على المصدر لفعله المقدَّر حالاً؛ أي: يُجزى بها جزاءً، أو على التَّمييز.

وقرئ منصوباً غيرَ منوَّن[٢]، على أنَّ تنوينه حُذِفَ لالتقاء السَّاكنين، ومنوناً مرفوعاً[٣]، على أنه المبتدأ والخبر [الجارُّ والمجرور، و﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بدله][٤].

﴿وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا﴾: ممَّا نأمرُ به ﴿يُسْرًا﴾: قولاً ذا يسر. وقرئ بضمَّتين[٥].

قيل: ويجوز أن تكون ﴿أَمَّا﴾ ﴿وَأَمَّا﴾ للتَّقسيم دون التَّخيير؛ أي: ليكن شأنك معهم إمَّا التَّعذيب وإمَّا الإحسان؛ فالأوَّل لمن أصرَّ على الكفر، والثَّاني لمن تاب.

ويأباه تصدير الجواب بـ ﴿أَمَّا﴾ التَّفصيليَّة؛ لأنه يستدعي لسبق[٦] الإجمال، وعلى ما ذكر إجمال في الكلام السابق.

---

(١) وهي قراءة حفص وحمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٥).

(٢) نسبت لابن عباس رضي الله عنهما. انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٤٠)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٣٦١).

(٣) نسبت لعبد الله بن أبي إسحاق. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٤٧١)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٤٠)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٣٦١).

(٤) ما بين معكوفتين مستفاد من المصادر. انظر: «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٩٢)، و«البحر» (١٤/ ٣٦١)، و«روح المعاني» (١٥/ ٥٥٨).

(٥) أي: (يُسُراً)، قرأ بها أبو جعفر حيث وقعت. انظر: «النشر» (٢/ ٢١٦).

(٦) في (ف): «سبق».

(٨٩) ـ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَباً﴾: ثم اتَّبع طريقاً، وهو الذي يوصله إلى المشرق، [وقرئ][1] بقطع الألف مخففة التاء.

***

(٩٠) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ﴾ يعني: الموضعَ الذي تطلع الشَّمس عليه[2] أوَّلاً من معمورة الأرض. وقرئ بفتح اللَّام[3].

قال الجوهري: والمطلع أيضاً[4]: موضعُ طلوعها[5]. فلا حاجة إلى إضمار مضاف.

﴿وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾؛ أي: حجاباً يستترون به عند طلوعها، قيل[6]: لا جبلَ فيها ولا شجر ولا مأوى، ولا لهم ثوب يسترهم، فإذا طلعت عليهم الشمس دخلوا في الأسراب ـ وقيل: في النَّهر ـ فإذا ارتفعت عنهم خرجوا إلى معايشهم.

***

---

(١) ما بين معكوفتين زيادة يقتضيها السياق، وقد تقدم تخريج القراءتين في الموضع الأول.

(٢) في (ف): «تطلع فيه الشمس».

(٣) نسبت للحسن وعيسى وابن محيصن. انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٤٠)، و«زاد المسير» (٥/ ١٨٧)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٣٦١).

(٤) في (ك): «والمطلع هنا»، والمثبت من باقي النسخ والمصدر.

(٥) انظر: «الصحاح» (٣/ ١٢٥٣) (مادة: طلع).

(٦) في (ف): «وقيل».

(٩١) ـ ﴿كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: أمرُ ذي القرنين كذلك؛ أي: كما وصفناه في رِفعة المكان وبَسطة الملك.

و[قيل] (١): لم نجعل لهم من دونها ستراً مثلَ ذلك السِّتر الذي جعلنا لكم من الجبال والحصون والأبنية والأكنان من كلِّ جنس، والثِّياب من كلِّ صنف.

﴿وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ﴾ من العَدد والعُدد.

﴿خُبْرًا﴾ تكثيراً كذلك ؛يعني: أن كثرة ذلك بلغت مبلغاً لا يحيط به إلَّا علم اللَّطيف الخبير.

* * *

(٩٢) ـ ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾.

﴿ثُمَّ اتَّبَعَ سَبَباً﴾ ثم اتَّبع طريقاً آخر، وهو المعترض بين المشرق والمغرب، آخذاً (٢) من الجنوب إلى الشَّمال.

* * *

(٩٣) ـ ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ﴾ هما على ما ذكره وهبٌ: جبلان متَّسعان في السَّماء أملسان، يزلق عليهما كلُّ شيءٍ (٣).

---

(١) ما بين معكوفتين من «الكشاف» (٢/ ٧٤٥).

(٢) في (ف): «أخذ».

(٣) انظر: «زاد المسير» (٥/ ١٨٩). وفيه: «هما جبلان منيفان في السماء» دون «أملسان يزلق عليهما كل شيء». وروى نحوه مرفوعاً أبو الشيخ في «العظمة» (٤/ ١٤٦٨). والمنيفان: =

وإنَّما سُمِّيا سدَّين لسدِّهما فجاج الأرض، وكانت بينهما فجوة يلج[1] فيها يأجوج ومأجوج، وهذا المكان في منقطع أرض التُّرك.

وما قيل: هما جبلا أرمينية وأذربيجان؛ وهمٌ.

وقرئ: ﴿بين السُّدين﴾ بالضَّم[2].

قال الكسائي: هما لغتان، كالمَكْث والمُكْث.

وقال أبو عمرو: السَّدُّ بالفتح: الحاجز بينك وبين الشَّيء، وبالضَّمِّ: الغشاوة في العين[3].

ولهذا قال مَن قال: ما كان من صنعة بني آدم فهو بالفتح، وما كان من صنعة الله تعالى فهو بالضَّم.

وانتصب ﴿بَيْنَ﴾ على أنه مفعولٌ به؛ لأنه من الظروف المتصرفة.

﴿وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا﴾ اختلف في عددهم وصفاتهم، ولم يصحَّ في ذلك شيء.

﴿لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا﴾: لا يفقهونه من إشارة ونحوها إلَّا بجهد ومشقَّة، فإنَّ زيادة (يكاد) قد تكون لإفادة هذا المعنى، كما في ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢]، وذلك لقلَّة فطنتهم، وأما غرابة اللغة فلا يصح علةً لهذا.

= المرتفعان كما قال الشهاب في «الحاشية» (٦/ ١٣٤).

(١) في (م) و(ف): «تلج».

(٢) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص بفتح السين وباقي السبعة بضمها. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٥).

(٣) انظر القولين في «إعراب القرآن» للنحاس (٢/ ٣٠٦).

وقرئ: ﴿يُفْقِهُونَ﴾[١]؛ أي: لا يُفْهِمون السَّامعَ كلامَهم، أو لا يبينونه[٢] إلَّا بمشقة لغرابة لغتهم أو لَثْغتهم.

* * *

(٩٤) ـ ﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾.

﴿قَالُوا۟ يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ﴾ دلَّ هذا الخطاب على أنَّه لقبُ تعظيم، وهو في المعنى الذي ذكرناه فيما سبق دون غيره من المعاني المذكورة في التَّفاسير، وقدرةُ ذي القرنين على فهم قولهم وتفهُّمهم من جملة الأسباب التي آتاه الله تعالى.

﴿إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ﴾ اسمان لقبيلتين من ولد يافث، ممنوعا الصَّرف، ولا دلالة فيه على عجميَّتهما لوجود علَّتين أخريين: التَّأنيث والعلميَّة. وقرئا مهموزين[٣].

قال الأخفش: مَن همز جعل الألف من الأصل، كأنه من أجيج النَّار، ومَن لم يهمز جعل الألف زائدة وقال: ياجوج من يَجَجْت [وماجوج من مَجَجْت][٤].

وقال أبو عليٍّ: إن همز يأجوج فهو من أَجَّت النَّار، وإن لم يهمز فيمكن أن

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٥).

(٢) في (ف): «يثبتونه».

(٣) قرأ عاصم بهمزهما، وباقي السبعة بغير همز. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٦).

(٤) انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٥٧)، و«الصحاح» (مادة: أجج)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٧٧). وما بين معكوفتين من المصادر.

يكون خفَّفَ الهمزة فقلبت ألفاً مثل: راس، وأما مأجوج فهو مفعول من أجَّ، وإن لم يُهْمَز فيجوز أن يكون على التَّخفيف وأن يكون فاعولاً من مَجَّ[١].

﴿مُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالقتل والتَّخريب والإتلاف، قيل: كانوا يخرجون أيَّام الرَّبيع فلا يتركون أخضرَ إلَّا أكلوه، ولا يابساً إلَّا احتملوه، وقيل: كانوا يأكلون النَّاس.

﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ﴾ استفهام على جهة حُسن الأدب.

﴿خَرْجًا﴾: جعلاً، نخرجه من أموالنا[٢].

وقرئ: ﴿خَراجاً﴾[٣]، قال أهل اللغة: الخَرْجُ: ما يُخرج من المال، والخَراجُ: ما يُخرج من الأرض، وقيل: كلاهما واحد كالنَّوْل والنَّوال.

﴿عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا﴾ يمنعُهم من[٤] الخروج علينا.

وقرئ: ﴿سُدًّا﴾ بالفتح والضم[٥].

قال القرطبي: قال الخليل وسيبويه: الضمُّ هو الاسم والفتح المصدر، وقال عكرمة وأبو عمرو وأبو عبيدة: ما كان بخلق الله تعالى ولم يشاركه فيه أحد فهو بالضَّم، وما كان من صنع البشر فهو بالفتح، ويلزم أهلَ هذه المقالة أن يقرؤوا هنا

---

(١) انظر: «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٥/ ١٧٢)، وانظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٧٨).

(٢) في (ف) زيادة «امها»، وفي (م) زيادة «إنهاباً». والمثبت من (ك) و«الكشاف» و«تفسير البيضاوي».

(٣) وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٦).

(٤) في (ف): «عن».

(٥) قرأ نافع وابن عامر وأبو بكر بالضم، وباقي السبعة بالفتح. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٦).

بالفتح، وفيما[١] سبق [﴿بين السُّدين﴾] بالضَّم، وهي قراءة حمزة والكسائي[٢].

والعجب أنَّ الكسائي ينكر الفرق بينهما معنى، فحقُّه أن لا يخصِّص أحدهما بموضع والآخر بموضع آخر، وأبو عمرو يعترف بالفرق وموجَبُه التَّخصيص المذكور، فكلٌّ منهما أخذَ ما هو حقُّ صاحبه.

* * *

(٩٥) ـ ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾.

﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي﴾: ما جعلني فيه مكيناً من كثرة المال والملك ﴿خَيْرٌ﴾ مما يبذلون لي من الخَرَاج، فلا حاجة.

وقرئ: ﴿مَكَّنَنِي﴾ على الأصل[٣].

﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾ أراد معاونتهم بعمل اليد وبقوَّة البدن[٤]، والتَّخصيصُ بقوَّة العمل من ضعف الفِطْنة، فكأنَّه قال: رفعتُ عنكم مؤنةَ المعونة بالمال، فأعينوني بخدمةٍ بلا أجر، وهذا من تأييد الله تعالى، حيث آثر ما هو أيسرُ في حقِّهم، وأنفعُ في حقِّه، وأسرع في قضاء الحاجة.

﴿أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ الرَّدمُ: السَّدُّ المتراكِبُ، من قولهم: ثوب مُردَّم: إذا كان رقاعاً فوق رقاع.

* * *

---

(١) في (ف): «فيما».

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٨٤)، وما بين معكوفتين منه، وتقدمت القراءة في مكانها.

(٣) وهي قراءة ابن كثير. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٦).

(٤) في (ك): «بقوة البدن»، وفي (ف): «بقوة اليدين».

(٩٦) ـ ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾.

﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾ الزُّبر ـ بفتح الباء وضمها ـ: جمع زُبرة، وهي القطعة العظيمة، ولا يلزم أن يكون من الحديد، دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا﴾ [المؤمنون: ٥٣]، ولذلك قيَّده بالإضافة إلى الحديد، وإعطاؤها من قبيل تحصيل[1] الآلة بالخدمة؛ لأنها ممَّا تحصل بمجرد العمل، فلا حاجة إلى صرف الإيتاء عن معناه إلى معنى المناولة، ولا دلالة على ذلك في قراءة: ﴿ائتوني﴾ بكسر النَّون موصولة الهمزة[2]، على معنى: جيئوني[3].

والباء محذوفة حذْفَها في (أمرتك الخير)؛ لأنَّه هنا[4] في معنى الإعطاء غاية لا بعينه[5].

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ في الكلام محذوفٌ تقديرُه: فأتوه بما طلب حتَّى إذا ساوى؛ يعني: البناء بَيْن الصَّدفينِ، والصَّدفُ: الجبل المرتفع. ذكره الجوهري[6].

---

(١) في (ف): «تخصيص».

(٢) قرأ أبو بكر: (ردماً ائتوني) بكسر التنوين وهمزة ساكنة بعده من باب المجيء، وإذا ابتدأ كسر همزة الوصل وأبدل الهمزة الساكنة بعدها ياء. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٦).

(٣) في النسخ: «جئتموني»، والمثبت من «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٩٣).

(٤) في (ك) و(م): «لأنه لا هنا».

(٥) في (ف): «غايته لا بعينه»، وفي (م): «غايته لا يعاينه».

(٦) انظر: «الصحاح» (مادة: صدف)، وفيه: «والصَّدَفُ والصُدُفُ: منقطَعُ الجبلِ المرتفع، وقرئ بهما قوله تعالى: ﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾».

وقرئ بضمَّتين، وبالضَّمِّ والسُّكون[١]، وبالفتح والسُّكون[٢]، وبفتح الأوَّل وضمِّ الثَّاني[٣]، والكلُّ بمعنًى واحد.

﴿قَالَ ٱنفُخُواْ﴾؛ أي: على زبر الحديد بالأكيار.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا﴾؛ أي: جعل النَّفخُ ما نُفِخَ فيه كالنَّار بالإحماء.

﴿قَالَ ءَاتُونِىٓ﴾ فيه القراءتان اللَّتان في ﴿ءَاتُونِى﴾ المتقدمة.

﴿أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾: نحاساً مُذاباً من القِطر؛ لأنَّه إذا أذيب قَطَرَ كما يقطر الماء، منصوب بـ ﴿أُفْرِغْ﴾، وتقديره: آتوني قطراً أفرغ عليه قطراً، فحُذف الأوَّل لدلالة الثَّاني عليه؛ إذ لو أُعمل الأوَّل لقيل: أفرغه؛ إذ لا يُضمر في الثَّاني على الفصيح.

* * *

(٩٧) ـ ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾.

﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ﴾ حذف التاء تخفيفاً لقربها من الطَّاء، وقرئ بالإدغام[٤]، وهو على غير حدِّه؛ إذ لا يصحُّ إلَّا أن يكون قبل الإدغام متحرِّك أو حرف مدٍّ ولين، ولذلك قال أبو علي: هي غير جائزة[٥].

وقرئ بقلب السِّين صاداً[٦].

---

(١) قرأ ابن كثير وأبو عمرو وابن عامر: ﴿بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ﴾ بضمتين، وأبو بكر بضم الصَّاد وإسكان الدَّال، والباقون بفتحتين. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٦).

(٢) نسبت لقتادة. انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٥٤٣)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٣٧٠).

(٣) نسبت للماجشون. انظر: «المحتسب» (٢/ ٣٤)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٤٣).

(٤) أي: بإدغام التاء في الطاء، وهي قراءة حمزة. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٦).

(٥) انظر: «الحجة للقراء السبعة» لأبي علي الفارسي (٥/ ١٧٨).

(٦) انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٤٨)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٣٧١).

﴿أَن يَظْهَرُوهُ﴾: أن يَعْلوه بالصُّعود لارتفاعه وانملاسه.

﴿وَمَا ٱسْتَطَٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا﴾ لصلابته وثخانته.

* * *

(٩٨) ـ ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾.

﴿قَالَ هَٰذَا﴾ إشارة إلى السَّدِّ ﴿رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى﴾ على عباده.

﴿فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى﴾؛ أي: فإذا دنا مجيء يوم القيامة وشارف أن يأتي، تفريع على ما ذُكِرَ؛ يعني لَمَّا كان وجوده رحمة ينعدم عند انتهاء زمان الرَّحمة بانقضاء المستحقِّين لها.

﴿جَعَلَهُ دَكًّا﴾: مدكوكاً مبسوطاً مسوًّى بالأرض، وكلُّ ما انبسط بعد ارتفاعه فقد اندكَّ، ومنه الجملُ الأدكُّ: المنبسط السَّنام.

وقرئ: ﴿دَكَّآءَ﴾ بالمدِّ[1]؛ أي: أرضاً مستوية.

﴿وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا﴾ كائناً لا محالة، وهو آخر القصَّة.

* * *

(٩٩) ـ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ ۖ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَجَمَعْنَٰهُمْ جَمْعًا﴾.

﴿وَتَرَكْنَا﴾: جعلنا ﴿بَعْضَهُمْ﴾ بعض الخلق[2] ﴿يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ﴾ يضطرب ﴿فِى بَعْضٍ﴾ فيختلطون إنسُهم وجنُّهم[3] حيارَى.

---

(١) قرأ الكوفيون بالمد والهمز من غير تنوين والباقون بالتنوين من غير همز. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٦).

(٢) في النسخ: «الحق»، والمثبت من «الكشاف» (٢/ ٧٤٨).

(٣) في النسخ: «السهم وجهنم». والمثبت من المصدر السابق.

﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ﴾ هذه النَّفخة نفخة الإنشاء، لا نفخةُ الإفناء، دلَّ على ذلك الفاء التَّعقيبيَّة في قوله:

﴿فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾ للحساب والجزاء، وما هو لقيام السَّاعة إنَّما هو نفخة الإفناء.

* * *

(١٠٠) ـ ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا﴾.

﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ﴾: وأبرزنا لهم.

﴿عَرْضًا﴾ أشار بتنكيره إلى خروجه عن حدِّ التَّعريف والبيان.

* * *

(١٠١) ـ ﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾.

﴿الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي﴾: عن آياتي التي يُنظر إليها، فأُذكَرُ بالتَّوحيد والتَّعظيم.

﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾: استماعاً[1] لذكري وكلامي لفرط صممهم عن الحقِّ، وهذا أبلغ من إثبات الصَّمم لهم؛ لأنَّ الأصم قد يستطيع السَّمع إذا صيح به[2].

* * *

(١٠٢) ـ ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾.

---

(١) في النسخ: «إسماعا»، والتصويب من «تفسير البيضاوي» (٣/ ٢٩٤).

(٢) «به» من (ك).

﴿أَفَحَسِبَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾: (أفظنَّ الذين كفروا)، وقد قرأ كذلك ابن مسعود رضي الله عنه[١]، معطوف على قوله: ﴿كَانَتْ﴾ ﴿وَكَانُواْ﴾ دلالةً على أن الحسبان ناشئ من التَّعامي والتَّصامِّ، وأُدخل عليه همزةُ الإنكار ذمًّا على ذمٍّ، وقطعاً له عن المعطوف عليهما لفظاً لا معنًى؛ للإيذان بالاستقلال المؤكِّد[٢] للذَّم في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ﴾، من وضع الظاهر مقام المضمَر زيادة للذَّم.

﴿أَن يَتَّخِذُواْ عِبَادِى﴾: هم[٣] مَنْ عُبِدَ من الملائكة والمسيح وعزيرٍ عليهم السلام.

﴿مِن دُونِىٓ أَوْلِيَآءَ﴾ يعني: أنَّهم لا يكونون أولياء كما حكي عنهم: ﴿سُبْحَٰنَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم﴾ [سبأ: ٤١].

[وقرئ][٤]: (أَفَحَسْبُ الذين كفروا)[٥]؛ أي: أفكافيهم[٦] ومُحْسِبُهم أن يتخذوهم أولياء، على الابتداء والخبر، أو على الفعل والفاعل؛ لأن النَّعت إذا اعتمد الهمزة ساوى الفعلَ في العمل.

﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَٰفِرِينَ نُزُلًا﴾ استئناف لبيان خطأ حسبانهم، وفي جعل جهنَّم نزلاً

---

(١) انظر: «الكشاف» (٢/ ٧٤٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٤٥)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٣٧٣).

(٢) في النسخ: «بالاستقلال المذكور»، والمثبت من «روح المعاني» (١٥/ ٥٨٦)، والكلام من «الكشف» على ما صرح به الآلوسي.

(٣) «هم» من (ك).

(٤) ما بين معكوفتين زيادة لتوضيح الكلام. وانظر: «الكشاف» (٢/ ٧٤٩).

(٥) نسبت لعلي بن أبي طالب وابن عباس رضي الله عنهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠)، و«الكشاف» (٢/ ٧٤٩).

(٦) في (ف) و(م): «أمكافيهم».

لهم ـ وهو ما يقام للنَّزيل[١]؛ أي: الضيف ـ تهكُّمٌ بهم، وتنبيهٌ على أنَّ لهم وراءها من العذاب ما تُستعذب وتُستلذُّ جهنَّم بالنِّسبة إليه.

* * *

(١٠٣) ـ ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾.

﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ نصب على التَّمييز، وجُمع لتنوُّع أعمالهم.

* * *

(١٠٤) ـ ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾.

﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾: ضاع وبطل لكفرهم وإنكارهم الحشر.

قيل: هم الخوارج أهلُ حَرُوراءَ.

وقيل: هم الرُّهبان أصحاب الصَّوامع.

ويردُّهما قوله تعالى بعد ذلك: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ إذ ليس منهما مَن يكفر بلقاء الله تعالى والبعث والنَّشر.

ومحله الرَّفع على الخبر المحذوف، فإنَّه جواب السُّؤال، أو الجرُّ على الوصف، أو على البدل، أو النصب[٢] على الذَّم.

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ لعُجبهم واعتقادهم أنَّهم على الحقِّ.

* * *

(١٠٥) ـ ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾ بدلائله المنصوبةِ على التَّوحيد والنُّبوَّة، أو: بالقرآن.

---

(١) في (ف) و(م): «للتنزيل».

(٢) في (ف): «البدلية أو انتصب».

﴿وَلِقَآئِهِۦ﴾ بالبعث على ما هو عليه، أو: لقاءِ عذابه.

﴿فَحَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ﴾ بكفرهم فلا ينتفعون بها، لا بنيل الثَّواب ولا بتخفيف العذاب.

﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَزْنًا﴾: فلا نضع لهم ميزاناً لوزن[1] أعمالهم؛ لانحباطها.

وقيل: فنزدري بهم ولا نجعل لهم مقداراً واعتباراً.

ويَرِدُ عليه: أنَّ حقَّه حينئذ أن يعطف بالواو عطفَ أحدِ الفرعين على الآخر، لأنَّ منشأ الإزدراء بهم كفرُهم بآيات الله تعالى ولقائه، لا حبوطُ أعمالهم.

* * *

(١٠٦) ـ ﴿ذَٰلِكَ جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾.

﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الأمر ذلك، وقوله: ﴿جَزَآؤُهُمْ جَهَنَّمُ﴾ جملةٌ مبيِّنة له.

ويجوز أن يكون ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأً، والجملة خبره، والعائد محذوف؛ أي: جزاؤهم به، أو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ بدلُه، و﴿جَهَنَّمُ﴾ خبره، أو ﴿جَزَآؤُهُمْ﴾ خبره، و﴿جَهَنَّمُ﴾ عطف بيان للخبر.

﴿بِمَا كَفَرُوا۟ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَرُسُلِى هُزُوًا﴾؛ أي: بسبب ذلك، وقد تقدَّم تفسيره الهزو[2].

* * *

(١٠٧) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَانَتْ لَهُمْ﴾ فيما سبق مِن حكم الله ووعده.

---

(١) في (ف) و(ك) تحتمل: «بوزن» أو «يوزن»، وفي (م): «يوزن». والصواب المثبت.

(٢) في (ك) و(م): «تفسير الهزء». وتقدم تفسير كليهما عن قوله تعالى: ﴿وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟﴾.

﴿جَنَّٰتُ ٱلْفِرْدَوْسِ نُزُلًا﴾ قد مرَّ معنى النُّزُل وما فيه من التَّنبيه. و﴿ٱلْفِرْدَوْسِ﴾: البستان الذي يجمع محاسن كلِّ بستان. قاله الزَّجَّاج[١].

وروي مرفوعاً أنَّه أوسط الجنَّة وأعلاها[٢].

***

(١٠٨) ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾.

﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ نصبٌ[٣] على الحال، ولَمَّا كان ما ذكر في سابق تقديره تعالى لم يحتج هاهنا إلى تقدير.

﴿لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا﴾؛ أي: لا يطلبون عنها التَّحوُّل؛ إذ لا مزيد عليها حتى تنازعَهم إليه أنفسُهم، بل فيها جميع ما تشتهي أنفسهم، وهذه غاية الوصف.

والتَّحوُّلُ: التَّنقُّل من موضعٍ إلى موضعٍ، والاسم: الحِوَل. ذكره الجوهري[٤].

وفيه تأكيد الخلود؛ لأَنَّهم إذا لم يريدوا الانتقال عنهما لا يُنْقَلون[٥]؛ لعدم الإكراه فيها.

***

---

(١) انظر: «معاني القرآن وإعرابه» للزجاج (٣/ ٣١٥).

(٢) روى البخاري (٢٧٩٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «إن في الجنة مئة درجة، أعدَّها الله للمجاهدين في سبيل الله، ما بين الدَّرجتين كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنَّة وأعلى الجنَّة ـ أراه ـ فوقه عرش الرَّحمن، ومنه تفجر أنهار الجنَّة».

(٣) في (ك): «نصبه».

(٤) انظر: «الصحاح» (٤/ ١٦٨٠) (مادة: حول).

(٥) في (ك): «لا ينتقلون»، وفي (م): «لم ينتقلون».

(١٠٩) ـ ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.

﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا﴾ هو في الأصل: الحاوي شيئاً بعدَ شيءٍ على اتِّصال، وصار اسماً لكلِّ ما يُمَدُّ به الشَّيء على العموم، والمراد هنا: الحِبر، وهو اسم خاصٌّ لِـمَا في الـمِحبرة.

﴿لِّكَلِمَاتِ رَبِّي﴾: لكلماتِ علمه وحكمته.

﴿لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾: لنفد جنسُ البحر؛ أي: لم يبقَ منه شيء؛ لتناهيه.

﴿قَبْلَ أَن تَنفَدَ﴾ قرئ بالتَّاء والياء[1].

﴿كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ لعدم تناهيها، وفي نفاده قبل نفادها لا يلزم تحقُّق نفادها بعد نفاده، ولذلك يقع الطَّلاق الواحد إذا قال لغير المدخول بها: أنت طالقٌ واحدةً بعد واحدةٍ.

﴿وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾: بمثلِ البحر الموجود مَدداً لنفد أيضاً، والكلمات أيضاً غيرَ نافدة؛ ضرورةَ أنَّ كلَّ ما يدخل تحت الوجود متناهي[2] المقدار، فلا بُدَّ مِنْ نفاده، بخلافِ ما لا نهاية له فإنَّه يستحيل نفادُه.

و﴿مَدَدًا﴾: تمييز، وهو مثلُ المداد، وقرئ: (مِدداً) بكسر الميم[3]، جمع مِدَّة، وهي[4] ما يَستمدُّه الكاتب فيَكتبُ به.

---

(١) قرأ حمزة والكسائي بالياء، والباقون بالتاء. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٦).

(٢) في النسخ: «متناه»، والصواب المثبت.

(٣) نسبت للأعرج. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠).

(٤) في (ف): «وهو».

وقرئ: (بمثله مداداً)[1].

وسبب نزوله: أنَّ اليهود قالوا: في كتابكم: ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩]، وتقرؤون: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥]، فنزلَتْ. يعني أن ذلك خيرٌ كثيرٌ، ولكنَّه قطرةٌ من بحر كلمات الله تعالى[2].

***

(١١٠) - ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ في العجز عن الإحاطة عن كلماته[3]، إلَّا أنِّي أفارقكم بنزول الوحي عليَّ، وبعضِ الإحاطة بسببه.

﴿يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ نبَّه على الوحدانيَّة؛ لأنَّهم كانوا كفاراً بقولهم: عزيرٌ ابن الله، ثمَّ حضَّ على ما فيه النجاة بقوله:

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا۟ لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ الرَّجاء: توقُّع الخير في المستقبل، وهو الطَّمع أيضاً، لكنَّه يُستعمل في الأمور المحمودة.

وفرِّق بين الرَّجاء والاغترار: بأنَّ الرَّجاء يكون لمن مهَّد أسباب المرجوِّ، والاغترار لمن أخلَّ بها.

---

(١) نسبت لابن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٠).

(٢) انظر: «تفسير الثعلبي» (٤/ ١٦٢)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٥٤٦)، و«الكشاف» (٢/ ٧٥٠).

(٣) «عن كلماته» كذا في النسخ، ولعل الصواب: (بكلماته).

والمراد من لقاء الله تعالى: كرامتُه، وتقدير المضاف على أن يكون الكلام: (حُسْنَ لقاء ربِّه) لا يغني عن هذا التَّجوُّز، وهذا يغني عنه.

﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ لائقاً لذلك الرَّجاء.

﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًا﴾ قال ابن جبير: لا يرائي في عمله، ولا يبتغي إلَّا وجهَ ربِّه خالصاً لا يخلط به غيره[1].

روي: أن جندب بن زهير قال لرسول الله ﷺ: إنِّي أعمل العمل لله تعالى، فإذا اطَّلع عليه أحدٌ سرَّني؟ فقال: «إن الله لا يقبل ما شُوْرِكَ فيه» فنزلَتْ تصديقاً له عليه السَّلام[2].

وعنه عليه السَّلام: «اتقوا الشِّركَ الأصغرَ» قالوا: وما الشِّركُ الأصغرُ؟ قال: «الرياء»[3].

---

(١) انظر: «النكت والعيون» (٣/ ٣٥٠)، و«زاد المسير» (٥/ ٢٠٣).

(٢) قال الزيلعي في «تخريج أحاديث الكشاف» (٢/ ٣١٣): (غريب، وذكره الواحدي في أسباب النزول عن ابن عباس رضي الله عنهما). قلت: هو في «أسباب النزول» (ص: ٢٩٢).
ورواه بنحوه أبو نعيم في «معرفة الصحابة» (١٥٩١)، وابن عساكر في «تاريخ دمشق» (١١/ ٣٠٤)، من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، ومحمد بن مروان كذاب، والكلبي متروك، وأبو صالح لم يسمع من ابن عباس، والإسناد كما ترى.

(٣) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٢٣٦٣٠) و(٢٣٦٣٦) من حديث محمود بن لبيد رضي الله عنه.
ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٤٣٠١) من حديث محمود بن لبيد عن رافع بن خديج رضي الله عنهما.
وروى نحوه البزار في «مسنده» (٣٤٨١)، والطبراني في «المعجم الكبير» (٧١٦٠)، والحاكم في «المستدرك» (٧٩٣٧)، وصححه.

والآيـة جامعـة لخاصَّتـي العلـم والعمـل، وهمـا التَّوحيـد والإخـلاص فـي الطَّاعـة.

وقـرئ: (تشـرك) بالتَّـاء[١]، التفاتـاً مـن الغيبـة إلـى الخطـاب، ثـم عـاد إلـى الالتفـات مـن[٢] الخطـاب إلـى الغيبـة فـي ﴿رَبِّهِۦٓ﴾[٣]. والله أعلـم بالصـواب.

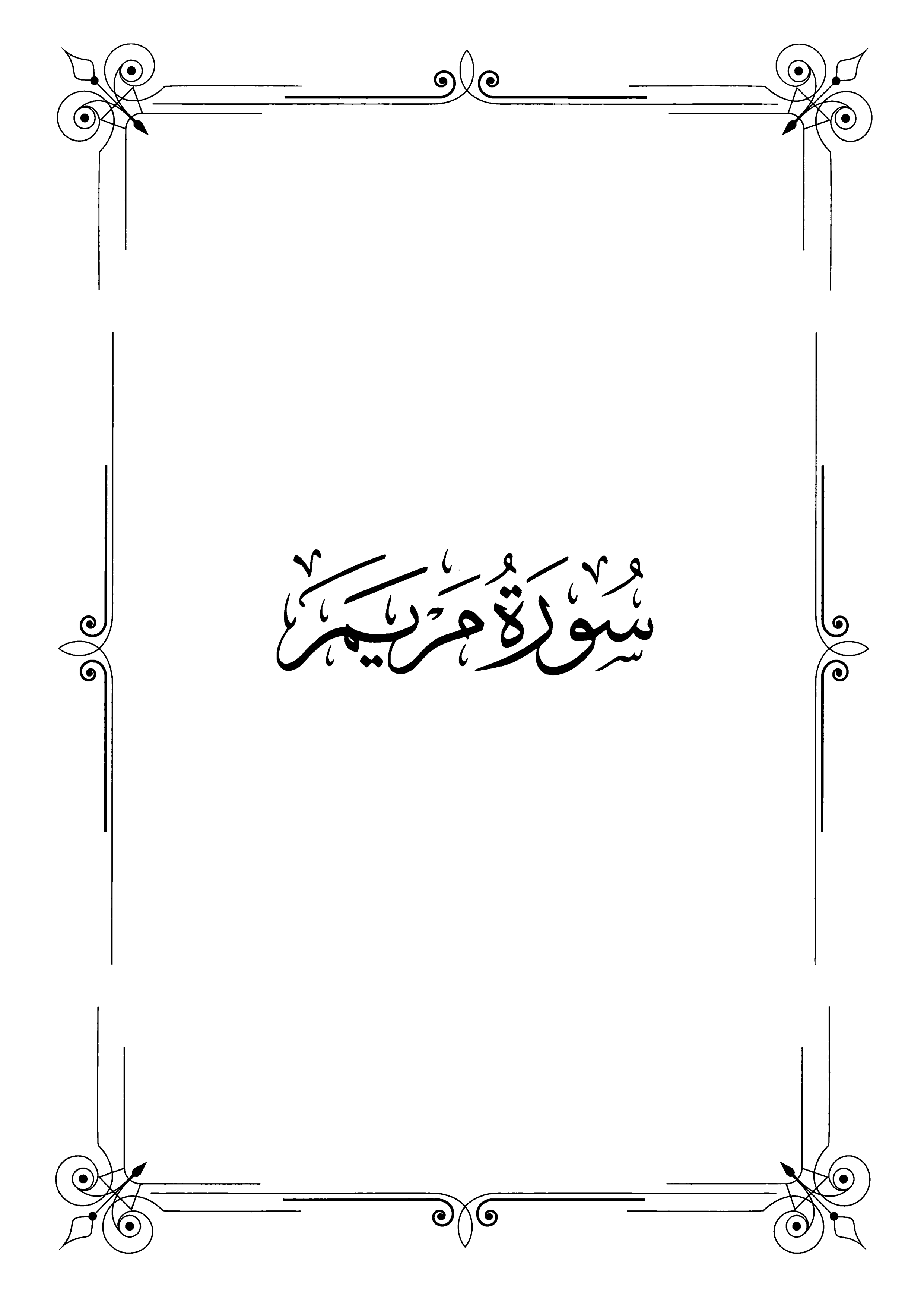
* * *

---

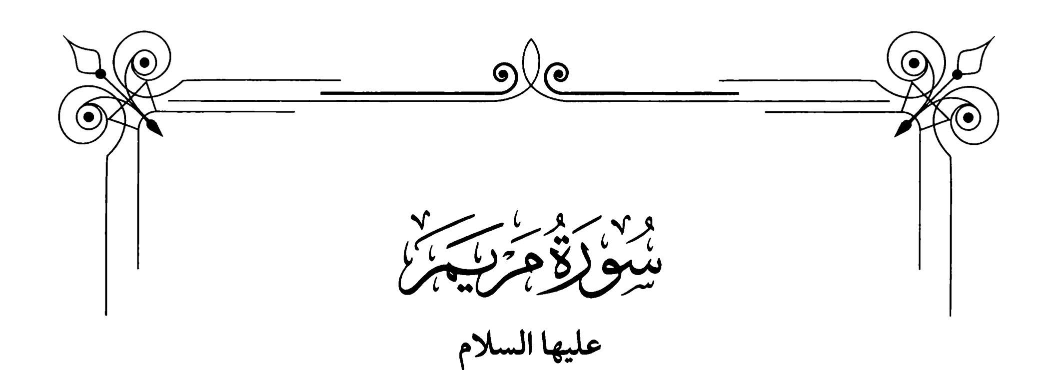
(١) انظر: «البحر المحيط» (١٤/ ٣٨٣).

(٢) «الالتفات من»: ليست في (م).

(٣) «والله أعلم بالصواب» ليست في (ف).



سُورَةُ مَرْيَمَ



سورة مريم

عليها السلام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿كٓهيعٓصٓ﴾.

﴿كٓهيعٓصٓ﴾ قد سبق القول فيه[1].

* * *

(٢) ـ ﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُۥ زَكَرِيَّآ﴾.

﴿ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ﴾ خبرُ محذوفٍ؛ أي[2]: هذا ذِكْر، أو خبرُه محذوفٌ؛ أي: فيما يُتْلَى عليك ذكرُ.

وقرئ: (ذَكَّرَ) مشدَّداً على الماضي من التذكير، ونصبِ (رحمةَ)[3]؛ أي: هذا المتلوُّ ذكَّرَ رحمةَ ربِّك.

---

(١) في هامش (س): «تقدم الكلام في أول البقرة على الحروف المنقطعة التي في فواتح السور بما يتوقف عليه هناك، كذا في تفسير الشيخ الإمام أثير الدين أبو [كذا] حيان رحمه الله»

(٢) في (م): «تقديره».

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦) ونسبها ليحيى بن يعمر، و«المحتسب» (٢/ ٣٧) ونسبها للحسن.

و: (ذَكّر) على الأمر[١]، وهذا صريحٌ في عدم اتصاله بما قبله، فالوجه أن يُعرب الباقون موافقاً لهذا؛ لأن الأصل في القراءات التوافق.

﴿عَبْدَهُۥ﴾ مفعول الرحمة، أو الذكر، على أن الرحمة فاعلُه على الاتِّساع، كقولك: ذَكَرني جودُ زيد.

﴿زَكَرِيَّآ﴾ بدل منه، أو عطف بيان له.

* * *

(٣) - ﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾.

﴿إِذْ﴾ ظرف للرحمة، دلالةً على أن وقت ندائه هو وقت رحمة ربِّه لم يتخلَّف عنه.

﴿نَادَىٰ رَبَّهُۥ﴾ النداء قد يُستعمل في مطلَق الخطاب، كما في قوله: ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحْتِهَآ﴾ [مريم: ٢٤] فلا تَنافيَ في قوله: ﴿نِدَآءً خَفِيًّا﴾ بين الصفة والموصوف.

أي: دعا دعاءً سرًّا[٢]؛ لأن[٣] الإسرار والجهر[٤] عند الله سِيَّان، وعندنا الإسرارُ أبعدُ من الرياء وأقرب إلى الصفاء، وأخفاهُ لئلا يُلام على طلب الولد في أوانِ الكِبَر، فإنه كان حينئذٍ متجاوزاً إلى الهَرَم، على ما دلَّ عليه قوله: ﴿وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦) ونسبها ليحيى بن يعمر.

(٢) في (م): «مسرًّا».

(٣) في (ف) و(ك): «لا أن».

(٤) في هامش (س) و(ف): «من قال: لأن الإخفاء والجهر، كأنه غافل من أن مقابل الإخفاء الإعلان دون الجهر فإنه مقابل الإسرار. منه». وفيه رد على البيضاوي في قوله: (﴿إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ نِدَآءً خَفِيًّا﴾ لأن الإخفاء والجهر عند الله سيان).

(٤) ـ ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي﴾ استئناف لتفسير النداء ﴿وَهَنَ ٱلْعَظْمُ﴾ الوَهن: الضَّعْف، وقُرئ بالحركات الثلاث[1]، وتخصيص العَظْم؛ لأنه دعامة البَدَن وأصلُ بنائه؛ فتطرُّق الضعف إليه موجبٌ لتطرُّقه إلى كل البدن، ولأنه أصلبُ ما فيه، فإذا وهنَ كان ما وراءَه أوهنَ، وتوحيدُه لأن المراد الجنس، ولو جمع لكان قصداً إلى معنًى آخر، وهو أنه لم يَهِن منه[2] بعضُ عظامه ولكن كلُّها، وذلك ليس مقصوداً بحسب المساق، وما زاد على المقصود يُعدُّ لُكْنةً[3] وفضولاً.

ولما اقتضى المقامُ تعريف الحقيقة في العَظْم دون الرأس احتيج إلى زيادة قوله: ﴿مِنِّي﴾ هنا دون قوله: ﴿وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾؛ أي: استولى الضعفُ على الظاهر والباطن، وذكر هذا يزيد الدعاء توكيداً؛ لِـمَا فيه من الاتِّكال على حول الله تعالى[4] وقوَّته، والتبرِّي عن الأسباب الظاهرة، شَبَّه الشيبَ بشُواظ النار، لا في بياضه وإنارته فقط، بل فيهما وفي أن النار كما تشتعل في الجسم وتسري فيه حتى تُحيله إلى غير حاله المقدَّم، كذلك الشيب يأخذ في الرأس ويسري شيئاً فشيئاً حتى يُحيله إلى غيرِ لونِه الأول، وشبَّه انتشاره في الشعر وفشوَّه فيه وأَخْذَه منه كلَّ مأخذٍ باشتعال النار في سرعة التهابه وتعذُّر تلافيه.

---

(١) قرأ الجمهور بفتح الهاء، والأعمش بكسرها، وقرئ بالضم، انظر: «البحر المحيط» (١٤/ ٣٩١).

(٢) في (ك): «فيه».

(٣) في (ك) و(ف): «نكتة»، بدل قوله: «يعدّ لكنة».

(٤) في (ف) و(م): «حوله تعالى».

ولا بدَّ في التشبيه الثاني من اعتبار معنى السرعة في وجه الشَّبَه، إذ به يُعلم كون الشيب في وقته، فتتمُّ الكناية عن المعنى المراد وهو الدخول(١) في سنِّ الشيخوخة، فإن الشيب قد يأخذ من الرأس كلَّ مأخذٍ قبل ذلك إلا أنه يكون على تدريجٍ ومهلٍ.

ثم أخرج الأول مخرج الاستعارة المَكْنيَّة، والثاني مخرج الاستعارة التصريحيَّة، وأصل الكلام: اشتعل الشيبُ في الرأس، لا: اشتعل مشيبُ الشعر في الرأس؛ لأن الشيب: مخالطة الشعر الأبيض بالأسود، فترك تلك المرتبة إلى ما هو أبلغ منها من جهات:

أولها: إسناد الاشتعال إلى الرأس؛ لإفادة شمول الاشتعال.

وثانيها: الإجمال والتفصيل في طريق التمييز.

وثالثها: تنكير ﴿شَيْبًا﴾ لإفادة التعظيم.

واكتفى باللام عن الإضافة لا اعتماداً على علم المخاطب، وإلَّا لما ذكر ﴿مِنِّي﴾ فيما سبق، بل اعتماداً على أن المتبادِر من العطف على المقيَّد اعتبارُ القيد فيه.

﴿وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ أي: كنتُ مستجابَ الدعوة قبل اليوم سعيداً غيرَ شقيٍّ فيه، يقال: سَعِدَ فلانٌ لحاجته، إذا ظفر بها، و: شَقِيَ، إذا خاب ولم ينلها، يعني: أنه تعالى عوَّده بالإجابة وأطمعه فيها، ومن حقِّ الكريم أن لا يخيب مَن أَطْمَعه(٢).

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «الوصول»، والمثبت من (س).

(٢) في هامش (س) و(ف) و(م): «عبارة التنبيه الواقع في كلام القاضي لم تصب محزها. منه». وعبارة =

وفيما ذكر تذكُّر لعادات تفضُّله تعالى في إجابة أدعيته، وتوسُّلٌ به، وذلك نِعْمَ الوسيلة، وتحسينُ الظَّنِّ بالإجابة، فإن له تأثيراً فيها: «قال الله تعالى: أنا عند ظنِّ عبدي بي»[١].

* * *

(٥) ـ ﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴾.

﴿ وَإِنِّي خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِيَ ﴾ المولى: ابنُ العمِّ والعَصَبةُ، وجمعه: الموالي.

﴿مِن وَرَآءِى ﴾ قال أبو عبيدة: أي: من جهة الموت الذي هو قدَّامي، قال الشاعر:

أيرجو بنو مروانَ سمعي وطاعتي وقومي تميمٌ والفلاةُ ورائيا[٢]

كأنه لم يَرَ فيهم من الخِلال ما يَصلحون به للقيام مقامه في الدِّين.

وقرئ: (خَفَّت)[٣]، وتعلُّقُ الظرف به ظاهرٌ، يعني: أنهم خَفُّوا قُدَّامه ودرَجوا ولم يبقَ منهم مَن به تقوٍّ واعتِضادٌ.

= البيضاوي: (﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴾ بل كلما دعوتك استجبت لي، وهو توسل بما سلف معه من الاستجابة، وتنبيه على أن المدعو له وإن لم يكن معتاداً فإجابته معتادة، وأنه تعالى عوده بالإجابة وأطمعه فيها، ومن حق الكريم أن لا يخيب من أطمعه).

(١) رواه البخاري (٧٤٠٥)، ومسلم (٢٦٧٥)، من حديث أبي هريرة ضي الله عنه.

(٢) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢)، ونسب البيت فيه لمساور بن حمئان من بني ربيعة، ونسب لسوار بن المضرَّب في «الكامل» للمبرد (٢/ ٢٦٨)، و«الأضداد» للأصمعي (ص: ٢٠).

(٣) نسبت لعثمان بن عفان ومحمد بن علي وعلي بن الحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦).

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا﴾ العاقر: التي لا تلد لكِبَر سِنِّها، وفي عبارة (كانت) دلالةٌ على أنها استمرَّت مدَّة على تلك الحالة.

والظاهرُ من تقديم هذا القول أنه أراد الولد منها، وقد مَرَّ وجهه في سورة آل عمران، ويناسب هذا أن يكون المراد من ﴿يَعْقُوبَ﴾ أبا امرأته.

﴿فَهَبْ لِي مِن لَّدُنكَ﴾ اختراعاً منك بلا سبب؛ لأني وامرأتي لا نَصلح للولادة ﴿وَلِيًّا﴾ ابناً يلي أمرك بعدي.

* * *

(٦) ـ ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾.

﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ﴾ قرئ: برفعهما، صفة لـ (ولي)، أي: هب لي ولداً وارثاً منِّي العلمَ ومن آلِ يعقوب النبوَّةَ، ومعنى وراثةِ[1] النبوَّة: أنه يصلح لأَن يُوحى إليه، ولم يُرد أنَّ نفس النبوَّة تُورَث.

وبجزمها[2] على أنه جوابٌ للدُّعاء.

ورَدَّ أبو عبيدة قراءةَ الجزم، وقال: لأن معناه: إن وهبتَ وَرث، وكيف يُخبر الله تعالى بهذا وهو أعلم به [منه][3]؟!.

﴿مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ﴾ يعقوبُ[4] بن ماثانَ أخو عمرانَ أبو مريمَ.

---

(١) في (ف): «وراثته».

(٢) هي قراءة أبي عمرو والكسائي، وقرأ باقي السبعة بالرفع، انظر: «التيسير» (ص١٤٨).

(٣) انظر: «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٢)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٤١٥)، والكلام وما بين معكوفتين منه.

(٤) «يعقوب»: ليست في (ك) و(م).

وقرئ: (يرثُني وارثَ آل يعقوب)، على الحال من أحد الضميرين[١].

و: (أُوَيْرِثٌ) بالتصغير[٢]، لا لصغره؛ لأنه[٣] لا يناسب المقام، بل للمدح، كقول حباب[٤] بن المنذر: أنا جُذَيْلُها المُحكَّك وعُذَيقُها المرجَّب[٥].

---

(١) نسبها الزمخشري لابن عباس والجحدري. انظر: «الكشاف» (٢/ ٥٠٣)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٦)، وعنه نقل المؤلف. وكونه على الحال قاله الزمخشري، وكونه من أحد الضميرين زاده البيضاوي، وكونه على زنة اسم الفاعل قاله الشهاب. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ١٤٥)، وقال الطيبي في «فتوح الغيب» (٩/ ٥٧١): بنصب (وارث)، ثم قال: (قيل: هو: حالٌ؛ أي: يرث علمي ويرث علم آل يعقوب). ولا أرى هذا التقدير موافقاً لما أراده البيضاوي، كما لم أجد مَن قدره من شراح البيضاوي، والمراد ـ والله أعلم ـ على تقدير كونه حالاً من فاعل ﴿يَرِثُنِي﴾: يرثني حالة كوني وارثَ آلِ يعقوب؛ أي: وقد كنت وارثاً لهم، وعلى تقدير كونه حالاً من مفعوله: يرثني حالة كونه وارث آل يعقوب، أي: فيكون بوراثتي وارثاً لآل يعقوب. وجاء في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٣) عن ابن عباس والجحدري: (يرثني وارثٌ) بالفتح والتنوين. كذا قال ابن خالويه، وهو يؤيد ما ذكرناه من التقدير، ولم يذكر الزمخشري التنوين.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٣)، و«الكشاف» (٢/ ٥٠٣)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٣٩٥).

(٣) في هامش (ف): «رد لمن قال وعد بإجابة دعائه. منه».

(٤) في (م): «حيان».

(٥) قاله الحباب بن المنذر بن الجموح الأنصاري يوم السقيفة عند بيعة أبي بكر رضى الله عنه، يريد أنه قد جربته الأمور وله رأي وعلم يُشتفى بهما كما تشفى الإبل الجربى باحتكاكها بالجذل. والخبر رواه البخاري (٦٨٣٠) مطولاً من حديث ابن عباس رضي الله عنهما. الجذيل: تصغير الجذل وهو أصل الشجرة. والمحكك: الذي تتحكك به الإبل الجربى، وهو عود ينصب في مبارك الإبل لذلك. والعذيق: تصغير العذق وهو النخلة. والمرجب: الذي جعل له رجبة وهي دعامة تبنى حولها من الحجارة.

و: (وارثٌ من آلِ يعقوب)[١] على أنه فاعل (يرثني)، وهذا يسمَّى التجريد؛ لأنه جرِّد عن المذكور أولاً مع أنه المراد.

﴿وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا﴾ مرضيًّا في أخلاقه وأفعاله، أو: راضياً عنك[٢] وبحكمك.

* * *

(٧) - ﴿يَٰزَكَرِيَّآ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَٰمٍ ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾.

﴿يَٰزَكَرِيَّآ﴾؛ أي: فاستجبنا دعاءه وقلنا: يا زكريا، دلَّ على ذلك قوله في سورة الأنبياء: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ﴾ كانت البشارة بواسطة المَلَك على ما نصَّ عليه في سورة آل عمران.

﴿بِغُلَٰمٍ﴾ فيه بشارةٌ بثلاثة أمور: الولدِ، وكونهِ ذكراً، وبلوغهِ الحُلُم، واختلفوا في بقائه بعد أبيه، والظاهر من قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ﴾ أنه بقي بعده.

﴿ٱسْمُهُۥ يَحْيَىٰ﴾ تولَّى اللهُ تعالى تسميته؛ تشريفاً له.

﴿لَمْ نَجْعَل لَّهُۥ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ لم يُسمَّ أحدٌ بيحيى قبله، وفيه دلالة على أن في التخصيص باسمٍ مستحسنٍ نوعَ تشريفٍ للمسمَّى، وقد سبق معنى ﴿يَحْيَىٰ﴾ وبيان اشتقاقه[٣].

* * *

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٣٨)، ونسبها لعلي بن أبي طالب وابن يعمر وجماعة.

(٢) في (ف) و(ك): «منك».

(٣) في هامش (ف): «لا بالأسامي العربية مطلقاً كما توهم».

(٨) - ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾.

﴿قَالَ﴾ زكريا: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ استفهامٌ تعجُّبي يدلُّ على التصديق بوقوع المخبَر به والاعترافِ بكمال قدرته عليه؛ لأن التعجُّب إنما ينشأ من استغرابٍ مقارنٍ للتصديق به؛ لتضمُّن الاستخبار أنه يُولَد له على هذه الحالة أو بعد الإحالة.

فاندفع ما قيل: لِمَ استبَعد واستَعجب؟ وأجيب: بأنه ليجاب[١] بما أجيبَ به، فيزدادَ المؤمنون إيقاناً ويرتدع المبطلون.

وليتَ شِعري مَن المراد من الموقنين والمبطلين وقد كان دعاؤه مخفيًّا عن الغير؟!

ثم إنه عليه السلام فَهِمَ من البشارة المذكورة أنَّه يرى بلوغ يحيى عليه السلام أوانَ الحلم، فازداد به التعجُّب، ولهذا قال: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ﴾ دون: أنى يكون لي ولد، وأنه يُولد من امرأته التي طلب الولد منها، ولهذا قال:

﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا﴾[٢] هو اليُبسُ والجَساوةُ في المفاصل والعظام - كالعود اليابس - من أجل الكِبَر والطَّعْن في السِّنِّ العالية.

***

(١) «ليجاب» من (س) وحدها، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٢/ ٦)، وهو السائل والمجيب.

(٢) في (م): «أنى يكون لي غلام وقد بلغت من الكبر عتياً».

(٩) ـ ﴿ قَالَ كَذَٰلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِن قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْـًٔا ﴾.

﴿ قَالَ ﴾ المَلَك المبلِّغ للبشارة تصديقاً له: ﴿كَذَٰلِكَ﴾: الأمر كذلك ﴿قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ﴾؛ أي: بأن أردَّ عليك قوَّة الجِماع وأفتقَ رَحِمَ امرأتك للعُلوق[١].

وقرئ: (وهو عليَّ هَيِّنٌ)[٢] على العطف على محذوف، أي: أجعله[٣] وهو عليَّ هيِّن.

﴿وَقَدْ خَلَقْتُكَ﴾ أراد خَلْق مادَّته لا خلق صورته؛ لأنه عن شيء، فلا يناسب السباق واللحاق[٤]، ولهذا قال:

﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: مِن قبل خَلْقك بشراً ﴿وَلَمْ تَكُ﴾ حينئذٍ ﴿شَيْـًٔا﴾ بل كنتَ لا شيئاً محضاً، وليس فيه تعرُّضٌ للخلافية المشهورة.

* * *

(١٠) ـ ﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ۚ قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾.

﴿ قَالَ رَبِّ ٱجْعَل لِّيٓ ءَايَةً ﴾: عَلَامةً أعلم بها أنه علقَ؛ لأزيد في الشكر وفي دعاء[٥] السلامة.

---

(١) في هامش (س) و(ف) و(م): «وما قيل: لا احتاج فيما أريد أن أفعله إلى الأسباب، لا يناسب المقام؛ لأن الأسباب العادية غير مرفوضة في خلق يحيى عليه السلام. منه».

(٢) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٣).

(٣) في (ك): «أفعله».

(٤) في (س): «السياق واللحاق»، وفي (م): «السابق واللاحق».

(٥) في (ف) و(ك): «وفي علة»، وفي (س): «ودعاء» وسقطت منها (في).

﴿قَالَ ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ﴾: علامتُك أن تمتنِعَ من كلام الناس دونَ ذكرِ اللهِ تعالى.

﴿ثَلَٰثَ لَيَالٍ﴾ دلَّ ذكر الليالي هنا والأيامِ في سورة آل عمران على أنَّ المنع من كلام الناس استمرَّ ثلاثة أيام ولياليهنَّ؛ للتجرُّد للذِّكر والشكر.

﴿سَوِيًّا﴾ حالَ كونك سويَّ الخلق، سليم الجوارح، ما بِكَ خرسٌ ولا بَكَمٌ.

* * *

(١١) ـ ﴿فَخَرَجَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ أَن سَبِّحُوا۟ بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾.

﴿فَخَرَجَ﴾ مُشرِفاً ﴿عَلَىٰ قَوْمِهِۦ مِنَ ٱلْمِحْرَابِ﴾؛ أي: المسجد، وكانوا ينتظرون فتحه ليصلُّوا فيه بأمره على العادة.

﴿فَأَوْحَىٰٓ﴾: أشار ﴿إِلَيْهِمْ﴾ لقوله: ﴿إِلَّا رَمْزًا﴾، ﴿أَن سَبِّحُوا۟﴾: صلُّوا، و﴿أَن﴾ هي المفسِّرة ﴿بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ طرَفي النهار.

* * *

(١٢) ـ ﴿يَٰيَحْيَىٰ خُذِ ٱلْكِتَٰبَ بِقُوَّةٍ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

﴿يَٰيَحْيَىٰ﴾ على تقدير القول ﴿خُذِ ٱلْكِتَٰبَ﴾: التوراة ﴿بِقُوَّةٍ ۖ﴾ بجدٍّ، أَخذُه: قَبولُه، وكون أخذِه بقوَّةٍ العملُ به كما هو حقُّه.

﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ﴾ يعني: الحكمةَ وفَهْم التوراة ﴿صَبِيًّا﴾ قيل: دعاهُ الصبيانُ إلى اللعب، فقال: ما للَّعب خُلِقنا.

* * *

(١٣) ـ ﴿وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً ۖ وَكَانَ تَقِيًّا﴾.

﴿وَحَنَانًا﴾ شفقةً ورحمةً للناس، وإنما قال[1]: ﴿مِّن لَّدُنَّا﴾ مع أنَّ الكُلَّ من عند الله تعالى؛ للدلالة على أنَّ شفقته عليه السلام كانت زائدة على ما في جِبِلَّة[2] الناس، خارجةً عن المعتاد.

﴿وَزَكَوٰةً﴾ وطهارةً من الذنوب، فلم يُعْهَد بذنب.

﴿وَكَانَ تَقِيًّا﴾ مستمرًّا على الإطاعة والتجنُّب عن المعاصي.

* * *

(١٤) ـ ﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾.

﴿وَبَرًّا بِوَٰلِدَيْهِ﴾؛ أي: محسِناً إليهما في الغاية.

﴿وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ الجبَّار: الذي يُعاقِب على غضب نفسِه لا على استحقاقِ الجاني، قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَطَشْتُم بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ﴾ [الشعراء: ١٣٠].

والعَصِيُّ: المبالِغ في العصيان، وهو مخالفةُ الأمر، فإن الظاهرَ المبالغةُ في النفي دون المنفي، والعدول عنه للإشعار بأن شأن النفوس القويَّة البلوغُ إلى الغاية في كلِّ صفة بها، ممدوحةً كانت أو مذمومةً.

* * *

(١٥) ـ ﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ وَيَوْمَ يَمُوتُ وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا﴾.

﴿وَسَلَٰمٌ عَلَيْهِ﴾ تحيَّةٌ من الله تعالى ﴿يَوْمَ وُلِدَ﴾ أتى هنا بصيغة الماضي، وفي قوله: ﴿وَيَوْمَ يَمُوتُ﴾ بصيغة المضارع؛ لأن مساق الكلام بعد ولادته وقبل موته.

---

(١) في (ف): «قلنا»، وفي (ك): «قيل».

(٢) في (ف): «حيلة».

﴿وَيَوْمَ يُبْعَثُ﴾ مطلق البعث يعمُّ ما في القبر، إلا أنه حينئذٍ لا يُطلَق عليه الحيّ، فقوله: ﴿حَيًّا﴾ لتعيين بعث الآخرة[1].

قال ابن عيينة[2]: أوحشُ ما يكون الخلق في ثلاثة مواطن: يوم ولد، ويوم يموت، ويوم يُبعث[3]. فهذه فجاءات ثلاث، لا فجاءةَ أعظمُ منها، ويحيى عليه السلام يُحيَّى بالسلام[4] في هذه المواطن العظام.

***

(١٦) ـ ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَرْيَمَ إِذِ ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا شَرْقِيًّا﴾.

﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ﴾؛ أي: القرآن ﴿مَرْيَمَ﴾ يعني: قصَّتها.

﴿إِذِ﴾ ظرف لمضاف مقدَّر، وقيل: (إذ) بمعنى (أَنْ) المصدرية، وتقديره: واذكر مريم انتباذَها، على أن (انتباذَها) بدلٌ من ﴿مَرْيَمَ﴾.

وأما ما قيل: إنه بدل من قصَّةِ مريم بدلَ الاشتمال لأن الأحيان مشتملة على ما فيها، أو بدلَ الكُلِّ لأن المراد من الظرف الأمر الواقع فيه = فلا يَرِدُ عليه أنَّ الزمان إذا لم يكن خبراً عن الجثَّة ولا حالاً منها ولا وصفاً لها لا يكون بدلاً منها.

﴿ٱنتَبَذَتْ﴾؛ أي: انفردت وقعدت نبذةً، أي: ناحيةً؛ وهذا إذا جلس قريباً منك حتى لو نبذتَ إليه شيئاً وصل إليه، ولذلك احتاجت إلى ضرب الستر بينها وبينهم[5]، ويُرشِد إلى هذا قولُ: ﴿مِن دُونِهِمْ﴾.

---

(١) في (م): «لتعيين البعث».

(٢) قوله: «قال ابن عيينة» من (م)، وهو الموافق لما في «تفسير القرطبي».

(٣) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٢٧ و٤٢٧)، والخبر رواه البيهقي في «الزهد الكبير» (٥٩٨).

(٤) في (ف): «ويحيى عليه بالسلام».

(٥) في هامش (ف) و(م): «فيه ردٌّ لما في التيسير من أنه للاستتار من الشمس. منه».

﴿مِنْ أَهْلِهَا مَكَانًا﴾ انتصابه على تضمين الانتباذ معنى الإتيان، أو على الاتِّساع.

﴿شَرْقِيًّا﴾ شرقيَّ بيت المقدس، أو شرقيَّ دارها، ولذلك اتخذ النصارى المشرقَ قبلةً.

* * *

(١٧) ـ ﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾.

﴿فَاتَّخَذَتْ مِن دُونِهِمْ حِجَابًا﴾: ستراً تستَّرت به عن أهلها؛ بدلالة قوله: ﴿مِن دُونِهِمْ﴾.

قيل: قعدت في مَشْرقة[1] للاغتسال من الحيض، فاحتجبت بشيء يسترها.

﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾؛ أي: جبرائيل عليه السلام، والإضافة للتشريف.

﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا﴾؛ أي: تصوَّر لمريم ﴿بَشَرًا سَوِيًّا﴾ معتدل الخَلْق، حَسَن الصورة[2]، وإنما مثّل كذلك لا للاستئناس بكلامه وتهييج شهوتها فتنحدرَ نطفتها إلى رَحِمها، إذ حينئذٍ لا يكون مَثَلُه كمَثَل آدم عليه السلام في الخَلْق بلا واسطةِ نطفة، بل لئلَّا تنفرَ عنه، فتسمع كلامه وتُبتلى به فتظهر عفَّتها.

ولمَّا رأت رجلاً قد دخل عليها فجأةً في الخلوة، ظنَّت أنه يريدها بسوء، وعلمت أنها لا تقدر على دفع ذلك، فاستعاذت بالله:

(١٨) ـ ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾.

---

(١) مثلثة الراء: محل شروق الشمس والقعود فيه شتاء. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ١٤٩).

(٢) في هوامش (س) و(ف) و(م): «السوي يقال فيما يصان عن الإفراط والتفريط من حيث القدر والكيفية، ذكره الراغب. منه».

﴿قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ﴾ استئناف على تقدير سؤال، وفي ذكر الرحمن تذكيرٌ ليوم الجزاء، فإنه تعالى رحيم الدنيا ورحمن الآخرة.

﴿إِن كُنتَ تَقِيًّا﴾ تتَّقي الله وتخشاهُ فلا تَقْرَبني، فحذف الجزاء لدلالة الحال عليه، وهذا كقول القائل: إن كنت مؤمناً فلا تَظلمني، أي: ينبغي أن يكون إيمانُك مانعاً لك من الظلم[١].

***

(١٩) ـ ﴿قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾.

﴿قَالَ﴾ جبريل: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ في عبارة الرسول إشارة إلى أن توسُّطه في الخبر دون الأَثَر، وأتى بالرَّبِّ مضافاً إليها؛ لنوعٍ من الدلالة في أول الكلام على أن الرسالة لإيصالِ النعمة والإحسان الخاصِّ بها من بين العباد، ولما كان في مفهوم الخبر باعتبار هذا المعنى مظنَّةُ الاستبعاد أكَّده بـ: ﴿إِنَّمَآ﴾.

﴿لِأَهَبَ لَكِ﴾ حكاية لقول الله تعالى، دلَّ على ذلك قراءة: ﴿ليهب﴾ بالياء[٢]، ويناسبه وصف الرسالة، وفي عبارة الهبة إشارة إلى أن ما أعطيَ لها يصل إليها بسهولة.

﴿غُلَٰمًا﴾ قد مرَّ ما فيه من وجوه البشارة.

---

(١) في هامش (س) و(ف) و(م): «المقام مقام الحثِّ على الانزجار، فالوجه ما ذكرنا، لا ما قيل: إن كنت تقياً فإني أعوذ منك، فكيف إذا لم تكن كذلك. منه».

(٢) قراءة أبي عمرو، وورش عن نافع، والحلواني عن قالون عن نافع. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٨)، و«النشر» (٢/ ٣١٧).

﴿زَكِيًّا﴾: طاهراً من الأدناس، أو نامياً على الخير والبركة.

* * *

(٢٠) - ﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾.

﴿قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَامٌ﴾: ولدٌ[1].

﴿وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ﴾ جعل المسَّ هاهنا بقرينة المقابَلة عبارةً عن النكاح الحلال.

﴿وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا﴾ فاجرة[2] تبغي الرجال؛ أي: تطلب الشهوة من أيِّ رجلٍ كان.

ولا يكون الولد عادةً إلا من أحد هذين[3].

و(البغي) فعول، فقلبت الواو ياء وأدغمت، وكسرت الغين إتباعاً، ولذا لم يُلحق تاءَ التأنيث.

أو: فعيل، ولم يلحقها التاء لأنها بمعنى مفعولة وإن كانت بمعنى فاعلة، فإنه قد يشبَّه به، نحو: مِلحفةٌ جديدٌ.

* * *

(٢١) - ﴿قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَقْضِيًّا﴾.

---

(١) في هامش (س) و(ف) و(م): «فيه إشارة إلى أن حقها أن يكون ولد إلا أنها روت كلامه بعبارته. منه».

(٢) ليست في (ك)، ويوجد بياض مكانها في (ف).

(٣) في هامش (س) و(ف): «إنما قال هاهنا لأنه جعل في آل عمران كناية عن مطلق النكاح حلالًا كان أو حراماً. منه».

﴿قَالَ كَذَٰلِكِ﴾: الأمرُ كذلك من خلق غلامٍ منكِ بغير أبٍ ﴿قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ﴾؛ أي: إعطاء الولد بلا أبٍ عليَّ سهلٌ.

﴿وَلِنَجْعَلَهُۥٓ﴾ تعليلُ معلَّلُه محذوف، أي: وفعلنا ذلك لنجعله ﴿ءَايَةً لِّلنَّاسِ﴾: علامةً لهم وبرهاناً على كمال قدرتنا ﴿وَرَحْمَةً مِّنَّا﴾ على العباد يهتدون بإرشاده.

﴿وَكَانَ﴾ خلقه ﴿أَمْرًا مَّقْضِيًّا﴾ تَعلَّق به قضاءُ الله تعالى في الأزل.

فلما اطمأنَّت إلى قوله، دنا منها فنفخ في جَيْبِ درعها، فوصلت النفخة إلى بطنها.

* * *

(٢٢) ـ ﴿فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾.

﴿فَحَمَلَتْهُ﴾؛ أي: الموهوبَ[1] ﴿فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ﴾؛ أي: فاعتزلت وهو في بطنها، والجارُّ والمجرور في موضع الحال ﴿مَكَانًا قَصِيًّا﴾ بعيداً من أهلها.

* * *

(٢٣) ـ ﴿فَأَجَآءَهَا ٱلْمَخَاضُ إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾.

﴿فَأَجَآءَهَا﴾ جاء بها، ذكره الجوهريُّ[2].

وقيل: ألجأها، وهو منقول من جاء، إلا أن استعماله قد تغيَّر بعد النقل إلى معنى الإلجاء، ونظيره: آتى، حيث لم يستعمل إلا في معنى الإعطاء.

---

(١) في (م): «فحملته كالموهوب».

(٢) انظر: «الصحاح» (مادة: جيأ)، وفيه: وأجأته؛ أي: جئت به.

وفيه نظرٌ، قال الجوهريُّ: وآتاه، أي: أتى به، ومنه قوله تعالى: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا﴾ [الكهف: ٦٢] أي: ائتنا به[١].

﴿ٱلْمَخَاضُ﴾ وقُرئ بالكسر[٢]، وكلاهما مصدرُ مَخَضَت المرأةُ: إذا تحرَّك الولد في بطنها للخروج.

﴿إِلَىٰ جِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ كأنها طلبت شيئاً تستند إليه وتتعلق به كما تتعلَّق الحامل لشدَّة وجع الطَّلْق. والجِذْع: ساقُ النخلة اليابسة الذي لا سَعَفَ عليه ولا غصن[٣].

ولعلَّه تعالى ألهمها ذلك ليريَها من آياته ما يسكِّن روعها، ويُطعمَها الرُّطَب الذي هو طعام النُّفَساء، والتعريف للجنس، ولا مساغ للعهد؛ لأن شرطه أن يكون معروفاً عند المخاطب، وهو مفقود هاهنا.

﴿قَالَتْ يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا﴾ ليس تمنِّي الموت لِـمَا عَرَضتْها من شدَّة وَجَع الطَّلْق[٤]، إذ لا حاجة حينئذٍ إلى قوله: ﴿وكنتُ نِسْياً منسيًّا﴾ بل لأنها خافت أن يقع بسببها قومُها في البهتان والنسبة إلى الزنى، وتمنِّي الموت من جهة الدِّين جائز.

وقرئ: ﴿نَسْيًا﴾ بالفتح[٥]، وهما لغتان كالوِتْر والوَتْر، وهو الشيء المتروك لا يُذكر كأنه منسيٌّ، وقيل: ما شأنه أن يُنسى ولا يُطلب؛ كالذِّبح لِمَا يُذبح.

---

(١) انظر: «الصحاح» (مادة: أتي).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، ونسبها لابن كثير في رواية.

(٣) في هامش (س) و(ف) و(م): «قال القاضي: لا رأس لها ولا خضرة، صوابه: ولا غصن، لا احتمال للخضرة في النخلة اليابسة. منه».

(٤) في هامش (س): «رد للكواشي».

(٥) قرأ الجمهور بالكسر، وقرأ حمزة وحفص بالفتح، انظر: «التيسير» (ص: ١٤٨)، و«النشر» (٢/ ٣١٨).

وقيل: هو بالفتح مصدر، وبالكسر اسمٌ للمنسيِّ المتروك، كالقَشر والقِشر.

***

(٢٤) ـ ﴿فَنَادَىٰهَا مِن تَحۡتِهَآ أَلَّا تَحۡزَنِي قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾.

﴿فَنَادَىٰهَا﴾ كانت المناداة مخاطبةً لها، يعضده قراءةُ: (فخاطبها)[١].

﴿مَن تحتَها﴾ وهو جبريلُ عليه السلام؛ لأنه كان في مكان أخفضَ عنها، أو كان هاهنا بمنزلة القابلة، أو: عيسى عليه السلام؛ لأنه خاطبها مِن تحت ذيلها.

وقُرئ: ﴿مِن﴾ بالكسر[٢]، والفاعل مضمَر وهو عيسى أو جبريل عليهما السلام، على أن الهاء في ﴿تَحۡتِهَآ﴾ للنخلة.

﴿أَلَّا تَحۡزَنِي﴾: أي لا تحزني، أو: بأن لا تحزني ﴿قَدۡ جَعَلَ رَبُّكِ تَحۡتَكِ سَرِيّٗا﴾ جَدولاً، هكذا روي مرفوعاً[٣].

قال ابن عباس رضي الله عنهما: كان ذلك نهراً قد انقطع ماؤه، فأجراه الله تعالى لمريم[٤].

والنهر يُسمَّى سريًّا؛ لأن الماء يَسري فيه.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، ونسبها لزرٍّ وعلقمة.

(٢) قرأ نافع وحمزة والكسائي وحفص بكسر الميم وخفض التاء، وباقي السبعة بفتح الميم ونصب التاء. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٨).

(٣) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (٢/ ٦ ـ ٧)، والحاكم في «المستدرك» (٣٤١٣) وصححه، من قول البراء، وذكره البخاري في «الصحيح» قبل الحديث (٣٤٣٦) من قول البراء أيضاً، ورواه الطبراني في «الصغير» (٦٨٥) من حديث البراء مرفوعاً، وإسناده ضعيف.

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (١٣/ ٤٣٤)، ورواه الطبري في «التفسير» (١٥/ ٥٠٦ ـ ٥٠٧) بنحوه.

فإن قلتَ: ما تقول في قول الحسن: ﴿سَرِيًّا﴾: سيداً[١]، من السَّرو، يعني عيسى عليه السلام؟

قلتُ: ليس بقولٍ حسنٍ؛ لأنه مخالفٌ للتفسير المرفوع.

وفي المثل: إذا جاء نهرُ اللهِ بَطَلَ نهرُ مَعْقِل.

* * *

(٢٥) ـ ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾.

﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ﴾ الهَزُّ: تحريكٌ مخصوصٌ تتبعه الحركتان المتدافعتان إلى الجانبَين المتقابلَين، وتعديته بـ (إلى) لتضمُّنه معنى الجذب، وفائدته: التوطئة لما قصد بقوله: ﴿عَلَيۡكِ﴾، فإن الهَزَّ إذا لم يكن بالمدِّ لا يكون سقوط الثمر على الهازِّ[٢].

والباء في قوله: ﴿بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ﴾ متعلِّق بالبطش الثابت اقتضاء.

﴿تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ﴾ في ﴿تُسَٰقِطۡ﴾ تسع قراءات[٣]: ﴿تسَّاقط﴾ بإدغام التاء، و: (تَتَساقَط) بالفكِّ، و: ﴿تَسَاقَطْ﴾ بطرح الثانية، و: ﴿يَسَّاقط﴾ بالياء وإدغام التاء، و:

---

(١) سقطت: «سيدا» من (م)، وسقطت «سريا» من النسخ عدا (م)، وسقط ما بعدها من (ف) و(ك).

(٢) في هامش (س) و(ف) و(م): «ولا يلزم أن تكون إحداهما إلى قدّام الهازّ والأخرى إلى مقابله، بل قد تكون إحداهما إلى يمينه والأخرى إلىٰ شماله، فلا تلزم أن يكون بالجذب والدفع، كما توهَّمه القاضي. منه».

(٣) قرأ الجمهور بالقراءة الأولى، وحمزة بالثالثة، ويعقوب وشعبة ـ بخلف عنه ـ بالرابعة، وحفص بالخامسة. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٨)، و«النشر» (٢/ ٣١٨)، وتنظر باقي القراءات في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٤)، و«الكشاف» (٣/ ١٣)، وعنه نقل المؤلف كل ما ذكر من القراءات.

﴿تُسَاقِط﴾، و: (تُسْقِط) و: (يُسْقِط) بالتاء والياء من أسقط، و: (تَسْقُط) و: (يَسْقُط) بالتاء والياء من سقط؛ بالتاء للنخلة، والياء للجِذع أو للرُّطَب[1].

﴿رُطَبًا﴾ تمييز أو مفعول ﴿جَنِيًّا﴾؛ أي: مجنيًّا، وهو الطريُّ بغباره، البالغُ نهايةَ النُّضج.

***

(٢٦) - ﴿فَكُلِي وَاشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا فَإِمَّا تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾.

﴿فَكُلِي﴾ من المجنيِّ ﴿وَاشْرَبِي﴾ من السَّريِّ ﴿وَقَرِّي عَيْنًا﴾ بالولد الرضيِّ، و﴿عَيْنًا﴾ تمييز؛ أي: طِيبي نفساً بعيسى عليه السلام، وارفضي عنكِ ما أحزنك.

وقرئ: (وقِرِّي) بالكسر[2]، وهو لغة نجدٍ، واشتقاقُه من القَرِّ، فإنَّ دمعة السرور باردةٌ، ودمعة الحزن حارَّة، ولذلك يقال: قرَّة العين وسُخْنتُها للمحبوب والمكروه.

أو: من القرار، فإن العين إذا رأت ما يَسُرّ النفس، سَكَنَت إليه من النظر إلى غيره.

﴿فَإِمَّا﴾ أصله: إنْ ما، ضمَّت (إنْ) الشرطيَّة إلى (ما) وأدغمت فيها ﴿تَرَيِنَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا﴾؛ أي: فإنْ رأيتِ آدميًّا يسألك عن حالك.

﴿فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا﴾: إمساكاً عن الكلام؛ أي: صمتاً، وقد قرئ به[3]، وكانوا يصومون عن الكلام كما يصومون عن الطعام.

---

(١) في (س): «أو للهز».

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٤)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٤٢٣).

(٣) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٤)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٤٢٤).

وقيل: صياماً حقيقة، وكان صومهم فيه الصمت، وإنما أُمرت به لأن عيسى عليه السلام يكفيها الكلام بما يُبرئ به ساحتها، ولئلّا تجادل السفهاء، وإنما أخبرتهم بأنها نذرت الصوم بالإشارة، وقد تُسمّى الإشارة كلاماً وقولاً، ويجوز أن يكون إخبارها به وقولها:

﴿فَلَنْ أُكَلِّمَ ٱلْيَوْمَ إِنسِيًّا﴾ قبيل دخول[1] اليوم؛ أي[2]: لا أكلِّم آدميًّا وإنما أُكلِّم الملائكة، وذلك أن العدول من (أحداً) إلى ﴿إِنسِيًّا﴾ يفيد بدلالة المفهوم هذه الدقيقة، ويدمج فيه معنى[3] كرامة أخرى وهي رفعة منزلتها.

* * *

(٢٧) - ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾.

﴿فَأَتَتْ بِهِۦ﴾ بعيسى عليه السلام، الباء للتعدية كما في: ذهب به، لا بمعنى (مع).

﴿قَوْمَهَا﴾ بعد ما طهرت من نفاسها ﴿تَحْمِلُهُۥ﴾ حالٌ منها، فلمّا رأوه معها ﴿قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا﴾ بديعاً منكراً، والفَرْي: القَطْع، كأنه يقطع العادة.

* * *

(٢٨) - ﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾.

﴿يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ﴾ كان أخاها من أبيها ومن أفضل بني إسرائيل ﴿مَا كَانَ أَبُوكِ﴾ عمران ﴿ٱمْرَأَ سَوْءٍ﴾ زانياً.

---

(١) في النسخ عدا (س): «وصول»، والمثبت من (س).

(٢) في (م): «لأني»، وسقطت من (ف) و(ك).

(٣) «معنى» ليست في (ف) و(ك).

﴿وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ﴾ حنَّةُ ﴿بَغِيًّا﴾ زانيةً؛ تقريرٌ لأن ما جاءت به[١] فريٌّ، وتنبيه على أن الفواحش من أولاد الصالحين أفحشُ.

* * *

(٢٩) ـ ﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا﴾.

﴿فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ﴾ إلى عيسى عليه السلام؛ أي: كلِّموه ليجيبكم.

﴿قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ﴾ المعهود ﴿صَبِيًّا﴾ حال، معناه: أنه كان من أهل المهد وإن لم يكن في تلك الحالة في المهد، كما يقال: صبيٌّ يرتضع، وإن كان لا يرتضع حالةَ الإخبار عنه، ولهذا زيدت لفظة ﴿كَانَ﴾ للتأكيد.

* * *

(٣٠) ـ ﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾.

﴿قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ﴾ لما أُسكِت بأمر الله لسانُها الناطق، أَنطقَ الله لها اللسانَ الساكتَ.

﴿ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ الإنجيل ﴿وَجَعَلَنِى نَبِيًّا﴾ عن الحسن: أنه كان في المهد نبيًّا، وكلامه معجزته[٢].

وقيل: معناه: أن ذلك سَبَق في قضائه، أو جعل الآتي لا محالة كأنه وُجد.

* * *

(٣١) ـ ﴿وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾.

---

(١) «به» من (ف) وليست في باقي النسخ.

(٢) انظر: «النكت والعيون» (٣/ ٣٧٠)، و«تفسير النسفي» (٣/ ٣٦).

﴿وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ﴾: نفَّاعاً حيث كنت، أو: معلِّماً للخير.

﴿وَأَوْصَنِي بِالصَّلَوٰةِ وَالزَّكَوٰةِ﴾ لـمَّا كان الأمر بهما مؤجَّلاً عبَّر عنه بالتوصية[1]، فإن الوصية التقدُّم في الأمر الذي يكون بعدما وقِّت له ﴿مَادُمْتُ﴾ أي: مدَّةَ حياتي.

***

(٣٢) ـ ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾.

﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي﴾ أي: بارًّا بوالدتي، وقرئ بالكسر[2] على أنه مصدر وصف به، منصوب بفعلٍ دلَّ عليه (أوصاني)؛ أي: وكلَّفني بِرًّا، ويؤيِّده القراءة بالكسر والجرّ[3] عطفاً على (الصلاة).

﴿وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا﴾ وقد سبق تفسيره ﴿شَقِيًّا﴾: عاصياً.

***

(٣٣) ـ ﴿وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾.

﴿وَالسَّلَٰمُ عَلَيَّ﴾ التعريف للجنس، وفيه تعريض بضدِّه على أعدائه، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾ [طه: ٤٧] فإنه تعريض بأن العذاب على مَن كذَّب وتولَّى.

﴿يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ قد سبق بيانه.

---

(١) في هامش (س) و(ف): «من فرق بينهما لم يصب. منه».

(٢) نسبت لأبي نهيك وأبي مجلز. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٤)، و«المحتسب» لابن جني (٢/ ٤٢).

(٣) أي: بكسر الباء وجر الراء. انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٠) والكلام منه، و«البحر المحيط» (١٤/ ٤٢٩).

(٣٤) ـ ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾.

﴿ذَٰلِكَ عِيسَى﴾: الذي تقدَّم نعتُه هو عيسى، لا ما يصفه النصارى أو اليهود، وهو تكذيب للفريقين فيما يصفانه على الوجه الأبلغ والطريق البرهاني، حيث جعله موصوفاً بأضداد ما يصفانه به، ثم عكَس الحكم.

﴿ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ نعتٌ أو خبر ثانٍ، أي: لا[١] نسبةَ فيه من جهة الأب، ففيه ردٌّ لليهود في زعمهم[٢] أنه ابنُ يوسفَ النجَّارِ.

﴿قولُ الحق﴾ صفةُ ﴿عِيسَى﴾ أو بدلُه، أو خبرٌ آخر، ومعناه: كلمةُ[٣] الله، لا نفسُه ولا ابنُه ولا ثالثُه، ففيه ردٌّ لفِرَق النصارى، وقد سبق وجه كونه كلمة الله في سورة آل عمران.

وقيل: خبرٌ محذوف المبتدأ، أي: هو قولُ الحقِّ الذي لا ريبَ فيه، والإضافة للبيان، والضمير للكلام السابق.

وقرئ بالنصب على المدح[٤]، أو على المصدر، أي: أقولُ قولَ الحقِّ.

وقرئ: (قالُ الحقّ)[٥]، وهو بمعنى القول.

﴿ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ﴾: في أمره يختلفون، من المراء، فقالت اليهود: ساحر كذَّاب، وقالت النصارى ما سيأتي تفصيله. وقرئ بالتاء على الخطاب[٦].

---

(١) «لا» من (س)، وسقطت من باقي النسخ.

(٢) «زعمهم» ليست في (ف).

(٣) في (ف): «حكمة».

(٤) قراءة عاصم وابن عامر، والرفع قراءة باقي السبعة. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩).

(٥) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٤)، ونسبها لابن مسعود.

(٦) انظر: «البحر المحيط» (١٤/ ٤٢٩)، ونسبها لعلي والسلمي.

(٣٥) ـ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَٰنَهُۥٓ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾.

﴿مَا كَانَ لِلَّهِ﴾؛ أي: ليس من شأنه ﴿أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾ جيء بـ (من) لتأكيد النفي ﴿سُبْحَٰنَهُۥٓ﴾ نزَّه ذاته عن اتخاذ الولد.

﴿إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ تبكيتٌ للنصارى بعد تكذيبهم، بأنَّ مَن إذا أراد شيئاً أوجده بـ ﴿كُن﴾ كان منزَّهاً عن شَبَهِ الخَلْق والحاجة في اتخاذ الولد بإحبال الإناث.

وقرئ: ﴿فيكونَ﴾ بالنصب على الجواب[1].

* * *

(٣٦) ـ ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ سبق تفسيره في سورة آل عمران.

وقرئ بالفتح[2] على: ولِأَنَّ، أو على العطف على الصلاة.

* * *

(٣٧) ـ ﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾.

﴿فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ﴾ الحزب: الفرقة المنفردة برأيها، وهم أربع فرق: نسطوريَّة، ويعقوبيَّة، وإسرائيليَّة، وملكائيَّة[3].

---

(١) هي قراءة ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ٧٦).

(٢) أي: بفتح همزة (أنَّ)، وهي قراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩).

(٣) في (ك): «وملكانية». والمثبت من باقي النسخ، وهو القياس، قال الشهاب: وملكاء ـ بالمد ـ علم غير عربي، والنسبة إليه: ملكائية، بهمزة بعد الألف الممدودة، والجاري على الألسنة وفي نسخ القاضي: ملكانية، نسبة إلى ملكاء على غير القياس؛ كصنعاني نسبة إلى صنعاء، وكل هذا محتاج =

﴿مِنْ بَيْنِهِمْ﴾: من بين أصحاب عيسى عليه السلام، أو: من بين قومه، أو: من بين الناس، وذلك أن النصارى اختلفوا في عيسى عليه السلام حين رُفعَ، ثم اتفقوا على أن يرجعوا إلى قول أربعة كانوا عندهم أعلمَ أهل زمانهم، وهم: يعقوب، ونسطور، وإسرائيل، وملكاء[1]:

فقال يعقوب: هو الله هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء.

وقال نسطور: كان ابنَ الله، أظهره ما شاء ثم رفعه إليه.

وقال إسرائيل: الله إله، وهو إله، وأمُّه إله، وهم الإسرائيلية ملوك النصارى.

وقال الرابع: كذبوا، كان عبداً مخلوقاً نبيًّا.

فتبع كلَّ واحد منهم قومٌ.

﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من الأحزاب، إذ الواحد منهم على الحقِّ.

﴿مِن مَّشْهَدِ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾؛ أي: في شهودهم هول القيامة، على أن المراد من اليوم الواقعة.

* * *

(٣٨) ـ ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾.

﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ﴾ الجمهور على أن لفظَه أمرٌ، ومعناه التعجُّب، والله تعالى لا يوصَف به، ولكن المراد أن أسماعهم وأبصارهم جدير بأن يُتعجَّب منها بعدما كانوا صُمًّا عمياً في الدنيا، و﴿بِهِمْ﴾ مرفوع المحلِّ على الفاعلية، كـ: أكرم بزيد، معناه: كَرُم زيد جِدًّا.

= إلى تصحيح النقل فيه فانظره. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ١٥٧).

(١) في (م): «وملكان».

﴿يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾؛ أي: يوم القيامة.

﴿لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ أُقيم الظاهر مقام الضمير؛ إشعاراً بأنهم ظلموا أنفسهم حيث تركوا الاستماع والبصر حين يجدي عليهم.

﴿ٱلْيَوْمَ﴾ في الدنيا ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ تسجيلٌ على تركهم ذلك بأنه ضلالٌ بيِّن.

***

(٣٩) ـ ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ ٱلْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ يوم القيامة؛ لأنه يَتحسَّر فيه الناس، المسيء على إساءته، والمحسن على قلَّة إحسانه.

﴿إِذْ﴾ بدل من ﴿يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ أو ظرف للحسرة وهو مصدر.

﴿قُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾: فُرغ من الحساب، وتصادَرَ[1] الفريقان إلى الجنة والنار.

﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ﴾ هنا عن الاهتمام لذلك المقام.

﴿وَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾: لا يصدِّقون به، متعلِّق بقوله: ﴿فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ وما بينهما اعتراض، أو بـ ﴿وَأَنذِرْهُمْ﴾؛ أي: أنذرهم غافلين غيرَ مؤمنين، فيكون حالاً متضمِّنة للتعليل.

***

(٤٠) ـ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾.

﴿إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ ٱلْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا﴾ أي: نتفـرَّد بالملـك والبقـاء عنـد تعميم الـهُلك

---

(١) أي: صدر كلٌّ من موقف الحساب إلى مقرِّه، فإما إلى الجنة وإما إلى النار. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ١٥٩).

والفناء، وذكرُ (مَن) لتغليب العقلاء، وهذا يدلُّ على فناء الأرض أيضاً[١].

قوله: ﴿نَحْنُ نَرِثُ﴾ مبتدأ وخبر، والجملة في محلِّ الرفع خبرُ (إنَّ)، ولا يجوز أن يكون (نحن) فَصْلاً؛ لأنَّ (نرث) نكرةٌ، والفَصْل لا يقع إلا بين معرفتين، أو قريبين من المعرفة.

﴿وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ﴾؛ أي: يردُّون فيجازَون جزاءً وفاقاً، في محلِّ الرفع بالعطف على (نرث) أو على الجملة الاسميَّة.

* * *

(٤١) ـ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا﴾ ملازماً للصدق كثيرَ التصديق؛ لكثرة ما صدَّق به من غيوب الله تعالى وآياته، ويجوز أن تكون المبالغة من جهة الكيف.

﴿نَبِيًّا﴾ استنبأه اللهُ تعالى.

* * *

(٤٢) ـ ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا﴾.

﴿إِذْ قَالَ﴾ بدل من ﴿إِبْرَاهِيمَ﴾ وما بينهما اعتراض[٢]، أو متعلق بـ ﴿كَانَ﴾ أو بـ ﴿صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾، والمراد بذكر الرسول إياه وقصَّته في الكتاب: أن يتلوَ ذلك على الناس ويبلِّغه إياهم، كقوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ﴾ [الشعراء: ٦٩]، وإلَّا فاللهُ عزَّ وجلَّ ذاكره، ومورده في تنزيله.

---

(١) في هامش (س) و(ف) و(م): «فالمراد من البدل في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ﴾ تبدُّل الذات. منه».

(٢) في هامش (س) و(ف) و(م): «قد مرَّ في أول السورة ما يتعلق بمثل هذا البدل. منه».

﴿لِأَبِيهِ يَـٰٓأَبَتِ﴾ التاء عوض من ياء الإضافة، ولذلك لا يقال: يا أبتي، ويقال: يا أبتا، وإنما يذكر للاستعطاف، ولذلك كرَّرها.

﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ﴾ المفعول فيهما منسيٌّ غيرُ منويٍّ.

﴿وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾ يحتمل أن يكون (شيئاً) في موضع المصدر؛ أي: شيئاً من الإغناء، وأن يكون مفعولاً به، من قولك: أَغْنِ عنِّي وجهَك، أي: بَعِّد.

دعاهُ إلى الهدى وبيَّن ضلاله، واحتجَّ عليه أبلغَ احتجاج وأرشقَه[1] برفقٍ وحسنِ أدب، حيث لم يصرِّح بضلاله، بل طلب العلَّة التي تدعوه إلى عبادة ما يستخفُّ به العقلُ الصريح، ويأبى الركون إليه فضلاً عن عبادته التي هي غاية التعظيم، ولا تحقُّ إلَّا لمن له الاستغناءُ التامُّ والإنعام العام.

ونبَّه على أن العاقل ينبغي أن يفعل ما يفعله لغرضٍ صحيح، والشيء لو كان حيًّا مميِّزاً سميعاً بصيراً مقتدراً على النفع والضرر، ولكن ممكِنٌ[2]، لاستنكف العقلُ القويم عن عبادته وإن كان أشرف الخلق؛ لِـمَا يراه مثله في الحاجة والانقياد للقدرة الواجبة، فكيف إذا كان جماداً لا يسمع ولا يبصر؟!

ثم دعاه إلى أن يتبعه ليهديه الحقَّ القويم والصراط المستقيم لـمَّا لم يكن محظوظاً[3] من العلم الإلهي، مستقلًّا بالنظر السويِّ، فقال:

(٤٣) ـ ﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾.

﴿يَـٰٓأَبَتِ إِنِّى قَدْ جَآءَنِى مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِىٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا﴾ ولم يُسمِّ أباه

---

(١) وأرشقه بالشين المعجمة والقاف بمعنى: ألطفه. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ١٦٠).

(٢) أي: ولكن كان هذا الشيء ممكناً. انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ١١).

(٣) في (م): «محفوظا»، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «تفسير البيضاوي» (٤/ ١٢).

بالجهل المفرط، ولا نفسَه بالعلم الفائق، بل جعل نفسَه كرفيقٍ له في مسيرٍ[١] يكون أعرفَ بالطريق، ثم ثبطه[٢] عمَّا كان عليه بأنه مع خلوِّه عن النفع مستلزم للضُّرِّ؛ لأنه في الحقيقة عبادة الشيطان من حيث إنه الآمر به، فقال:

(٤٤) ـ ﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ لَا تَعۡبُدِ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ﴾ استهجن ذلك، وبيَّن وجه الضُّرِّ فيه بأن الشيطان مستعصٍ على ربِّك المولي للنِّعم كلِّها بقوله:

﴿إِنَّ ٱلشَّيۡطَٰنَ كَانَ لِلرَّحۡمَٰنِ عَصِيّٗا﴾ ومعلوم أن المطاوع للعاصي عاصٍ، وكلّ عاصٍ حقيقٌ بأن تُستردَّ منه النِّعم ويُنتقم منه، ولذلك عقَّبه بتخويفه سوء عاقبته وما يجرُّه إليه فقال:

(٤٥) ـ ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾.

﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٞ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيۡطَٰنِ وَلِيّٗا﴾ قريناً في جهنم؛ لأن الوليَّين لا يكادان يفترقان في محبوبٍ أو مكروهٍ، فجعله وليًّا في هذه الحالة لما قلنا[٣]، وإن كانا متباغضين يومئذٍ، كما قال تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

وإنما قال: ﴿يَمَسَّكَ﴾ دون: يصيبك، ليعلم أن العذاب جسمانيٌّ، والتنكير فيه للتعظيم، وقصدُ التقليل من عبارة المسِّ لا يناسب المقام[٤]، فلا يساعده الكلام:

---

(١) في النسخ عدا (س): «مسير»، والمثبت من (س)، وهو الموافق لما في المصدر السابق.

(٢) في النسخ عدا (س): «ثم تبصرا»، والمثبت من (س)، وهو الموافق لما في المصدر السابق.

(٣) في هامش (س) و(ف) و(م): «فيه ردٌّ للقاضي في قوله: أو ثابتاً في موالاته. منه».

(٤) في هامش (س) و(ف) و(م): «فيه ردٌّ، كأنه نسي ما قدَّمه في تفسير قوله تعالى: ﴿لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ﴾ الآية من سورة البقرة».

أما الأول: فلأنَّ المقام مقام التخويف فلا يناسبه التخفيف.

وأما الثاني: فلأنَّ المسَّ ممَّا يقصد به المبالغة في الإصابة، كما في قوله تعالى: ﴿أَن مَّسَّنِيَ ٱلْكِبَرُ﴾ [الحجر: ٥٤] وذلك لأن المسَّ اتصال الشيء بالبشرة بحيث يباشر[١] الحاسَّة.

وإنما قال: ﴿مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لأن العذاب من مظنَّة الرحمة أفظعُ وأشنع، وإنما قال: ﴿أَخَافُ﴾ رعايةً لمقتضى شفقة النبوَّة.

* * *

(٤٦) - ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِى مَلِيًّا﴾.

﴿قَالَ أَرَاغِبٌ﴾ الرغبة: اجتلابُ الشيء لما فيه من المنفعة، وتعديتُه بـ (في)، وإذا تعدَّى بـ (عن) يفيد ضدَّه.

﴿أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِى يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ﴾ قابَل استعطافه ولطفه في الإرشاد بالفظاظة وغلظة العناد، فناداه باسمه، ولم يقابل: ﴿يَٰٓأَبَتِ﴾ بـ: (يا بنيَّ)[٢]، ولا تأثير فيه لتأخيره، بل لو قدِّم لكان أشنع وأوقع؛ لأن المقام مقام العنف دون اللطف.

وقدَّم الخبر على المبتدأ لأنه كان أهمَّ عنده، وصدَّره بالهمزة لإنكار نفس الرغبة على ضربٍ من التعجُّب، كأنها ممَّا لا يَرغب عنها عاقل. ثم هدَّده فقال:

﴿لَئِن لَّمْ تَنتَهِ﴾ عن مقالتك فيها ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾: لأقتلنَّك بالرُّجام[٣]، أو: لأضربنَّك بها حتى تتباعد، أو: لأشتمنَّك.

---

(١) في (ف) و(م): «يتأثر»، وفي (ك): «تناثر».

(٢) في (ك): «بني».

(٣) في هامش (م): «أي: حجارة عظام».

﴿وَٱهْجُرْنِي﴾ عطف على محذوف يدلُّ عليه ﴿لَأَرْجُمَنَّكَ﴾ تقديره: فاحذرني واهجرني.

﴿مَلِيًّا﴾: زماناً طويلاً، من المُلَاوة، أو: ﴿مَلِيًّا﴾ بالذهاب عنِّي.

* * *

(٤٧) - ﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾.

﴿قَالَ سَلَٰمٌ عَلَيْكَ﴾ سلام توديع ومتاركة، ومقابلةٍ للسيئة بالحسنة؛ أي: لا أصيبك بمكروه ولا أقول لك بعضَ ما يؤذيك، ولكن:

﴿سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ﴾ وَعَده بطلب المغفرة له من الله تعالى.

قيل: لعلَّه يوفِّقك للتوبة[1] والإيمان، فإن حقيقة الاستغفار للكافر: استدعاءُ التوفيق لما يوجب الغفران وهو الإيمان.

ويَرِدُ عليه: أنه لو كان كذلك لما كان وعدُه هذا مستثنًى عن القدوة الحسنة بقوله تعالى: ﴿إِلَّا قَوْلَ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ﴾ [الممتحنة: ٤].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ بليغاً في البرِّ واللُّطف.

* * *

(٤٨) - ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدْعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾.

﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ﴾ أراد بالاعتزال: المهاجرة ﴿وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وما تعبدون من أصنامكم.

---

(١) في (ف) و(ك): «بالتوبة».

﴿وَأَدۡعُواْ رَبِّي﴾: وأعبدُه وحده، ثم قال تواضعاً وهضماً للنفس وتنبيهاً على أن الإجابة والإثابة تفضُّل غير واجب، وأن مِلاك الأمر خاتمتُه وهو[1] غيب، وتعريضاً لشقاوتهم بدعاء آلهتهم:

﴿عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا﴾: خائباً ضائع السعي مثلكم في دعاء آلهتكم.

* * *

(٤٩) - ﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ وَكُلّٗا جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾.

﴿فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ بالهجرة إلى الشام ﴿وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ﴾ ولداً ﴿وَيَعۡقُوبَۖ﴾ نافلةً.

أول ما وُهب له إسماعيل عليه السلام، على ما مرَّ في تفسير قوله تعالى: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ﴾ [إبراهيم: ٣٩] وإنما خُصَّ إسحاق بالذِّكر؛ لأنه شجرة الأنبياء عليهم السلام، أو لأنه أراد أن يَذكر إسماعيلَ بفضله على الانفراد.

﴿وَكُلّٗا﴾؛ أي: كلَّ واحد منهما ﴿جَعَلۡنَا نَبِيّٗا﴾؛ أي: لمَّا ترك الكفارَ الفجَّار لوجهه عوَّضه أولاداً أبراراً.

* * *

(٥٠) - ﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ لِسَانَ صِدۡقٍ عَلِيّٗا﴾.

﴿وَوَهَبۡنَا لَهُم مِّن رَّحۡمَتِنَا﴾ النبوَّةَ والأولاد والأموال.

---

(١) في (م): «هو».

﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ﴾ ثناءً حسناً، وهو الصلوات على إبراهيم وعلى آل إبراهيم في الصلوات إلى قيام الساعة؛ استجابةً لدعوته: ﴿وَاجْعَل لِّي لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ﴾ [الشعراء: ٨٤] عبَّر باللسان عمَّا يوجد به، كما عبَّر باليد عمَّا يُعطى بها، وهو العطية، ووصفه بالصدق؛ لأنه ثناءٌ حسنٌ لا كذب فيه.

﴿عَلِيًّا﴾: رفيعاً مشهوراً.

* * *

(٥١) ـ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَىٰ إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصًا﴾ قرئ بالفتح؛ أي: أخلصه الله واصطفاه، وبالكسر، أي: أَخلَص العبادةَ لله[1]، فهو مُخلَص بما له من السعادة بأصل الفطرة، ومُخلِص فيما عليه من العبادة بصدق الهمَّة.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ أرسله اللهُ إلى الخَلْق فأَنبأَهم عنه، ولذلك قدَّم ﴿رَسُولًا﴾ مع أنه أخصُّ وأعلى.

* * *

(٥٢) ـ ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرَّبْنَاهُ نَجِيًّا﴾.

﴿وَنَادَيْنَاهُ مِن جَانِبِ الطُّورِ﴾ وهو جبلٌ بين مصرَ ومَدْيَن.

﴿الْأَيْمَنِ﴾: من ناحيته اليمنى، من اليمين، والمعنى: أنه حين أقبل من مَديَنَ يريد مصرَ، نُودي من الشجرة وكانت في جانب الجبل على يمين موسى عليه السلام، بأنْ تَمثَّل له الكلام من تلك الجهة.

---

(١) قرأ عاصم وحمزة والكسائي بالفتح، وباقي السبعة بالكسر. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٧).

أو: مِن جانبه الميمونِ، من اليُمن.

﴿وَقَرَّبْنَاهُ﴾ تقريبَ منزلةٍ ومكانة دون منزلٍ ومكان.

﴿نَجِيًّا﴾: مناجياً، كنديم بمعنى منادمٍ، حالٌ من أحد الضميرين.

وقيل: مرتفعاً، من النَّجْو وهو الارتفاعُ؛ لِـمَا روي أنه رفع فوق السماوات حتى سمع صرير القلم[١].

* * *

(٥٣) ـ ﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا أَخَاهُ هَارُونَ نَبِيًّا﴾.

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ مِن رَّحْمَتِنَا﴾: من أجلِ رحمتنا ﴿أَخَاهُ﴾ مفعولٌ ﴿هَارُونَ﴾ عطفُ بيانٍ أو بدلٌ ﴿نَبِيًّا﴾ حالٌ منه هي المقصودة بالهبة؛ أي: وهبنا له نبوَّةَ أخيه، وإلَّا فهارونُ كان أكبرَ سنًّا منه[٢].

* * *

(٥٤) ـ ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾.

﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ﴾ ذكَره بذلك لشهرته به واتِّصافه بأشياءَ من هذا الباب لم تُعهَد مِن غيره.

﴿وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ بُعثَ بشرعِ أبيه إلى قومٍ دون قومِ أبيه، وهم: جُرْهُم، فكان صاحبَ شريعة بالنظر إليهم لاختصاص شرع أبيه بحسب[٣] دعوته لقومه.

* * *

(١) روي عن سعيد بن جبير أنَّ جبرائيل عليه السلام أردفه حتى سمع صريرَ القلم والتوراة تكتب له. رواه أبو نعيم في «الحلية» (٤/ ٢٨٦)، وسعيد بن منصور وابن المنذر وابن أبي حاتم كما في «الدر المنثور» (٥/ ٥١٥).

(٢) في هامش (س) و(ف): «فلا حاجة إلى التكلف بأن الأنبياء آباء الأمم. منه».

(٣) في (س) بدلاً منها كلمة غير واضحة.

(٥٥) ـ ﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا ﴾.

﴿ وَكَانَ يَأْمُرُ أَهْلَهُۥ ﴾ اشتغالاً بالأهمِّ، وهو: أن يُقبِل الرجلُ على نفسه ومَن هو أقرب الناس إليه بالتكميل.

وقيل: أهل أمته[1]، فإن الأهل يُطلَق على القوم، كما في قوله: ﴿ٱنتَبَذَتْ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [مريم: ١٦].

﴿بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ ﴾ إنَّما خُصَّا لأنَّهما أُمَّا العباداتِ الدينية والمالية.

﴿وَكَانَ عِندَ رَبِّهِۦ مَرْضِيًّا﴾ لاستقامة أقواله وأفعاله.

* * *

(٥٦ ـ ٥٧) ـ ﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴾.

﴿ وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ ۚ ﴾ هو أخنوخ أوَّل مرسل بعد آدمَ عليه السلام، وأوَّل مَن خطَّ بالقَلَم، وخاطَ اللباس، ونَظَر في علم النجوم والحساب، واتَّخذ الموازين والمكاييل والأسلحة، وقاتَلَ بني قابيل[2].

واشتقاقه من الدَّرْس يردُّه منعُ صرفه، نعم لا يَبعد أن يكون معناه في تلك اللغة قريباً من ذلك، فلقِّب لكثرة دَرْسه، إذ روي أنه تعالى أنزل عليه ثلاثينَ صحيفةً[3].

﴿إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۝٥٦ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا﴾ وهو شرف النبوَّة والزُّلفى عند الله تعالى.

---

(١) في (ك): «ملته».

(٢) انظر: «النكت والعيون» (٣/ ٣٧٨)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٤٥٤).

(٣) انظر: «الكشاف» (٢/ ٥١٣)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٤٥٤).

وقيل: معناه: رَفعتْه الملائكة إلى السماء الرابعة أو السادسة، وعن الحسن: إلى الجنة[١].

***

(٥٨) ـ ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْرَٰٓءِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَٱجْتَبَيْنَآ إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ ٱلرَّحْمَٰنِ خَرُّوا۟ سُجَّدًا وَبُكِيًّا﴾.

﴿أُولَٰٓئِكَ﴾ إشارة إلى المذكورين في السورة من زكريا إلى إدريس.

﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم﴾ بأنواع النِّعَم الدينية والدنياوية.

﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ ﴿مِن﴾ للتبعيض؛ لأن المذكورين ليسوا مُطلَقَ المنعَم عليهم، بل الذين وقعوا خبراً عن ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾، وهم بعض الأنبياء.

﴿مِن ذُرِّيَّةِ ءَادَمَ﴾ بدلٌ منه بإعادة الجارِّ.

﴿وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾؛ أي: ومن ذرِّيَّة مَن حملنا مع نوح خصوصاً، وهم مَن عدا إدريس عليه السلام، فإن إبراهيم كان من ذرِّيَّة مَن حملنا مع نوح عليه السلام لا من ذريته، وإلَّا لقيل: ومن نوح[٢].

﴿وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ الباقون ﴿وَإِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: ومن ذرية إسرائيل، وكان منهم موسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام على أنَّ أولاد البنات من الذرِّيَّة.

---

(١) انظر: المصدرين السابقين.

(٢) في هامش (س) و(ف) و(م): «فاتضح فساد ما قيل: فإن إبراهيم عليه السلام كان من ذرية سام بن نوح عليه السلام. منه».

﴿وَمِمَّنْ هَدَيْنَا﴾: ومن جملة مَن هدينا إلى الحقِّ ﴿وَاجْتَبَيْنَآ﴾ من الأنام للنبوَّة والكرامة.

﴿إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُ الرَّحْمَٰنِ﴾؛ أي: إذا تُليت عليهم كتبُ الله المنزلةُ، وهو كلامٌ مستأنف إن جعلْتَ ﴿الَّذِينَ﴾ خبراً لـ ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ لبيان خشيتهم من الله تعالى وإخباتهم له مع ما لهم من علوِّ الطبقة في شرف النسب وكمال النفس والزُّلفى من الله تعالى، وإن جعلْتَه صفة له كان خبراً.

وقرئ: (يتلى) بالياء[1] لوجود الفاصل، مع أنَّ التأنيث غيرُ حقيقي.

﴿خَرُّواْ سُجَّدًا﴾ سقطوا على وجوههم ساجدين رغبةً.

﴿وَبُكِيًّا﴾ باكين رهبةً، جمع: باكٍ، كـ: سجود وقعود، في جمع: ساجد وقاعد.

* * *

(٥٩) ـ ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُواْ الصَّلَوٰةَ وَاتَّبَعُواْ الشَّهَوَٰتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾.

﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ﴾ فعقَبهم وجاء بعدَهُم عَقِبُ سوءٍ، يقال: خَلَفُ صدقٍ، بفتح اللام، وخَلْفُ سوءٍ بالسكون، لسكونها[2].

﴿أَضَاعُواْ الصَّلَوٰةَ﴾ بتركها، وقيل: بتأخيرها عن وقتها، ولا يناسبه ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ﴾؛ لأنه صريح في أنه في حقِّ الكفار.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٥) ونسبها لشبل بن عباد المكي.

(٢) قوله: «لسكونها»، كذا في النسخ، ولا يظهر لها وجه، ولم يذكرها البيضاوي، مع أن العبارة منقولة منه.

﴿وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلشَّهَوَٰتِ﴾: ملاذَّ النفوس، وعن عليٍّ رضي الله عنه: من بَنَى الشديدَ، وركب المنظورَ، ولَبِس المشهورَ[1].

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾: شرًّا، كلُّ شرٍّ عند العرب غَيٌّ، وكلُّ خيرٍ رشادٌ.

***

(٦٠) ـ ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ وَلَا يُظْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾.

﴿إِلَّا مَن تَابَ﴾ رجع عن الكفر ﴿وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا﴾ بعد إيمانه ﴿فَأُو۟لَٰٓئِكَ يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ﴾ وقرئ على البناء للمفعول[2]، من أدخلَ.

دخول الجنة غير مشروط بالعمل الصالح، وإنما ذكر ذلك لقوله: ﴿وَلَا يُظْلَمُونَ﴾؛ أي: ولا يُنقصون ﴿شَيْـًٔا﴾ من جزاء أعمالهم ولا يُمنعونه، بل يُضاعَف لهم، ويجوز أن ينتصب ﴿شَيْـًٔا﴾ على المصدر، وفيه بيان أن كفرهم السابق لا يضرُّهم ولا يُنقص أجورهم.

***

(٦١) ـ ﴿جَنَّٰتِ عَدْنٍ ٱلَّتِى وَعَدَ ٱلرَّحْمَٰنُ عِبَادَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ وَعْدُهُۥ مَأْتِيًّا﴾.

﴿جَنَّٰتِ﴾ بدل من ﴿ٱلْجَنَّةَ﴾ بدل البعض؛ لاشتمالها عليها، أو منصوب على المدح.

وقرئ بالرفع[3] على أنه خبر مبتدأ محذوف.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٢/ ٥١٤)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٤٥٧).

(٢) هي قراءة ابن كثير وأبي عمرو وشعبة. انظر: «التيسير» (ص: ٩٧).

(٣) نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٥).

﴿عَدۡنٍ﴾ معرفة؛ لأنه عَلَمٌ بمعنى العَدْن وهو الإقامة، أو هو عَلَمٌ لأرض الجنة لكونها مكانَ إقامة، ولذلك صحَّ وصف ما أضيف إليه بقوله:

﴿ٱلَّتِي وَعَدَ ٱلرَّحۡمَٰنُ عِبَادَهُۥ﴾؛ أي: عباده التائبين المؤمنين الذين يعملون الصالحاتِ لِـمَا سبق ذكرهم؛ لأنه أضافهم إليه وهو للاختصاص، وهؤلاء أهلُ[1] الاختصاص.

﴿بِٱلۡغَيۡبِۚ﴾: بالوحي إلى نبيِّه؛ أي: وَعَدها وهي غائبة عنهم، أو: هم غائبون عنها.

﴿إِنَّهُۥ﴾ ضمير الشأن أو ضمير الرحمن ﴿كَانَ وَعۡدُهُۥ﴾؛ أي: موعودُه وهو الجنَّة ﴿مَأۡتِيّٗا﴾؛ أي: هم يأتونها.

* * *

(٦٢) ـ ﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا إِلَّا سَلَٰمٗاۖ وَلَهُمۡ رِزۡقُهُمۡ فِيهَا بُكۡرَةٗ وَعَشِيّٗا﴾.

﴿لَّا يَسۡمَعُونَ فِيهَا لَغۡوًا﴾ اللَّغو: الشيء الساقط الذي لا يعتدُّ به من الكلام وغيره، ولذلك قيل لما لا يعتدُّ به في الدِّيَة من أولاد الإبل: لَغْوٌ، وللساقط الذي لا يعتدُّ به في الأَيمان: اليمين اللَّغْو[2].

﴿إِلَّا سَلَٰمٗا﴾؛ أي: لكنْ يسمعون سلاماً من الملائكة، أو من بعضهم على بعض. أو: لا يسمعون فيها إلا قولاً يَسلمون فيه من العَيْب والنَّقيصة[3]. فهو استثناء منقطِع عند الجمهور.

---

(١) في النسخ عدا (س): «لأهل»، والمثبت من (س).

(٢) في هامش (س) و(ف) و(م): «ذكره صاحب الكشاف في سورة البقرة. منه».

(٣) في هامش (س) و(ف) و(م): «في تقرير القاضي خلل فليتأمَّل. منه».

وقيل: متصل على تنزيل غير المحتمل منزلةَ المحتمل مبالغةً في نفي اللغو، يعني: مظنَّة سماع اللغو في حقِّهم، على تقدير أن يكون السلام لغواً، وذلك محالٌ، والمعلَّق على المحال محالٌ، كقوله:

ولا عَيْبَ فيهم غير أنَّ سيوفَهم ... بهنَّ فلولٌ من قِراعِ الكتائبِ[1]

﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ لمَّا كان أعدلُ أحوال المطاعم وأبعدُها من الضرر هو الغَداءَ والعَشاءَ، عرَّفهم جلَّ جلاله اعتدالَ أحوال أهل الجنة في مآكلهم، وضَرَبَ لهم البُكرة والعشيَّ مثلاً لذلك، وإلَّا فلا بُكرة ولا عشيَّ[2] ثمَّة.

ويجوز أن يُراد معنى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥]؛ أي: لهم ذلك غيرُ منقطع، وهذا كما يقول الرجل: أنا أُصبح وأُمسي في ذِكْرك، وبِرُّ فلانٍ يغدو إليَّ ويروح، أي: لا ينقطع.

***

(٦٣) - ﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا﴾.

﴿تِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِى نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا﴾؛ أي: نجعلها ميراثَ أعمالهم، يعني: ثمراتها وعاقبتها، أو نُبقي الجنة على المتَّقي كما يبقى مال المورِّث[3] على الوارث، على استعارة الإيراث في الإبقاء، فإن الوراثة أقوى سبب للتمليك والاستحقاق، فإنها من حيث إنها لا تُعقَب بفسخٍ ولا استرجاعٍ ولا تبطل بردٍّ وإسقاط.

---

(١) البيت للنابغة الذبياني. انظر: ديوانه (ص: ١١)، ويستشهد به البلاغيون على تأكيد المدح بما يشبه الذم، انظر: «خزانة الأدب» (٣/ ٣٢٧)، و«روح المعاني» «١٦/ ١٢٨». وقد تقدم في مواضع من هذا الكتاب.

(٢) في (م): «عشية».

(٣) في (س): «الموروث».

وقيل: يرثون زيادة في كرامتهم المساكنَ التي كانت لأهل النار لو آمنوا؛ لأن الكفر موتٌ حكماً.

﴿مَن كَانَ تَقِيًّا﴾ عن الكفر.

***

(٦٤) ـ ﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾.

﴿وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ﴾ حكايةُ قول جبريل حين قال رسول الله ﷺ ـ لمَّا تأخَّر الوحي أياماً، فقال المشركون: لعلَّ ربَّك نسيكَ ـ: يا جبريلُ، ما مَنَعك أن تزورنا أكثر ممَّا تزورنا؟! فنزل[1].

والتنزيل على معنيين: معنى النزول على مهلٍ، ومعنى النزول على الإطلاق، والأول أليقُ هنا، يعني: أن نزولها في الأحايين وقتاً غبَّ وقت ليس إلا بأمر الله.

وقرئ: (وما يتنزل) بالياء[2]، والضمير للوحي.

﴿لَهُۥ مَا بَيْنَ أَيْدِينَا وَمَا خَلْفَنَا وَمَا بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ وما نحن فيه من الأماكن أو الأحايين؛ لا ننتقل من مكان إلى مكان، أو لا ننزل في زمان دون زمان إلا بإذنه.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا﴾؛ أي: ناسياً لك، وإنما كان[3] ذلك لحِكَم رآها فيه، وقد مرَّ وجه إيثار صيغة المبالغة في تفسير قوله: ﴿عَصِيًّا﴾.

---

(١) رويت فيه أخبار مرسلة عن مجاهد وعكرمة والضحاك وغيرهم عند الثعلبي والواحدي والقشيري وغيرهم. انظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٠١)، و«تفسير القرطبي» (١٣/ ٤٨١).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٥).

(٣) «كان»: ليست في (ك) و(م).

(٦٥) ـ ﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾.

﴿رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ بيانٌ لامتناع النسيان عليه، وهو خبرُ محذوفٍ، أو بدلٌ من ﴿رَبُّكَ﴾.

﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ﴾ خطابٌ للرسول عليه السلام مرتَّبٌ على ما تقدَّم؛ أي: لما عرفتَ ربَّك بأنه لا ينبغي له أن ينساك، فاثبت لأجل عبادته واصبر على مشاقِّها، ولا تضطرب بإبطاء الوحي وهُزء الكفرة.

وإنَّما عدِّي باللام؛ لتضمُّنه معنى الثبات للعبادة فيما يورَد عليه من الشدائد والمشاقِّ، كقولك للمحارب: اصطَبِرْ لقرنك[1]، فالعبادة ما اصطَبَرَ لها لا ما اصطَبَرَ عليها.

﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾: أحداً يسمَّى الله، والاستفهام على سبيل الإنكار، وذلك كنايةٌ عن نفي استحقاق الغير بالعبادة، وهو تقريرٌ للأمر؛ أي: إذا صحَّ أنْ لا أحدَ غيرُه يستحقُّ العبادة، لم يكن بدٌّ من التسليم لأمره، والاشتغال بعبادته، والاصطبار على مشاقِّها.

***

(٦٦) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾.

---

(١) في النسخ عدا (س): «اصطبر لقوتك»، والمثبت من (س)، وهو الموافق لما في المصادر. انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٠)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ١٥)، و«تفسير ابي السعود» (٥/ ٢٧٤)، و«روح المعاني» (١٥/ ١٣٥).

﴿وَيَقُولُ ٱلْإِنسَٰنُ﴾ يعني: أُبَيَّ بنَ خَلَف، فإنه فتَّت[1] عظماً وقال: أَنُبعَث بعد أن صرنا كذا؟! فنزل[2].

ولا وجه لإرادة الجنس بأسره، إذ لا يَحسُن إسناد قولٍ أو فعلٍ صَدَرَ عن بعضٍ إلى الكلِّ إلَّا إذا صدر عنه بمظاهرتهم أو برضًى منهم، كما في قول الفرزدق:

فسيفُ بني عبسٍ وقد ضربوا   نَبَا بيدَيْ ورقاءَ عن رأسِ خالدِ[3]

﴿أَءِذَا مَا مِتُّ لَسَوْفَ أُخْرَجُ حَيًّا﴾ من الأرض، وتقديم الظرف وإيلاؤه حرفَ الإنكار من قِبَل أنَّ ما بعد الموت هو وقت كون الحياة منكرة، ومنه جاء إنكارهم، وانتصابه بفعل دلَّ عليه ﴿أُخْرَجُ﴾ لا به؛ لأن ما بعدَ لام الابتداء لا يَعمل فيما قبلها، وهذه اللام إذا دخلت على المضارع تعطي معنى الحال، وتؤكِّد مضمون الجملة، فلمَّا جامعت حرفَ الاستقبال خلصت للتوكيد واضمحلَّ معنى الحال، و(ما) في ﴿أَءِذَا مَا﴾ للتوكيد أيضاً، فكأنه قال: أحقًّا أنَّا سنُخرَج من القبور أحياءً حين يتمكَّن فينا الموت والهلاك؟! على وجه الاستنكار والاستبعاد.

* * *

(٦٧) - ﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَٰنُ أَنَّا خَلَقْنَٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾.

﴿أو لا يَذَّكَّر الإنسان﴾ عطف على محذوف، تقديره: أَيُنكِر قدرتنا على الإعادة

---

(١) في (س): «فت».

(٢) انظر: «أسباب النزول» للواحدي (ص: ٣٠١) عن الكلبي.

(٣) انظر: «ديوان الفرزدق» (١/ ١٥٧)، و«الكشاف» (٣/ ٣١)، والشاهد فيه اشار إليه الزمخشري بقوله: فقد أسند الضرب إلى بني عبس مع قوله: (نبا بيدي ورقاء) وهو ورقاء بن زهير بن جذيمة العبسي.

ولا يَذكُر، وإنما أظهر الفاعل إشعاراً بالمنشأ لعدم تذكُّره، فإن النسيان كاللازم للإنسان، قيل: أولُ الناس أول الناسي.

أو على (يقول)، وتوسيط الهمزة مع أن الأصل أن يتقدَّمها للإنكار[١]؛ أي: أيجمع[٢] بين هذين الأمرين الغريبين[٣]، وللإشعار بأن المنكر بالذات هو المعطوف، وأن المعطوف عليه إنما نشأ منه[٤]، فإنه لو تذكَّر وتأمَّل ﴿أَنَّا خَلَقْنَهُ﴾ أراد خلق مادَّته، ولذلك قال: ﴿مِن قَبْلُ﴾؛ أي: خلقنا مادَّته قبل خَلْق صورته ﴿وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا﴾ بل كان عدماً صِرْفاً = لم يقل ذلك، فإنه أعجب من جمع الموادِّ بعد التفريق وإيجاد مثل ما كان فيها من الأعراض.

وقرئ: ﴿يَذْكُرُ﴾ من الذِّكْر الذي يراد به التفكُّر[٥].

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٢)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ١٥). ولفظ «الكشاف»: (الواو عطفت (لا يَذْكُرُ) على (يَقُولُ) ووسِّطت همزة الإنكار بين المعطوف عليه وحرف العطف، يعني: أيقول ذاك ولا يتذكر حال النشأة الأولى حتى لا ينكر الأخرى فإن تلك أعجب وأغرب وأدل على قدرة الخالق). ولفظ البيضاوي: (﴿أَوَلَا يَذْكُرُ الْإِنسَنُ﴾ عطف على (يَقُولُ)، وتوسيط همزة الإِنكار بينه وبين العاطف مع أن الأصل أن تتقدمهما للدلالة على أن المنكر بالذات هو المعطوف وأن المعطوف عليه إنما نشأ منه..).

(٢) في النسخ عدا (م): «الجمع»، وفي (م): «أنجمع»، والمثبت هو الأنسب بالسياق.

(٣) في النسخ عدا (ك): «القريبين»، والمثبت من (ك).

(٤) في هامش (س) و(ف) و(م): «إن الهمزة إذا توسَّطت بين المعطوفين؛ تكون لإنكار الجمع بينهما، إلا أنه قد يكون الإنكار للتنافي بينهما، وقد يكون لقوَّة القرابة عند اجتماعهما، وما نحن فيه من قبيل الثاني. منه».

(٥) قراءة نافع وابن عامر وعاصم، وقرأ الباقون: ﴿أَوَلَا يَذَّكَّرُ﴾. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩).

وقرئ: (يَتَذكَّر) على الأصل[١].

***

(٦٨) ـ ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾.

﴿فَوَرَبِّكَ﴾ أقسم باسمه[٢] تعالى مضافاً إلى نبيِّه عليه السلام؛ تحقيقاً للأمر وتفخيماً لشأن الرسول عليه السلام.

﴿لَنَحْشُرَنَّهُمْ﴾؛ أي: المنكِرين للبعث، لا بدَّ من هذا التخصيص؛ لأن لحاق الكلام لا يتحمَّل التعميم[٣].

﴿وَالشَّيَاطِينَ﴾ مفعول معه؛ لِـمَا روي على وفق قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦] أنهم يُحشَرون مع قرنائهم من الشياطين الذين أغوَوْهم، كلُّ كافرٍ مع شيطانه في سلسلة.

﴿ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا﴾: جمع الجاثِي، وهو الذي يَبرُك على ركبتَيْه، يعني: أنَّهم يُساقون جثاةً من الموقف إلى شاطئ جهنَّم، فقوله: ﴿جِثِيًّا﴾ حالٌ مما[٤] ضمِّنه لنحضرنَّ[٥] من السوق.

***

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦).

(٢) في (م): «أقسم بالله».

(٣) في هامش (س) و(ف): «بل سباقه [زاد في (س): وسياقه] لا يتحمله كما لا يخفى عن من تأمله. منه».

(٤) في (م): «ممن».

(٥) في(ك): «لنحضرنهم»، وفي (م): «نحضرن».

(٦٩) ـ ﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾.

﴿ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ﴾ النَّزْع: إخراجُ الشيء ممَّا كان متصلاً به، أو ملابساً له.

﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ الشِّيعة: الجماعة المتعاونون على أمرٍ من الأمور.

﴿أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا﴾ تمييز، وأصله المصدر: جراءةً، أو: تمرُّداً؛ أي: نَبتدئُ بالأكبر جِرماً فالأكبر.

و﴿أَيُّهُمْ﴾ مبنيٌّ على الضَّمِّ عند سيبويه[1]؛ لأن حقَّه أن يُبنى كسائر الموصولات، لكنه أُعرب حملاً على (كلّ) و(بعض) للُزوم الإضافة، وإذا حذف صدرُ صلته زاد نقصُه، فعاد إلى حقِّه منصوبَ المحلِّ بـ (ننزعنَّ) ولذلك قرئ منصوباً[2]، و﴿أَشَدُّ﴾ خبر مبتدأٍ محذوف.

ومرفوعٌ عند غيره؛ إمَّا بالابتداء على أنه استفهام وخبره ﴿أَشَدُّ﴾، والجملة محكيَّة، وتقدير الكلام: لننزعنَّ من كلِّ شيعةٍ الذين يُقال فيهم: أيُّهم أشدُّ، أو معلَّق عنها ﴿لَنَنزِعَنَّ﴾؛ لتضمُّنه معنى التمييز اللازم للعلم، أو مستأنفة والفعل واقع على ﴿مِن كُلِّ شِيعَةٍ﴾ على زيادة ﴿مِن﴾ أو على معنى: لننزعنَّ بعضَ كلِّ شيعة، وإما بـ ﴿شِيعَةٍ﴾؛ لأنها بمعنى يشيع، و(على) للبيان أو متعلِّق بأفعل، وكذا الباء في قوله:

(٧٠) ـ ﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا﴾.

﴿ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِالَّذِينَ﴾ كُنيَ بالعلم عن إيقاع المعلوم، أي: نحن نبدأ بتعذيب

---

(١) انظر: «الكتاب» (٢/ ٣٩٨).

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٣٤)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ١٧)، والكلام منه.

الأحقِّ فالأحقِّ، وضمّن هذه الكناية الدلالة[١] على أنه تعالى في ذلك النزع لا يضع شيئاً في[٢] غير موضعه.

﴿هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا﴾: أحقُّ بالنار ﴿صِلِيًّا﴾ تمييز؛ أي: دخولاً، والباء تتعلَّق بـ ﴿أَوْلَىٰ﴾؛ أي: الذين هم أولى بالصُّليِّ، أو صليُّهم أَولى بالنار، ويجوز أن يراد بهم وبـ ﴿أشدّهم عتياً﴾[٣] رؤساء الشِّيَع، فإن عذابهم مضاعَف؛ لضلالهم وإضلالهم.

* * *

(٧١) ـ ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾.

﴿وَإِن مِّنكُمْ﴾: وما منكم، تلوينٌ للكلام من الغَيبة إلى الخطاب؛ للانتقال من أحوال الخاصة إلى أحوال العامة ﴿إِلَّا وَارِدُهَا﴾؛ أي: وإن منكم أحد[٤] إلَّا داخلَها.

الورود في اللغة: الوصول، إلا أن المراد هنا الدخول بطريق الكناية، كما في قوله: ﴿فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ [هود: ٩٨]، وقوله: ﴿لَوْ كَانَ هَٰؤُلَاءِ آلِهَةً مَّا وَرَدُوهَا﴾ [الأنبياء: ٩٩] لقوله عليه الصلاة والسلام: «الورود: الدخول، لا يبقى بَرٌّ ولا فاجرٌ إلَّا دَخَلها، فتكون على المؤمنين بَرْداً وسلاماً كما كانت على إبراهيم»[٥]، وتقول النار للمؤمن: «جُزْ يا مؤمن؛ فإنَّ نورَك أَطفأ لهبي»[٦]، وهو الظاهر من قوله: ﴿وَنَذَرُ

---

(١) في (م): «الدالة».

(٢) «في» من (م).

(٣) في (ك) و(م): «عتيا».

(٤) «أحد»: ليست في (م).

(٥) رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٤٥٢٠) من حديث جابر رضي الله عنه، وإسناده ضعيف؛ لجهالة أحد رجال الإسناد.

(٦) رواه الطبراني في «الكبير» (٢٢/ ٢٥٨)، وابن عدي في «الكامل» (٦/ ٣٩٤)، وابن الجوزي في «العلل» (١٥٣٢)، وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٣٦٠): فيه سليم بن منصور بن عمار، وهو ضعيف.

﴿ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا﴾ حيث قال: ﴿وَّنَذَرُ﴾، ولم يقل: ونُدخِل، ولا ينافيه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ﴾ الآية [الأنبياء: ١٠١] لأن معناه: أنَّهم مُبعَدون عن النار لا عن موضعها، وهم كذلك؛ فإنَّهم يمرُّون والنار خامدةٌ على ما ورد في الخبر[1]، ولذلك لا يسمعون حسيسها، وفائدة إدخالهم النار تشديدُ الحسرة على الكفار.

﴿كَانَ﴾ ورودهم ﴿عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا﴾ الحَتْم: القَطْع بالأمر، وذلك حكمٌ من الله قاطع، والمقضيُّ: الذي قضى بأنه يكون، ولمَّا كان المتبادِر إلى الوهم من قوله: ﴿كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا﴾ الوجوب على الله، زِيدَ قوله: ﴿مَّقْضِيًّا﴾؛ دفعاً لذلك الوهم، بما فيه من الدلالة على أن ما ذُكر أثَرُ قضائه تعالى، فيكون الكلام المذكور مستعاراً لمعنى اللزوم الناشئ عن القضاء المُبرَم، فلا وجوب ولا إيجاب لا من ذاته تعالى ولا من غيره.

***

(٧٢) ـ ﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا﴾.

﴿ثُمَّ نُنَجِّى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ الكفرَ، فيُساقون إلى الجنة.

﴿وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾: ونَدَعُ الكافرين ﴿فِيهَا جِثِيًّا﴾ جاثين على الرُّكب للتخاصم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ لَحَقٌّ تَخَاصُمُ أَهْلِ ٱلنَّارِ﴾ [ص: ٦٤] وقال: ﴿وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٤٧] فلا دلالة فيه على أن المرادَ الوردُ والجثوُّ حواليها.

***

(١) روى ابن أبي شيبة في «المصنف» (٣٥٤٢٩) عن خالد بن معدان أنه قال: إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنةَ قالوا: ربنا ألَم تعدنا أن نرد النار؟! قال: بلى، ولكنكم مررتم عليها وهي خامدة.

(٧٣) ـ ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ﴾: مرتَّلات الألفاظ مبيَّنات المعاني في نفسها، أو ببيان الرسول، أو واضحات الإعجاز.

﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾: لأجْلهم، أو: معهم ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ﴾ نحن وأنتم ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ بالفتح: موضعُ القيام، والمراد: المكان والمسكن، وبالضَّمِّ وهو موضعُ الإقامة والمنزل[1].

﴿وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾: مجلساً يجتمع القوم فيه للمشاورة، ومعنى الآية: أن الله تعالى يقول: إذا أنزلنا آيةً فيها دلائلُ وبراهينُ أَعرضوا عن التدبُّر فيها إلى الافتخار بالثروة والمال، وحُسْنِ المنزل والحال، غافلين عن وَخامة المآل، فقال تعالى منبِّهاً على ذلك:

(٧٤) ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَٰثًا وَرِءْيًا﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ (كم) مفعول ﴿أَهْلَكْنَا﴾، و﴿مِّن﴾ تبيين لإبهامها؛ أي: كثيراً من القرون أهلكنا، وكلُّ أهل عصرٍ قَرْنٌ لمَن بعدهم.

﴿هُمْ أَحْسَنُ﴾ في موضع الصفة لـ ﴿قَرْنٍ﴾، وجمع اعتباراً لمعناه.

وقيل: في محلِّ النصب صفةً لـ (كم)، ألَا ترى أنَّك لو تركت ﴿هُمْ﴾ كان ﴿أَحْسَنُ﴾ نصباً على الوصفية.

ويَرِدُ عليه: أنهم نصُّوا على أن (كم) الخبرية والاستفهامية لا تُوصَف ولا يُوصَف بها.

---

(١) قرأ بالضم ابن كثير، وباقي السبعة بالفتح. انظر: «التيسير» (ص: ١٤٩).

﴿أَثَٰثًا﴾ تمييز للنسبة، وهو متاعُ البيت، وقيل: هو ما جَدَّ من الفرش، والخُرْثيُّ ما رثَّ.

﴿وَرِءْيًا﴾ منظراً وهيئة، فِعْلٌ بمعنى مفعول، من رئت[1]، كالطِّحْنِ.

وقرئ: ﴿ورِيًّا﴾ بغير همزٍ مشدَّداً[2]، على قلب الهمزة وإدغامها، أو على أنه مِن الرِّيِّ الذي هو النعمة.

وقرئ: (رِيئاً) على القلب[3].

و(رِيَاً) بحذف الهمز[4].

و(زِيًّا) من الزِّيِّ[5]، قال المطرِّزي: والزِّيُّ: الهيئةُ، (فِعْلٌ) من زَوَى إذا جَمَع؛ لأنه لا يقال: لفلانٍ زيٌّ حَسَنٌ، إلَّا أن يَجمع ما يُستحسن من لبسةٍ حسنة وهيئةٍ مستحسَنة.

لمَّا كان كلامهم: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ كلامَ المفحَم المغلوب المنقطِع الذي لا يَجد ما يصلح للجواب، فينتقل إلى أمرٍ آخرَ يدَّعي به الفضل والغَلَبة = رَدَّهم ونَقَضَ كلامهم مهدِّداً[6] بقوله: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا﴾ إلخ، ثم بيَّن أنَّ سعيَهم في الدنيا استدراجٌ ليس بدليل على الفَضْل والرفعة، وإنما الفَضْل هو السعادة في الآخرة بقوله:

---

(١) في (س): «أريت».

(٢) هي قراءة ابن ذكوان عن ابن عامر، وقالون عن نافع. انظر: «التيسير» (ص١٤٩).

(٣) نسبت لرواية عن الأعمش، عن شعبة، عن عاصم، ونسبت أيضاً لحميد. انظر: «المحرر الوجيز» (٤/ ٢٩)، و«البحر المحيط» (١٤/ ٤٧٩).

(٤) نسبت لطلحة عن ابن عباس. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦)، و«المحتسب» (٢/ ٤٣)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٩).

(٥) انظر المراجع السابقة.

(٦) في (م): «تهددا».

(٧٥) ـ ﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ إِمَّا ٱلْعَذَابَ وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضْعَفُ جُندًا﴾.

﴿قُلْ مَن كَانَ فِي ٱلضَّلَٰلَةِ﴾ وهو تسجيلٌ على القائلين ذلك القولَ بالضلالة، وتتميمٌ وبيانٌ أنَّ ما دعاهم إلى ذلك القول هو غايةٌ في التعمُّق في الضلالة والحيرة والاستقرار فيها.

﴿فَلْيَمْدُدْ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ مَدًّاۚ﴾ جواب ﴿مَن﴾ لأنَّها شرطيَّة، وهذا الأمر بمعنى الخبر؛ أي: مَن كفر يمدُّ له الرحمنُ، يعني: يُمهله ويُملي له في العُمُر؛ ليزداد طغياناً وضلالاً، كقوله تعالى: ﴿أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْۚ إِنَّمَا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وإنما أُخرج على لفظ الأمر؛ إيذاناً بأن إمهاله ممَّا ينبغي أن يُفعل كالمأمور به؛ استدراجاً وقَطْعاً لمعاذيره.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا رَأَوْاْ مَا يُوعَدُونَ﴾ هي متصلةٌ بقوله: ﴿خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ وما بينهما اعتراض؛ أي: لا يزالون يقولون هذا القول إلى أن يشاهدوا الموعود رأيَ عين.

﴿إِمَّا ٱلْعَذَابَ﴾ في الدنيا وهو تعذيب المسلمين إياهم بالقتل والأَسْر ﴿وَإِمَّا ٱلسَّاعَةَ﴾؛ أي: القيامة، والمراد: ما ينالهم من الخزي والنكال فيها، فهما بدلان من ﴿مَا يُوعَدُونَ﴾.

﴿فَسَيَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ شَرٌّ مَّكَانًا﴾ من الفريقين ﴿وَأَضْعَفُ جُندًا﴾: أعواناً وأنصاراً؛ أي: فحينئذٍ يعلمون قَطْعاً أنَّ الأمر على عكس ما قرَّروه، وأنَّهم شرٌّ منزلاً وأضعف جنداً، لا خيرٌ مقاماً وأحسنُ نديًّا، وأنَّ المؤمنين على خلاف صفتهم.

وهو جواب الشرط، والجملة محكيَّة بعد (حتى)، وجاز أن تتصل بما يليها، والمعنى: إن الذين في الضلالة ممدودٌ لهم في ضلالتهم لا ينفكُّون عنها إلى أن يعاينوا نصرة الله المؤمنين، أو يشاهدوا هول الساعة.

(٧٦) ـ ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾.

﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًىۗ﴾ عطفٌ على ﴿فَلْيَمْدُدْ﴾ لأنه في معنى الخبر، كأنه قيل: مَن كان في الضلالة يَزيد الله في ضلاله، ويَزيد المهتدين ـ أي: المؤمنين ـ ثباتاً على الاهتداء.

أو على الشرطية المحكيَّة بعد القول، كأنه لمَّا بيَّن أن إمهال الكافر وتمتيعه بالحياة الدنيا ليس لفضله، أراد أن يبيِّن أن قصور حظِّ المؤمن فيها ليس لنقصه، بل لأنه تعالى أراد به ما هو خيرٌ وعوَّضه منه.

﴿وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ﴾؛ أي: الطاعات التي تبقى عائدتها أبد الآباد، وكلُّ الصيدِ في جوفِ الفَرا[1].

﴿خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا﴾: عائدةً من النِّعم الفانية التي يفتخرون بها، كيف ومآلها النعيمُ المقيم، ومآلُ هذه الحسرةِ هو العذابُ الدائم؟ كما أشار إليه بقوله:

﴿وَخَيْرٌ مَّرَدًّا﴾: مرجعاً وعاقبة، وفي التفضيل[2] تهكُّمٌ بالكفار؛ لأنهم قالوا للمؤمنين: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا﴾.

* * *

---

(١) (الفَرَأ) بالهمز: حمار الوحش، وهو في المثل دون همز لأن الأمثال موضوعة على الوقف، وأصل المثل: أن قوماً خرجوا للصيد، فصاد أحدهم ظبياً، والآخر أرنباً، وصاد الثالث حمار وحش، فقال لأصحابه: «كل الصيد...»؛ أي: كله دونه. انظر: «جمهرة الأمثال» (٢/ ١٦٢)، و«المستقصى» (٢/ ٢٢٤)، و«مجمع الأمثال» (٢/ ١٣٦)، و«القاموس» (مادة: فرأ).

(٢) في (س): «التفصيل».

(٧٧) ـ ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾.

﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ لما كانت رؤية الأشياء طريقاً إلى العلم بها وصحَّة الخبر عنها، استعملوا (أرأيت) في معنى: أَخْبِرْ، والفاء للتعقيب، والمعنى: أَخْبِرْ بقصة هذا الكافر عقيبَ حديث أولئك.

وقوله: ﴿لَأُوتَيَنَّ﴾ جواب قَسَم مُضمَرٍ ﴿مَالًا وَوَلَدًا﴾ وقرئ: ﴿وُلْداً﴾[1]، وهو جمع وَلَد كأَسَد في أُسْد، أو بمعنى الوَلَد كالعُرْب في العَرَب.

***

(٧٨) ـ ﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾.

﴿أَطَّلَعَ ٱلْغَيْبَ﴾ من قولهم: اطَّلع الجبلَ: إذا ارتقى إلى أعلاه، الهمزة للاستفهام، وهمزة الوصل محذوفة؛ أي: نَظَر في اللوح المحفوظ فرأى فيه مُنْيَتَه.

﴿أَمِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَـٰنِ عَهْدًا﴾: موثقاً أن يؤتيَه ذلك، روي أن خبَّاب بن الأرتِّ صَاغَ للعاصِ بنِ وائل حَلْياً، فاقتضاهُ الأجرَ، فقال: إنَّكم تزعمون أنَّكم تُبعَثون وأنَّ في الجنة ذهباً وفضَّة فأنا أَقضيكَ ثَمَّ؛ فإني أُوتى[2] مالاً وولداً حينئذٍ[3].

وفيه أن قوله: وولداً، لا يناسب المقامَ ومساقَ الكلام حينئذ.

***

(٧٩) ـ ﴿كَلَّا ۚ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُۥ مِنَ ٱلْعَذَابِ مَدًّا﴾.

﴿كَلَّا ۚ﴾ ردعٌ وتنبيهٌ على الخطأ؛ أي: هو مُخطئٌ فيما تصوَّره لنفسه فليرتدِعْ عنه.

---

(١) قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «السبعة» (ص: ١٤٩ ـ ١٥٠).

(٢) في (ك): «أوفى».

(٣) رواه البخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥)، والترمذي (٣١٦٢)، من حديث خباب رضي الله عنه.

﴿سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ﴾: سنُظهر له أنَّا كتبنا قوله، على طريقة قوله:

إذا ما انتَسَبْنا لَمْ تَلِدْني لئيمةٌ[١]

أي: تبيَّن أني لم تَلِدني لئيمةٌ؛ لأن نفس الكَتْبة لا تتأخَّر عن القول؛ لقوله تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨].

وقيل: هذا على طريقة قول المتوعِّد للجاني: سوفَ أنتقمُ منك، يعني: أنه لا يُخلُّ بالانتصار وإن تطاول به الزمان، إلا أن حرف التنفيس جرِّد هنا للوعيد.

﴿وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ﴾: نزيده[٢] من العذابِ كما يزيد في الافتراء والاجتراء، من المدد، يقال: مدَّه وأمدَّه بمعنًى.

﴿مَدًّا﴾ أكِّد بالمصدر؛ لفَرْط غضبه تعالى.

***

(٨٠) ـ ﴿وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾.

﴿وَنَرِثُهُ﴾ بموته ﴿مَا يَقُولُ﴾ يعني: المالَ والولدَ بدل اشتمال من الهاء في (نرثه).

﴿وَيَأْتِينَا﴾ يوم القيامة ﴿فَرْدًا﴾ لا يَصحبه مالٌ ولا ولدٌ كان له في الدنيا، فضلاً أن يُؤتى له زائداً.

***

---

(١) أورده الفراء في «معاني القرآن» (١/ ٦١)، والطبري في «التفسير» (٢/ ٥٧)، ولم ينسباه، وأورده البغدادي في «شرح أبيات المغني» (١/ ١٢٥)، ونسبه لزائد بن صعصعة الفقعسي، وعجزه:

ولم تَجِدي من أن تُقِرِّي به بدًّا

(٢) في (م): «زيدت».

(٨١) ـ ﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴾.

﴿ وَٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ ءَالِهَةً لِّيَكُونُواْ لَهُمْ عِزًّا ﴾: ليتعزَّزوا بهم بأن يكونوا لهم شفعاء عند الله، ووحَّد ﴿ عِزًّا ﴾ بمعنى المصدر.

* * *

(٨٢) ـ ﴿ كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾.

﴿ كَلَّاۚ ﴾؛ أي: ليس الأمر كما ظنُّوا ﴿ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ ﴾ الضمير للآلهة؛ أي: سيجحدون عبادتهم، ويقولون: واللهِ ما عبدونا؛ لقوله تعالى: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ ﴾ [البقرة: ١٦٦].

أو للمشركين؛ أي: يُنكِرون أن يكونوا قد عبدوها، كقوله: ﴿ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٢٣].

﴿ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا ﴾: خصماً؛ لأن الله تعالى يُنطقهم فيقولون: يا ربِّ، عذِّب هؤلاء الذين عبدونا مِن دونك، والضِّدُّ يقع على الواحد والجمع في مقابلةِ ﴿ لَهُمْ عِزًّا ﴾، والمراد ضدُّ العزِّ، وهو الذُّلُّ والهوان، يكونون عليهم ضدًّا لِمَا قصدوه من العزِّ، على معنى: أنها تكون معونةً في عذابهم؛ بأن تُوقَد بها نيرانهم.

أو جُعل الواو للكفرة؛ أي: ويكونون كافرين بهم بعد أن كانوا يعبدونها، وتوحيده لوحدة المعنى الذي به مضادَّتهم، فإنَّهم بذلك كالشيء الواحد، ونظيره قوله عليه السلام: «وهم يدٌ واحدةٌ على مَن سواهم»[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد في «المسند» (٩٥٩)، والنسائي (٤٧٣٤)، وأبو داود (٤٥٣٠)، من حديث علي بن أبي طالب. ورواه الخطابي في «غريب الحديث» (١/ ٥٥٣)، وأبو داود (٢٧٥١)، وابن ماجه (٢٦٨٥) والإمام أحمد في «المسند» (٦٧٩٧)، من حديث عبد الله بن عمرو بن =

وقرئ: (كَلًّا) بالتنوين على قلب الألف نوناً في الوقف، أو على معنى: كَلَّ هذا الرأيُ كَلًّا، و: (كُلًّا) على إضمار فعلٍ يُفسِّره ما بعده؛ أي: سيجحدون كُلًّا، سيكفرون بعبادتهم[١].

***

(٨٣) ـ ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّآ أَرْسَلْنَا ٱلشَّيَٰطِينَ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ الإرسال: التخلية، وتعديته بـ (على) لتضمين معنى التسليط، أي: خلَّيناهم[٢] مسلَّطين عليهم بالإغراء[٣]، وذلك حين قال لإبليس: ﴿وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ﴾ [الإسراء: ٦٤].

﴿تَؤُزُّهُمْ أَزًّا﴾: إغراءٌ بإزعاج، وأصل الأزِّ: الحركة مع صوتٍ متَّصلٍ من أزيزِ القِدْر وغليانها، والمعنى: تزعجهم الشياطين وتسوقهم إلى المعاصي بسرعة، ومساقُ الكلام ظاهرٌ في الإمهال استدراجاً، ولذلك أتى بأداة التفريع في قوله:

(٨٤) ـ ﴿فَلَا تَعْجَلْ عَلَيْهِمْ إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ عَدًّا﴾.

﴿فَلَا تَعْجَلْ﴾؛ أي: تطلب العذاب قبل حينه، ولذلك قال[٤]: ﴿عَلَيْهِمْ﴾.

ولمَّا كان قوله: ﴿إِنَّمَا نَعُدُّ لَهُمْ﴾ ـ أي: أنفاسهم ليستوفوا آجالهم ـ في مقام التعليل لِـمَا ذكر، كان المناسب أن يكون المراد: إنَّما نمهلهم لا نُهملهم.

= العاص. وهو حديث صحيح. وليس فيه كلمة: (واحدة).

(١) نسبت القراءتان لأبي نهيك. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦)، و«المحتسب» (٢/ ٤٥)، و«الكشاف» (٣/ ٤١).

(٢) في (ك): «طلبنا منهم».

(٣) في (ف) و(م): «بالإعزاء».

(٤) في (ف) و(ك): «قيل».

وما قيل: أي: لا تعجل بهلاكهم؛ فإنه لم يبقَ لهم إلَّا أيام محصورة وأنفاس معدودة = بعيدٌ عن مساق الكلام وسياق المقام[١].

﴿عَدًّا﴾ فلا يزدادون عليها ولا يَنقصون منها.

* * *

(٨٥) ـ ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ وَفْدًا﴾.

﴿يَوْمَ نَحْشُرُ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ الحَشْر: الجمع من جهات متعدِّدة، ونصب ﴿يَوْمَ﴾ بـ﴿لَّا يَمْلِكُونَ﴾، أو بمضمر؛ أي: يوم نَحشُر ونَسوق نَفعل[٢] بالفريقين ما لا يوصف.

﴿إِلَى ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ لاختيار هذا الاسم في هذه السورة شأنٌ، ولعلَّه لأن مساق الكلام فيها لتعداد نِعَمه الجِسام وشَرْح حال الشاكرين لها والكافرين بها.

﴿وَفْدًا﴾ الوفدُ جمع وافد، كرَكْب: جمع راكب[٣]، حالٌ من ﴿ٱلْمُتَّقِينَ﴾.

* * *

(٨٦) ـ ﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾.

﴿وَنَسُوقُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾: الكافرين سَوق الأنعام؛ لأنهم كانوا أضلَّ منها.

﴿إِلَىٰ جَهَنَّمَ وِرْدًا﴾ عطاشاً؛ لأن مَن يَرِد الماءَ لا يَرِدُه إلا لعطشٍ، وحقيقة الوِرْد: المسير إلى الماء، فسمِّي به الواردون.

ذُكر المتقون بأنهم يُجمَعون إلى ربِّهم الذي غمرهم برحمته كما يَفِدُ الوفود على

---

(١) في (س) و(ك): «مساق الكلام وسباق المقام»، وفي (م): «سياق الكلام وسياق المقام».

(٢) في (م): «يفعل».

(٣) في (م): «كركب وراكب».

الملوك تبجيلاً لهم، والكافرون بأنهم مساقون إلى النار كأنَّهم نَعَمٌ عِطاش يُساقون إلى الماء استخفافاً بهم.

* * *

(٨٧) ـ ﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾.

﴿لَّا يَمْلِكُونَ ٱلشَّفَٰعَةَ﴾ الضمير فيه للعباد المدلول عليهم بذكر المجرمين والمتقين؛ لانحصارهم فيهما.

﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّخَذَ عِندَ ٱلرَّحْمَٰنِ عَهْدًا﴾: إذناً فيها؛ لقوله تعالى: ﴿لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [طه: ١٠٩] من قولهم: عَهِدَ الأميرُ إلى فلانٍ بكذا، إذا أمره به، ومحلُّه الرفع على البدل من ضمير ﴿يَمْلِكُونَ﴾، أو النصب على تقدير المضاف؛ أي: إلَّا شفاعةَ مَن اتخذ، أو على الاستثناء.

وقيل: الضمير لـ ﴿ٱلْمُجْرِمِينَ﴾؛ أي: لا يملكون أن يشفع لهم إلَّا مَن اتخذ عند الله عهداً بالإسلام ليستعدَّ به أن يشفع له.

* * *

(٨٨) ـ ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾.

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا﴾؛ أي: النصارى واليهود، ومَن زعم أن الملائكة بناتُ الله، ولا وجه لإسناد هذا القول إلى الكُلِّ مع الإنكار من[1] بعضهم ووقوعِ المشاجرة فيه فيما بينهم؛ لكونه مقولاً فيما بينهم، على أن في هذا الإسناد نوعَ شَيْنٍ للمسلمين، وهم بُرآء عنه.

* * *

(١) في (ف) و(ك) و(م): «عن»، والمثبت من (س).

(٨٩) ـ ﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾.

﴿لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا﴾ على الالتفات للمبالغة في الذَّمِّ، والتسجيلِ عليهم بالجرأة على الله، والتعرُّضِ لسخطه، والتنبيه على عِظَمِ ما قالوا.

والأَدُّ بالفتح والكسر[1]: العَجَب، وقيل: العظيم المنكَر، من الإدَّة وهي الشِّدَّة.

* * *

(٩٠) ـ ﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَنفَطِرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا﴾.

﴿تَكَادُ السَّمَاوَاتُ﴾: تَقْرُب[2] ﴿يَنفَطِرْنَ﴾ وبالنون[3]، الانفطار من فَطَره: إذا شقَّه، والتفطُّر من فطَّره: إذا شقَّقه مرةً بعد أخرى، فهذا أبلغُ منه من عِظَم هذا القول.

﴿وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ﴾ وتسقط ﴿هَدًّا﴾؛ أي: مهدودة، أو: تهدُّ هدًّا، أو: مفعول له؛ أي[4]: لأنها تهدُّ، والهدُّ: الهدم بشدَّةِ صوتٍ، وهو تقرير لكونه[5] إدًّا؛ أي: بلغت هذه الكلمةُ من فظاعتها ومن[6] عِظَمها وهدمها لأركان الدِّين وقواعده مبلغاً لو تصوِّر تأثيرها بصورة محسوسة، لم يَحتمل مثلَه هذه الأجرام العظيمة التي هي قِوام العالَم، وتفتَّت من شدَّتها، أو كادت هذه الأجرام تضمحلُّ وتُخرب العالَم؛ لشدَّة

---

(١) قرأ الجمهور بالكسر، وقرأ علي والسلمي بالفتح، انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٦)، و«المحتسب» (٢/ ٤٥).

(٢) في (ك): «تقرير».

(٣) أي: ﴿ينفطرن﴾ وهي قراءة شعبة وحمزة وابن عامر وأبي عمرو، وقرأ باقي السبعة بالتاء. انظر: «التيسير» (ص١٥٠).

(٤) «أي»: ليست في (م).

(٥) في (ك): «لقوله».

(٦) «من»: ليست في (م).

غضب الله تعالى على مَن كان تفوَّه بها؛ قهراً له وهدماً لأركان العالَم عليه؛ استعظاماً لها وتهويلاً من فظاعتها.

* * *

(٩١) ـ ﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾.

﴿أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا﴾ إمَّا منصوب بتقدير حذف اللام وإفضاء[1] الفعلِ إليه لتعليل الكيدودة أو الهدِّ؛ أي: هدًّا لأنْ دعوا، علَّل الخرور بالهدِّ، والهدَّ بدعاء الولد للرحمن، أو مجرور بدل من الضمير في ﴿مِنْهُ﴾؛ أي: من أنْ دعوا، أو على إضمار لام التعليل، أو مرفوع على أنه فاعل ﴿هَدًّا﴾؛ أي: هدَّها دعاءُ الولد، أو خبر مبتدأ محذوف؛ أي: سببُ ذلك أن دعوا، وهو مِن دَعَا بمعنى سَمَّى المتعدِّي إلى مفعولين، أو مِن دَعا بمعنى نَسبَ الذي مطاوعُه: ادَّعى، بمعنى: انتَسَب.

* * *

(٩٢) ـ ﴿وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾.

﴿وَمَا يَنۢبَغِى﴾: ما يتأتَّى ﴿لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا﴾ قيل: لا يليق به اتِّخاذ الولد، ولا ينطلب له لو طُلب مثلاً؛ لأنه مستحيل[2].

---

(١) في (س): «اوفضاء»، وفي (ف) و(ك): «أو إفضاء»، والمثبت من (م)، وهو الصواب. انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٠).

(٢) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٠). قوله: «لا ينطلب له» انفعال من الطلب؛ أي: لا يحصل، «لو طلب»؛ أي: لو طلب له ـ على البناء للمجهول ـ ؛ أي: لا يمكن حصول الولد لو طلب له الطالب غيره تعالى، وهم الكفرة حيث طلبوا له الولد؛ أي: حكموا به فلم يمكن حصوله. انظر: «حاشية القونوي» (١٢/ ٣٠١).

ويَرِدُ عليه: أن المحالَ قد يستلزم المحالَ، فيجوز أن ينطلب على تقدير تحقُّق الطلب المحال، فبالتعليل المذكور لا يتمُّ التقريب.

وفائدة تخصيص الرحمن بالذِّكر وتكريره مرَّة بعد أخرى: أنه اسمٌ مختصٌّ بالواجب بالذات باعتبار إفاضته الوجود وأصول النِّعَم على الكُلِّ، كما قيل: فلينكشف عن بصرك غطاؤه، فأنت وجميع ما عندك عطاؤنا، فكلُّ ما عداه نعمة أو مُنعَم عليه، فلا يُجانس مَن هو مُبدئ النِّعَم، والولد يجب أن يجانس الوالد، فلا يمكن له ولدٌ، فمَن نَسب إليه الولد فقد شبهه بخلقه وأخرجه عن استحقاق اسمِ الرحمن، ولهذا اقتصر على المفعول الثاني على تفسير ﴿دَعَوۡا﴾ بمعنى: سَمَّوا، للدلالة على العموم والإحاطة بكلِّ ما جعل ولداً؛ لاستحالة مناسبة شيء مّا من خلقه له.

***

(٩٣) - ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ عَبۡدٗا﴾.

﴿إِن كُلُّ مَن﴾ ﴿مَن﴾ نكرة موصوفة، صفتُها ﴿فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾.

وخبر ﴿كُلُّ﴾: ﴿إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ ووحَّد ﴿ءَاتِي﴾، و﴿ءَاتِيهِۦ﴾ حملاً على لفظ (كلّ) وهو اسم فاعل من أتى، وهو مستقبَلٌ؛ أي[1]: يأتيه ويلتجئ إليه.

و﴿عَبۡدٗا﴾ حال؛ أي: خاضعاً ذليلاً منقاداً.

والمعنى: ما كلُّ مَن في العالم من الثَّقَلين والمَلَك إلَّا وهو يأتي الله تعالى يوم القيامة مُقرًّا بالعبودية، وهي والبنوَّة متنافيان، حتى لو مَلَكَ الأبُ ابنَه يَعتِق عليه، وهذا تصريحٌ[2] لِمَا عُلم ممَّا تقدَّم التزاماً.

---

(١) في (ف) و(ك): «مستقبل أتى».

(٢) في (م): «التصريح».

(٩٤) ـ ﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾.

﴿لَقَدْ أَحْصَىٰهُمْ﴾ الإحصاء: الحَصْر والضبطُ؛ أي: أحاط بهم علمُه.

﴿وَعَدَّهُمْ عَدًّا﴾؛ أي: علم تفاصيلهم وأعدادهم، فكأنه عدَّهم بأشخاصهم فرادى فرادى، والله منزَّهٌ عن الحاجة إلى العدِّ.

***

(٩٥) ـ ﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾.

﴿وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾: منفرداً، سواءٌ العابد والمعبود، ليس مع المعبود[1] ممَّن يعبده أحدٌ يخدمه وينفعه، ولا مع العابد أحدٌ يَشفع له ويقرِّبه وينفعه.

***

(٩٦) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَـٰنُ وُدًّا﴾ سيُحدِث لهم في قلوب الناس مودَّةً من غير أن يتعرَّضوا للأسباب التي يُكتسب بها مودَّةٌ، بل اصطناعاً من الله تعالى لعباده الخاصَّة، قال[2] قتادة: ما أقبل العبدُ إلى الله إلَّا أقبل اللهُ بقلوب العباد إليه.

وللَفظ ﴿ٱلرَّحْمَـٰنُ﴾ هاهنا خصوصيةٌ تظهر بالتأمُّل في قوله عليه الصلاة والسلام: «إن قلوبَ بني آدم بين إصبعين من أصابعِ الرحمن يُقلِّبها كيف يشاء»[3].

---

(١) في (ف) و(ك): «معبودهم».

(٢) في (م): «فقال».

(٣) رواه مسلم (٢٦٥٤) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

والسين إمَّا لأن السورة مكيَّة، وكانوا ممقوتِين[١] حينئذٍ بين الكفرة، فوعدهم اللهُ تعالى ذلك إذا دجا الإسلامُ[٢]، أو لأن الموعود في القيامة حين تُعرَض حسناتهم على رؤوس الأشهاد، فينزع ما في صدورهم من الغلِّ.

***

(٩٧) ـ ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾.

﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ﴾: سهَّلناه مُنزَّلاً ﴿بِلِسَانِكَ﴾؛ أي: بلُغتك، وهو اللسان العربيُّ المبين، والفاء للسببية؛ لأن ما قبلها دلَّت على أن مقت[٣] الكفرة إيَّاهم لا يضرُّهم، وسيَحدث بدله الحبُّ، فقال له: لا تخف وبلِّغ ما أُنزل إليك مبشِّراً ونذيراً.

﴿لِتُبَشِّرَ بِهِ ٱلْمُتَّقِينَ﴾: الصائرين إلى التقوى.

﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ اللُّدُّ جمع: أَلَدَّ، وهو الشديد[٤] الخصومة في الباطل، الآخذُ في كلِّ لَديدٍ[٥]؛ أي: شِقٍّ وجانب؛ لفَرْط اللّجاج والمِراء.

***

(٩٨) ـ ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هَلْ تُحِسُّ مِنْهُم مِّنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزًا﴾.

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ تخويفٌ لهم وإنذارٌ، وتجسير للرسول عليه الصلاة والسلام على إنذارهم.

---

(١) في (م): «ممنوعين».

(٢) أي: قوي وشاع.

(٣) في (م): «منعت».

(٤) في (م): «شديد».

(٥) في (م): «لدية».

﴿هَلۡ تُحِسُّ﴾ مِن حسَّه: إذا شعر به، ومنه الحِسُّ والمحسوس ﴿مِنۡهُم مِّنۡ أَحَدٍ﴾؛ أي: هل ترى منهم أحداً.

﴿أَوۡ تَسۡمَعُ لَهُمۡ رِكۡزَۢا﴾ الركز: الصوت الخفيُّ، وأصل التركيب: الخفاء، ومنه: ركَز الرُّمحَ، إذا غيَّب طرفه في الأرض، والرِّكاز: المال المدفون.

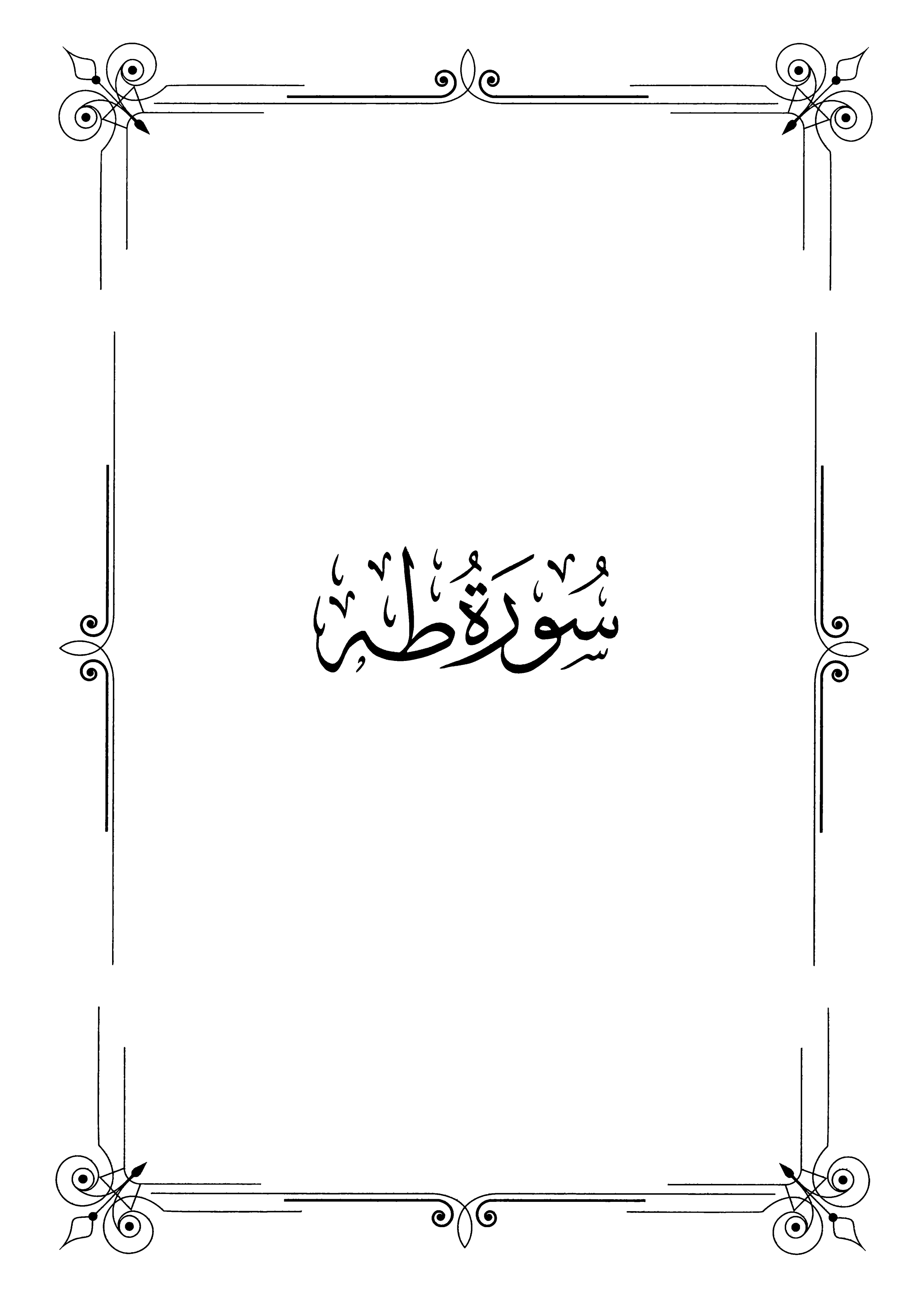
أي: قد ذهبوا وبادوا، فلا عينَ لهم ولا أَثَر، فكذا هؤلاء إن[١] أعرضوا عن تدبُّر ما أُنزل إليك فعاقبتُهم الهلاك، فليَهُن عليك أمرُهم، والله تعالى أعلم بالصواب[٢].

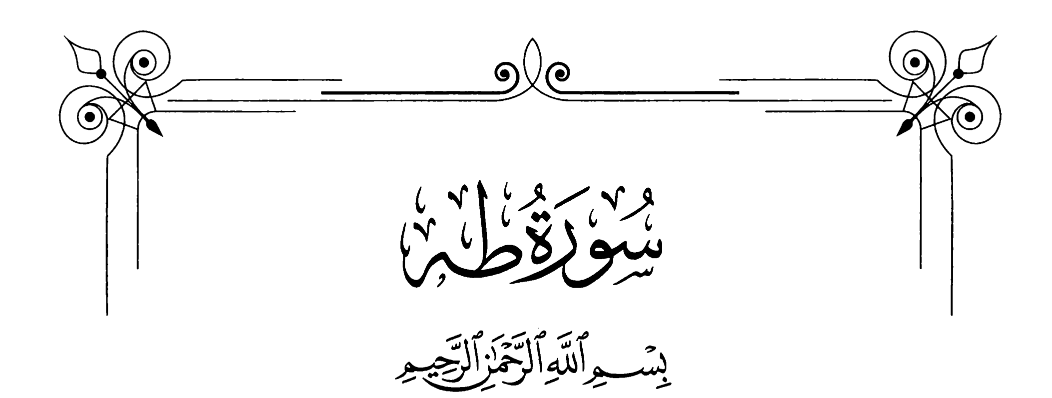
***

---

(١) في (م): «إذ».

(٢) «والله تعالى أعلم الصواب»: ليست في (م).


سُورَةُ طه



سورة طه

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) - ﴿طه﴾.

﴿طه﴾ رُوي عن مجاهدٍ والحسنِ والضَّحاكِ وعطاءٍ وغيرهم أنَّ معناه: يا رجلُ[١]؛ فإنْ صحَّ فظاهرٌ، وإلَّا فالحقُّ ما هو المذكور في سورة البقرة[٢].

وقرئ: (طَهْ)[٣]، على أنَّه أمرٌ للرَّسول بأنْ يطأ الأرضَ بقدميه، فإنه كان يقوم في تهجُّده على إحدى رجليه[٤]، وأنَّ أصله: (طَأْ) فقلبت همزته هاء.

وعلى هذا يحتمل أن يكون أصل ﴿طه﴾: طاها، والألف مبدلة عن

---

(١) رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥ ـ ٧) عن ابن عباس وابن جبير ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والحسن. ورجحه.

(٢) انظر ما تقدم في تفسير ﴿الٓمٓ﴾ في مطلع سورة البقرة.

(٣) رويت عن نافع في غير المشهور عنه، ونسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«معاني القراءات» للأزهري (٢/ ١٤١)، و«الكشاف» (٣/ ٤٩).

(٤) رواه عبد بن حميد كما في «الكاف الشاف» (ص: ١٠٨) عن الربيع بن أنس مرسلًا، ورواه البزار في «مسنده» (٩٢٦) من حديث عليٍّ رضي الله عنه، وفي إسناده ضعف. انظر: «مجمع الزوائد» (٧/ ٥٦)، وفيه: رواه البزار وفيه يزيد بن بلال، قال البخاري: فيه نظر. وكيسان أبو عمر، وثقه ابن حبان وضعفه ابن معين، وبقية رجاله رجال الصحيح.

الهمـزة، والهـاء كنايـةُ عـن الأرض، ويَمنـع هـذا الوجـهُ والتَّفسـير بــيا هـذا[١] كتبتَهمـا[٢] علـى صورة الحـروف، إلَّا أن يقال: إنـه اكتُفي بشـطرَي الكلمتين، وعبَّر عنهمـا بالاسـمين.

* * *

(٢) ـ ﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ لِتَشۡقَىٰٓ﴾.

﴿مَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ إن جعلْتَ ﴿طه﴾ تعديداً لأسماء الحروف[٣]، فهو ابتداءُ كلام[٤].

وإن جعلتها اسماً للسُّورة أو القرآن احتمل أن يكون خبراً عنها وهي في موضع المبتدأ، و﴿ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ ظاهرٌ أُوقع[٥] موقع المضمَر تفخيماً[٦]، وأن يكون جواباً لها وهي قسم، وإنْ جعلتَها نداءً، فهو منادى، وإن جعلتها جملةً فعليَّة أو اسميَّة بإضمار مبتدأ، أو طائفةً من الحروف محكيَّةً، فهو استئنافٌ.

﴿لِتَشۡقَىٰٓ﴾: لتَتعب بفرط تأسُّفك على كُفْرِ قومِكَ وتحسُّرك على أن يؤمنوا، وما عليك أنْ لا يؤمنوا إذا لم تفرِّطِ في أداء الرِّسالة. أو: بكثرة تهجُّدك وطول قيامك؛

---

(١) في (ف) و(ك): «بيان هذا»، وسقطت من (م)، والمثبت من (س) وهو الصواب. انظر: «الكشاف» (٣/ ٤٩)، وفيه: إن (طاها) في لغة عكٍّ في معنى: يا رجل، ولعل عكًّا تصرفوا في (يا هذا) كأنهم في لغتهم قالبون الياء طاء، فقالوا في (يا): (طا)، واختصروا (هذا) فاقتصروا على (ها).

(٢) في (م): «كتبهما».

(٣) في (م): «تعديد الأسماء بالحروف».

(٤) في (ف): «الكلام».

(٥) في (س): «ظاهراً وقع». وفي باقي النسخ محتملة.

(٦) «تفخيماً» زيادة من (م).

أي: ما بُعِثْتَ لِتُنْهِكَ نفسَكَ وتذيقها المشقَّةَ الفادحة[١]، فإنَّ لها حقًّا عليك، وإنَّما بُعِثْتَ بالحنيفيَّة السَّمحة السَّهلة.

والشَّقاءُ شائع في معنى التَّعب، ومنه أشقى من رائض المُهر[٢]، وسيِّد القوم أشقاهم[٣].

وفيه إشعارٌ بأنَّ القرآن إنَّما أنزل إليك لتسعدَ[٤]، وهو الوسيلة إلى نيل كلِّ فوزٍ وسعادةٍ، فلا تجعلها مُوجِبَ الشَّقاوة.

وقيل: ردٌّ وتكذيب للكفرة؛ فإنَّهم لَمَّا رأوا كثرة عبادته قالوا: إنَّك لَتَشْقَى لترك ديننا، وإن القرآن أُنْزِلَ عليك لتشقى به.

* * *

(٣) ـ ﴿إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ﴾.

﴿إِلَّا تَذْكِرَةً﴾ نصب على الاستثناء المنقطع؛ أي: لكن ليكون تذكرةً، أو على الحال؛ أي: إلَّا مذكِّرين، أو على المفعول له؛ أي: إلَّا لتَذكر. وإنما جيء باللَّام في ﴿لِتَشْقَىٰ﴾ لأنَّه ليس لفاعل الفعل المعلَّل، فانتفى شرط انتصابه، وانتصب هذه لوجود الشَّرط، لا على البدل من محلِّ ﴿لِتَشْقَىٰ﴾؛ لاختلاف الجنسين؛ إلَّا أن يُجعل التَّذكير نوعاً من الشَّقاء؛ أي: ما أنزلناه لتُفْرِط في

(١) في (م) و(ف): «القادحة».

(٢) انظر: «جمهرة الأمثال» (١/ ٢٨١)، و«مجمع الأمثال» (١/ ١٤٨)، و«المستقصى» (١/ ٣٥)، وفيها: «أتعب» بدل «أشقى».

(٣) انظر: «جمهرة الأمثال» (١/ ٥٢١)، و«مجمع الأمثال» (١/ ٣٥٦).

(٤) في (ك): «أنزل إليك كسور»، وفي (م): «أنزل عليك لتسعد».

الرِّياضة والتَّهجد، أو تتعب بالتَّأسُّف والتَّحسُّر على إيمانهم، إنَّما أنزلناه لتحتمِلَ[١] مشاقَّ التَّبليغ، ومتاعبَ التَّذكير، ومقاولةَ العُتاة الجاحدين، ومقاتلةَ أعداء الدِّين، وسائرَ تكاليف النُّبوَّة.

﴿لِّمَن يَخۡشَىٰ﴾: لمن يصير إلى الخشية، ويلينُ قلبُه ويرقُّ، ويعلمُ اللهُ أنَّه ينتفع به[٢].

* * *

(٤) ـ ﴿تَنزِيلًا مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾.

﴿تَنزِيلًا﴾ بدلٌ من ﴿تَذۡكِرَةً﴾ إذا جُعِلَتْ حالاً، لا مفعولاً له لفظاً أو معنًى؛ إذ الشَّيء لا يُعلَّل بنفسه ولا بنوعه، أو نصبٌ[٣] على المصدر بإضمار (نُزِّل)، أو بـ ﴿أَنزَلۡنَا﴾[٤]؛ لأنَّ معنى: ما أنزلناه إلَّا تذكرة: أنزلناه تذكرةً، أو على المدح والاختصاص، أو على أنَّه مفعول به لـ ﴿يَخۡشَىٰ﴾؛ أي: تذكرةً لمن يخشى تنزيلاً من الله.

وقرئ بالرَّفع؛ أي: هو تنزيلٌ[٥].

﴿مِّمَّنۡ خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلۡعُلَى﴾ صلة لـ ﴿تَنزِيلًا﴾، أو صفة له؛ أي: تنزيلاً كائناً من الله.

---

(١) في (ف) و(ك): «لتحمل».

(٢) «به»: ليست في (م).

(٣) في (م): «بنوعه ونصب»، وفي (ف): «أنه نصب»، والمثبت من (ك) و(س).

(٤) في (ف) و(ك) و(س): «بأنزلناه»، والمثبت من (م).

(٥) انظر: «الكشاف» (٣/ ٥١)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ١٤)، وعزاها القرطبي لأبي حيوة الشامي.

و﴿ٱلۡعُلَى﴾: جمع العُلْيا، تأنيث الأعلى.

فخَّم شأنَ المُنْزَل: أوَّلاً بإسناد الإنزال إلى الواحد المتعالي، ثمَّ بتنكير ﴿تَنزِيلًا﴾ للتَّعظيم والإبهام والتَّوضيح، حيث لم يوصَفْ[1]، ثمَّ بالالتفات من التَّكلُّم إلى الغيبة لاتِّعاظ السَّامع والتَّنبيهِ على عظم شأنه بتفنُّن الكلام، ثمَّ بإجراء الصِّفات العظام العجيبة على منزِّله، وإيراد الموصول ذريعة إلى ذلك، ثم بوصف السَّماوات بالعُلَى للدِّلالة على علوِّ قَدْر خالقها، ثمَّ بإجراء صفات العَظَمة والتَّمجيد، فأكَّد الفخامة بوجوهٍ كثيرةٍ وطرقٍ مختلفةٍ، ورتَّب صفاته ترتيباً أنيقاً، فبدأ أوَّلاً بإيجاده لأصول العالم، وقَدَّم الأرض لأنَّها أقربُ إلى الحسِّ، وأظهرُ نفعاً واحتياجاً إليها.

ثمَّ أشار إلى وجهِ إحداث الكائنات وتدبير أمرها، بذكر استوائه على العرش، وإجراء الأحكام وإنزال الأسباب منه، على التَّرتيب الذي اقتضتْهُ حكمتُه، وتعلَّقَتْ به مشيئتُه، فقال:

(٥) ـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾.

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ رفع على المدح؛ أي: هو الرَّحمن، أو بدل من فاعل ﴿خَلَقَ﴾.

﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِ﴾ خبر مبتدأ محذوف، وعلى الأوَّل يجوز أن يكون خبراً بعدَ خبر.

﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾ كنايةٌ عن الملك؛ لأنَّ العرشَ سريرُ المِلك، ومكانُ التَّمكُّن من ملكه، فأجريَتْ هذه العبارة مُجرى مَلَك، واستعمل[2] في موضعه، واشتَهر

---

(١) في (ف) و(ك) و(س): «يصف».

(٢) في (م): «واستعملته».

كالمترادفَيْن المتساويَيْن في إفادة المعنى المراد، مع تصوير العَظَمِة[١]، وتخييل الأُبَّهة والسَّلطنة والتَّمكُّن في ملكه، وإنْ لم يقعدْ قطُّ على السَّرير.

***

(٦) ـ ﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾.

﴿لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ﴾: ما تحتَ السَّبع الأرضين[٢]، فإنَّ الثَّرى: الطَّبقةُ التُّرابيَّةُ من الأرض، وهي[٣] آخر طبقاتها.

وهذه الجملة تجري مَجرى البيان من الأولى؛ لأنَّ مؤدَّى الأولى كونُه ملكاً مُطاعاً قادراً، وقوله: ﴿لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ إلخ تفصيلٌ لذلك وتقريرٌ له.

ولَمَّا[٤] ذَكَر ما دلَّ على ملكه وكمال قدرته وإرادته عقَّبه بما دلَّ على كمال علمه وإحاطته بخفايا الأمور وجلاياها على السَّواء؛ لتلازم تلك الصِّفات فيه، وابتناء الجميع على العلم، فقال:

***

(٧) ـ ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ فَإِنَّهُۥ يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخْفَى﴾.

﴿وَإِن تَجْهَرْ بِٱلْقَوْلِ﴾: ترفعْ صوتك به سواءٌ كان ذِكراً أو دعاءً أو غيرهما، وحُذف جواب الشَّرط؛ أي: فاعلم أنَّه تعالى غنيٌّ عن جهرك، وأُقيمَ تعليله مقامه وهو:

---

(١) في (م): «إفادة المعنى مع تصور العظمة».

(٢) في (ك): «أرضين».

(٣) «هي» سقط من (م).

(٤) في (م) زيادة: «كان».

﴿فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى﴾؛ أي: ما أسرَرْتَه إلى غيرك، وما هو أخفى منه؛ أي: ما أَخْطَرْتَه ببالك وأضمرتَه في نفسك.

أو السِّر: ما أضمرته في نفسك، وما هو أخفى منه: ما لم يخطر ببالك من الغيب المستأثَر.

هذا ما قالوا، والذي[1] عندي: أنَّ علمَه[2] السِّرَّ وأخفى كنايةٌ عن استغنائه عن الجهر بالقول، فلا[3] حذف ولا إقامة، فهو تعليمٌ للعباد أنَّ الجهر لهضم النَّفس بالتَّضرُّع والجؤار، واستبعادِها عن مظانِّ القُرْبِ باستحقارها، لا لإعلام الله بذلك وإسماعه؛ أو نهيُ[4] تنزيهٍ عمَّا يُؤذِنُ بالرِّياء.

ثمَّ لَمَّا عدَّد الصِّفات الكمالية، ووصفَه بما لا يمكن أنْ يُوصَفَ به غيره من صفات الألوهيَّة والرُّبوبيَّة، أفصحَ عن التَّوحيد، وصرَّح بأنَّه المنفرد بها المتوحِّد بمقتضياتها فقال:

(٨) ـ ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾؛ أي: هو واحدٌ بذاته وإنْ افترقَتْ عبارات صفاته، ردًّا لقولهم: إنك تدعو آلهة، حين سمعوا أسماءه تعالى.

و﴿ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾: تأنيث الأحسن، وفضلها على سائر الأسماء في الحُسن لدلالتها على معانٍ هي أشرف المعاني وأفضلها.

* * *

---

(١) «الذي» زيادة من (ك).

(٢) في (م): «علم».

(٣) في (م): «ولا».

(٤) في (ف): «أي نهي»، وفي (م): «ونهي».

(٩) ـ ﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾.

﴿ وَهَلْ أَتَىٰكَ ﴾ استفهامُ تقرير يحثُّ على الإصغاء لِمَا يُلْقَى إليه.

﴿حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴾ قفَّى خطابه بقصَّة موسى عليه السلام؛ ليقتديَ به في تحمُّل أعباء النُّبوَّة، والصَّبرِ على مقاساة الشَّدائد في تبليغ الرِّسالة؛ فإنَّ هذه السُّورة من أوائل[١] ما نزل، وهذه التَّقفية مرجِّحة لكون التَّذكرة نصباً على الاستثناء المتَّصل.

* * *

(١٠) ـ ﴿ إِذْ رَءَا نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ هُدًى ﴾.

﴿ إِذْ رَءَا نَارًا ﴾ ﴿ إِذْ ﴾ ظرفٌ للحديث أو لـ: اذكر، أو لمضمرٍ دلَّ عليه ﴿فَقَالَ﴾؛ أي[٢]: حين رأى ناراً كان كيْتَ وكيْت.

﴿لِأَهْلِهِ ٱمْكُثُوٓاْ ﴾[٣]: الْبثوا مكانكم.

﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا ﴾: أبصرْتُ إبصاراً بيِّناً لا شبهة فيه، ومنه الأُنْس لظهوره، وقيل: هو وجدان ما يؤنَسُ[٤].

---

(١) في (م): «أول».

(٢) «فقال أي» سقطت من (ف)، و«فقال» سقطت من (ك). وعبارة «الكشاف» (٣/ ٥٣): (أو لمضمر؛ أي: حين رَأى ناراً كان كيت وكيت).

(٣) في (ف) و(ك): «فقال لأهله امكثوا».

(٤) في هامش (س) و(ف) و(م): «فإذا تعلَّق بالمبصر يفيد معنى الإبصار، وإذا تعلق بالمسموع يفيد معنى السمع، وعلى هذا يدور كلام الجوهري: آنسته: أبصرته، وآنست الصَّوت: سمعته. منه».

ولَمَّا كانَ الإيناسُ محقَّقاً أتى بكلمة ﴿إِنِّيٓ﴾[1]، وحقَّقه لهم ليوطِّنوا أنفسهم عليه، بخلاف الإتيان بقبس ووجدانِ الهدى على النَّار؛ فإنَّ كلًّا منهما مترقَّب متوقَّع، فمَبْنَى الأمر فيهما على الرَّجاء والطَّمع، وجاء بـ (لعل) ولم يقطع لئلَّا يَعِدَ ما لا يَستيقِنُ الوفاءَ به.

﴿لَّعَلِّيٓ ءَاتِيكُم مِّنۡهَا بِقَبَسٍ﴾ القَبَسُ: النَّارُ المقتبَسَةُ في رأس عودٍ أو فتيلة أو نحوهما[2].

وقيل: جمرة. ويردُّه قوله تعالى في موضع آخر: ﴿بِشِهَابٖ قَبَسٖ﴾ [النمل: ٧].

﴿أَوۡ أَجِدُ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ معنى الاستعلاء على النَّار: أنَّ أهلها مشرفون عليها عند الاصطلاء بها قياماً وقعوداً، أو مستَعْلون[3] المكان القريب منها.

﴿هُدٗى﴾؛ أي: هدًى مّا؛ لأنه إذا وجد الهاديَ فقد وجد هدًى مّا إلى الطَّريق[4]، وإنما جاء بـ ﴿أَوۡ﴾ لأنَّه بنَى الرَّجاء على أنَّه إن لم يظفر بحاجتيه جميعاً لم يَعدم واحدة منهما[5].

***

(١١) ـ ﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾.

﴿فَلَمَّآ أَتَىٰهَا﴾: أتى النَّار، وجد ناراً بيضاء تتَّقد في شجرة خضراء.

---

(١) في (م): «أن».

(٢) في (م) و(س): «ونحوهما».

(٣) في (ف) و(س) و(ك): «مستعملون»، والمثبت من (م).

(٤) في (م): «الهدى أي الطريق» بدل «هدًى ما إلى الطَّريق».

(٥) في (ك): «يظفر بحاجته... منها».

﴿نُودِيَ يَٰمُوسَىٰٓ﴾: هو تكليم الله تعالى إيَّاه، و﴿نُودِيَ﴾ بني للمحذوف، وحذف الفاعل للتَّعظيم.

***

(١٢) ـ ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخۡلَعۡ نَعۡلَيۡكَ إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ طُوٗى﴾.

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾ قرئ بالفتح[١]؛ أي: نودي بأنِّي، ومَن كسر[٢] أجرى النِّداء مجرى القول؛ لأنَّه ضَرْبٌ منه.

وتكرير الضَّمير لتوكيدِ الدِّلالة، وتحقيقِ المعرفة، وإماطة الشُّبهة.

قيل: لَمَّا نُودِيَ: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ﴾، قال: مَن المتكلِّم؟ فقال اللهُ تعالى جلَّتْ عظمتُه: ﴿أَنَا۠ رَبُّكَ﴾، فوسوس إليه الشَّيطان: لعلَّك تسمع كلام الشَّيطان، فقال: أنا عرفْتُ أنَّه كلام الله تعالى بأني[٣] أسمعه من جميع الجهات، وأسمعه بجميع أعضائي[٤].

قوله: (أسمعه من جميع الجهات) يردُّه قوله تعالى: ﴿وَنَٰدَيۡنَٰهُ مِن جَانِبِ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنِ﴾؛ فإنَّه صريح في سماعه النِّداء من جهةٍ واحدةٍ، لا مِن جميع الجهات.

---

(١) قرأ بها ابن كثير وأبو عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٠).

(٢) في (م): «كسره».

(٣) في (ك): «بأن».

(٤) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٢٤)، وقال الآلوسي في «روح المعاني» (١٦/ ٢٥٤): (في صحة الخبر خفاء، ولم أر له سندا يعول عليه).

﴿فَٱخۡلَعۡ﴾ الخَلْعُ: نزعُ الملبوس، يُقالُ: خلعَ ثوبَه عن بدنه، ونعلَه عن رجله، وقد يُنزع المسمار عن[1] موضعه ولا يكون خلعاً؛ لأنَّه غيرُ ملبوسٍ.

﴿نَعۡلَيۡكَ﴾ أُمر بخلعهما تعظيماً لحضرة القُدْسِ؛ فإنَّ في[2] الحفوة تواضعاً لله تعالى وتأدُّباً، ولهذا كان السَّلف يطوفون بالبيت حافين.

والتَّعليل بقوله: ﴿إِنَّكَ بِٱلۡوَادِ ٱلۡمُقَدَّسِ﴾ دالٌّ على أنَّ ذلك احترامٌ للبقعة، وتعظيم لقدسها.

وتفريع الأمر بخلع النَّعلين على النداء المذكور وإن كان باعتبار أنَّ ما في الخلع من التَّواضع لله تعالى والتَّأدُّب مقتضى النِّداء؛ لكنَّه[3] لا يخلو عن الإشعار بأنَّ في بركة تلك البقعة مدخلاً لورود ذلك النِّداء العظيم الشَّأن فيها.

وقيل: لنجاستهما؛ فإنهما كانا من جلد حمارٍ ميِّت غير مدبوغ.

وقيل: لينال بركة الوادي المقدَّس وتمسَّ قدماه تربته[4].

والوادي: سَفحُ الجبل، ويقال للمَجرى العظيم من مجاري الماء: وادٍ.

و﴿ٱلۡمُقَدَّسِ﴾: المطهَّر.

﴿طُوًى﴾: علَم للوادي، فيكون بدلاً أو عطفَ بيان.

وقرئ منوَّناً لوحظ فيه معنى المكان، وغيرَ منوَّنٍ لوحظ فيه معنى البقعة[5].

---

(١) في (ف): «من».

(٢) في (م): «من».

(٣) في (م): «لكونه».

(٤) في (ف): «تربه».

(٥) قرأ الكوفيون وابن عامر بالتَّنوين، وباقي السبعة بغير تنوين. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٠).

وقيل: هو من الطَّي، نحو: ثِنًى[١]، وهو بمعنى مرَّتين؛ أي: قُدِّسَ مرَّتين[٢] مرَّة بعد مرَّة، أو نودي ندائَيْن.

***

(١٣) ـ ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾.

﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ﴾: اصطفيْتُكَ للنُّبوَّة.

وقرئ: ﴿إنَّا اخترناك﴾[٣]: (إنَّا): إنَّ واسمها، و(اخترناك): جملة في موضع الخبر.

﴿فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ﴾ اللَّام متعلِّقة بـ ﴿فَٱسْتَمِعْ﴾، أو بـ ﴿ٱخْتَرْتُكَ﴾، و(ما) موصولة؛ أي: للذي يُوحَى إليك، أو مصدريَّة؛ أي: للوحي.

***

(١٤) ـ ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ﴾.

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى﴾ بدل من (مَّا يُوحَى).

عظَّم أمرَ التوحيد[٤] وفخَّم شأنه، بالإبهام في قوله: ﴿لِمَا يُوحَىٰٓ﴾، والتَّوضيح بقوله: ﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾، وبالإبدال الدَّالِّ على أنَّ الوحيَ مقصورٌ على تقرير التَّوحيد، الذي هو نهاية العلم المستلزمِ لتخصيص العبادة بالله، الذي هو

(١) قوله: «نحو ثنى»؛ أي: لفظاً ومعنى، فهو بكسر الطاء والتنوين مصدر كثِنًى. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ١٩٤)، و«روح المعاني» (١٦/ ٢٥٨).

(٢) «مرتين»: ليست في (م).

(٣) قرأ بها حمزة من السبعة. انظر: «التيسير» (ص: ١٥١).

(٤) في (ف) و(ك): «الوحي».

كمال العمل[١]. وبالتَّأكيد[٢] بـ (إنَّ)، وتوسيطِ الضَّمير، وتكرير معناه بالتَّهليل، والإتيان بفاء السَّببية.

﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ عَطْفُ الأمر بإقامة الصلاة على الأمر بالعبادة، وتخصيصُها بالذِّكْرِ مِن بينِ سائر العبادات، تنبيهٌ على فضلِها وشرفها وإنافتها على الجميع، كعطف جبريل وميكال[٣] على الملائكة، ولذلك علَّل إفرادها بالذِّكر بقوله:

﴿لِذِكۡرِيٓ﴾ فإنَّها توجب شغل القلب واللِّسان بذكر الله تعالى، فمعنى ﴿لِذِكۡرِيٓ﴾: لتذكرني[٤].

وقيل: لأني ذكرْتُها في الكتب، وأمرْتُ بها.

أو: لأذكرك بالمدح والثَّناء، وأجعلَ لك لسانَ صدقٍ.

أو: لذكري خاصَّة، غير مَشُوبٍ بذكرِ غيري، أو رياءٍ، أو عِوَضٍ[٥]، أو غَرَضٍ آخر. وهو الإخلاص.

أو: لتكون لي ذاكراً غيرَ ناسٍ.

أو: لأوقات ذكري، وهو مواقيت الصَّلاة.

أو: لذكر صلاتي؛ لِمَا روي أنه عليه السلام قال: «مَن نام عن صلاةٍ أو نسيها

---

(١) في (ف): «العلم».

(٢) في (ف): «وبالتوكيد».

(٣) وفي (ك) و(س): «وميكائيل» وسقطت من (م).

(٤) في (ك): «كي تذكرني»، وفي (س): «لتذكري»، وفي (ف): «كتذكرني».

(٥) «أو عوض» سقط من (ف).

فليقضِها إذا ذكرها؛ فإن الله تعالى يقول: ﴿وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكۡرِيٓ﴾»[١]، على حذف المضاف[٢]، أو على أنَّ ذكرَ الصَّلاة ذكرُ الله تعالى[٣]، أو لأنَّ الذِّكْرَ والنِّسيانَ مِنَ الله تعالى في الحقيقة.

***

(١٥) ـ ﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخۡفِيهَا لِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا تَسۡعَىٰ﴾.

﴿إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ﴾ يعني: إنَّ القيامة كائنة[٤] لا محالة.

﴿أَكَادُ أُخۡفِيهَا﴾ قُرْبُه تعالى من إخفائها مجازٌ عمَّا اقتضته الحكمة من الإخبار بوقوعها للإنذار وقطعِ الأعذار، مع كتمان وقتها ليكونوا على وَجَلٍ في[٥] كلِّ وقتٍ، فإنَّه إظهارٌ فيه نوع من الإخفاء.

ويجوز أن يكون من أخفاه: إذا أزال خَفَاه؛ أي: أكاد أُظهرها، وقُرْبُه تعالى من إظهارها مجازٌ عن إظهار بعض أشراطها، كبعثة خاتم الأنبياء عليهم السَّلام، وانشقاقِ القمر، ويؤيده قراءة أبي الدَّرداء رضي الله عنه: (أَخفيها) بالفتح[٦]، مِن خفاه: إذا أظهره.

---

(١) روى نحوه البخاري (٥٩٧)، ومسلم (٦٨٤)، من حديث أنس رضي الله عنه.

(٢) في (م): «مضاف».

(٣) في هامش (ف): «فيه رد لصاحب الكشاف حيث غفل عن تمام الحديث فلم يدر ما وجه أخذ التفسير المذكور فتمحل فيه. منه».

(٤) في (ف) و(ك): «آتية».

(٥) في (ف): «من».

(٦) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«الكشاف» (٣/ ٥٦).

قيل: إنَّه من الأضداد، والحقُّ ما روي عن أبي عليٍّ: أنَّه من باب السَّلب[١].

﴿لِتُجْزَىٰ﴾ متعلقة بـ ﴿ءَاتِيَةٌ﴾، وما بينهما اعتراض، أو بـ ﴿أُخْفِيهَا﴾ على المعنى الأخير.

﴿كُلُّ نَفْسٍ﴾ يعني: من النُّفوس السَّاعية، بقرينةِ قوله:

﴿بِمَا تَسْعَىٰ﴾ السَّعيُ كنايةٌ عن الكسب.

* * *

(١٦) ـ ﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾.

﴿فَلَا يَصُدَّنَّكَ﴾ الصَّدُّ: الصَّرفُ عن الخير خاصَّة.

﴿عَنْهَا﴾ عن التَّصديق بالسَّاعةِ، أو عن الصَّلاةِ.

﴿مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا﴾ والمرادُ من نهي الكافر عن صدِّ موسى عليه السلام: نهيُه عن الانصداد عنها بصدِّه، وهذا كقولك: لا أَرينَّك هنا، في النَّهي عن السَّبب للنَّهي عن المسبَّب مبالغةً[٢].

وفيه تنبيهٌ على أنَّه عليه السلام لو خُلِّيَ وفطرتَه السَّليمةَ لكان مصدِّقاً بها غيرَ مُعرضٍ عنها.

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٤٧)، و«تفسير القرطبي» (١٤/ ٣٧)، وفيه عن أبي علي: (هذا مِن بابِ السَّلْب وليس مِن باب الأضدادِ، ومعنى أخفيها: أُزيل عنها خَفاءَها، وهو سترها كخِفاء الأخفية ـ وهي الأكسية ـ والواحد: خِفاء ـ بكسر الخاء ـ: ما تلف به القِربةُ، وإذا زال عنها سترُها ظَهرَتْ). وجاء هنا في هامش (س): «رد للكواشي».

(٢) في هامش (ف) و(س): «خلط القاضي بين الوجهين. منه».

وبعثُه[١] عليه السلام على الصَّلابة في الدِّين وشدَّة الشَّكيمة فيه، وتهييجُه عليها، فإنَّ صدَّ الكافر إيَّاه مسبَّب عن ضعف عقيدته ولين شكيمته، فنَهى عن المسبَّب للنَّهي عن السَّبب؛ أي: ينبغي لك أن تكون صلباً في الدِّين، راسخاً في الاعتقاد.

ونبَّه بقوله: ﴿وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾ على أنَّ سلوكَ طريق العقل واتِّباع الحجَّة يوجب التَّصديق بالبعث والسَّاعة، فإنكارها والتَّكذيبُ بها إنَّما يكون لغلبة الهوى واتِّباعه.

والهوى: ميلُ النَّفس إلى الشَّيء بأريحيَّة[٢] تلحق فيه، وهواءُ الجوِّ ممدود، وهوى النَّفس مقصور.

﴿فَتَرْدَىٰ﴾: جواب النَّهي، و(أنْ) مقدَّرةٌ بعد فاء الجواب، و(تَرْدى) علامةُ النَّصب فيه فتحة مقدَّرة في الألف، معناه: فتهلك.

***

(١٧) ـ ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

﴿وَمَا تِلْكَ﴾ استفهامٌ ضُمِّنَ معنى الاستيقاظ لِمَا يُريهِ فيها من الآيات العجيبة الدَّالة على القدرة الباهرة.

قيل: الحكمة في هذا السُّؤال بسطُه؛ فقد كانت الهيبة قبضتْهُ، ولو تُرِكَ على ما كان عليه لعله كان لا يبقى بل يتلاشى.

---

(١) في (س) (ك) و(م): «أو بعثه».

(٢) بياض في (ف)، وسقط من (ك)، وفي (م): «بأن يحية»، والمثبت من (س).

ولَمَّا باسط الحقَّ بسماع[1] كلامه، أخذته أريحيَّة سماع الخطاب، فأجاب عمَّا سُئِلَ، وسلك مسلكَ الإطناب.

﴿بِيَمِينِكَ﴾ حال من ﴿تِلْكَ﴾، والعامل فيها معنى الإشارة، كما في قوله: ﴿وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا﴾ [هود: ٧٢]، وجاز أن يكون ﴿تِلْكَ﴾ اسماً موصولاً صلتُه ﴿بِيَمِينِكَ﴾.

قيل: إنما لم يقل: (بيدك) لأنه كان في يساره خاتم، فلو أجمل بقي في الجواب الاشتباه[2].

﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تكرير لزيادة التَّنبيه والاستئناس.

* * *

(١٨) ـ ﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَىٰ﴾.

﴿قَالَ هِيَ عَصَايَ﴾ قرئ: (عَصَيَّ)[3]، على لغة هذيل.

﴿أَتَوَكَّؤُا عَلَيْهَا﴾: أعتمد عليها إذا أَعييتُ[4] أو وقفت على رأس القطيع.

والتَّوكُّؤ على الشَّيء: التَّحامل عليه في المشي والعكوف، ومنه: الاتِّكاء، توكَّأت واتَّكأت بمعنًى واحد.

---

(١) في (س): «سماع».

(٢) في (س): «بيمين في الجواب للاشتباه»، وفي (م): «تعنَّى في الجواب للاشتباه». وانظر: «غرائب التفسير» للكرماني (٢/ ٧١٤)، وفيه: (لم يقل: بيدك، لاحتمال أن يكون في يساره خاتم أو شيء آخر، فكان يلتبس عليه الجواب). فقول المؤلف: «لأنه كان في يمينه خاتم» على الجزم بلا دليل من نقل، فيه نظر، فإن الاحتمال ـ كما في كلام الكرماني ـ هو الأنسب هنا.

(٣) نسبت لابن أبي إسحاق. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧).

(٤) في (ف) و(ك): «إذا عييت».

﴿وَأَهُشُّ بِهَا﴾: أَخبط الورق، وقرئ: (أُهِشُّ)[١]، وكلاهما مِن هشَّ الخبزُ يَهِشُّ: إذا كان ينكسر لهشاشته.

﴿عَلَىٰ غَنَمِى﴾ ليأكلَه.

وعن عكرمة: (أَهُسُّ) بالسِّين[٢] من الهسِّ، وهو زجر الغنم؛ أي: أُنْحي عليها زاجراً لها.

قدَّم في الجواب مصلحة نفسه، ثمَّ ثنَّى بمصلحة ماشيته.

﴿وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ﴾ المآربُ: الحاجاتُ، عاملَها وإنْ كانت جمعاً معاملةَ الواحدة المؤنَّثة، فأتبعها صفتها في قوله:

﴿أُخْرَىٰ﴾ ولم يقل: (أُخَرُ)؛ رعياً للفواصل، وهو جائز في غيرها، فكان فيها أجوزَ[٣] وأحسنَ.

قيل: فَهِم موسى عليه السلام مِن سؤالِ ربِّ العزَّة أنَّه سيُحْدِثُ في العصا أمراً عظيماً، فذكرَ ماهيتها، وفصَّلَ بعضَ منافعها وخواصِّها، فلمَّا استطال الكلام استشعر سوء[٤] الأدب فأَجْمَلَ.

وقيل: إنَّما أجمل ليسأله عن تلك المآرب، فيكونَ زيادةً في إكرامه.

---

(١) أي: بضم الهمزة وكسر الهاء. نسبت للنخعي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«الكشاف» (٣/ ٥٧)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٣٥).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«الكشاف» (٣/ ٥٧).

(٣) في (م): «أوجز».

(٤) في (ك) و(ف): «لسوء».

والغرضُ مِنْ ذِكْرِ ماهيتها ومنافعها: أنَّها ليسَتْ إلَّا عصًى تنفع[1]، منافعها كسائر العيدان؛ ليكون جوابه مطابقاً لِمَا فهمه من فحوى كلام ربِّه، حتى إذا وجدها على خلاف حقيقتها وخواصِّها ممَّا ذُكِرَ من الأمور الخارقة للعادة، ظهرَ أنَّها معجزات باهرة، وآيات ظاهرة، خصَّه الله تعالى بها وأكرمه.

* * *

(١٩) ـ ﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ﴾.

﴿قَالَ أَلْقِهَا يَـٰمُوسَىٰ﴾ إنَّما أمره بإلقائها لأنَّه أضافها إلى نفسه بقوله: ﴿عَصَايَ﴾، فأراد أن يقطعها عنه، ويريَه الخارق بعد إخراجه من سلطانه وتدبيره؛ ليعلم أنَّه بمَحْضِ صنعِ اللهِ، لا دَخْلَ فيه لفعلِ العبدِ.

* * *

(٢٠) ـ ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾.

﴿فَأَلْقَىٰهَا﴾؛ أي: طرحها[2] على الأرض، وقد مَرَّ في سورة الأعراف بيان أصل الإلقاء.

﴿فَإِذَا هِيَ﴾؛ أي: صارت في الحال.

﴿حَيَّةٌ تَسْعَىٰ﴾ الحيَّةُ: اسم جنس[3] يقع على الصَّغير والكبير والذَّكر والأنثى.

والسَّعيُ: المشيُ بسرعةٍ وخفَّةِ حركةٍ.

---

(١) في (ك): «منتفع»، وفي (ف): «ينتفع». وفي «الكشاف» (٣/ ٥٧): لا تنفع إلا منافع بنات جنسها وكما تنفع العيدان.

(٢) في (س): «اطرحها».

(٣) في (ك) و(م) و(س): «الجنس».

قيل: لَمَّا ألقاها انقلبَتْ حيَّة صفراء بغلظ العصا، ثمَّ تورَّمت وعظمَتْ، فلذلك سمَّاها جانًّا تارةً نظراً[١] إلى المبدأ، وثعباناً مرَّة باعتبار المنتهى، وحيَّة أخرى بالاسم الذي يعمُّ الحالَيْن.

وكأنَّ هذا القائل غافل عن عبارة ﴿كَأَن﴾ في قوله تعالى: ﴿كَأَنَّهَا جَآنٌّ﴾؛ لأنها صريحة في التَّشبيه وعدم كونها جانًّا حقيقة.

***

(٢١) - ﴿قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾.

﴿قَالَ خُذْهَا﴾: تناوَلْها بيدك ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ الخوفُ: انزعاج النَّفس بتوقُّع الضَّرر.

لَمَّا رأى موسى عليه السلام ذلك الأمرَ العجيب[٢] الهائل مَلَكه من الفزع والنَّفار ما يملك البشر عند الأهوال والمخاوف، فهرب منها كما أخبر عنه تعالى بقوله: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠]، فأمره الله تعالى بالإقدام على أخذها، ونهاه عن أن يخاف منها.

وقيل[٣]: لَمَّا قال له ربُّه: ﴿وَلَا تَخَفْ﴾ بلغ من الأمن وطمأنينة النَّفس إلى[٤] أن أدخل يده في فمها وأخذ بلَحْيها[٥]، كأنَّه ضمَّن صيغةَ التَّكليف صيغةَ[٦] التَّكوين،

---

(١) في (ف): «نظر».

(٢) في (ف): «العجب».

(٣) «قيل»: ليست في (م).

(٤) «إلى» سقطت من (ك) و(م) و(س).

(٥) في (ك): «بلحييها».

(٦) في (س): «صنع».

وقد حقَّقناه في تفسير[١] سورة البقرة أنَّ النَّهي كالأمر يتنوَّع إلى التَّكليفي والتَّكويني.

وحكمة انقلابها وقتَ مناجاته تأنيسه بهذا المعجز الهائل حتى يلقيها لفرعون فلا يلحقَه ذعر منها في ذلك الوقت.

﴿سَنُعِيدُهَا﴾ الإعادة: ردُّ الشَّيء ثانياً إلى ما كان[٢] أوَّل مرَّة.

﴿سِيرَتَهَا ٱلْأُولَىٰ﴾: هَيْأَتَها وحالَتها المتقدِّمة.

والسِّيرة: فِعْلَةٌ من السَّيْرِ، كالرِّكْبَةِ من الرُّكوب، يقال: سارَ فلانٌ سِيرةً حسنةً، ثمَّ اتُّسِعَ فيها، فنقلَتْ إلى معنى المذهب والطَّريقة، وقيل: سِيَرُ الأوَّلين.

فيجوزُ أنْ ينتصبَ على الظَّرف؛ أي: في طريقتها الأولى حال ما كانت عصا، أو على نزع الخافض، أو على المفعول به إن جعل أعاد منقولاً[٣] من عاده بمعنى: عاد إليه، فيتعدَّى إلى مفعولَيْن، أو بتضمين فعلها؛ أي: سنعيدها سائرةً سيرتَها الأولى[٤] عصاً يُنتفع بها كما كانت أوَّلاً، أو على أنَّه بدل اشتمال من الضَّمير المنصوب في ﴿سَنُعِيدُهَا﴾؛ أي: سنعيد سيرتها الأولى.

* * *

(٢٢) - ﴿وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾.

---

(١) «تفسير»: ليست في (م).

(٢) في (م): «ثانيا إلى مكانه».

(٣) في هامش (ف) و(س): «فيه رد لمن توهم أن هاهنا تقديراً. منه».

في (م): «مشغولا».

(٤) أي: تسير سيرتها الأولى، فالنصب على أنها مفعول مطلق. انظر: «روح المعاني» (١٦/ ٢٧٨).

﴿وَاضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ﴾ يعني: بعد إدخالها في الجيب، على ما أفصح عنه في موضعٍ آخر[١].

يُقال لكلِّ ناحيتين: جناحان، كجناحَي العسكر لـمُجَنِّبَتَيه[٢]، وجناحا الإنسان: جنباه[٣]، استعيرا[٤] من جناحَي الطَّائر.

وسُمِّيا جناحَيْن لأنَّه يُجنحهما عند الطَّيران؛ أي: يُميلهما. والجَنْبُ فيه جنوحُ الأضلاع.

قيل: والمراد: إلى[٥] جنبك تحت العَضُد، دل على ذلك قوله: ﴿تَخْرُجْ﴾.

ويردُّه قوله تعالى: ﴿وَأَدْخِلْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ﴾ [النمل: ١٢] لأنَّه صريحٌ في أنَّ المراد الدُّخول في الجيب والخروج منه.

﴿بَيْضَاءَ﴾: مشرقةً مشعَّةً.

قيل: كان موسى آدَمَ، فأخرجَ يده بيضاء لها شعاعٌ كشعاع الشَّمس يُغْشِي[٦] البصر.

﴿مِنْ غَيْرِ سُوءٍ﴾ متعلِّق بـ ﴿بَيْضَاءَ﴾، كأنَّه قال: ابيضَّتْ مِن غيرِ سوء، والسُّوءُ: الرِّداءةُ والقُبح في كلِّ شيءٍ؛ أي: من غير أن يُستقبح.

---

(١) في هامش (ف) و(س): «حيث قال: ﴿اسْلُكْ يَدَكَ فِي جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ وَاضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ﴾. منه».

(٢) في (م): «لجنبتيه»، وفي (ف) و(ك) و(س): «لجنبيه»، والمثبت من «الكشاف» (٣/ ٥٩).

(٣) في (ف) و(ك): «جانباه».

(٤) في (م) و(ك): «استعير».

(٥) في (م): «أي».

(٦) في (ك) و(س): «يعشي»، وفي (م): «تغشي».

لَمَّا كان خروج الشَّيء عن خِلْقَته وشأن جوهره ممَّا يستقبح ويُستقذر أَخبرَ أنَّه لم يكن كذلك، وأمَّا الكناية به عن البرص فيأباها المقام؛ لأنَّه غير محتمَلٍ في مقام الإعجاز والكرامة، فلا وجهَ للاحتراز عنه.

﴿ءَايَةً أُخْرَىٰ﴾: معجزةً ثانيةً.

وقوله: ﴿بَيْضَآءَ﴾ و﴿ءَايَةً﴾ حالان معاً من ضمير ﴿تَخْرُجْ﴾، ويجوز أن يكون الثَّاني حالاً من ضمير الأوَّل، فيكونان من الأحوال المتداخلة، أو مفعولاً نُصِبَ بمضمَرٍ نحو: (خُذْ) حُذِفَ لِدَلالةِ الكلام عليه[1].

***

(٢٣) ـ ﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾.

﴿لِنُرِيَكَ مِنْ ءَايَٰتِنَا ٱلْكُبْرَى﴾ متعلِّق بالمحذوف المذكور، أو بما دلَّ عليه الآية أو القصَّة؛ أي: دلَلْنا بها ـ أو: فعلنا ذلك ـ لنريك.

و﴿ٱلْكُبْرَى﴾: صفةٌ لـ ﴿ءَايَٰتِنَا﴾، أو مفعول ثانٍ لـ(نريك)، و﴿مِنْ ءَايَٰتِنَا﴾ حال؛ أي: لنريك الكبرى من آياتنا.

***

(٢٤) ـ ﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

﴿ٱذْهَبْ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾: أمرٌ بالذَّهاب بهاتَيْن الآيتَيْن إلى فرعون ودعوته.

---

(١) في هامش (ف) و(س): «وأما دون فلا يسوغ لأنَّه اسم فعل من باب الإغراء، ولا يجوز حذفه؛ لأنه حذف منه في الأصل العامل فيه، وناب منابه، فلا يجوز أن يحذف النائب والمنوب عنه. منه».
قلت: وفيه رد على الزمخشري القائل: (بإضمار نحو: خذ، ودونك، وما أشبه ذلك، حذف لدلالة الكلام). انظر: «الكشاف» (٣/ ٥٩).

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾ جاوزَ حَدَّ العبودية إلى دعوة الربوبيَّة، تعليلٌ لوجوب الذَّهاب إليه، وتحذيرٌ له من بطشه، وتنبيهٌ على صعوبة ما ابتُلِيَ به؛ ليتلقاه بجميل الصَّبر وحسن الثَّبات، ولهذا التجأ إليه في طلب التَّيسير والتَّأييد وتفسيح الصَّدر والتَّشجيع:

(٢٥ ـ ٢٦) ـ ﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾.

﴿قَالَ رَبِّ ٱشْرَحْ لِى صَدْرِى ۝٢٥ وَيَسِّرْ لِىٓ أَمْرِى﴾ على الإبهام بإيراد ﴿لِى﴾ بعد الفعْلَيْنِ، والتَّوضيح بذكر الصَّدر والأمر؛ للتَّأكيد والمبالغة في طلب الشَّرح والتَّيسير.

* * *

(٢٧) ـ ﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾.

﴿وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى﴾ كان في لسانه رُتَّةٌ[١]؛ لِمَا رويَ: أنَّ فرعونَ حمله يوماً، فأخذ بلحيته ـ وكانت مرصَّعة بالجواهر ـ ونتفها جاذباً ببعض[٢] ما فيها من اليواقيت، فغضبَ وأمر بقتله، فقالت آسية رضي الله عنها: إنَّه صبيٌّ لا يفرِّق بين الجمر والياقوت، فأُحْضِرا بين يديه، فأخذ الجمرة ووضعها في فيه، فاحترق لسانه، فصار لكنته منها[٣][٤].

---

(١) رجل أرَتُّ: في لسانه رُتَّةٌ، وهي عجلة في الكلام، وعن المبرِّد: هي كالرَّتْجِ تمنع الكلام، فإذا جاء منه شيء اتَّصل، وهي غريزة تكثر في الأشراف. انظر: «المغرب في ترتيب المعرب» (باب الراء مع التاء الفوقانية) (ص: ١٨٢).

(٢) في (ف): «لبعض».

(٣) بنحوه رواه الطبري في «تفسيره» (١٦/ ٥٤) عن السدي.
ورواه بمعناه النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٦٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٦١٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٤) في هامش (ف): «وهذا أولى مما ذكره القاضي من كون تبييض يده لذلك. منه».

ولعلَّ لذلك امتاز موسى عليه السلام باللِّحية من بين أهل الجنَّة، على ما ورد في حديث جابر رضي الله عنه، وهو أنَّه عليه السلام قال: «أهل الجنة مُرْدٌ إلَّا موسى بن عمران، فإنَّ له لحيةً إلى سرَّته»(١).

ولَمَّا كانت تلك العقدة عارضةً لآفَة حادثةٍ كان المناسب لحالها التَّنكيرَ حيث لم تكن من جنس ما هو المعهود، وكأن قطع إضافتها عن (اللِّسان) المنبئةِ عن الاتِّصال الخَلْقي أيضاً كان لذلك.

وقيل: إنَّما نُكِّرَتْ لأنَّه لم يطلب الفصاحة الكاملة، وإنَّما طلب حلَّ بعضها إرادةَ أنْ يُفهَمَ عنه فهماً جيِّداً؛ لأنَّ أمرَ التَّبليغ لا يتيَّسر إلَّا بذلك، ولهذا علَّلَ بقوله:

(٢٨) ـ ﴿يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾.

﴿يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ فإنَّ(٢) التَّبليغ إنَّما يَحسن من البليغ(٣).

و﴿مِّن لِّسَانِي﴾ صفة للعقدة، كأنَّه قيل: عقدةً من عُقد لساني، أو صلةٌ لـ (احلل).

واختلف في زوال العقدة بكمالها؛ فقيل: بقي بعضها؛ لقوله: ﴿ وَأَخِي هَٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ [القصص: ٣٤]، وقيل: زالت؛ لقوله: ﴿قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ ﴾ [طه: ٣٦].

وفي كلٍّ من الاحتجاجَيْنِ نظر:

أمَّا في الأوَّل: فلأنَّ شهادة قوله: ﴿هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا﴾ عليه لا له؛ لأنَّ فيه دلالة على أن موسى عليه السلام كان فصيحاً، غايته أن فصاحة أخيه كانت(٤) أكثر،

---

(١) رواه العقيلي في «الضعفاء» (٧٢١)، وابن عدي في «الكامل» (٤/ ٤٨)، وضعفاه.

(٢) في (ف) و(ك): «فإن أمر».

(٣) في (م): «التبليغ».

(٤) «كانت» من (م) و(س).

وبقيَّة اللُّكنة تنافي الفصاحة اللُّغويَّة المرادة هاهنا، بدلالة قوله: ﴿لِسَانًا﴾.

وأمَّا في الثَّاني: فلِمَا مَرَّ أنَّه لم يطلب حلَّ عقدة لسانه مطلقاً، بل طلب حلَّ عقدةٍ تمنع الإفهام، فلا دلالة فيه[1] في حصول مَسْؤولِه على زوال العقدة بكمالها، نعم قوله: ﴿وَلَا يَكَادُ يُبِينُ﴾ [الزخرف: ٥٢] يدلُّ على الأوَّل، فتأمَّل[2].

* * *

(٢٩ ـ ٣٠) ـ ﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ۝٢٩ هَٰرُونَ أَخِي﴾.

﴿وَٱجْعَل لِّي وَزِيرًا﴾: ظهيراً أعتمد عليه، مِن الوِزْرِ وهو[3]: الثِّقل؛ لأنَّه يتحمَّل عن الملِك أوزاره ومؤنه، أو من الوَزَرِ: الملجأ؛ لأنَّ الملك يعتصِم برأيه ويلجأ إليه أموره.

أو: مُعيناً، من المؤازرة وهي المعاونة.

فـ ﴿وَزِيرًا﴾ مفعولُ أوَّل لـ (اجعل)، والثَّاني: ﴿مِّنْ أَهْلِي﴾[4]، أو ﴿لِّي وَزِيرًا﴾ مفعولاه، وقوله: ﴿هَٰرُونَ﴾ بدل من ﴿وَزِيرًا﴾، لا عطفُ بيان؛ لأنَّه لا يخالف متبوعه في التَّعريف والتَّنكير[5].

---

(١) «فيه» من (م).

(٢) «فتأمل» من (م) و(س).

(٣) «وهو» من (م).

(٤) واعترض بأن شرط المفعولين في باب النواسخ صحة انعقاد الجملة الاسمية منهما، ولو ابتدأت بـ ﴿وَزِيرًا﴾ وأخبرت عنه بـ ﴿مِّنْ أَهْلِي﴾ لم يصح؛ إذ لا مسوغ للابتداء به. وأجيب عن هذا الاعتراض بما استبعده الآلوسي، فانظره في «روح المعاني» (١٦/ ٢٩٠).

(٥) في هامش (س) و(ف) و(م): «نصَّ عليه في مغني اللبيب، وقال: وأما قول الزمخشري: إن ﴿مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ﴾ عطف على ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ﴾ فسهو. منه».

وقوله: ﴿أَخِى﴾ عطف بيان، لا بدل[1]؛ لأنَّ إبدال الشَّيء من[2] أقلَّ منه فاسد لا يُتصوَّر، نصَّ عليه الشَّيخ في «دلائل الإعجاز»[3].

أو ﴿وَزِيرًا﴾ و﴿هَٰرُونَ﴾ مفعولاه، وقدِّم ثانيهما على أولهما عنايةً بأمر الوزارة.

* * *

(٣٠) ـ ﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾.

﴿ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى﴾: قوِّ به ظهري.

والشَّدُّ: جمعٌ يَستَمْسِك[4] به المجموع، ومثله: الرَّبط والعَقْد.

والأَزْرُ: الظَّهر، يُقال: آزرني فلان على أمري؛ أي: كان لي ظهراً، ومنه: المِئْزَرُ؛ لأَنَّه يُشَدُّ على الظَّهر، وكذا الإزارُ.

* * *

(٣٢) ـ ﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾.

﴿وَأَشْرِكْهُ فِىٓ أَمْرِى﴾ الإشراك: الجمع بين الشَّيئين أو أكثر في معنًى على أنَّه لهم بجَعْلِ جاعلٍ. وقد أشرك الله تعالى بين موسى وهارون عليهما السلام في النُّبوَّة، وقوَّى به أزره كما دعا.

---

(١) في (م) زيادة: «كما ذكره». والذي ذكره هو الزمخشري والبيضاوي، لكن الزمخشري أتبعه بقوله: وإن جعل عطف بيان آخر جاز وحسن.

(٢) في (م): «في».

(٣) انظر: «دلائل الإعجاز» للجرجاني (ص: ١٤٧).

(٤) في (م): «يتمسك».

وقُرِئا على لفظ الخبر جواباً للأمر[١]، ولمن قرأ بهما على لفظ الأمر للدعاء أن يقف على ﴿هَٰرُونَ﴾، ويجعل ﴿أَخِى﴾ مرفوعاً على الابتداء والجملة خبر.

* * *

(٣٣ ـ ٣٤) ـ ﴿كَىۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾.

﴿كَىۡ نُسَبِّحَكَ كَثِيرٗا ٣٣ وَنَذۡكُرَكَ كَثِيرًا﴾ فإنَّ التَّعاون يهيِّج الرَّغبات، ويؤدِّي إلى تكاثر الخير وتزايده، قدَّم التَّسبيح وهو تنزيه الله تعالى عمَّا لا يجوز وصفه به، على الذِّكْرِ وهو ثناؤه تعالى بما يليق به؛ لأنَّ التَّخلية قبل التَّحلية.

* * *

(٣٥) ـ ﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾.

﴿إِنَّكَ كُنتَ بِنَا بَصِيرٗا﴾: عالماً بأحوالنا؛ وأنَّ[٢] التَّعاون ممَّا يصلحنا، وأنَّ هارون نِعْمَ العونُ لي فيما أمرتني به، والشَّادُّ لعضدي بأنَّه أكبر منِّي سنًّا وأفصح لساناً.

* * *

(٣٦) ـ ﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

﴿قَالَ قَدۡ أُوتِيتَ سُؤۡلَكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ السُّؤْلُ: المطلوبُ، فُعْلٌ بمعنى المفعول، كالخُبْزِ والأُكْلِ؛ أي: أُعْطِيْتَ ما سألتَه، وذلك من المِنَّةِ عليهز

ثمَّ ذكَّرَهَ بتقديم مِنَنِهِ[٣] عليه؛ ليعظُم اجتهاده وتَقْوَى بصيرته، بقوله:

---

(١) وهي قراءة ابن عامر. انظر: «التيسير» (ص: ١٥١).

(٢) في (ف): «بأحوالنا لأنَّ».

(٣) في (ف) و(ك): «ثمَّ ذكر تقديم منِّه»، وفي (س): «ثم ذكره تقديم منِّه».

(٣٧) ـ ﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾.

﴿ وَلَقَدْ مَنَنَّا عَلَيْكَ مَرَّةً أُخْرَىٰ ﴾ المِنَّة: نعمةٌ تُقْطَعُ لصاحبها عن غيره باختصاصها به، يقال: منَّ عليه: إذا أنعم عليه[1] نعمةً يُقْطعه إيَّاها، وأصله: القطع، ومنه قوله تعالى: ﴿لَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ ﴾ [فصلت: ٨].

والمرَّةُ: الكرَّة الواحدة، من المَرِّ.

و﴿أُخْرَىٰ ﴾: تأنيثُ آخر، بمعنى غير؛ أي: مِنَّةً غيرَ هذه المِنَّة.

* * *

(٣٨) ـ ﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ ﴾.

﴿إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ ﴾ قال الجمهور: هو وحيُ إلهامٍ، وقيل: وحي إعلامٍ؛ إمَّا ببعثِ مَلَكٍ إليها لا على وجه النُّبوَّة، كما بعث إلى مريم، أو بإراءة ذلك في المنام، أو على لسان نبيٍّ في وقتها، كقوله: ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ ﴾ [المائدة: ١١١].

﴿مَا يُوحَىٰ ﴾: ما لا سبيل إلى العلم به إلَّا بالوحي، أو: ما ينبغي أن يُوْحَى لا محالة ولا يُخَلَّ به؛ لعظم شأنه وفرط الاعتناء به.

* * *

(٣٩) ـ ﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ فَاقْذِفِيهِ فِي الْيَمِّ فَلْيُلْقِهِ الْيَمُّ بِالسَّاحِلِ يَأْخُذْهُ عَدُوٌّ لِي وَعَدُوٌّ لَهُ وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي ﴾.

﴿ أَنِ اقْذِفِيهِ فِي التَّابُوتِ ﴾: بأنِ اقذفيه، أو: أيِ اقذفيه؛ لأنَّ الوحي بمعنى القول.

---

(١) «عليه» زيادة من (م).

والقَذْفُ: هو الرمي البعيد المستلزِم لصلابة الـمَرْميِّ، واستُعير هنا لمعنى الإلقاء.

﴿فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ﴾ اليمُّ: اسمٌ للبحر العَذْب، والمرادُ منه هاهنا[١]: النِّيلُ.

﴿فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ﴾ ساحلُ البحرِ: شاطئه، سُمِّيَ بذلك لأنَّ الماءَ يَسْحَلُهُ؛ أي: يَقشره، فهو فاعل بمعنى: ذو كذا، ولَمَّا وجب وقوع ما تعلَّقَتْ به إرادته تعالى، وهو إلقاء البحر إيَّاه بالسَّاحل، ذكر بلفظ الأمر تشبيهاً للبحر بالمأمور المميِّز المطيع الممتثِل لِمَا وردَ عليه من أمرِ[٢] آمرٍ مُطاعٍ، على طريق[٣] الاستعارة بالكناية.

وأخرج[٤] الجواب بقوله: ﴿يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥ﴾ مخرجَ جوابُ الأمر مجزوماً.

وكرّر ﴿وَعَدُوّٞ﴾ للمبالغة، أو لأنَّ الأوَّل باعتبار الواقع، والثَّاني باعتبار المتوقَّع، والأحسن نظماً أن ترجع الضمائر كلُّها إلى موسى عليه السلام[٥]، لا لِمَا قيل: إنَّ في رجوع البعض إلى التَّابوت تنافرُ النَّظم الذي ينافي الإعجاز؛ لأنَّه ممنوع، كيف ولو كان فيه ما يخلُّ بحسن النَّظم لَمَا وقع في قوله تعالى: ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓۚ﴾ [البقرة: ١٨١]؟! ثمَّ إنَّ موجَبَ ذلك عدمُ الحُسْنِ ـ بل عدمُ الصِّحةِ ـ

---

(١) في (م) و(س): «هنا».

(٢) «أمر» سقط من (ف) و(ك).

(٣) في (م): «طريقة».

(٤) في (ف): «وإخراج».

(٥) في هامش (ف) و(س): «فإن الأول والثاني والرابع من الضمائر المذكورة راجع إلى الإيصاء الواقع، والثالث منهما راجع إلى التبديل أو إلى الإيصاء المبدل باعتبار وضعه. منه».

لا عدمُ الأحسنيَّة[١] = بل لأنَّ الـمُحَدَّث عنه موسى عليه السلام، لا التَّابوت، وإنَّما ذُكِرَ التَّابوتُ على سبيل الوعاء[٢] والفضلة، فالـمُلْقَى والـمَأْخُوذ هو موسى عليه السلام في التَّابوت، فلا حاجة إلى نشر الضَّمائر.

والظَّاهر: أنَّ البحر ألقاه بالسَّاحل فالتقطه منه آل فرعون؛ روي أنَّه فُتِحَ التَّابوت فإذا صبيٌّ أصبحُ النَّاس وجهاً، فأحبَّه عدوُّ الله حبًّا شديداً، كما قال:

﴿وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي﴾ ﴿مِّنِّي﴾ صفة لـ ﴿مَحَبَّةً﴾؛ أي: محبَّةً كائنةً منِّي قد زرعتُها في القلوب، فلذلك[٣] أحبَّك فرعون. أو متعلق بـ ﴿وَأَلْقَيْتُ﴾؛ أي: أحببتُكَ ومَن أحبَّه اللهُ أحبَّته القلوب، وعلى هذا يراد المعنى المذكور أوَّلاً بطريق الكناية، أو بطريق الإشارة.

وتنكير ﴿مَحَبَّةً﴾ للتَّعظيم أو الإبهام والتعيين.

﴿وَلِتُصْنَعَ﴾ عطف على علَّةٍ مقدَّرة، مثل: ليُتعطَّفَ عليك، ونحوِه، أو علَّةٌ لمحذوف معطوفٍ على الجملة السابقة؛ أي: ولتُصنع فعلْتُ ذلك.

قال الخليل: يُقال: صنعْتُ الفرسَ، وهو فرسٌ صَنِيْعٌ، وهو الذي أَحسن أهلُه القيام عليه[٤]، وسيفٌ صَنِيْعٌ: الذي قد أُحْسِنَ صَقْلُهُ.

﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾: بمرأى منِّي؛ أي: لِتُرَبَّى كما أريد، ومجازُه: أنَّ مَن صنعَ للإنسان شيئاً وهو ينظر إليه[٥] صَنَعَهُ له كما يحبُّه، ولا يتهيَّأ له خلافه.

---

(١) في هامش (س) و(ف): «كما توهمه القاضي رحمه الله. منه».

(٢) في (ف) و(ك): «الدعاء».

(٣) في (ف): «فذلك»، وفي (م): «ولذلك».

(٤) انظر: «العين» (باب العين والصاد والنون) (١/ ٣٠٥).

(٥) «إليه» سقط من (ك)، وفي (ف): «إلى».

وقيل: ﴿عَلَىٰ عَيْنِيٓ﴾؛ أي: على حفظي.

* * *

(٤٠) ـ ﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ فَتَقُولُ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ ۖ فَرَجَعْنَٰكَ إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾.

﴿ إِذْ تَمْشِيٓ أُخْتُكَ ﴾ ظرفٌ لـ (أَلقيتُ)، أو (تُصنع)، أو بدل من ﴿إِذْ أَوْحَيْنَآ﴾ على أنَّ ﴿إِذْ﴾ عبارةٌ عن الوقت المتَّسع.

﴿فَتَقُولُ﴾ للَّذين يطلبون مرضعةً يَقبلُ ثديها، وكان لا يَقبل ثديَ امرأة على ما ذُكِرَ في سورة القصص، فالفاء فصيحة؛ لترتيب المذكور على المقدَّر.

﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ مَن يَكْفُلُهُۥ﴾: على مَن يضمُّه إلى نفسه فيربِّيه، وأرادت بذلك: المرضعةَ، وإنَّما ذُكِّرَ للَفظ ﴿مَن﴾

﴿فَرَجَعْنَٰكَ﴾: فرددناك ﴿إِلَىٰٓ أُمِّكَ﴾ وفاءً بقولنا: ﴿إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص: ٧]، ويأتي التفصيل في سورة القصص، وهذه الفاء أيضاً فصيحة.

﴿كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا﴾ برؤيتك، وقد مرَّ تفسير (تقر) في سورة مريم.

﴿وَلَا تَحْزَنَ﴾ على فراقك[1].

قيل: أو أنت على فراقها. ولا يتحمَّله مساق الكلام في سورة القصص[2]، ويأباه قوله: ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ [القصص: ١٣].

---

(١) في (م): «فرقتك».

(٢) في هامش (ف) و(س): «لأن الخطاب ثمة معها لا معه. منه».

﴿وَقَتَلْتَ نَفْسًا﴾: هي نفس القِبْطيِّ الذي استغاثه عليه السِّبْطيُّ.

﴿فَنَجَّيْنَاكَ مِنَ ٱلْغَمِّ﴾ الذي نالَكَ بسبب قتْلِه خوفاً من عقاب الله تعالى واقتصاصِ فرعون، بالمغفرة والأمن منه بالهجرة إلى مَدْيَن.

﴿وَفَتَنَّاكَ فُتُونًا﴾ مصدر على فُعول في المتعدِّي، كالثُّبور والشُّكور والكُفور، أو جمع فَتْنٍ أو فِتْنَةٍ على ترك الاعتداد بتاء التَّأنيث، كحُجُوز[1] وبُدُور في جمع حُجْزَة وبَدْرَة[2].

والفتنةُ: المحنةُ، وكلُّ ما يَبتلي اللهُ به عباده من نعمة أو من[3] نقمة فهو فتنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء: ٣٥]، وأكثر استعمالها في العُرف فيما يَشُقُّ على الإنسان؛ أي: اختبرناك بضروب من الاختبار.

سأل سعيدُ بن جبيرٍ ابنَ عبَّاس رضي الله عنهما، فقال: خلَّصناكَ مِن محنةٍ بعدَ محنةٍ، وُلِدَ في عامٍ كان يُقتَلُ فيه الولدان، فهذه فتنةٌ يا ابن جبير، وألقته أمُّه في البحر، وهمَّ فرعون بقتله، وقتل قِبطيًّا، وأجَّر نفسَه عشرَ سنين، وضلَّ الطَّريق، وتفرَّقَتْ غنمُه في ليلةٍ مظلمة، وكان يقول عند كلٍّ واحدة: فهذه فتنة يا ابن جبير[4].

---

(١) في (ك) و(ف): «حجور».

(٢) حجزة الإزار: مَعْقِدُه. والبَدْرَة: كيسٌ فيه ألفٌ أو عشرة آلاف درهم. انظر: «تاج العروس» (مادة: حجز)، و(مادة: بدر).

(٣) «من»: ليست في (م).

(٤) انظر: «الكشاف» (٣/ ٦٤)، ورواه بمعناه مطوَّلاً النسائي في «السنن الكبرى» (١١٢٦٣)، وأبو يعلى في «مسنده» (٢٦١٨) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

والمعنى: إنَّا عاملناك معاملة المختبِر حتى خلصت للاصطفاء[١] بالرِّسالة، فكلُّ هذا من أكبر نعمه.

﴿فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِيٓ أَهْلِ مَدْيَنَ﴾ وهي مدينة شعيب عليه السلام.

وعن وهب: أنَّه لبثَ عندَه ثمانياً وعشرين سنة، عشرٌ منها مهرُ ابنته، وأقام عنده ثماني عشرة سنةً بعدها حتى ولد له أولاد[٢].

والفاء لتفصيل بعض[٣] ما أُجمل من أنواع الفتنة.

﴿ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ﴾ قدَّرتُه وعيَّنته[٤]، وهو ما سبق في قضائي أن أكلِّمَكَ وأستنبئك في وقتٍ قد وقَّتُّه لذلك، فما جئْتَ إلَّا على ذلك القَدَر، غيرَ متقدِّم ولا متأخِّر[٥].

وقيل: هو الوقت الذي يوحَى فيه إلى الأنبياء عليهم السلام، وهو رأس أربعين سنة، قال الشَّاعر:

نالَ الخلافةَ إذْ كانَتْ لَهُ قَدَرا ... كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ[٦]

﴿يَٰمُوسَىٰ﴾ تكرير[٧] عقيب ما هو غاية الحكاية؛ للتَّنبيه على أنه المقصود.

* * *

(١) في (ف): «خلصته لاصطفاء».

(٢) انظر: «تفسير القرطبي» (١٤/ ٦١).

(٣) «بعض» من (م) و(س).

(٤) في (ف): «قدره وعينه».

(٥) في (م) و(س): «مستقدم ولا مستأخر»، وفي (ف): «مقدم ولا متأخر».

(٦) البيت لجرير. انظر: «ديوانه» (١/ ٤١٦).

(٧) في (ف) و(ك): «تقرير».

(٤١) ـ ﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾.

﴿وَٱصۡطَنَعۡتُكَ لِنَفۡسِي﴾: اصطفيتك لمحبَّتي وخَصَصْتُكَ بي، مثَّل حاله فيما خوَّله من الكرامة بمَن قرَّبه الملك واستخلَصه لنفسه لمحاسنَ فيه.

* * *

(٤٢) ـ ﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ بِـَٔايَٰتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكۡرِي﴾.

﴿ٱذۡهَبۡ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ أمرَ أوَّلاً موسى عليه السلام وحده بالذَّهاب، فلمَّا[1] سأل أن يُشرك هارونُ عليه السلام في أمره أمَرهما معاً؛ إجابةً لدعوته على حسَب وَعْده.

وضمَّن كلامه التَّنبيه على أصالته حيث غلَّبه[2] على هارون في الخطاب، ولم يقل: (اذهبا).

و﴿أخوك﴾ معطوف[3] على الضَّمير المستكنِّ[4] في ﴿ٱذۡهَبۡ﴾، المؤكَّد بـ ﴿أَنتَ﴾.

قيل: أوحى إلى هارون وهو بمصر أن يتلقاه، وقيل: سمع بـمُقْبَله[5] فاستقبله.

﴿بِـَٔايَٰتِي﴾: بمعجزاتي.

﴿وَلَا تَنِيَا﴾؛ أي: ولا تفتُرا، ولا[6] تقصِّرا. والوَنْيُ: الفتور.

---

(١) في (م) زيادة: «ذهب» ولا يحتملها السياق.

(٢) في (ك) و(م): «غلب».

(٣) في (ف): «معطوفاً».

(٤) في (م): «ضمير مستكن».

(٥) بضم الميم وفتح الباء مصدر ميمي بمعنى الإقبال، أو اسم مكان.

(٦) «لا»: ليست في (م).

﴿فِى ذِكْرِى﴾؛ أي: لا تنسياني حيث ما تقلَّبْتُما[١]، أو في تبليغ الرِّسالة؛ فإنَّ الذِّكْرَ يطلق على كلِّ عبادة، والتَّبليغُ من أجَلِّ العبادات، أو: في تبليغ ذِكْري والدَّعوة إليَّ.

* * *

(٤٣) ـ ﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾.

﴿ٱذْهَبَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ﴾ تأكيد لقوله: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾ بالتَّكرير[٢]؛ إظهاراً للاعتناء بدعوة اللَّعين إليه، وفيه إبهام وتوضيح، ونبَّه على سبب الذَّهاب إليه بالرِّسالة من عنده بقوله:

﴿إِنَّهُۥ طَغَىٰ﴾؛ أي: تجاوز الحدَّ في الفساد، ودعواه الرُّبوبيَّة.

* * *

(٤٤) ـ ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾.

﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا﴾ نحو قوله: ﴿هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ (١٨) وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ﴾ [النازعات: ١٨ ـ ١٩]؛ لأنَّه دعوةٌ في صورة العَرْض والمشورة والاستفهام؛ حذَراً أن يحمله التَّجبُّر على أن يسطوَ عليكما، أو احتراماً له لحقِّ التَّربية.

وقيل: ﴿لَّيِّنًا﴾[٣] كنِّياه، أو لقِّباه، لا بدَّ من هذه الزِّيادة كيلا يردَّه قوله: ﴿وَقَالَ

---

(١) في (ف) و(ك): «انقلبتما».

(٢) في هامش (س) و(ف) و(م): «من قال: أمر به أوَّلًا موسى عليه السلام وحده، وهنا إياه وأخاه، فلا تكرير، فكأنه غفل عن قوله: ﴿وَلَا تَنِيَا﴾، أو أخطأ موضع قوله هذا، فإنَّ حقَّه أن يذكر عند قوله: ﴿ٱذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ﴾. منه».

(٣) في (م) زيادة: «لينا».

﴿مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ١٠٤]، فإنَّه لو كان مأموراً بالتَّكنية خاصَّةً لَمَا خالفه[١] بالتَّلقيب.

﴿لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ﴾ متعلِّق بـ ﴿ٱذْهَبَآ﴾، أو ﴿قَوْلًا﴾؛ أي: على أرجى[٢] الوجوه للاتِّعاظ والخشية.

وقوله: (لعل) ليس لخفاء حاله عليه تعالى، لكن أمرٌ لهما بالدُّعاءِ على الرَّجاء، فإنَّه إذا كان الدَّاعي راجياً فهو أحرص على الدُّعاء، وذلك أبلغ في إلزام الحجَّة.

وقيل[٣]: يتذكر المتحقِّق[٤] ويخشى المتوهِّم؛ أي: يتذكَّر إن تحقَّق صدقَكما فيذعن للحقَّ، وإنْ لم يتحقَّق توهَّم أنْ يكون الأمر كما تصفانه.

والأحسنُ أنْ يُقال: يتذكَّر المبدأ أو يخشى المعاد؛ أي: يتذكر حالة نشأته صغيراً عاجزاً عن تدبير نفسه، وأنَّه حدث بعد أن لم يكن موجوداً، فيرجع عن دعوى القدرة والرُّبوبيَّة، أو يخشى عقابَ اللهِ تعالى في دعواه ذلك.

* * *

(٤٥) ـ ﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾.

﴿قَالَا رَبَّنَآ إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَآ﴾ فرط: سبق وتقدَّم، ومنه الفارِطُ الذي يتقدَّم الوارِدَ، وفرسٌ فُرُطٌ: تسبقُ الخيل.

---

(١) في (م): «خالف».

(٢) في (ف) و(ك): «أوجه».

(٣) في (م): «قيل».

(٤) في (ك): «المحقق».

وقرئ: (يُفْرَطَ)، من أفْرَطه: إذا حمله على العَجَلَةِ، و(يُفْرِطَ) من الإفراط[١]؛ أي: نخاف أن يعجل علينا بما يحول بيننا وبين إتمام الدَّعوة وإظهار المعجزة، أو أن يحمله حامل من استكباره وجبروته أو خوفه على الملك، أو شيطانٌ جنِّيٌّ أو إنسيٌّ من قومه القِبط المتمرِّدين، على المعاجلة بما ذكر، أو أن يفرط فيه.

وإنَّما قلنا: (بما يحول)، ولم نقل: (بالعقوبة) كما قيل؛ لأنَّه مردود بقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ [القصص: ٣٥]، فإنَّه مذكور قبل قولهما[٢] هذا، بدلالة قوله: ﴿سَنَشُدُّ﴾، وقد دلَّ على أنهما محفوظان من عقوبته.

﴿أَوْ أَن يَطْغَىٰ﴾؛ أي: يتجاوزَ الحدَّ بالتَّخطِّي إلى أن يقول فيك ما لا ينبغي؛ لعتوِّه وجراءته عليك وقساوة قلبه، وفي إطلاق الطُّغيان مع تقييد قسيمه بقوله: ﴿عَلَيْنَآ﴾ بطريق الرَّمز من حُسن الأدب والتَّحاشي عن التَّفوُّه بالعظيمة ما لا يخفى، وإنَّما أخَّره لأنَّ مَن أُمرَ بشيء فحاول دفعَه لأعذار فلا بُدَّ وأن يختم كلامه بما هو الأقوى.

* * *

(٤٦) - ﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾.

﴿قَالَ لَا تَخَافَآ إِنَّنِي مَعَكُمَآ﴾ المعيَّة هنا[٣] بالنُّصرة والمعونة.

---

(١) انظر القراءتين في: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، ونسب الأولى ليحيى وأبو نوفل وابن مسعود، والثانية لابن محيصن.

(٢) في (م): «قوله».

(٣) في (ك) و(م): «ههنا».

﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ مـا يجـري بينكمـا وبينه من قـولٍ أو فعلٍ، فأجازيـه وأكفيكما شرَّه.

والأفصح أنْ لا يُقدَّر مفعولا قوله: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فيكون مبالغةً في الحفظ[1]؛ أي: إنَّني حافظٌ ناصرٌ سميعٌ بصيرٌ، وإذا كان الحافظ قادراً سميعاً بصيراً تمَّ الحفظ، وحقَّتِ النُّصرة، وثبَتَ الدَّفْعُ عن المحفوظ.

***

(٤٧) ـ ﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡۖ قَدۡ جِئۡنَٰكَ بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكَۖ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلۡهُدَىٰٓ﴾.

﴿فَأۡتِيَاهُ فَقُولَآ إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾ خاطَبـا[2] بقولهمـا: ﴿رَبِّكَ﴾؛ إعلامـاً لـه أنَّـه مربـوبٌ مملـوكٌ إذ كان[3] يدَّعـي الرُّبوبيـة والمالكيـة.

﴿فَأَرۡسِلۡ مَعَنَا بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: أطلقهـم عـن الاسـتعباد، كمـا يقال: أرسـلْتُ[4] الصَّيـد، ولا تمنعهـم عـن اتِّباعنا.

﴿وَلَا تُعَذِّبۡهُمۡ﴾ بتكليف المشاقِّ.

كانـت بنو إسـرائيل تحت مِلْكة[5] فرعـون، والقِبْطُ يعذِّبونهـم بتكليف الأعمال الصَّعبـة، وتعقيـبُ دعوى الرِّسـالة بإطلاق بني إسـرائيل لِمَا فيه من إزالـة المانع عن

---

(١) «مفعولا قوله: ﴿أَسۡمَعُ وَأَرَىٰ﴾ فيكون مبالغة في الحفظ» سقط من (س).

(٢) في (ف) و(ك) و(س): «خاطبا».

(٣) في (ك) و(م) زيادة: «هو».

(٤) في (ف): «أرسل».

(٥) في (ك): «ملك».

دعوتهم واتِّباعهم، وهي أعمُّ[١] من دعوة القبط، فلا دلالة فيه على أن تخليص المؤمنين من الكفرة أهم من دعوتهم إلى الإيمان، على أنَّ الظَّاهر ممَّا تقدَّم في سورة يونس عليه السلام أنَّه ما آمن بموسى[٢] عليه السلام في مبدأ أمره إلَّا أولادٌ من قومه.

﴿قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكَ﴾ جملة مبيِّنة[٣] لقوله: ﴿إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ﴾؛ لأنَّ الرِّسالة لا تثبت إلَّا بالمجيء بالمعجزة.

وإنَّما وحَّد الآية ومعه آيتان لأنَّ المراد إثبات الدَّعوى بالبيِّنة، لا بيان تعدُّد الحجَّة ووحدتها، فكأنَّه قال: قد جئناك بحجَّة وبرهان على ما ادَّعينا من الرِّسالة، كقوله: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ١٠٥].

﴿وَالسَّلَامُ﴾؛ أي: سلامُ الملائكة الذين هم خزنة الجنَّة، والأفصح أن يكون السلام بمعنى الجنس؛ أي: جنس السَّلام وما يَستأهل أنْ يُسمَّى سلاماً، أو: السَّلامة من العذاب[٤].

﴿عَلَىٰ مَنِ اتَّبَعَ الْهُدَىٰ﴾: على المهتدين، والذي يقابله هو[٥] توبيخ خزنة النَّار، أو: والخزي[٦] والعذاب على الضَّالِّين المكذِّبين.

---

(١) في (ف) و(ك): «أهم».

(٢) في (م): «لموسى».

(٣) في (ك): «مبنية».

(٤) في (م): «والسلامة من العذاب»، وفي (ك): «أو السلامة»، وفي (ف): «والسلامة»، والمثبت من (س).

(٥) في (س) و(ك) و(م): «وهو».

(٦) في (س) و(ك) و(م): «الخزي».

(٤٨) ـ ﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾.

﴿ إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴾ ﴿أُوحِيَ﴾ مبنيٌّ للمفعول، والمفعول الذي لم يُسَمَّ فاعله مصدرٌ ينسبك من (أنَّ) وما بعدها، تقديره: أوحي إلينا كينونةُ العذاب على مَن كذَّب وتولَّى.

وتغيير النَّظم باستئناف الكلام، والتَّوكيدِ، والتَّصريحِ بالوعيد، لأنَّ التَّهديد في مبدأ الدَّعوة أهمُّ وأنجع.

***

(٤٩) ـ ﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَىٰ ﴾.

﴿ قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا ﴾ في الكلام حذفٌ وإيجازٌ يُشْعِر بأنَّهما من فَرْط طاعتهما ومُسارَعتِهما إلى الامتثال لا ينفكُّ فعلهما عن الأمر، كاللَّازم البيِّن، فلا حاجة إلى ذكره، وهو: فأَتَياه وقالا ما أُمِرا به.

ثمَّ إنَّ الفاء فصيحةٌ تفصِح عن محذوفٍ بعد ﴿قَالَ﴾، تقديره: سمعْتُ قولَكما فمَن ربُّكما؟

﴿يَا مُوسَىٰ﴾ إنَّما خاطب الاثنين وخصَّ موسى عليه السلام بالنِّداء لأنَّه الأصل في الرِّسالة والدَّعوة، وهارونُ وزيرُه وتابعُه، أو لِمَا عُرِفَ مِنْ رُتَّةِ موسى عليه السلام وفصاحة هارون عليه السلام، فأرادَ أنْ يفحِمَه، فاستدعى كلامَه دونَ كلامِ هارون لمكرِه ودهائِه، ويُشعر بذلك قوله: ﴿ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴾ [الزخرف: ٥٢]، فأجابَ بأشفى جوابٍ وأبلغِه، وأَخْصَرِه[١] لفظاً، وأَجْمَعِه معنًى، حيث[٢]:

(١) في (س): «أحصره»، وفي (ف) و(م): «أحضره».

(٢) في (م) زيادة: «قال».

(٥٠) ـ ﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ﴾.

﴿قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ﴾؛ أي: أعطى كلَّ شيءٍ من الأنواع والأعضاء صورتَه وشكله الذي يوافق ما وُجِّهَ إليه من المنفعة، كشكل الإنسان والفرَس والعين والأُذن، أو: أعطى خلقه[١] كلَّ شيء يحتاجون إليه ويرتفقون به، فقدَّم ثاني المفعولَيْن لأنَّه[٢] المقصودُ بيانُه.

وقيل: أعطى كلَّ حيوان[٣] نظيرَه في الخَلْق والصُّورة زوجاً.

وفيه نظر؛ لأن من الحيوان ما يكون بالتولُّد، فلا يكون له زوج نظيره في الخلق والصُّورة[٤].

وقرئ: (خَلَقَهُ) على الفعل الماضي[٥]، صفة للمضاف إليه، أو المضافِ على شذوذٍ، والمفعول الثَّاني محذوف؛ أي: أعطى كلَّ شيء ما يصلحه، لم يُخْلِه من عطائه ممَّا يليق به.

﴿ثُمَّ هَدَىٰ﴾: ثم عرَّفه كيف يرتفق بما أُعطيَ، وكيف يتوصَّل به إلى كماله الصُّوري والمعنوي طبعاً واختياراً.

نعتَه بما معناه[٦]: الموجِدُ لكلِّ شيءٍ على وفق حكمته[٧]، المفيضُ على الكلِّ

---

(١) في (م) و(س): «خليقته».

(٢) في (ف) و(م): «لأن».

(٣) في (ف) و(ك): «كل شيء»، والمثبت من (س) و(م)، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٣/ ٦٧).

(٤) من قوله: «زوج نظيرُه في الخلق والصُّورة» سقط من (م).

(٥) نسبت لأبي نهيك ونصير عن الكسائي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧).

(٦) في (م) زيادة: «أنه».

(٧) في (م): «الحكمة».

كلَّ ما ينبغي له ويليق به من الأسباب والآلات، الهادي له إلى مصالحه واستعمالِ آلاته في تحصيل كمالاته، فهو الخالق القادر الحكيم المنعِم على الإطلاق، الغنيُّ بالذَّات، وجميع ما عداه مخلوقٌ مربوبٌ منعَمٌ عليه مفتقرٌ، فلذلك بُهِتَ الذي كفر وأُفْحِمَ عن[1] الاعتراض عليه، فصرف الكلام عنه وشرَع في سؤال آخر على سبيل الرَّوَغانِ عن الاعتراف بما قاله[2] موسى عليه السلام وما أجابه به والحيرةِ والمغالطة.

* * *

(٥١) ـ ﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

﴿قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ﴾: ما تقدَّم وخلا.

والفاء تدلُّ على أنَّ السُّؤالَ مبنيٌّ على قول موسى عليه السلام: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَىٰ مَنِ ٱتَّبَعَ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [طه: ٤٧]، و﴿أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ﴾ [طه: ٤٧].

* * *

(٥٢) ـ ﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

﴿قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾ لَمَّا[3] سأله عن حال[4] الأمم الخالية والرِّمم البالية من الفريقَيْن بعد الموت أجابَ موسى عليه السلام بأنَّه غيبٌ لا يعلمه إلَّا اللهُ، دلَّ على الحصر معنى الحفظ المستفاد من عبارة ﴿عِندَ﴾.

---

(١) في (ف): «من».

(٢) في (ك): «قال».

(٣) «لما»: ليست في (م).

(٤) «حال» سقط من (ف).

﴿فِي كِتَٰبٍ﴾ مثبَتٌ في اللَّوح المحفوظ، ولَمَّا كان الإثبات في اللَّوح مظنَّةَ الحاجة إلى الحفظ في الكِتْبةِ دفَعه بقوله:

﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ ولقد نبَّه على هذا مَن قال: لا ينسى ما عَلِمَ فيذكِّرَه الكتَابُ، ولكن ليعْلَمَ الملائكةُ أنَّ معمولَ[1] الخلْقِ موافقٌ[2] معلومه.

ومَنْ لم يتنبَّه لهذا قال: ويجوز أن يكون تمثيلاً لاستحكام علمه وتمكُّنِه بما استحفظه العالم وقيَّده بالكتابة، ويؤيِّده: ﴿لَّا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾.

﴿لَّا يَضِلُّ﴾ مِنْ ضَلِلْتَ الشَّيءَ: إذا أخطأْتَه في مكانه فلم تهتدِ له.

وقرئ: (يُضِلُّ)[3] من أضلَّه: إذا ضيَّعه، والعرب تقول لكلِّ ما ذهب على الإنسان ممَّا[4] ليس بحيوان: ضلَّه، بغير ألف، فأمَّا إذا كان منه فتقول: أضلَّه بالألف، والأصل في الأوَّل: ضَلَّ عنه.

﴿وَلَا يَنسَى﴾ مِنْ نسيتَه: إذا ذهبتَ عنه بحيث لا يخطرُ ببالك، وهمَّا مُحالان على العالم بالذَّات.

قيل: ويجوز أن يكونَ سؤالُه دخلاً على إحاطة قدرة الله تعالى بالأشياء كلِّها، وتخصيصِه أبعاضها[5]..

(١) في (ك): «معلوم».

(٢) في (م): «يوافق».

(٣) نسبت للحسن وجمع. انظر: «إعراب القرآن» للنحاس (٣/ ٤١)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٧)، و«زاد المسير» (٥/ ٢٩٢).

(٤) في (ف) و(ك): «ما».

(٥) في النسخ: «وتخصيصه كلها»، والمثبت من «تفسير البيضاوي»، والكلام منه، وقوله: «وتخصيصه» معطوف على: «الأشياء». انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٠٧).

بالصُّور والخواصِّ المختلفة، بأنَّ[١] ذلك يستدعي علمه بتفاصيلها وجزئياتها، والقرون الخالية مع كثرة عددِهم وتمادي مددِهم وتباعُد أطرافِهم، كيف أحاط علمُه بهم وبأجزائهم وأحوالهم؟! فيكون معنى[٢] الجواب: أنَّ علمَه تعالى محيطٌ بذلك كلِّه، وأنَّه مثبَتٌ عندَه لا يضلُّ ولا ينسى.

ويَرِدُ عليه: أنَّه يأباه تخصيصُ القرون الأولى مِن بينِ الكائنات؛ فإنَّه لو أخذها بجملتها لكان أظهرَ وأقوى في تمشية[٣] ما أراده.

***

(٥٣) ـ ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ﴾.

﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ مرفوعٌ صفةٌ لـ ﴿رَبِّى﴾، أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ، أو منصوبٌ على المدح، وهو أفصح.

﴿مَهْدًا﴾؛ أي: كالمهد، وهو ما يُمهَد للصَّبي، مصدر سُمِّيَ به؛ أي: مَهَدها لكم، أو: مهداً تتمهدونها.

وقرئ: ﴿مِهَاداً﴾[٤]، وهو اسم ما يُمْهَد، كالفراش لِمَا يُفْرَش، أو جمع مَهْدٍ.

﴿وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا﴾ (سلكَ): من السَّلكِ بمعنى الإدخال؛ أي: جعل[٥] لكم

---

(١) متعلق بـ«دخلًا». انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٠٧).

(٢) في (م): «مع».

(٣) في (م): «مشيئة».

(٤) قرأ الكوفيون: ﴿مَهْدًا﴾، وباقي السبعة: ﴿مِهَٰدًا﴾. انظر: «التيسير» (ص: ١٥١).

(٥) في (ك) و(س): «حصل».

سُبُلاً بينَ الجبال والأودية والبراري تسلكونها لحوائجكم وتقلُّبكم في البلاد لتبلغوا منافعها.

وإنَّما أعيد ﴿لَكُمْ﴾ لأنَّ معناه فيما تقدَّم: لانتفاعكم، وهنا: لأَجْلكم؛ فإن غير الإنسان لا يشاركه في الانتفاع بالطُّرق بخلاف الانتفاع بتمهيد[1] الأرض، إلَّا أنَّ المقصود الأصلي[2] انتفاع الإنسان، فلذلك خُصَّ بالذِّكر.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾: مطراً ﴿فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ﴾ إنزاله تعالى وإخراجه عبارتان[3] عن إرادته[4] النُّزول والخروج؛ لاستحالة مزاولة العمل في شأنه، فالفاء للتَّعقيب[5]؛ فإنَّ ثانية الإرادتين لا تتراخى عن الأولى، وإنْ تراخى ثاني المرادَيْن عن الأوَّل[6]، فتأمَّل.

والعدول عن لفظ الغيبة إلى صيغة التَّكلُّم على الحكاية لكلام الله تعالى؛ للتَّنبيه على أنَّه مُطَاعٌ تنقادُ الأشياءُ لأمره وتذعِنُ لمشيئته وحُكْمِه، لا يمتنع عليه شيء، ومبنى التَّكلُّم على الحكاية على ظهور اختصاص القدرة على ذلك بالله تعالى.

---

(١) في (س) و(ف) و(ك): «بتمهد».

(٢) في (م): «الأصل».

(٣) في (م): «عبارة».

(٤) في (م): «إرادة».

(٥) في هامش (س) و(م): «إنما قلنا: إنها للتعقيب؛ لأن معنى سببية الإنزال للإخراج قد علم من الباء في قوله: ﴿بِهِۦ﴾، وقد سبق وجه آخر لهذا التعقيب في سورة النحل. منه».

(٦) في هامش (ف): «أمر بالتأمل في وجه صحة تخلف المراد عن الإرادة مع عدم لزوم العجز، فإنَّه لا يخلو عن نوع خفاء. منه».

﴿أَزْوَٰجًا﴾: أصنافاً، سُمِّيَتْ بذلك لازدواجها واقتران بعضِها ببعضٍ.

﴿مِّن نَّبَاتٍ﴾ بيانٌ وصفةٌ لـ ﴿أَزْوَٰجًا﴾، وكذلك:

﴿شَتَّىٰ﴾ صفةٌ للأزواج[1]، ويجوز أن يكون صفةً للنَّبات؛ لأنه في الأصل مصدر، فاستوى فيه الواحد والجمع، يقال: شَتَّ الأمر شتًّا وشَتاتاً، وهو شَتِيْتٌ وشَتٌّ، وهم أشتاتٌ وشَتَّى، فأشتاتٌ جمع شَتٍّ، وشَتَّى جمع شَتِيْتٍ، ذكره المرزوقي[2]؛ أي: متفرِّقات في الصُّوَرِ والأعراض بالاختلاف في الطَّعم والشَّكل واللَّون والنَّفع، يصلح بعضها للنَّاس، وبعضها للبهائم، ولذلك قال:

(٥٤) - ﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾.

﴿كُلُوا۟ وَٱرْعَوْا۟ أَنْعَـٰمَكُمْ ۗ﴾ ومن حكمته ونعمته على العباد أنَّ ما يَفضُل عن[3] أرزاقهم ولا يصلح لهم يكون علفاً لأنعامهم.

وصيغة الأمر للإباحة، وهو حال من ضمير ﴿فَأَخْرَجْنَا﴾ على إرادة القول؛ أي: أخرجنا أصناف النَّبات قائلين: كلوا وارعوا، والمعنى: آذِنِين[4] في الانتفاع بها، بأنْ[5] يأكلوا بعضها ويعلفوا أنعامهم بعضها.

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾: في الذي[6] ذُكِرَ.

---

(١) في (م): «لأزواج».

(٢) انظر: «شرح ديوان الحماسة» للمرزوقي (٣/ ١١١٦).

(٣) في (ك) و(م): «من».

(٤) في هامش (ف) و(س): «عبارة القاضي: معديها... إلخ، ولا يخفى ما فيها من الركاكة. منه».

(٥) في (ف) و(ك) زيادة: «يكون».

(٦) في (م): «في الذكرى».

﴿لَآيَٰتٍ﴾: لَدَلالاتٍ[١] ﴿لِّأُوْلِي ٱلنُّهَىٰ﴾: لذوي العقول، واحدها: نُهْيَةٌ، وهو العقل؛ لأنه ينهى عن المحظور، أو يُنتهى إليه في الأمور.

* * *

(٥٥) ـ ﴿مِنۡهَا خَلَقۡنَٰكُمۡ وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ تَارَةً أُخۡرَىٰ﴾.

﴿مِنۡهَا﴾: من الأرض ﴿خَلَقۡنَٰكُمۡ﴾ فإنَّها أصل خلقة أوَّل آبائكم، أو: من الأغذية المتولِّدة من الأرض خلقناكم.

﴿وَفِيهَا نُعِيدُكُمۡ﴾ بالموت وتفتيت الأجزاء.

﴿وَمِنۡهَا نُخۡرِجُكُمۡ﴾ بالبعث وجمع الأجزاء على الصُّورة السَّابقة ﴿تَارَةً﴾: مرَّة ﴿أُخۡرَىٰ﴾.

* * *

(٥٦) ـ ﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَرَيۡنَٰهُ﴾: بصَّرناه ﴿ءَايَٰتِنَا﴾، أو: عرفناه صحتها ﴿كُلَّهَا﴾ تأكيد لشمول الأفراد المعهودة المعلومة[٢] من بعض الآيات النَّازلة سابقاً، والتَّعريف بالإضافة يجري مجرى التَّعريف بلام العهد.

قيل: هي تسعُ الآيات[٣] المختصَّةُ بموسى عليه السلام: العصا، واليد،

---

(١) في (م) و(س): «دلالات».

(٢) في (م): «والمعلومة».

(٣) في (م): «تسع آيات»، وفي (ف) و(ك): «التسع الآيات»، والمثبت من (س)، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٣/ ٦٩).

وفلـق البحـر، والحجـر، والجـراد، والقمَّل، والضفـادع، والـدم، ونتـق الجبل[١].

ويَرِدُ عليه: أن الحجر ونتق الجبل من الآيات التي جاء بها موسى عليه السلام لبني إسرائيل بعد هلاك فرعون، ثم إنَّ فَلْقَ البحر ليس ممَّا كذَّبَ فرعونُ بعدَه.

﴿فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ﴾: كذَّبها جميعها[٢] لفَرْط عناده، وأبى الإيمان والطَّاعة لعتوِّه، أو: أبى أن يقبل شيئاً منها.

***

(٥٧) ـ ﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾.

﴿قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا﴾: مصر ﴿بِسِحْرِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾ تعلَّل من فَرْطِ الدَّهَشِ والحيرة بالسِّحر، وإلَّا فكيفَ يخفى عليه أنَّ ساحراً لا يقدر على إخراج ذي سلطان مثلِه من أرضه؟

وذَكر علَّة المجيء وهي إخراجهم، وألقاها في مسامع قومه؛ ليصيروا متعصِّبين له إذ الإخراج من الوطن مما يَشُقُّ.

***

(٥٨) ـ ﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَّا نُخْلِفُهُۥ نَحْنُ وَلَآ أَنتَ مَكَانًا سُوًى﴾.

﴿فَلَنَأْتِيَنَّكَ﴾ جوابٌ لقسمٍ محذوف.

﴿بِسِحْرٍ مِّثْلِهِۦ﴾: مثلِ سحرِكَ، أورد ذلك على سبيل الشُّبهة الطَّاعنة في النُّبوة؛

---

(١) في هامش (ف) و(س): «لم يقل: ورد الأرواح؛ لأنها ليست مما يخرج من الأرض. منه».

(٢) في (ف) و(م): «جميعا».

فإنَّ المعجِزَ إنَّما يتميَّز عنِ السِّحر بكونه ممَّا تتعذَّر معارضته دون السِّحر، فادَّعى القدرة على إتيان مثله ووعد به.

﴿فَٱجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا﴾ هو مصدرٌ بمعنى الوعد؛ لأنَّ الإخلاف لا يلائم الزَّمان ولا[1] المكان، ويؤيِّده قراءة الحسن بنصب (يومَ الزِّينة)[2]؛ أي: إنجازُ وعدكم يومَ الزِّينة.

﴿لَّا نُخْلِفُهُۥ﴾ بالرَّفع على الوصف للموعد، وبالجزم على جواب الأمر[3].

﴿نَحْنُ وَلَآ أَنتَ﴾ معطوف على الضَّمير المستكنِّ في ﴿نُخْلِفُهُۥ﴾ المؤكَّد بـ ﴿نَحْنُ﴾.

ويجوز أن يكون الموعد اسمَ مكان، ويرجع الضَّمير في ﴿نُخْلِفُهُۥ﴾ إلى ما تضمَّنه من معنى الوعد، وعلى التَّقديرَين إنَّما يطابق الجوابُ السُّؤالَ معنًى لا لفظاً؛ لأنَّه أخبر عن الموعد بيوم الزِّينة، فلا يطابق المكان والمصدر، لكن يوم الزِّينة لا بُدَّ فيه من مكان معيَّن مشهور بين النَّاس، يجتمعون فيه للتَّعييد[4]، وهو زمان مستلزمٌ للمكان المعلوم بذِكْرِه، والمعنى: وعدُكم وعدُ يوم الزِّينة.

﴿مَكَانًا﴾ منصوبٌ بفعلٍ دلَّ عليه ﴿مَوْعِدًا﴾ لا به، لا لأنه مصدرٌ موصوفٌ؛ لأنَّ في الظَّرف الاتِّساع، فيكفي في العمل فيه رائحة الفعل وإن كانت ضعيفةً[5]، بل

---

(١) «لا»: ليست في (م).

(٢) انظر: «المحتسب» (٢/ ٥٣).

(٣) قرأ بالجزم أبو جعفر، وباقي السبعة بالرفع. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٠).

(٤) في (ك) و(س): «للتعيد»، وفي (ف): «للتعبد».

(٥) في هامش (ف) و(س): «فكان كوصف الموصول قبل تمام صلته ذكره ابن جني في الأمالي. منه».

لأنَّه يلزم حينئذ الفصل بينه وبين معموله بالوصف، وهو غير سائغٍ؛ لأنَّ المنصوب بالمصدر مِنْ تتمَّته، ولا يوصَفُ الشَّيءُ إلَّا بعدَ تمامه، هذا على قراءة الرَّفع، وأمَّا على قراءة الجزم فلا مانع عن النَّصب بـ (موعد).

أو يجوز أن يكون بدلاً من ﴿مَوْعِدًا﴾ على تقدير مضاف إليه؛ أي: مكانَ موعدٍ مكاناً، وعلى هذا التقدير أيضاً تكون المطابقة معنًى.

﴿سِوًى﴾: مَنْصَفاً يستوي فيه المسافةُ إلينا وإليك، وهو في النَّعت كقولهم: قومٌ عِدًى، في الشُّذوذ، وقرئ بالضَّم[1].

***

(٥٩) ـ ﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾.

﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ﴾ كان لهم في كلِّ عامٍ يومٌ كانوا يتزيَّنون فيه ويتَّخذون فيه سوقاً، وإنَّما وعدهم ذلك اليومَ ليكونَ ظهور الحقِّ وزهوقُ الباطل على رؤوس الأشهاد، ويشيعَ ذلك في الأقطار، فتتوفَّرَ الرَّغبات في دين الحقِّ، ويَكلَّ حدُّ الباطل.

﴿وَأَن يُحْشَرَ النَّاسُ﴾؛ أي: يُجْمَع، قرئ على بناء الفاعل بالتَّاء على خطاب فرعون، والياء والضَّمير لليوم أو لفرعون[2]، والغيبة للعادة التي يخاطب بها الملوك، أو خاطب القومَ في قوله: ﴿مَوْعِدُكُمْ﴾، وجعل ﴿يُحْشَرَ﴾ لفرعون، ومحلُّه الرَّفعُ عطفاً على ﴿يَوْمُ﴾، أو الجرُّ عطفاً على ﴿الزِّينَةِ﴾.

---

(١) قرأ عاصم وابن عامر وحمزة: ﴿سُوًى﴾ بضم السين، وباقي السبعة بكسرها. انظر: «التيسير» (ص: ١٥١).

(٢) أي قرئ: (تَحْشُرَ)، و(يَحْشُرَ)، نسبت القراءتان لأبي عمران النحوي وأبي نهيك والجحدري. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨)، و«الكشاف» (٣/ ٧١).

﴿ضُحًى﴾ أخَّر إلى ذلك الوقت ليكون أبعدَ عن الرِّيبة وأبينَ لكشف الحقِّ.

* * *

(٦٠) ـ ﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ ثُمَّ أَتَىٰ﴾.

﴿فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ﴾: فأعرضَ عن موسى عليه السلام على هذا الوعد.

﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾: ما يُكاد به؛ يعني: السَّحرة وآلاتهم.

﴿ثُمَّ أَتَىٰ﴾ الموعدَ، أخبر عن إتيانه مصدَّراً بأداة التَّراخي، وتركَ الإخبار عن إتيان موسى عليه السلام إشعاراً بأنَّه لا حاجة في إتيانه عليه السلام إلى الإخبار؛ لأنَّه على قوَّةٍ وغَلَبة، إنَّما مظنَّة المساهلة والتَّراخي في جانب فرعون؛ لأنه على ضعفِ قلبٍ وفتورِ عزمٍ.

* * *

(٦١) ـ ﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنِ ٱفْتَرَىٰ﴾.

﴿قَالَ لَهُم مُّوسَىٰ وَيْلَكُمْ﴾ (ويل): كلمةٌ تُقال لِمَنْ يستحقُّ الهَلَكَة.

﴿لَا تَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا﴾ بأن تدَّعوا آياته سحراً.

﴿فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ﴾ منصوب بإضمار (أنْ)، وهو جواب للنَّهي، قرئ بكسر الحاء وضمِّ الياء، وبفتحهما[1].

---

(١) قرأ حفص وحمزة والكسائي بضم الياء وكسر الحاء، والباقون بفتحهما. انظر: «التيسير» (ص: ١٥١).

والسَّحتُ لغة أهل الحجاز، والإسحاتُ لغة أهل نجد وبني تميم، يقال[1]: سَحَتَهُ اللهُ وأسحته: إذا استأصله وأهلكه.

وفيه دلالة على عظم الافتراء، وأنَّه يترتَّب عليه عذاب الاستئصال.

﴿وَقَدۡ خَابَ مَنِ ٱفۡتَرَىٰ﴾ الخيبةُ: انقطاعُ الرَّجاءِ بالامتناع على الطَّالب ممَّا أمَّل، والافتراءُ اقتطاعُ الخبر الباطل بإدخاله في جملة الحقِّ، وأصله القَطْع، مِن فَرَاه يَفريه فَرْياً.

***

(٦٢) ـ ﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾.

﴿فَتَنَٰزَعُوٓاْ أَمۡرَهُم بَيۡنَهُمۡ﴾ التَّنازعُ: محاولةُ كلِّ واحدٍ مِنَ المختلفَيْن نزعَ المعنى عن صاحبه[2].

﴿أَمۡرَهُم﴾ مفعول (تنازعوا) فتَعدَّى بمفعول واحد، ولو حُذفت التَّاء لتَعدَّى إلى اثنين، تقولُ: نازعْتُ زيداً الحديث؛ أي: اختلفوا فيما بينهم؛ أي: السَّحرة.

وقيل: فرعون وقومه في أمر موسى عليه السلام حين سمعوا كلامَه، فقال بعضُهم: ليس هذا من كلام السَّحرة.

﴿وَأَسَرُّواْ ٱلنَّجۡوَىٰ﴾؛ أي: تشاوروا في السِّرِّ خُفْيَةً من فرعون أن يتبيَّن فيهم ضعفاً، وقالوا: إنْ كان ساحراً فسنغلبه، وإن كان من السَّماء فله أمرٌ.

---

(١) في (م): «ويقال».

(٢) في (م): «نزع الشيء عن صاحبه». ولعل الأحسن أن يقال: (نزع صاحبه عما هو عليه)، كما هي عبارة الواحدي والرازي. انظر: «التفسير البسيط» للواحدي (١٠/ ١٧٦)، و«تفسير الرازي» (١٥/ ٤٨٨).

و﴿ٱلنَّجۡوَىٰ﴾ يكون مصدراً واسماً.

* * *

(٦٣) ـ ﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾.

ثمَّ لفَّقوا هذا القول؛ أعني: ﴿**قالوا إنَّ هذان لساحران**﴾ يعني: موسى وهارون عليهما السلام، كأنَّهم تشاوروا في تلفيقه حذراً من أن يَغْلِبا فيتَّبِعَهما النَّاسُ.

و﴿هَٰذَٰنِ﴾ اسم ﴿إنَّ﴾، هذا[1] لغة بلحارث بن كعب، فإنَّهم جعلوا الألف للتَّثنية، وأعربوا المثنَّى تقديراً.

وقيل: اسمها ضمير الشَّأن المحذوف، و﴿هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ خبرها.

وقيل[2]: ﴿إنَّ﴾ بمعنى: نعم، وما بعدها مبتدأ وخبر.

ويردُّهما أنَّ اللَّام لا تدخل خبر المبتدأ.

وقيل: أصله: إنَّه[3] هذان لهما ساحران، فحذف الضَّمير. ويَرِدُ عليه أنَّ المؤكَّد باللَّام لا يليق به الحذف.

وقرئ: ﴿إِنۡ هَٰذَٰنِ﴾[4] وهو ظاهر، ولكنَّه مخالف للإمام[5].

---

(١) في «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣١): «على» بدل «هذا».

(٢) في (ف): «وقيل إن».

(٣) في (م): «إن»، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «تفسير القرطبي» (١٤/ ٩٥)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٣١)، و«تفسير أبي السعود» (٦/ ٢٥).

(٤) وهي قراءة أبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٥١).

(٥) وفي هذه المخالفة نظر وبحث فهي قراءة متواترة، انظر بيان ذلك في «البحر» (١٥/ ٨٥)، و«روح المعاني» (١٦/ ٣٧٤).

وقرئ: ﴿إِنْ هَٰذَانِ﴾[1] على أنَّها هي المخفَّفة واللَّام هي الفارقة، أو النَّافية واللَّام بمعنى إلَّا.

﴿يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم﴾ بالاستيلاء عليها.

﴿بِسِحْرِهِمَا﴾ نسبوه إلى هارون أيضاً؛ لشركته في أمر الدَّعوة.

﴿وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثْلَىٰ﴾ بمذهبكم الذي هو أفضل المذاهب، بإظهار مذهبه، وإعلاء دينه؛ لقوله تعالى: ﴿إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ﴾ [غافر: ٢٦].

وقيل: أرادوا: أهل طريقتكم المثلى، وهم بنو إسرائيل؛ فإنهم كانوا أرباب علم فيما بينهم، فهو إشارة إلى ما قال موسى عليه السلام: ﴿أَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٧].

وقيل: الطَّريقةُ: اسمٌ لوجوه القوم الذين هم قدوة لغيرهم.

* * *

(٦٤) - ﴿فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًّا ۚ وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَىٰ﴾.

﴿فَأَجْمِعُوا﴾ بقطع الهمزة، من أَجْمَعَ.

﴿كَيْدَكُمْ﴾[2] فأَزْمِعوه[3] واجعلوه مُجْمَعاً عليه، لا يتخلَّف[4] عنه واحدٌ منكم، كالمسألة المجمَع عليها.

---

(١) وهي قراءة ابن كثير وحفص. انظر: «التيسير» (ص: ١٥١).

(٢) في (م): «فأجمعوا كيدكم بقطع الهمزة من أجمع».

(٣) في (م): «فاعزموه». والمعنى واحد، أَزْمَعَ المسير: عزم عليه، ورجل زَميع: ماضي العزيمة. انظر: «المغرب في ترتيب المعرب» (مادة: زمع) (ص: ٢٠٩).

(٤) في (م): «يختلف».

وقرئ: ﴿فَاجْمَعُوا﴾ بهمزة الوصل[١]، من جمع، ويعضده قوله: ﴿فَجَمَعَ كَيْدَهُۥ﴾.

﴿ثُمَّ ٱئْتُواْ صَفًّا﴾: مصطفِّين؛ لأنَّه أَهْيَبُ في صدور الرَّائين، قيل: كانوا سبعين ألفاً مع كلٍّ[٢] منهم حبلٌ وعصاً، وأقبلوا عليه إقبالةً واحدةً.

﴿وَقَدْ أَفْلَحَ ٱلْيَوْمَ مَنِ ٱسْتَعْلَىٰ﴾؛ أي: ظفرَ وفازَ ببُغيته مَن طلَبَ العُلوَّ في أمره، وسعى سعيَه[٣]، اعتراض للتَّحريض والتَّرغيب.

* * *

(٦٥) ـ ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾.

﴿قَالُواْ﴾ بعدما أتوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ﴾ قد سبق في سورة الأعراف تفسيره.

* * *

(٦٦) ـ ﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ ۖ فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾.

﴿قَالَ بَلْ أَلْقُواْ﴾ مقابلةُ أدبٍ بأدبٍ مع زيادةٍ، وهي الإسعافُ إلى ما مالوا إليه بالتَّعريض، وتغييرُ النَّظم إلى صيغة الأمر الموجِب غالباً مع كلمة الإضراب ليستنفِدوا[٤] وسعهم وطوقهم[٥]..

---

(١) وهي قراءة أبي عمرو. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٢).

(٢) في (م) زيادة: «واحد».

(٣) في هامش (ف) و(س): «من قال: نال المطلوب من غلب، أخل بمعنى السين وقصر في حق التحريض. منه».

(٤) في (ف) و(ك): «ليستعدوا».

(٥) «وطوقهم» سقط من (س).

فـي إبـراز مكائـد السِّـحر ووقائعـه(١)، فيُظهـر الله تعالى قدرتـه وسـلطانه، ويقذف بالحـقِّ علـى الباطـل فيدمغه، ويسـلِّط المعجـزة على السِّـحر فيمحقـه، فكانت آيةً بيِّنـة للنَّاظرين، وعبـرة مقنِعـة للمعتبِرين.

﴿فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ﴾ (إذا) للمفاجأة، وهي لمجرَّد الظَّرفيَّة، ناصبُها فعل المفاجأة، ولا يقع بعدها إلَّا الجملة الاسميَّة، والمفاجأة تمثيل لسرعة التَّخييل؛ أي: ففاجأ موسى عليه السلام وقتُ تخييل حبالهم وعصيهم السَّعيَ، أو تخييلُهم سعيَ حبالهم وعصيِّهم(٢)، أو تخييلُ الله تعالى إيَّاه، أو تخييلُ السَّعي إليه، على اختلاف القراءات.

﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ﴾ وقـرئ: ﴿تُخَيَّـلُ﴾ بالتَّـاء(٣)، علـى إسـناده إلـى ضميـر الحبـال والعصـيِّ، وإبـدال ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ منـه بـدل الاشـتمال.

وقرئ بها والبناء للفاعل(٤)، وإيقاعه على ﴿أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ بمعنى: أنها مخيِّلة سعيَها.

وبالياء على أن الفاعل هو الله تعالى للابتلاء والمحنة(٥).

و: (تَخيَّلُ) بفتح التَّاء(٦)، بمعنى: تتخيل، وطريقُه طريقُ (تُخيَّلُ)(٧).

---

(١) في (ف): «ودقائقه»

(٢) «السَّعي أو تخييلهم سعي حبالهم وعصيهم»: ليست في (م).

(٣) وهي قراءة ابن ذكوان. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٢).

(٤) نسبت للحسن وعيسى الثقفي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٥١)، و«البحر المحيط» (١٥/ ٩١).

(٥) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٢).

(٦) نسبت لأبي السمال. انظر: «البحر المحيط» (ص: ٩١)، و«الكشاف» (٣/ ٧٣).

(٧) انظر: «الكشاف» (٣/ ٧٣).

﴿مِن سِحۡرِهِمۡ﴾: مِن أجلِ سحرِهم.

﴿أَنَّهَا تَسۡعَىٰ﴾ إنَّما قال: ﴿تَخَيَّلُ﴾ لأنَّها لم تكن تسعى حقيقة، وإنَّما تحركت[1] لِمَا قيل: إنَّهم لطَّخوا الحبال بالزَّيبق وجعلوه في داخل العصيِّ، فلمَّا حميَتِ بالشَّمس طلب الزَّيبق الصُّعود فتحرَّكَتِ العصيُّ والحبال، فظنَّ أنَّها تسعى[2].

***

(٦٧) ـ ﴿فَأَوۡجَسَ فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾.

﴿فَأَوۡجَسَ﴾ الإيجاسُ: من الهاجس الذي يخطرُ بالبال.

﴿فِي نَفۡسِهِۦ خِيفَةٗ مُّوسَىٰ﴾ فعرَض له خوفٌ عظيمٌ من مفاجأة ما فاجأ[3] على مقتضى الجِبِلَّة البشريَّة، إلَّا أنَّه أضمره؛ أي: لم يُظْهِرْ أثره[4]، لا من أن يخالج النَّاس شكٌّ فلا يتَّبعوه؛ لأن الخوف منه ليس ممَّا يحتاط في كتمانه، فلا يظهر وجه الإطناب بزيادة الإضمار.

---

(١) في (ف) و(ك): «تحرك».

(٢) كذا ذكر الزمخشري والبيضاوي وغيرهما هذا التأويل، ولعل الصواب أنه كان سحراً حقيقة لا خداعاً بالزئبق؛ لقوله تعالى في موضع آخر: ﴿سَحَرُوٓاْ أَعۡيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسۡتَرۡهَبُوهُمۡ وَجَآءُو بِسِحۡرٍ عَظِيمٖ﴾، كما أن موسى عليه السلام وهو النبي الفطن لا يتصور خداعه بالزئبق وأمثاله، وقد ذكر لي أحدهم أنه حضر مجلساً فيه ساحر طلب إليه الحاضرون أن يطعمهم بطيخا، وكان ذلك في الشام في أيام الشتاء وليس في تلك الأيام بطيخة واحدة في البلد كله، فبدأ يتمتم ثم ناول كل واحد منهم قطعة من أجود أنواع البطيخ، أو هكذا خيِّل لهم، ثم أمرهم بأن يبدؤوا بالأكل، فإذا كل واحد منهم ممسك بحذائه وهو يحاول قضمه ظنا منه أنه بطيخ، فلا يستبعد أن يكون ما وقع من السحرة من هذا الباب، والله اعلم بالصواب.

(٣) «ما فاجأ» ليست في (ف) و(ك)، ولم ترد عند البيضاوي أيضاً، ولفظه: (من مفاجأته).

(٤) في (ف): «يظهره».

(٦٨) - ﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾.

﴿قُلْنَا لَا تَخَفْ﴾ ممَّا توهَّمْتَ، صيغة النَّهي للتَّشجيع وتقوية القلب، لا للنَّهي عن الخوف المذكور؛ لأنَّه ليس أمراً اختياريًّا.

﴿إِنَّكَ أَنتَ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ تعليلٌ لِمَا قُصِدَ بصيغة النَّهي، وتقريرٌ لغلبته، مؤكَّداً بالاستئناف، وحرفِ التَّحقيق، وتكريرِ الضَّمير، ولفظِ العلوِّ الدَّال على الغلبة الظَّاهرة، وصيغةِ التَّفضيل، ولامِ التَّعريف.

و﴿ٱلْأَعْلَىٰ﴾ لمجرَّد الزِّيادة؛ لأنَّه لم يكن للسَّحرة علوٌّ حتى يكون هو أعلى منهم[1]، لا بمعنى العالي، كقول الشاعر:

تمنَّى أناسٌ أنْ أموتَ وإنْ[2] أَمُتْ فتلكَ طريقٌ لسْتُ فيها بأوحد[3]

أي: بوحيد.

***

(٦٩) - ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوٓاْ ۖ إِنَّمَا صَنَعُواْ كَيْدُ سَٰحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ ٱلسَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ﴾.

﴿وَأَلْقِ﴾ عطفٌ على محذوفٍ دلَّ عليه سياقُ الكلام، تقريره: اثبت[4] في مقام الإقدام وألقِ، فالواو فصيحةٌ.

﴿مَا﴾ أبهم هنا، وعيَّن في سورة الأعراف حيث قال: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾، ومَن

---

(١) من قوله: «لأنه لم يكن..» إلى هنا وقع في (م) بعد قوله: «أي بوحيد».

(٢) من قوله: «هو أعلى منهم،...» إلى هنا سقط من (س).

(٣) نسب لطرفة في «مجاز القرآن» لأبي عبيدة (٢/ ٣٠١)، و«تفسير الطبري» (٢٤/ ٤٧٨)، ونسبه ابن عطية في «المحرر الوجيز» (٤/ ٣٣٥) للشافعي، و(٥/ ٤٩٢) لطرفة.

(٤) في (س) و(ك) و(م): «ثبت».

غفـل عنه زعـم[١] أن الإبهـام للتَّحقيـر أو للتَّعظيـم، وإنما قال:

﴿فِي يَمِينِكَ﴾ ولم يقل: في يدك؛ لما في لفظ اليمين من معنى اليُمن والبركة.

﴿**تَلَقَّفْ ما صنعوا**﴾؛ أي: تأخذْ ما زوَّروه بفيها ابتلاعاً، وأصله: تتلقَّف، فحذفت إحدى التَّاءين، وتاء المضارعة تحتمل التَّأنيث والخطاب على إسناد الفعل إلى المسبِّب.

وقرئ بالرَّفع[٢] على الحال أو الاستئناف، وبالجزم والتَّخفيف[٣] على أنَّه مِن لقفتُه بمعنى تلقَّفته، وبتشديد التاء[٤].

﴿إِنَّمَا صَنَعُوا﴾؛ أي: الذي زوَّروا وافتعلوا.

﴿كَيْدُ سَاحِرٍ﴾ بالرَّفع على أنَّ (ما) موصولة، والنَّصب على أنَّها كافَّة، وهو مفعول ﴿صَنَعُوا﴾.

وقرئ: ﴿سِحْرٍ﴾[٥] بمعنى: ذي سحر[٦]، أو بإطلاق السِّحر على السَّاحر مبالغةً، أو بإضافة الكيد إلى السِّحر للبيان، كقولهم: علم[٧] فقه.

---

(١) في (م): «ظن».

(٢) وهي قراءة ابن ذكوان. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٢).

(٣) أي: ﴿تَلْقَفْ﴾ بإسكان اللام مخففاً، وهي قراءة حفص، وباقي السبعة ـ عدا ابن عامر في رواية ابن ذكوان السابقة ـ بفتح اللام وتشديد القاف والجزم. انظر: «التيسير» (ص: ١١٢).

(٤) وهـي روايـة البـزي عن ابن كثيـر. انظر: «التيسـير» (ص: ١٥٢)، و«تفسـير البيضاوي» مع حاشـية الشـهاب (٦/ ٢١٦). وقولـه: «التـاء» تحرف في النسـخ إلـى: «القاف».

(٥) وهي قراءة حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٢).

(٦) في هامش (ف) و(م) و(س): «لم يقل: ذوي سحر؛ لأن بيان التَّعدد في السَّاحر لغوٌ في المقام، فلا حاجة لاعتباره في تصحيح الكلام. منه».

(٧) في (ف) و(م): «على».

وإنَّما[1] وحَّد السَّاحر لأنَّ المراد به الجنس، والتَّنكيرُ للتَّحقير، لا لتنكير المضاف؛ لأنَّ المقصود من تنكيره حاصلٌ بالإضافة.

﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ﴾؛ أي: لا فلاح لهذا الجنس، وقال في موضع آخر: ﴿وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُونَ﴾ [يونس: ٧٧]؛ أي: لا يغني جمعُهم، ولا تجدي كثرتهم، وله أيضاً وجه.

﴿حَيْثُ أَتَى﴾ بسحره[2].

* * *

(٧٠) ـ ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾.

﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ﴾ اقتَصر هنا[3] على حاشيتي القصَّة؛ اكتفاءً بما هو المقصود، وقد أتى بنوع تفصيل في (سورة الأعراف)، فالفاء فصيحة.

﴿سُجَّدًا﴾ للهِ توبةً عمَّا صنعوا وتعظيماً لِمَا رأوا.

قال الأخفش: مِن سرعة ما سجدوا كأنَّهم أُلقوا[4].

فما أعجبَ أمرُهم، قد ألقوا حبالهم وعصيَّهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشُّكر والسُّجود، فما أعظم الفرقَ بينَ الإلقائَيْن!

روي أنَّهم رأوا الجنَّة ومنازلهم فيها في السُّجود فرفعوا رؤوسهم ﴿قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ قدِّم موسى عليه السلام في الأعراف لأصالته في الرِّسالة والدَّعوة، وأخِّر هاهنا لا لكبر سنِّ هارون عليه السلام؛ لأنَّه لا[5] يعارض وجهَ تقديم موسى

---

(١) في (م): «وإنما».

(٢) في (م): «بسحر».

(٣) في (م): «ههنا».

(٤) انظر: «تفسير السمرقندي» (٢/ ٤٠٥)، و«تفسير الثعلبي» (٤/ ٢٧٠).

(٥) «لا» سقط من (ف) و(ك).

عليه السلام المناسبِ للمقام رعايتُه[١]، ولا لأنَّ فرعون ربَّى موسى عليه السلام في صغره، فلو قُدِّمَ لتُوُهِّم أنَّ المراد فرعون، وذكر هارون على سبيل[٢] الاستتباع لأنَّ المقام لا يتحمَّله، كيف وقد سجدوا تعظيماً لِمَا رأوا من موسى؟ وأيضاً تقديمه في موضع آخر صريح في أنَّه ليس في التَّرتيب نكتة معنويَّة= بل لمحافظة الفاصلة، والواو لا توجب التَّرتيب.

***

(٧١) ـ ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾.

﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ﴾؛ أي: بالله لأجله ودعوته، وقرئ على الاستفهام للإنكار[٣].

﴿قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾ في الإيمان له.

﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ﴾ لعظيمكم في فنِّكم ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ وأنتم تواطأتم على ما فعلْتُم.

﴿فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ﴾ قد سبق تفسيره في سورة الأعراف.

﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ شبَّه تمكُّن المصلوب في الجذع بتمكُّن المظروف في الظَّرف، فاستعير ﴿فِى﴾ لتصوير[٤] الاستقرار، وخصَّ النَّخل لطول جذوعها، والمراد تشهيرُ العقوبةِ.

---

(١) في هامش (ف) و(س): «من قال: ولأن الواو لا توجب الترتيب، لم يصب في تصديره بأداة التعليل كما لا يخفى، فإن تقديم ما حقه التأخير لا يكون لسلامة الأمر. منه».

(٢) «سبيل» ليست في (م) و(س).

(٣) قرأ حفص وقنبل على الخبر، وباقي السبعة على الاستفهام. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٢).

(٤) في (ف): «في لتقرير»، وفي (م): «في تصوير».

﴿وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا﴾ أنا على إيمانكم بربِّ موسى، أو هو[١] على ترك الإيمان به؟

وقيل: يريد نفسه وموسى عليه السلام، لقوله: ﴿ءَامَنتُم بِهِۦ﴾، نفاجة منه[٢] وفخر باقتداره وقهره، وتوضيع واستضعاف لموسى عليه السلام واستهزاء به؛ لأنَّه لم يكن من التَّعذيب في شيءٍ قطُّ.

قيل: اللَّام مع الإيمان في كتاب الله تعالى لغير الله[٣]، والحقُّ أنَّها للتَّعليل ليس بصلة للإيمان، ولا دلالة في قوله تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ على ذلك؛ إذ معناه: ويصدر عنه الإيمان لأجل المؤمنين وموافقتهم ودعوتهم، وإلَّا لقيل: يؤمن بالله وللمؤمنين.

﴿وَأَبْقَىٰٓ﴾: أدومُ عذاباً وعقاباً.

* * *

(٧٢) ـ ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾.

﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ﴾: لن نختارك ﴿عَلَىٰ مَا جَآءَنَا﴾ موسى عليه السلام به ﴿مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ﴾: المعجزات الواضحات.

﴿وَٱلَّذِى فَطَرَنَا﴾ عطف على ﴿مَا جَآءَنَا﴾، أو قسم.

---

(١) «هو»: ليست في (م).

(٢) في (ف) و(ك): «تفاخر منه»، وفي (م): «تعاجيز ـ أو: نفاجيز ـ لمنه». والمثبت من (س)، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٣/ ٧٦)، ولفظه: (.. وفيه نفاجة باقتداره وقهره، وما ألفه وضَرِي به من تعذيب الناس بأنواع العذاب، وتوضيع لموسى..). والنفاجة: الفخر والتكبر.

(٣) في (ف): «الحق».

﴿فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ﴾: ما أنت قاضيه؛ أي: صانعُه أو حاكمه.

﴿إِنَّمَا تَقْضِى هَـٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ نصب على الظَّرف، وقرئ: (تُقْضَى) على البناء للمفعول ورفع (الحياةُ)[1]، كقولهم: صِيْمَ يومُ الجمعة، بالإسناد إلى الظَّرف، كالتَّعليل لِمَا قبلَه، والتَّمهيد لِمَا بعدَه من الاستئناف؛ أي: تصنع ما تهواه، أو تحكم ما تراه في هذه الحياة الدُّنيا السَّريعة الزَّوال، ونحن نطلب بالإيمان الغفرانَ والثَّواب السَّرمديَّ، فهو علينا هين.

* * *

(٧٣) ـ ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَـٰيَـٰنَا﴾ من الكفر والمعاصي.

﴿وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ﴾: مِن تعلُّمه؛ روي أن رؤوس السَّحرة كانوا اثنين وسبعين، اثنان من القبط، والباقون من السِّبط، وكان فرعون أكرههم على تعلُّم السِّحر.

وقيل: من العمل به في معارضة المعجزة؛ لِـمَا روي أنَّهم قالوا لفرعون: أرنا موسى نائماً، ففعلَ، فوجدوه تحرسه عصاه، فقالوا: ما هذا بسحر؛ لأنَّ السَّاحر إذا نام بطل سحرُه، فأبى إلَّا[2] أن يعارضوه[3].

ويردُّه قوله تعالى: ﴿أَئِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ﴾ [الشعراء: ٤١]، فإنَّه ظاهر في

---

(١) نسبت لأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨).

(٢) «إلا» سقط من (ف) و(م)، وفي (ك): «فأبوا أن».

(٣) في هامش (س) و(ف): «كأن هذا القائل غافل عما قدمه من بيان كيفية سحرهم فإنه قد ظهر منه أنه لا يبطل بنوم الساحر. منه».

الرِّضا، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا بِعِزَّةِ فِرْعَوْنَ إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ﴾ [الشعراء: ٤٤]، فإنَّ الظَّاهر منه[1] عدمُ علمهم بشأن موسى عليه السلام.

﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ جزاءً، أو ﴿خَيْرٌ﴾ ثواباً ﴿وَأَبْقَى﴾ عذاباً.

* * *

(٧٤) - ﴿إِنَّهُ مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَى﴾.

﴿إِنَّهُ﴾: إنَّ[2] الأمر ﴿مَن يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا﴾ بالموت على الكفر والعصيان.

﴿فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ فيستريحَ بالموت ﴿وَلَا يَحْيَى﴾ حياةً ينتفع بها، وهو كالمثل فيما هو من شدَّة الحال التي يتمنَّى فيها الموت.

* * *

(٧٥) - ﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾.

﴿وَمَن يَأْتِهِ مُؤْمِنًا﴾ بأن مات على إيمانه ﴿قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ﴾ في الدُّنيا بعد الإيمان.

﴿فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى﴾: جمع العُلْيا؛ أي: المنازلُ الرَّفيعة.

وأمَّا إيثار الجمع هنا والإفراد في مقابِله فللإشارة إلى ما ذُكِرَ في موضعه مِن أنَّ كلًّا من الكفرة يُعذَّبُ منفرداً عن الآخر زيادةَ في عذابهم بألم الوحشة، وأنَّ المؤمنين يتنعَّمون على سررٍ متقابلين، زيادةً في لذَّاتهم بسرورِ[3] الأُنْسِ.

* * *

(١) في (ف): «منهم».

(٢) في (ف): «أي».

(٣) في (م): «بسرر».

(٧٦) - ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بدل من ﴿ٱلدَّرَجَٰتُ﴾.

﴿تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ﴾ حال، والعامل فيها معنى الإشارة أو الاستقرار.

﴿وَذَٰلِكَ جَزَآءُ مَن تَزَكَّىٰ﴾ تطهَّر من الكفر وأدناس الذُّنوب.

والآياتُ الثلاث الأخيرة تحتمِل أن تكون من كلام السَّحرة، وأن تكون ابتداءَ كلامٍ من الله تعالى.

* * *

(٧٧) - ﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا لَّا تَخَٰفُ دَرَكٗا وَلَا تَخۡشَىٰ﴾.

﴿وَلَقَدۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنۡ أَسۡرِ بِعِبَادِي﴾ لَمَّا أرادَ الله تعالى إهلاك فرعون وقومه أمرَ موسى عليه السلام أن يخرج بهم من مصر ليلاً ويأخذَ[1] بهم طريق البحر، فمعنى:

﴿فَٱضۡرِبۡ لَهُمۡ﴾: فاجعل لهم، من قولهم: ضرب له سهماً في ماله[2]، أو: فاتَّخِذ، مِن ضَرَبَ اللَّبِنَ: إذا عمله.

والإضافة في ﴿بِعِبَادِي﴾ للتَّشريف.

﴿طَرِيقٗا فِي ٱلۡبَحۡرِ يَبَسٗا﴾: يابساً، مصدر وصف به، يُقال: يبس يَبَساً ويُبْساً، كالعَدَم والعُدْم، ولذلك وُصِفَ به المؤنَّث، فقيل: شاةٌ يَبَسٌ وناقةٌ يَبَسٌ: إذا جفَّ لبنُها.

---

(١) في (ك): «لبلاد يخرج»، وفي (س): «ليلًا يأخذ».

(٢) في (م): «ضرب له في ماله سهما».

وقرئ: (يابساً)[١]. و: (يَبْساً) بالسكون[٢]، وهو إمَّا تخفيفُ يَبَسٍ، أو وصفٌ على فَعْلٍ، كصَعْب وجَلْد، أو جمع يابس ـ كصاحب وصَحْب ـ وصف به الواحد مبالغةً، أو لتعدُّده معنًى، فإنَّه جَعَلَ لكلِّ سِبْطٍ منهم طريقاً.

﴿لَّا تَخَافُ دَرَكًا﴾ حال من الضَّمير في ﴿فَاضْرِبْ﴾؛ أي: آمناً مِن أنْ يدرككم العدو، أو صفةٌ ثانية للطَّريق، والعائد محذوف؛ أي: لا تخاف فيه. والدَّرَكُ والدَّرْكُ اسمان من الإدراك.

وقرئ: ﴿لا تَخَفْ﴾[٣] على جواب الأمر.

﴿وَلَا تَخْشَىٰ﴾ استئناف؛ أي: فأنت لا تخشى، بمعنى: ومن شأنك أنَّك لا تخشى، أو عطف عليه والألف فيه للإطلاق[٤]، كقوله: ﴿وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا﴾ [الأحزاب: ١٠]، أو حال بالواو، والمعنى: لا تخشى الغرق.

* * *

(٧٨) ـ ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُم مِّنَ الْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾.

﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ﴾ ﴿فَأَتْبَعَهُمْ﴾ بمعنى: فاتَّبعهم، يرشدك إليه القراءةُ به[٥]؛ أي: فأدركهم مع جنوده؛ أي: كاد أن يلحقهم[٦].

---

(١) نسبت لأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨).

(٢) نسبت لأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨).

(٣) قرأ بها حمزة. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٣).

(٤) قوله: «استئناف»؛ أي: على قراءة حمزة، وأما على قراءة غيره فهو معطوف، وقوله: «أو عطف عليه»؛ أي: على ﴿لَا تَخَفْ﴾ بقراءة حمزة أيضا، وقوله: «والألف فيه للإطلاق» يعني: أنه مجزوم بحذف آخره، وهذه ألف زائدة لوقوعه فاصلة. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢١٨).

(٥) هي رواية عن أبي عمرو، والرواية المشهورة عنه مثل رواية الجماعة. انظر: «السبعة» (ص: ٤٢٢).

(٦) في هامش (س) و(ف): «قد مر التفصيل في تفسير سورة يونس. منه».

قال ابن السِّكِّيت: يقال: أتبعْتُ القوم: إذا كانوا قد سبقوك فلحقتَهم[١]، فهو من المتعدِّي إلى مفعولٍ واحدٍ، لا إلى مفعولَيْن كما توهَّم مَن قال: فأتبعهم فرعونُ نفسَه ومعه جنوده[٢].

وأمَّا ما قيل: الباء مزيدة، والمعنى: فأتبعهم فرعون جنودَه. فمبناه الغفول عن قوله تعالى: ﴿فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ﴾، ثمَّ إنَّ فيه إيهام عدم اتِّباع فرعون بنفسه.

﴿فَغَشِيَهُم﴾ الضَّمير له ولجنوده معاً.

﴿مِّنَ ٱلْيَمِّ مَا غَشِيَهُمْ﴾ الإبهام للتَّعظيم والمبالغةِ في التَّهويل مع الإيجاز؛ أي: ما[٣] لا يمكن وصفه ولا يَعلم كُنْهَهُ إلَّا الله تعالى.

وقرئ: (فَغَشَّاهم) من التَّغشية، وهي التَّغطية، والفاعل: (ما غَشَّاهم)[٤][٥].

***

(٧٩) ـ ﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ وَمَا هَدَىٰ﴾.

﴿وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُۥ﴾: عدلَ بهم عن سبيل الرَّشاد.

---

(١) انظر: «إصلاح المنطق» (ص: ١٨٥).

(٢) في هامش (س) و(ف) و(م): «وقد اعترف هذا القائل في سورة يونس عليه السلام أن معنى أتبعهم: أدركهم. منه». وفيه أيضا: «وأيضاً معنى الأصل لاتَّبع لا يناسب المقام، قال ابن السكيت: واتَّبعتهم إذا مروا بك فمضيت معهم، وتبعتهم تبعا. منه».

(٣) «ما»: ليست في (م).

(٤) في هامش (س) و(ف) و(م): «وقد اعترف هذا القائل في سورة يونس عليه السلام أن معنى أتبعهم: أدركهم. منه». وفيه أيضا: «وأيضاً معنى الأصل لاتَّبع لا يناسب المقام، قال ابن السكيت: واتَّبعتهم إذا مروا بك فمضيت معهم، وتبعتهم تبعا. منه».

(٥) في (ف) و(م) و(س): «غشيهم».

﴿وَمَا هَدَىٰ﴾؛ أي: ما هداهم إلى الحقِّ، وكان ردًّا لقوله: ﴿وَمَآ أَهۡدِيكُمۡ إِلَّا سَبِيلَ ٱلرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]، وليس هذا من باب التَّهكم.

* * *

(٨٠) - ﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ جَانِبَ ٱلطُّورِ ٱلۡأَيۡمَنَ وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾.

﴿يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ خطابٌ لهم بعد إنجائهم من البحر وإهلاك فرعون وقومه، على إضمار: (قلنا)، أو للذين كانوا في عهد رسول الله ﷺ امتناناً عليهم بما فُعِلَ بآبائهم.

﴿قَدۡ أَنجَيۡنَٰكُم مِّنۡ عَدُوِّكُمۡ﴾ فرعون ﴿وَوَٰعَدۡنَٰكُمۡ﴾ بإيتاء الكتاب ﴿جَانِبَ ٱلطُّورِ﴾ وذلك أنَّه تعالى وعد موسى عليه السلام أن يأتي هذا المكان ويختار سبعينَ رجلاً يحضرون معه لنزول التَّوراة، وإنما نَسب إليهم المواعدة لأنَّها كانت لنبيِّهم ونقبائهم، وإليهم رجعَتْ منافعُها التي قام بها شرعُهم ودينُهم.

﴿ٱلۡأَيۡمَنَ﴾ نصب لأنه صفة ﴿جَانِبَ﴾، وقرئ بالجرِّ[1]، لا على الجوار؛ لأنَّه شاذٌّ، بل على أنَّه نعت للطُّور؛ لِـمَا فيه من اليُمن.

﴿وَنَزَّلۡنَا عَلَيۡكُمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰ﴾ فيه، وقلنا لكم:

(٨١) - ﴿كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَلَا تَطۡغَوۡاْ فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيۡكُمۡ غَضَبِيۖ وَمَن يَحۡلِلۡ عَلَيۡهِ غَضَبِي فَقَدۡ هَوَىٰ﴾.

﴿كُلُواْ﴾ إذن لمطلَقِ التَّصرُّف، وتخصيص الأكل بالذِّكْرِ لشدَّة الحاجة إليه.

﴿مِن طَيِّبَٰتِ﴾ حلالات أو لذائذ.

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٧٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٥٦).

﴿مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ﴾؛ أي: في أكله بالتَّعدي إلى ما لا يحلُّ أكلُه، والإخلالِ بشكره، أو بالتَّلهي والإسراف والبَطَر والمنع عن[1] المستحِقِّ.

﴿فَيَحِلَّ﴾ بالكسر بمعنى الوجوب، مِنْ حَلَّ الدَّين: إذا وجب أداؤه، وبالضَّم[2] بمعنى النُّزول.

﴿عَلَيْكُمْ غَضَبِي﴾: عذابي وعقوبتي ولذلك وصف بالنزول صريحاً أو كناية.

﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ﴾: سقطَ سقوطاً لا نهوضَ بعدَه؛ أي: هلك، وأصله: أن يسقط من جبل أو نحوه فيَهْلِكَ[3].

وقيل: وقع في الهاوية.

* * *

(٨٢) - ﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾.

﴿وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَن تَابَ﴾ عن الكفر ﴿وَآمَنَ﴾ بما يجب التَّصديق به.

﴿وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ﴾ ﴿ثُمَّ﴾ مستعار للتَّراخي الرُّتْبي؛ لأنَّ المراد بالاهتداء: الاستقامة والثَّبات على الهدى المذكور من التَّوبة والإيمان والعمل الصالح.

* * *

(٨٣) - ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَن قَوْمِكَ يَا مُوسَىٰ﴾.

﴿وَمَا أَعْجَلَكَ﴾ العَجَلةُ: طلبُ الشَّيء وتحرِّيه قبلَ أوانه، وهي من مقتضى

---

(١) في (م): «من».

(٢) أي: (فيَحُلَّ) بضم الحاء، قرأ بها الكسائي، وباقي السبعة بالكسر. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٢).

(٣) في هامش (س) و(ف) و(م): «فيه إشارة إلى أن وجوب الغضب كناية عن نزول أثره. منه».

الشَّهوات، فلذلكَ صارَتْ مذمومةً في عامَّة القرآن، حتى قيل: إنَّ[١] العجلة من الشيطان[٢].

﴿عَن قَوۡمِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾؛ أي: أيُّ شيءٍ عجَّلك[٣] عنهم.

وذلك أنَّ موسى عليه السلام قد مضى مع النُّقباء إلى الطُّور على الموعد المضروب، فلمَّا دنا منه تقدَّمهم شوقاً إلى مكالمة ربِّه وتنجيز موعده؛ بناءً على اجتهاده، وظنِّه أنَّه أقرب إلى رضاء الله تعالى، فالقوم الذين[٤] عجَّل عنهم هم النُّقباء، والمفتونون هم الذين خلَّفهم مع هارون عليه السلام.

وهو سؤالٌ عن سبب العَجَلة عن قومه على سبيل الإنكار؛ لأنَّها رذيلة في نفسها مقتضيةٌ لإهمال القوم، وإيهامِ التَّعظُّم عليهم، فلذلك أجاب عن الأمرَيْن، وقدَّم جواب الأمر الثَّاني الذي هو إغفال القوم بما فيه بسطُ العذر وتمهيدُ العلَّة؛ لأنَّه أهمُّ.

هذا ما قالوا، وعندي: أن تعدية (أعجل) بـ (عن) لتضمين معنى الانقطاع والانفصال، كأنَّه قيل: ما الحامل على انفصالك عن[٥] قومك مستعجلاً؟

فكان أصل السُّؤال في المعنى عن الانفصال عن قومه، وإن كان في اللَّفظ عن العجلة، فقدَّم جوابه اعتباراً للمعنى، كما هو الأصل.

* * *

(٨٤) ـ ﴿قَالَ هُمۡ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي وَعَجِلۡتُ إِلَيۡكَ رَبِّ لِتَرۡضَىٰ﴾.

---

(١) «إن» سقط من (س).

(٢) في (م): «حتى قيل العجلة من عمل الشيطان».

(٣) في (ف): «أعجلك».

(٤) في (ف) و(ك): «الذي».

(٥) في (م): «من».

﴿ قَالَ هُمْ أُوْلَآءِ عَلَىٰٓ أَثَرِي ﴾؛ أي: على خلفي، ما تقدَّمتُهم إلَّا بخطًى يسيرة لا يُعتدُّ بها عادةً. وقرئ بالكسر وبالضَّم[1]، والأُثْر بالضَّم بمعنى الأثر غريب، وبمعنى فِرِند السيف مرويٌّ، وجاز أن يكون مجازاً عنه[2].

﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ فإنَّ المسارعة إلى امتثال الأمر تستوجب الرِّضا؛ يعني: إنَّ العجلة وإن كانت مذمومةً، فالذي دعاني إليها ـ وهو طلب الرِّضا منك ـ محمودٌ.

***

(٨٥) ـ ﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنۢ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ ﴾.

﴿ قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا ﴾: ابتلينا ﴿قَوْمَكَ﴾؛ يعني: بعبادة العجل.

﴿مِنۢ بَعْدِكَ ﴾: من بعد خروجك من بينهم، ففي زيادته[3] تعيينُ أنَّ المراد من هذا القومِ غيرُ المراد مِنَ الأوَّل، فالفاء[4] لترتيب مدخوله على مدلول ما تقدَّم من بيان زيادة حرصه عليه السلام على المناجاة، وكمالِ شوقه للمكالمة مع ربِّه، وما يلزمها من الغفلة عن حال قومه، فكأنَّه قال: لا تتوغَّل فيما كنْتَ فيه، ولا تغفل عمَّا وراءك، فإنَّا قد فتنَّاهم.

﴿وَأَضَلَّهُمُ ٱلسَّامِرِيُّ﴾ بدعائه إيَّاهم[5] إلى عبادة العجل بعد ذهاب موسى عليه السلام إلى الميقات، وقد مرَّ التَّفصيل في سورة الأعراف.

وهو منسوب إلى قبيلة من بني إسرائيل يقال لهم: السَّامرة، وقيل غيرُ ذلك.

---

(١) انظر القراءتين في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٨).

(٢) في (م): «منه».

(٣) في (ف) و(م): «زيادة».

(٤) في (ف): «والفاء».

(٥) في (ف) و(ك): «بدعائهم».

وقرئ: (أضلُّهم)[1]؛ أي: أشدُّهم ضلالاً؛ لأنه كان ضالًّا مضلًّا.

(٨٦) - ﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًاۚ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًاۚ أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾.

﴿فَرَجَعَ مُوسَىٰٓ﴾ بعدما استوفى الأربعين، وأخذ التَّوراة ﴿إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ﴾ عليهم ﴿أَسِفًاۚ﴾: حزيناً بما فعلوا.

﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا﴾: وعدهم الله تعالى أن يعطيَهم التَّوراة التي فيها هدًى ونور، ولا وعدَ أحسنُ من ذلك.

﴿أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ﴾؛ أي: تأخَّر الموعود فطال عليكم الزَّمان؛ يعني: زمانَ مفارقته لهم.

﴿أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ﴾: يجبَ عليكم ﴿غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾؛ أي: أردتُم أن تفعلوا فعلاً يستوجب الغضب.

﴿فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى﴾ وَعدوه أنْ يقيموا على أمرِه وما تركهم عليه من الثَّبات على الإيمان، فأخلفوا موعدَه باتِّخاذ العجل.

* * *

(٨٧) - ﴿قَالُوا۟ مَآ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَآ أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ ٱلْقَوْمِ فَقَذَفْنَٰهَا فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى ٱلسَّامِرِىُّ﴾.

﴿**قالوا ما أخلفنا موعدك بمِلْكنا**﴾: بأنْ مَلَكْنا أمرَنا؛ أي: لو مَلَكْنا[2] أمرنا وخُلِّينا وراءنا لَمَا أَخْلَفناه، ولكن غُلِبنا من جهة السَّامري وكيده.

وقرئ: ﴿مَلكنا﴾ بالفتح وبالضَّم[3]، والكلُّ في الأصل لغاتٌ مِنْ مَلَكْت الشَّيء.

---

(١) حكاه أبو معاذ. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

(٢) زاد في (ف) و(ك): «على». والمثبت من (س) و(م)، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٣/ ٨٢).

(٣) قرأ نافع وعاصم بفتح الميم، وحمزة والكسائي بضمِّها، والباقون بكسرها. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٣).

﴿وَلَٰكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِّن زِينَةِ الْقَوْمِ﴾ أثقالاً من حُليِّ القبط، أو[1] أراد بالأوزار أنَّها آثام وتَبِعات؛ لأنَّهم قد استعاروها ليلةَ الخروج من مصر لعلَّة[2] أنَّ لنا عيداً غداً، فقال السَّامريُّ: إنَّما حُبِسَ عليه السلام لشؤم حرمتها؛ لأنهم كانوا معهم في حكم المستأمنين في دار الحرب، على أنَّ الغنائم لم تكن تحلُّ حيئنذ، فأحرقوها، فخبَّأ السَّامريُّ في صفرة النَّار قالَبَ عجلٍ، فانصاغت عجلاً.

﴿فَقَذَفْنَاهَا﴾ في نار السَّامريِّ الذي أوقدها في الحفرة وأمرهم أن يطرحوا فيها الحليَّ.

﴿فَكَذَٰلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ﴾؛ أي: ما معه من الحليِّ في النَّار، أو ما معه من التُّراب الذي أخذه من أثر حافر فرس جبريل عليه السلام، ويعضد هذا العدول عن القذف المعتَبرِ في مفهومه[3] صلابةُ المرميِّ والبعدُ، والكاف تتعلَّق بـ ﴿أَلْقَى﴾؛ أي: مثلَ ما قذفناها ألقى السَّامريُّ، فهو صفة مصدرٍ محذوفٍ، تقديره: ألقى إلقاءً مثلَ إلقائنا.

***

(٨٨) ـ ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَٰذَا إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾.

﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ﴾ السَّامريُّ من الحفرة ﴿عِجْلًا﴾ خلقَه اللهُ تعالى من الحليِّ التي سَبكَتْها النَّار ابتلاءً.

لا يُقال: لِمَ خلقَ اللهُ تعالى العجلَ من الحليِّ حتَّى صارَ فتنةً لبني إسرائيل

---

(١) في (ك): «و».

(٢) في (ف): «بعلة».

(٣) في (ف): «مفهوم».

وضلالاً؛ لأنَّ اللهَ تعالى تعبَّدنا بالبحث عن علل أحكامه، لا عن علل أفعاله، وحتَّمَ[١] ذلك بقوله: ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

﴿جَسَدًا﴾ بدل من ﴿عِجْلًا﴾ للتَّنبيه[٢] على أنَّه لم يكن ذا روح، ولذلك وصفه بقوله:

﴿لَّهُۥ خُوَارٌ﴾: صوت العجل، فإنَّه لو كان ذا روح لكان الخوار من شأنه، فلا يُجدي توصيفه به، كما لا يجدي توصيفُ الإنسان بالضَّاحك.

﴿فَقَالُواْ﴾؛ أي: السَّامريُّ ومَن تابعه وافتُتن به أوَّلَ مرَّة.

﴿هَٰذَآ إِلَٰهُكُمْ وَإِلَٰهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ﴾؛ أي: فنسيَه موسى هنا، وذهب يطلبه عند الطُّور، أو فنسي السَّامريُّ؛ أي: ترك ما كان عليه من الإيمان الظَّاهر.

* * *

(٨٩) ـ ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾.

﴿أَفَلَا يَرَوْنَ﴾: أفلا يعلمون ﴿أَلَّا يَرْجِعُ﴾؛ أي: أنه لا يرجع ﴿إِلَيْهِمْ قَوْلًا﴾ فـ ﴿أَن﴾ مخفَّفة من الثَّقيلة، وقرئ بالنَّصب[٣] على أنَّها النَّاصبة للفعل، وفعل الرُّؤية حينئذ من رؤية البصر على المبالغة في ظهور ما ذكر بتنزيله منزلةَ البصر.

﴿وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾؛ أي: لا يقدر على إضرارهم ولا على إنفاعهم.

* * *

---

(١) في (ك) و(م) و(ف): «وضم»، والمثبت من (س)، وانظر: «حاشية الطيبي على الكشاف» (١٠/ ٢٢٧).

(٢) «للتنبيه» من (م) و(س).

(٣) نسبت لأبي حيوة. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

(٩٠) - ﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَٰرُونُ مِن قَبْلُ﴾: مِن قبلِ رجوعِ موسى عليه السلام.

وقيل: مِن قبلِ قولِ السَّامريِّ؛ كأنَّهم أوَّلَ ما وقعَتْ عليه أبصارهم حين طلع من الحفرة افتُتنوا به، فبادرهم هارون بالتَّحذير قبلَ أنْ ينطقَ السَّامريُّ، فقال: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ﴾ بالعجل ﴿وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ لا غير ﴿فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى﴾ في الثَّبات على الدِّين الحقِّ.

* * *

(٩١) - ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾.

ويأباه: ﴿قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ﴾: على العجل وعبادته ﴿عَٰكِفِينَ﴾: مقيمين ﴿حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾؛ فإنَّ الظَّاهر من هذا الجواب أن يكون المراد: من قبل رجوعه عليه السلام.

* * *

(٩٢) - ﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾.

﴿قَالَ يَٰهَٰرُونُ﴾؛ أي: قال له موسى عليه السلام لَمَّا رجَعَ.

﴿مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟﴾ بعبادة العجل.

* * *

(٩٣) - ﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾.

﴿أَلَّا تَتَّبِعَنِ﴾: أن تتبعني[1] في الغضب لله، وشدَّة الزَّجر عن الكفر والمعاصي،

---

(١) في (م): «أي: تتبعن»، وفي (ك): «أي: تتبعني». والمثبت موافق لما في «الكشاف» (٣/ ٨٣)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٧)، والمراد أن (لا) مزيدة كما صرح الزمخشري، وسيأتي.

والمقاتلة[١] مع مَن كفرَ بمَن آمنَ، أو أن[٢] تلحقَ بي مع مَن أطاعَك.

و(لا) مزيدة، كما في قوله: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ﴾ [الأعراف: ١٢].

ويجوز أن يكون المعنى[٣]: ما صرفك إلى أن لا تتبعن؟ أي: دعاك إليه.

﴿أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى﴾ بالصَّلابة في الدِّين والمحاماة عليه[٤].

ثم أخذ بشعر[٥] رأسه بيمينه ولحيته بشماله؛ غضباً وإنكاراً عليه؛ لأنَّ الغَيرة في الله تعالى ملكَتْه.

* * *

(٩٤) ـ ﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي﴾.

﴿قَالَ يَبْنَؤُمَّ﴾ كان أخاه لأبيه وأمِّه عند الجمهور، ولكنه ذكرَ الأمَّ استعطاماً وترقيقاً.

﴿لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِيٓ﴾؛ أي: بشَعرهما.

ثمَّ ذكَرَ عُذْرَه، ولَمَّا كان النَّهي المذكور متضمِّناً لدعوى عدم العصيان والاستحقاق بموجبه، أوردَ العذر في صورة التَّعليل فقال:

---

(١) في (فس) و(ف) و(م): «والمقابلة». والمثبت من (س)، وهو الموافق لما في المصدرين السابقين.

(٢) في (ك) و(م): «وأن». وفي «الكشاف»: (وما لك لم تلحقني؟).

(٣) «المعنى» زيادة من (س).

(٤) في (م) زيادة: «عامة».

(٥) في (م): «شعر».

﴿إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾ لـو قاتلْـتُ أو فارقْـتُ[1] بعضَهـم ببعض.

﴿وَلَمْ تَرْقُبْ﴾: ولم تحفظ ﴿قَوْلِي﴾: ﴿ٱخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ﴾ [الأعراف: ١٤٢]؛ لأنَّ الإصلاح كان في حفظ الدَّهماء والمداراة بهم إلى أن ترجع إليهم فتَدارَكَ[2] الأمرَ برأيك.

* * *

(٩٥) - ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾.

ثم أقبل على السَّامريِّ و﴿قَالَ﴾ له منكراً عليه: ﴿فَمَا خَطْبُكَ يَٰسَٰمِرِيُّ﴾[3]: سؤالَ القصَّة، فلذلك أجابَ ببيانها، ولو كان السُّؤال عن مطلوبه[4] لَمَا انتظم الجواب.

والفاء لترتيب مدخوله على مدلول ما تقدَّم من ظهور أنَّ غرض هارون عليه السلام ممَّا فعله كان إصلاحاً، فكأنَّه قال: عُلِمَ خَطْبُ هذا، فمَا خَطْبُكَ؟

* * *

(٩٦) - ﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي﴾.

---

(١) في (ك): «فرقت»، والمثبت من باقي النسخ و«البيضاوي».

(٢) في (م): «فتدرك»، وفي (س) و(ف): «فتدورك»، والمثبت من (ك) والبيضاوي، وهو مضارع منصوب حذفت إحدى تاءيه، وأصله: (فتتدارك). انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٢٢).

(٣) «يا سامري»: في (م) جاءت قبل قوله: «قال بصرت بما لم».

(٤) أي: مطلوب السامري؛ أي: ما طلبُك له؟ كما قدره الزمخشري، وكذا البيضاوي وزاد: وما الذي حَمَلك عليه؟ وكلام المؤلف رد عليهما. انظر: «الكشاف» (٣/ ٨٤)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٧)، والمراد أن (لا) مزيدة كما صرح الزمخشري، وسيأتي.

﴿قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُواْ بِهِۦ﴾ قرئ بالتَّاء على الخطاب[١]؛ أي: علمتُ ما لم يعلموه، وهو أنَّ الرَّسول الذي جاءك روحاني محضٌ، لا يَمَسُّ أثرُه شيئاً إلَّا أحياه.

أو: رأيْتُ ما لم يروه، وهو أنَّ جبريل عليه السلام جاءَكَ على فرسِ الحياة.

قيل: إنَّما عرفَه لأنَّ أمَّه ألقته حين ولدته خوفاً من فرعون، وكان جبريل عليه السلام يَغْذوه حتى يستقلَّ، وكان يرى منه ذلك.

﴿فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ ٱلرَّسُولِ﴾: من تربة موطئه، وقرأ ابن مسعود رضي الله عنه: (من أثرِ فرسِ الرَّسولِ)[٢]، ولعله سمَّاه الرَّسولَ[٣] لأنَّه لم يعرف أنَّه جبريل، أو أرادَ أنْ ينبِّه على الوقت، وهو حين أرسل إليه ليذهب به إلى الطُّور.

والقَبضةُ: المرَّة من القبض، وأُطْلِقَ على المقبوض، وقرئ: (قُبضةً) بالضَّم[٤]، وهي اسم المقبوض. وقرئ: (قبصة) بالصَّاد المهملة[٥].

والأول: الأخذ بجميع الكف، والثاني: الأخذ بأطراف الأصابع.

﴿فَنَبَذْتُهَا﴾ في الحليِّ المذابة، أو في جوف العجل، فظهر فيه أثر الحياة.

والنَّبْذُ: طرحُ الشَّيء عن اليد خاصَّة.

---

(١) أي: ﴿تَبْصُروا﴾. قرأ بها حمزة والكسائي. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٣).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

(٣) «ولعله سماه الرسول» زيادة من (م) و(س).

(٤) نسبت للحسن. انظر: «الكشاف» (٣/ ٨٤).

(٥) (قُبصة) بالضم، نسبت للحسن وقتادة ونصر بن عاصم، و(قَبصة) نسبت للحسن أيضاً وجماعة. ومن قرأها بالصاد قرأ ما قبلها كذلك؛ أي: (فقبصت). انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩)، و«الكشاف» (٣/ ٨٤).

﴿وَكَذَٰلِكَ سَوَّلَتۡ﴾: زيَّنَتْ ﴿لِي نَفۡسِي﴾ أن أفعله ففعلتُه اتِّباعاً لهوايَ، وهو اعتراف منه بالخطأ.

* * *

(٩٧) ـ ﴿قَالَ فَٱذۡهَبۡ فَإِنَّ لَكَ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ أَن تَقُولَ لَا مِسَاسَۖ وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا لَّن تُخۡلَفَهُۥۖ وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ عَلَيۡهِ عَاكِفٗاۖ لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾.

﴿قَالَ﴾ له موسى: ﴿فَٱذۡهَبۡ﴾ من بيننا طريداً ﴿فَإِنَّ لَكَ﴾ عقوبةً على فعلك ﴿فِي ٱلۡحَيَوٰةِ﴾ ما عشت ﴿أَن تَقُولَ﴾ لمن أراد مخالطتك جاهلاً بحالك: ﴿لَا مِسَاسَ﴾؛ أي: لا يمسُّني أحدٌ ولا أمسُّه.

وذلك أنَّه مُنِعَ من مخالطة النَّاس منعاً كليًّا، وحُرِّمَ عليهم ملاقاته ومكالمته وكلُّ ما يعاوِن به النَّاسُ بعضَهم بعضاً، وإذا ماسَّ أحداً حُمَّ الماسُّ والممسوسُ، فتحامَى النَّاسَ وتحامَوه، وكان يصيح: لا مِساس، وعاد في النَّاس أوحشَ من الوحش النَّافر.

وقرئ: (لا مَسَاسِ) كفَجار[١]، وهو علمٌ للْمَسَّةِ.

﴿وَإِنَّ لَكَ مَوۡعِدٗا﴾ في الآخرة ﴿لَّن تُخۡلَفَهُۥ﴾: لن يخلِف الله موعده، ينجزه لك في الآخرة بعدَما عاقبك بذلك في الدُّنيا.

وقرئ: ﴿لن تُخلِفَه﴾ بكسر اللَّام[٢]، من أخلفْتُ الموعدَ: إذا وجدْتَه خُلْفاً.

وقرئ بالنُّون[٣] على حكاية قول الله تعالى.

﴿وَٱنظُرۡ إِلَىٰٓ إِلَٰهِكَ ٱلَّذِي ظَلۡتَ﴾ أصله: ظَلِلْتَ، فحذفت اللَّام الأولى تخفيفاً.

---

(١) انظر: «المحتسب» (٢/ ٥٦)، و«الكشاف» (٣/ ٨٤)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٦١).

(٢) قرأ ابن كثير وابو عمرو: ﴿لَّن تُخۡلَفَهُۥ﴾ بكسر اللام، والباقون بفتحها. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٣).

(٣) نسبت للحسن. انظر: «المحتسب» (٢/ ٥٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٦٢).

﴿عَلَيۡهِ﴾؛ أي: على عبادته ﴿عَاكِفٗاۖ﴾: مقيماً.

﴿لَّنُحَرِّقَنَّهُۥ﴾ بالنَّار، دل عليه قراءة: ﴿لَّنُحۡرِقَنَّهُۥ﴾ من الإحراق[1]، وقرئ بالتَّخفيف[2]؛ أي: لنَبْرُدنَّه بالـمِبرد، وهو طريق حريقه بالنَّار، فإنَّها لا تعمل في الذَّهب بالتَّفريق إلَّا بهذا الطَّريق.

﴿ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُۥ﴾: لنُذرِّيَنَّه رماداً، من نسفَ الطَّعام: إذا ذرَّاه[3] لتطير منه قشوره.

﴿فِي ٱلۡيَمِّ نَسۡفًا﴾ فلا يُصادَفُ منه شيءٌ. والمقصودُ: إظهار غباوة[4] المفتونين به.

* * *

(٩٨) - ﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾.

﴿إِنَّمَآ إِلَٰهُكُمُ﴾ المستحِقُّ لعبادتكم.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ﴾ إذ لا أحدَ يماثله أو يدانيه في خواصِّ الألوهيَّة.

﴿وَسِعَ كُلَّ شَيۡءٍ عِلۡمٗا﴾ وسعَ علمُه كلَّ ما من شأنه أن يُعلَم.

وقرئ بالتَّشديد[5]، فصار ﴿عِلۡمٗا﴾ أحدَ مفعوليه، وذلك أن ﴿وَسِعَ﴾ يتعدَّى إلى مفعولٍ واحدٍ، وهو ﴿كُلَّ شَيۡءٍ﴾، و﴿عِلۡمٗا﴾ نصب على التَّمييز، فهو في المعنى فاعل، فلمَّا ثُقِّلَ نقل إلى التَّعدية إليه، فصار ما كان فاعلاً مفعولاً.

---

(١) وهي قراءة أبي جعفر. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٢).

(٢) أي: (لَنَحْرُقَنَّه) بفتح النون وضم الراء. وهي رواية عن أبي جعفر. انظر: «تفسير الطبري» (١٦/ ١٥٥)، و«النشر» (٢/ ٣٢٢).

(٣) في (م): «أذراه».

(٤) في (م): «عبادة».

(٥) أي: (وسَّع) بفتح السين مشددة، نسبت لمجاهد. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

(٩٩) ـ ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مثلَ ذلك الاقتصاصِ العجيب؛ أي: اقتصاصِ قصَّة موسى وفرعونَ والسَّامريِّ، والكافُ في محل النَّصب على المصدر.

﴿نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ مَا قَدْ سَبَقَ ۚ﴾: من الأمم السَّالفة وأحوالهم.

والنَّبأُ: الخبر العجيب الشَّأن، تكثيراً للمعجزات، وتذكيراً للمستبصِرين.

﴿وَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ مِن لَّدُنَّا ذِكْرًا﴾: كتاباً مشتملاً على هذه القصص والأخبار، حقيقاً بالتَّفكُّر والاعتبار، والتَّنكير فيه للتَّعظيم، وتقديم ﴿مِن لَّدُنَّا﴾ للتَّخصيص؛ أي: ذكراً لا يمكن أنْ يُؤتَى إلَّا من عندنا، وهو مقوٍّ[1] للتَّعظيم.

وقيل: ذكراً جميلاً وصِيتاً جليلاً من بين النَّاس، ولا يساعدُه قولُه:

* * *

(١٠٠) ـ ﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾.

﴿مَّنْ أَعْرَضَ عَنْهُ﴾ عن هذا الذِّكْرِ، الذي هو القرآن الجامع لوجوه السَّعادة.

﴿فَإِنَّهُۥ يَحْمِلُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وِزْرًا﴾: عقوبة ثقيلة، شبَّه العقوبة الثَّقيلة على المعاقَب بالحمل الفادح[2] للحامل؛ لصعوبة احتمالها، وكونها تَنقُض ظهره، أو سمِّيَ جزاءُ الوزر ـ وهو الإثم ـ وزراً.

* * *

(١٠١) ـ ﴿خَٰلِدِينَ فِيهِ ۖ وَسَآءَ لَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ حِمْلًا﴾.

---

(١) في (س): «معد».

(٢) في (ف) و(م) و(س): «القادح».

﴿خَالِدِينَ﴾ حال من الضَّمير في ﴿يَحْمِلُ﴾، وإنَّما جُمِعَ حَملاً على المعنى، ووُحِّد في ﴿فَإِنَّهُ﴾ حَملاً على لفظ ﴿مَنْ﴾.

﴿فِيهِ﴾ في الوزر، أو في حمله.

﴿وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا﴾ ﴿سَاءَ﴾ في حكم (بئس)، وفيه ضمير مُبْهَم يفسِّره ﴿حِمْلًا﴾، وهو تمييز، واللَّام في ﴿لَهُمْ﴾ للبيان، كما في ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف: ٢٣]، والمخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ لدلالة الوزر السَّابق عليه، تقديره: وساء حملاً وزرُهم.

***

(١٠٢) - ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾.

﴿يَوْمَ يُنْفَخُ﴾ قرئ بالنُّون[1] على إسناد النفخ إلى الآمر تعظيماً له، أو للنَّافخ، وقرئ بالياء المفتوحة[2] على أنَّ فيه ضميرَ الله تعالى، أو ضميرَ إسرافيل عليه السلام وإنْ لم يجرِ ذكرُه؛ لأنَّه المشهور بذلك.

﴿فِي الصُّورِ﴾ وقرئ: (في الصُّوَر)[3]، وقد سبقَ بيانُ ذلك[4].

﴿وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا﴾؛ أي: عُمياً، كما قال: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وهذا لأن حدقة مَن يذهب نورُ بصره تزرَقُّ.

وقيل: ازرقَّتْ عيونهم من شدَّة العطش.

---

(١) أي: ﴿نَنْفخ﴾ وهي قراءة أبي عمرو، وباقي السبعة بالياء المضمومة. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٣).

(٢) انظر: «الكشاف» (٣/ ٨٧)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٦٣)، و«البحر المحيط» (١٥/ ١٣٧).

(٣) نسبت للحسن. انظر: «المحتسب» (٢/ ٥٩)، و«المحرر الوجيز» (٤/ ٦٣)، و«البحر المحيط» (١٥/ ١٣٧).

(٤) لم أجده فيما تقدم.

وقيل: أي: تُشوَّه خلقتهم[١] فتسودُّ وجوهُهم وتزرقُّ عيونُهم.

***

(١٠٣) ـ ﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا عَشۡرٗا﴾.

﴿يَتَخَٰفَتُونَ بَيۡنَهُمۡ﴾: يخفضون أصواتهم لِمَا يملأ صدورهم من الرُّعب والهول، والخفْتُ: خفضُ الصَّوت وإخفاؤه.

﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ﴾؛ أي: في الدُّنيا ﴿إِلَّا عَشۡرٗا﴾ لا حاجةَ إلى التَّأويل في ﴿عَشۡرٗا﴾؛ لما نُقِلَ عن أئمَّة النَّحو أنَّه إذا كان المعدود مذكَّراً وحذفْتَه فلك فيه وجهان.

يستقصرون مدَّة لبثهم فيها: إمَّا لتقضِّيها؛ لأنَّ المتقضِّيَ[٢] وإنْ طالَ قَصُرَ بالانتهاء، وإمَّا لاستطالتهم مدَّة الآخرة، فإنَّ الأبد السَّرمد تُستقصَر مدَّة الدُّنيا ويُستحقر لبث أهلها فيها بالنسبة إليه، ولهذا استرَجَحَ [الله] قول مَن هو أشدُّ تقالًّا[٣] واستحقاراً منهم[٤].

وقيل: في القبر؛ لقوله: ﴿وَيَوۡمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقۡسِمُ ٱلۡمُجۡرِمُونَ﴾ الآية [الروم: ٥٥].

***

(١٠٤) ـ ﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ طَرِيقَةً إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾.

﴿نَّحۡنُ أَعۡلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾ وهو مُدَّة لبثهم.

﴿إِذۡ يَقُولُ أَمۡثَلُهُمۡ﴾: أفضلهم ﴿طَرِيقَةً﴾: سيرة، أو: أسدهم رأياً.

﴿إِن لَّبِثۡتُمۡ إِلَّا يَوۡمٗا﴾ وجهُ رجحانه: أنَّه أبلغ في الطَّريقة المذكورة آنفاً.

---

(١) في (ف): «خلقهم».

(٢) في (ف) و(م): «المقتضى»، وفي (س): «المنقضي».

(٣) في (م): «تقاولاً»، وكذا تصحفت في مطبوع «الكشاف» (٣/ ٨٧).

(٤) في (س): «منهم».

(١٠٥) ـ ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾.

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْجِبَالِ ﴾؛ أي: عن مآل أمرِها، وقد سأل عنه رجلٌ من ثقيف بعد النُّزول[1].

﴿فَقُلْ﴾ ذكر هنا الفاء في الجواب، ولم يذكر في سائر السُّؤالات: ﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، و﴿عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ﴾ [البقرة: ٢٢٠]، و﴿عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ [البقرة: ٢١٩]، و﴿عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا﴾ [الأعراف: ١٨٧]، و﴿عَنِ ٱلرُّوحِ قُلِ ٱلرُّوحُ﴾ [الإسراء: ٨٥]، و﴿عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُوا۟﴾ [الكهف: ٨٣]؛ لأنَّ الجواب فيها عن السُّؤالات الواقعة قبل النُّزول، وهنا عن سؤالٍ علمَ اللهُ تعالى وقوعَه وأخبر عنه ولم يقع بعدُ، ولذلك أجاب بالفاء الفصيحة، فكان المعنى: إذا سألوك فقل.

﴿يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفًا ﴾ قال الخليل: يقلعها[2].

* * *

(١٠٦) ـ ﴿ فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا ﴾.

﴿ فَيَذَرُهَا﴾: فيتركها، والضَّمير للأرض للعِلْم بها، كقوله: ﴿مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا﴾ [فاطر: ٤٥]، ولو كان المعنى كما قالوا: يجعلها كالرَّمل ثم يرسل الرِّياح عليها فتفرِّقها وتذريها كما تذري الحبَّ؛ لكانَ حقُّ ﴿ فَيَذَرُهَا﴾ أن يصدَّر بالواو الفصيحة.

---

(١) كذا ذكر، والمروي في هذا أن السؤال مان سببا للنزول لا بعد النزول. انظر: «التفسير الوسيط» للواحدي (٣٤/ ٢٢١)، و«تفسير البغوي» (٥/ ٢٩٤).

(٢) انظر: «تفسير النسفي» (٢/ ٣٨٣)، وكذا فسرها الفراء في «معاني القرآن» (٢/ ١٩١)، وغلام ثعلب في «ياقوتة الصراط» (ص: ٣٥٠) وغيرهم.

﴿قَاعًا صَفْصَفًا﴾ القَاعُ: الأرضُ المستوية[1]، والصَّفصفُ: الأرضُ الملساء.

***

(١٠٧) ـ ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا وَلَآ أَمْتًا﴾.

فقوله: ﴿لَّا تَرَىٰ فِيهَا عِوَجًا﴾ مؤكِّد للأوَّل، وقوله: ﴿وَلَآ أَمْتًا﴾ مؤكِّد للثَّاني؛ فإنَّ الأَمْتَ: النُّتوءُ اليسير.

ولا اختصاص للعِوج ـ بالكَسْر ـ بالمعاني؛ قال ابن السِّكِّيت[2]: وكل ما ينتصب كالحائط والعود قيل: عَوَج بالفتح، والعِوَج بالكسر: ما كان في أرضٍ أو دِيْنٍ أو مَعاش[3].

***

(١٠٨) ـ ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ لَا عِوَجَ لَهُۥ ۖ وَخَشَعَتِ ٱلْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ﴾ ظرف لـ ﴿يَتَّبِعُونَ﴾ مضاف إلى وقت النَّسْفِ؛ أي: يوم إذ نُسِفَتْ، أو بدل ثانٍ من يوم القيامة.

﴿يَتَّبِعُونَ ٱلدَّاعِىَ﴾: داعي الله تعالى إلى المحشر.

وقيل: هو إسرافيل عليه السلام يدعو النَّاس قائماً على صخرةِ بيت المقدس، فيُقْبِلُون مِن كُلِّ أَوْبٍ إلى صوته.

﴿لَا عِوَجَ لَهُۥ﴾ في مَدعوِّه؛ أي: لا يَعوجُّ له مدعوٌّ ولا يَعدل عنه، بل يستوون إليه من غير انحرافٍ عن سَمْتِ صوته.

---

(١) في النسخ: «المستوي» والصواب المثبت. وجاء في هامش (س): «من زعم أن القاع هنا بمعنى الخالي لم يصب، منه».

(٢) في هامش (ف): «في اصطلاح المنطق وبه أخذ الجوهري. منه».

(٣) انظر: «إصلاح المنطق» لابن السكيت (ص: ١٢٥).

﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ﴾ هيبةً وإجلالاً، والخشوع كالخضوع من صفات النَّفس، إلَّا أنَّ مُظْهِرَ الأوَّل منهما الصَّوت، ومُظْهِرَ الثَّاني العُنُق، فيُسنَد كلٌّ منهما إلى مُظْهِره[1].

﴿فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾: صوتا خفيًّا، وقيل: هو مِن هَمْسِ الإبل، وهو صوت أخفافها إذا مشت؛ أي: لا تسمع إلَّا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر.

* * *

(١٠٩) ـ ﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾.

﴿يَوْمَئِذٍ لَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ﴾ ﴿مَنْ﴾ مرفوع المحلِّ بدل من ﴿الشَّفَاعَةُ﴾، على تقدير حذف المضاف؛ أي: لا تنفع الشَّفاعة إلَّا شفاعةُ مَن أذِنَ له الرَّحمن. و﴿تَنفَعُ﴾ على هذا من جملة الأفعال التي جُعِلَ مفاعيلها نسياً منسيًّا، وأجريت مجرى الفعل اللَّازم للمبالغة في التَّعميم، كقولهم: فلان يعطي ويمنع.

أو منصوب المحلِّ على المفعوليَّة، والاستثناء مفرَّغ ومعنى ﴿أَذِنَ لَهُ﴾ على هذا: أذِنَ لأجله؛ أي: أذن للشَّافع[2]، و﴿أَذِنَ﴾ يحتمل أن يكون من الإِذْنِ، ومن الأَذَنِ بفتح الهمزة[3].

﴿وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا﴾؛ أي: ورضي لمكانه عند الله في الشَّفاعة، أو رضي لأجله قولَ الشَّافع في شأنه، أو قوله لأجله وفي شأنه[4].

---

(١) في هامش (س): «يأتي وجه ذلك الإسناد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ﴾ [الشعراء: ٤]».

(٢) في (ك): «للشافعين».

(٣) وفتح الدال بمعنى الاستماع، والمراد به القبول كما في: سمع الله لمن حمده، واللام تعليلية؛ أي: إلا من استمع الرحمن لأجله كلام الشافعين. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٢٧).

(٤) انظر: «تفسير البيضاوي» (٤/ ٣٩). وجاء في هامش (ف) و(س): «هذا ما ذكره الكواشي بقوله: =

(١١٠) ـ ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾.

﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾: ما تقدَّمهم من الأحوال ﴿وَمَا خَلْفَهُمْ﴾: وما يستقبلونه، أو على العكس.

﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا﴾ الضَّمير لأَحَدِ الموصولَيْن، أو لمجموعهما.

* * *

(١١١) ـ ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾.

﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَىِّ ٱلْقَيُّومِ﴾: ذلَّتْ وخضعَتْ. وخصَّ الوجوه لأنَّ آثار الذُّلِّ إنَّما تظهر أوَّلاً فيها.

وظاهرها يقتضي العموم، ويجوز أن يكون التَّعريف باللَّام بدلاً عن التَّعريف بالإضافة، على أنَّ المُرَادَ: وجوه المجرمين، ويؤيِّدُه: ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ يحتمل الحال، والاستئناف لبيان ما لأجله عَنَتْ وجوهُهم، والاعتراضَ ولا يأباه كونه في مقابَلة قوله: ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾؛ لأنَّ التَّقابل المعنوي كافٍ، فإن الاعتراضَ كالاستئناف لا يتقاعد عن الحال.

* * *

(١١٢) ـ ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾.

﴿وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾: بعضَ الطَّاعات ﴿وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ إذِ الإيمانُ شرطُ قَبولها.

﴿فَلَا يَخَافُ﴾، وقرئ: ﴿فلا يَخَفْ﴾ على النَّهي[١].

= ﴿وَرَضِىَ لَهُۥ﴾؛ أي: للمشفوع فيه ﴿قَوْلًا﴾ بأن قال: لا إله إلا الله. منه».

(١) قرأ به ابن كثير. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٣).

﴿ظُلْمًا﴾: مَنْعَ ثوابٍ يُستَحَقُّ بالوعد، والظلم أن يؤخَذ من صاحبه فوقَ حدِّه.

﴿وَلَا هَضْمًا﴾: ولا كسراً منه بنقصانٍ.

أو: جزاءَ ظلم. وهَضْمٍ؛ لأنَّه لم يظلم غيرَه ولم يَهضم حقَّه.

* * *

(١١٣) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَانًا﴾ عطف على ﴿كَذَٰلِكَ نَقُصُّ﴾؛ أي: مثلَ ذلك الإنزال من أنباء الأوَّلين، أو مثل إنزال هذه الآيات المتضمِّنة للوعيد إنزالاً عظيماً أنزلنا القرآن كلَّه.

﴿عَرَبِيًّا﴾: بلسان العرب.

﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾: كرَّرنا القولَ فيه من أنواع الوعيد صارفينَ له من نوعٍ إلى آخر.

﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ لكي يتَّقوا المعاصي، فتصيرَ التَّقوى لهم مَلَكَةً.

﴿أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا﴾ عِظَةً واعتباراً، أسندَ التَّقوى إليهم، وإحداثَ التَّذكُّر والاتِّعاظ إلى القرآن مع كلمة التَّرجي بعد ذكر تصريف الوعيد في القرآن؛ لأنَّ التِّكرار يفيد مَلَكة التَّقوى لهم غالباً، فيكونون في صورة المرجوِّ المترجِّح فيه عادة التَّقوى، وإلَّا فلا أقلَّ من إحداث العِظة فيهم حينَ سماعه فيتثبَّطون عنها[1].

* * *

(١) أي: عن المعاصي. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٢٩).

(١١٤) ـ ﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾.

﴿فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ﴾: ارتفعَ عن فنون الظُّنون وأوهام الأفهام، وتنزَّه عن مضاهاة الأنام ومشابهة الأجسام، فلا يُماثِلُ كلامُه كلامَهم، كما لا تماثلُ ذاتُه ذواتِهم؛ استعظامٌ له تعالى ولِـمَا نزَّل وصرَّف على عباده من الوعيد(١).

﴿ٱلْمَلِكُ﴾: النَّافذ أمرُه ونهيُه، الحقيقُ بأن يُترجَّى وعدُه ويُخشى وعيدُه.

﴿ٱلْحَقُّ﴾: العدلُ في حكمِه وملكوته، أو المستحِقُّ للملك بذاته، أو الثَّابت(٢) في ذاته وصفاته.

ولَمَّا ذَكَرَ القرآنَ وإنزالَه قال استطراداً:

﴿وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ﴾ نهيٌ عن الاستعجال في تلقِّي الوحي؛ أي: تأنَّ فيه ريثما يُسمعُكَ جبريلُ عليه السلام ويُفْهِمُكَ، ثم ابدأ بالتَّحفُّظ؛ لقوله: ﴿لَا تُحَرِّكْ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِۦٓ﴾ [القيامة: ١٦].

وقيل: لا تبلِّغ ما كان مجمَلاً حتى يأتيك بيانُه.

﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾: واسأل الله تعالى زيادةَ العلم بدلَ الاستعجال، فإنَّ ما أُوْحِيَ إليك تنالُه لا محالةَ.

* * *

(١١٥) ـ ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾.

﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ﴾ يقال: عزمَ عليه وعهدَ إليه: إذا أمرَه وأوحى إليه، عطفَ

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ٩٠).

(٢) في (ف) و(ك): «والمستحق... والثابت».

قصَّة آدم عليه السلام على قوله: ﴿وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ﴾؛ للدِّلالة على أنَّ أساس أمر بني آدم على العصيان، وعِرْقُهم راسخٌ في[1] النِّسيانِ، فلهم مزيدُ حاجة إلى تكرار الوعيد وصرفه، واللَّام جوابُ قسمٍ محذوفٍ.

﴿مِن قَبْلُ﴾: من قبلِ هذا الزَّمان.

﴿فَنَسِيَ﴾ العهدَ، ولم يفِ به، حتى غفل عنه واغترَّ بقول الشَّيطان، أو: تركَ ما وصَّى به إليه من الاحتراز عن الشَّجرة.

وقرئ: (فَنُسِّيَ) مشدداً مبنياً للمفعول[2]؛ أي: نسَّاه الشَّيطان.

﴿وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾: تصميمَ[3] رأيٍ وثباتاً على ما عُهِدَ إليه؛ إذ لو كان ذا عزيمةٍ وجِدٍّ لم يقبل وسوسةَ الشَّيطان ولم يغترَّ بقوله، والوجود إن كان بمعنى العلم فمفعولاه ﴿لَهُۥ عَزْمًا﴾، وإن كان بمعنى المصادفة (فعزماً) مفعوله، و﴿لَهُۥ﴾ متعلِّق به، أو حال.

* * *

(١١٦) ـ ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ﴾.

﴿وَإِذْ قُلْنَا﴾؛ أي: اذكر وقتَ قولنا ﴿لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ﴾ وإباءَ إبليس، وتحذيرَنا إيَّاه من كيده، حتى يتبيَّنَ لك أنَّه نسيَ ولم يكن ذا عزيمةٍ وثباتٍ، ومن هنا تبيَّنَ أنَّ ما قيل: إنَّ المعنى: ولم نجد له عزماً على الذَّنب لأنَّه أخطأ ولم يتعمَّد؛ لا يناسب مساقَ الكلام.

---

(١) «في» سقط من (ف).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٨٩).

(٣) في (ف) و(م): «تعميم».

﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ﴾ قد سبقَ القولُ فيه.

﴿أَبَىٰ﴾ جملة مستأنفة على تقدير سؤالِ سائلٍ، كأنَّه قيل: لِمَ لَمْ يسجدْ؟ فقيل: أبى؛ أي: أظهر الإباءَ وتثبَّط، ويرشدك إلى هذا ما في سورة (ص) من قوله: ﴿ٱسۡتَكۡبَرَ﴾ [ص: ٧٤] بدل ﴿أَبَىٰ﴾.

* * *

(١١٧) ـ ﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ فَتَشۡقَىٰٓ﴾.

﴿فَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوّٞ لَّكَ وَلِزَوۡجِكَ﴾ أعادَ الجارَّ للدِّلالة على أنَّ عداوته لها أيضاً أصالةً، لا تبعاً لزوجها.

﴿فَلَا يُخۡرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلۡجَنَّةِ﴾ نهيٌ عن كونهما بحيث يؤثِّر فيهما وسوسة الشَّيطان ويتسبَّب لإخراجهما، فهو مبالغة في النَّهي عن قَبولها، مع الإشعار بعلَّة النَّهي.

﴿فَتَشۡقَىٰٓ﴾ أفرده بإسناد الشَّقاء إليه بعد إشراكهما(١) في الخروج اكتفاءً لاستلزام شقائه شقاءَها، لأنَّه القيِّم عليها، والمحافظ لها، مع الإيجاز والمراعاة مع الفاصلة.

ويجوز أن يكون المراد بالشَّقاء: التَّعبُ في طلب المعاش، وذلك وظيفةُ الرَّجل وحدَه، ويعضده قوله:

(١١٨ ـ ١١٩) ـ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعۡرَىٰ ۝١١٨ وَأَنَّكَ لَا تَظۡمَؤُاْ فِيهَا وَلَا تَضۡحَىٰ﴾.

﴿**إن لك أن لا تجوع فيها ولا تعرى وَإنَّكَ لا تظمأ فيها ولا تضحى**﴾ فإنَّه بيانٌ وتذكيرٌ لِمَا له في الجنَّة من أسباب الكفاية وأقطاب الكَفَاف التي هي الشِّبَع والرَّي والكِسْوة والكِنُّ، مستغنياً عن اكتسابها والسَّعي في تحصيل

---

(١) في (س) و(ف) و(ك): «اشتراكهما».

أعـواضٍ ما عسـى ينقطع ويزول بِذِكْـرِ[١] نقائِضِها؛ ليطرُقَ سـمعَه بأصناف الشِّـقوَة المحـذَّرِ منها[٢].

وإنَّما عدلَ عن الأصل المألوف في الذِّكرِ ـ أي: المنزَّل ـ تنبيهاً على أنَّ الأوَّلَيْن أصلان، وأنَّ الأخيرَيْن متمِّمان على التَّرتيب[٣]، فالامتنان على هذا الوجه أظهر، ولهذا فرَّقَ بين القرينَيْن[٤]، فقيل أوَّلاً: ﴿إِنَّ لَكَ﴾، وثانياً: ﴿إِنَّكَ﴾.

وقرئ ﴿وَأَنَّكَ﴾ بالفتح[٥]، عطفاً على ﴿أَلَّا تَجُوعَ﴾ وإنْ لم يجز دخول (إنَّ) على (أنَّ)؛ لأنَّ الواو ليس حكمها حكم (إنَّ)؛ لأنها نائبة عن كلِّ عامل، لا عن[٦] خصوص (إنَّ) لتعلَّل بامتناع توارد حرفين يعملان عملاً واحداً، وكذلك لم توضع للتَّحقيق خاصَّة لتعلَّل بامتناع اجتماع حرفَيْن لمعنًى[٧] واحدٍ، على أنَّها وإنْ كانت نائبة إلَّا أنَّها ليست في قوَّة المنوب عنه، فلذلك عُومِل معها ما لا يعامَل معه، كقولك: ليس زيدٌ قائماً ولا قاعداً، ولا يجوز أن تقول: ليس لا قاعداً.

* * *

(١٢٠) ـ ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾.

---

(١) «بذكر» متعلق بـ«بيان وتذكير» على التنازع. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٣١).

(٢) في (ف) و(م): «المحذر عنها»، وفي (ك): «المحذور عنها»، والمثبت من (س).

(٣) في هامش (س): «يعني: أن الريَّ متمم للشبع، والكنّ متمم للكسوة».

(٤) في (ف): «القرينتين».

(٥) قرأ نافع وأبو بكر بكسر الهمزة والباقون بفتحها. انظر: «التيسير» (ص: ١٥٣).

(٦) في (م): «لأن».

(٧) في (ف): «لمعين».

﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ ﴾؛ أي: فوسوسَ مُنْهِياً إليه وسوسته[١].

﴿قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ﴾ أضافها إلى ﴿ٱلْخُلْدِ﴾ وهو الخلود، موهماً أنَّ كلَّ مَن أكلَ منها خُلِّدَ، فهو سببُ الخلود بزعمه.

﴿وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾: لا يَخلَقُ ولا يضعفُ.

***

(١٢١) ـ ﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴾.

﴿ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۚ﴾ قد سبق القولُ فيه.

﴿وَعَصَىٰٓ﴾ العصيانُ: وقوعُ الفعل أو التَّركِ على خلاف الأمر أو النَّهي، وقد يكون عمداً فيكون ذنباً، وقد يكون خطأً فيكون زلَّةً.

﴿ءَادَمُ رَبَّهُۥ﴾ بعدم الانتهاء بالنَّهي.

﴿فَغَوَىٰ﴾ عن الرُّشْد، حيث اغترَّ بقولِ العدوِّ، أو عن المطلوب وهو الخلد والملكُ الباقي، وفي النَّعي عليه بالغيِّ مع صِغرِ زلَّته تعظيمٌ لها، وتشديدٌ عليه في العِتاب وتغليظٌ؛ لعلوِّ مرتبته وعدم مناسبة الزَّلَّة لمقامه، وزجرٌ بليغٌ، وموعظةٌ كافَّةٌ لأولاده.

***

(١٢٢) ـ ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴾.

﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾: اصطفاه بالتَّوفيق للتَّوبة والقَبولِ بعدَها والتَّقريب، من جُبِيَ

---

(١) في (ف) و(م): «وسوسة».

إليَّ كذا فاجتبيْتُه، ونحوه: جُلِيَتْ عليَّ العروسُ فاجتليتُها[١]، فأصلُ الكلمةِ الجمعُ.

﴿فَتَابَ عَلَيْهِ﴾: فقبِلَ توبتَه لَمَّا تاب ﴿وَهَدَىٰ﴾ إلى الثَّباتِ على التَّوبةِ.

* * *

(١٢٣) - ﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾.

﴿قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا﴾ الخطاب لآدم وحوَّاء، لا له ولإبليس لأنَّه قد خرج منها قبلَ هذا؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ﴾ [الحجر: ٣٤].

﴿بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ قد سبقَ القولُ فيه.

﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى﴾: من الكتاب والرَّسول.

﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ في الآخرة.

* * *

(١٢٤) - ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾.

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى﴾ عن الهدى الذَّاكر لي.

﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا﴾: ضيقاً، مصدر وُصِفَ به، ولذلك يستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث.

وقرئ: (ضَنْكَى) كسَكْرَى[٢].

---

(١) في (ف) و(ك): «جبيت عليَّ العروس فاجتبيتها». والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «الكشاف» (٣/ ٩٤)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٤١)، و«تفسير أبي السعود» (٦/ ٤٧).

(٢) بألف التأنيث وبلا تنوين وبالإمالة. نسبت للحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٠)، و«البحر المحيط» (١٥/ ١٥٩).

وذلك أنَّ المُعْرِضَ عن ذِكْرِهِ حريصٌ على الدُّنيا متهالكٌ عليها، لا يزال همُّه مصروفاً إلى الازدياد منها يجمع ويمنع، وعلى[1] ما في أيدي النَّاس فيطمع، ويغلب عليه الشُّحُّ فيضيق عيشه، بخلاف الذَّاكر المتوجِّه إليه، التَّابع للهدى، المتوكِّل عليه في أمره، فإنَّه يعلم أنَّ رزقَه على الله، فيسمح بما في يده وينفق، فيعيش عيشاً رافعاً[2]، كما قال الله تعالى: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: ٩٧]، على أنه تعالى قد يضيِّق بشؤم الكفر ويوسِّع ببركة الإيمان، كما قال: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٦١]، وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الأعراف: ٩٦].

﴿وَنَحْشُرُهُۥ﴾ وقرئ بالجزم[3] عطفاً على محلِّ ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً﴾؛ فإنَّه جوابٌ للشَّرط.

﴿يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ عن ابن عباس رضي الله عنهما: أعمى البصر[4]، وهو كقوله تعالى: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا﴾ [الإسراء: ٩٧]، وهو الوجه المناسب للسُّؤال.

* * *

(١٢٥) - ﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾.

﴿قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا﴾ في الدُّنيا.

---

(١) في (ف) و(ك) و(م): «ويطمع على» والمثبت من (س).

(٢) في (ك): «رافغاً».

(٣) نسبت لأبان بن تغلب. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٩٠).

(٤) انظر: «زاد المسير» (٢٢/ ٣٣٢)، و«تفسير النسفي» (٢/ ٣٨٨). والطبري روى تفسير العمى بعمى البصر عن مجاهد في «تفسيره» (١٦/ ٢٠١).

(١٢٦) ـ ﴿قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾.

﴿قَالَ كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: ذلك فعلْتَ أنت، والكاف مقحم إقحاماً كاللّازم لا يكادون يتركونه في لغة العرب وغيرهم[١]، ثمَّ فسَّره فقال:

﴿أَتَتْكَ ءَايَٰتُنَا﴾ واضحةً نيِّرةً ﴿فَنَسِيتَهَا﴾: فعميْتَ عنها وتركتَها غيرَ منظورة.

﴿وَكَذَٰلِكَ﴾: مثلَ تركِكَ إيَّاها ﴿ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ﴾: تُتْرَكُ في العمى والعذاب.

* * *

(١٢٧) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾.

﴿وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى مَنْ أَسْرَفَ﴾ بالانهماك في الشَّهوات والإعراض عن الآيات.

﴿وَلَمْ يُؤْمِنۢ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِۦ ۚ﴾ بل كذَّبها وخالفها.

﴿وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾؛ أي: وللحَشر على العمى الذي لا يزول أبداً أشدُّ من ضيق العيش المنقضي، أو: ولَتَرْكنا إيَّاه في العمى أبداً أشدُّ وأبقى من تركه لآياتنا.

* * *

(١٢٨) ـ ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ يَمْشُونَ فِى مَسَٰكِنِهِمْ ۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلنُّهَىٰ﴾.

﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ﴾ مسندٌ إلى اللهِ، أو الرَّسول، أو ما دلَّ عليه: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ ٱلْقُرُونِ﴾؛ أي: إهلاكُنا إيَّاهم، أو الجملةِ بمضمونها[٢].

---

(١) في هامش (ف) و(س): «مر تحقيقه في سورة البقرة وتفصيله في شرح سعد الدين للكشاف. منه».

قلت: لم يتقدم في البقرة سوى إشارة لإقحام الكاف دون توسع في التحقيق، وذلك عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا﴾.

(٢) قوله: «أو الجملة بمضمونها» بالجرّ معطوف على «اللهِ»؛ أي: الفاعلُ هو هذا اللفظ باعتبار دلالته =

والفعلُ على الأوَّلينِ معلَّق يجري مجرى (أعلم)، ويدلُّ عليه القراءة بالنُّون[١].

﴿يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ﴾ كنايةٌ عن مشاهدتهم آثارَ هلاكهم.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾: لذوي العُقول النَّاهية عن التَّغافل والتَّعامي.

* * *

(١٢٩) ـ ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾.

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ﴾ الكلمة السَّابقة بتأخير عذاب[٢] هذه الأمَّة إلى الآخرة.

﴿لَكَانَ لِزَامًا﴾: لكان مثلُ ما نزل بعاد وثمود من عذابنا[٣] لازماً لهؤلاء الكفرة.

واللِّزامُ إمَّا مصدر وُصِفَ به، وإمَّا فِعال بمعنى مِفْعَل اسم آلة اللَّازم[٤]، سمِّي به اللَّازم لفرطِ لزومه.

﴿وَأَجَلٌ مُسَمًّى﴾ عطف على ﴿كَلِمَةٌ﴾، أو على المستكِنِّ في (كان)، وهو ضمير ذلك المُشَار به إلى الإهلاك؛ أي: ولولا قضاءٌ سابقٌ ووعدٌ بتأخير عذاب هذه الأمَّة إلى يوم القيامة، أو يوم بدر، وأجلٌ مسمىً لأعمارهم لكان... إلخ، والفصل للدِّلالة على استقلال كلٍّ منهما بنفي لزوم العذاب.

= على معناه لا بقطع النظر عنه. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٣٣). وجاء في هامش (ف) و(م) و(س): «أي: أفلم يهد لهم هذا القول، والمراد هدايتهم بمضمونها. منه».

(١) أي: (نهدِ). انظر: «زاد المسير» (٥/ ٣٣٣)، و«البحر المحيط» (١٥/ ١٦٣).

(٢) «عذاب» من (م) و(س).

(٣) في (م): «عذاب الدنيا».

(٤) في (ك) و(م): «اللزوم»، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق لما في «تفسير البيضاوي» (٤/ ٤٢).

أو: ولولا هذه العِدَةُ لكان الأخذ العاجل وأجلٌ مسمًّى لازمَيْن لهم، كما كانا لازِمَيْن لعادٍ وثمودَ، ولم ينفرد الأجل المسمَّى عن الأخذ العاجل.

***

(١٣٠) - ﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ غُرُوبِهَا وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾.

﴿فَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الفاء للسَّببية، جزاءٌ لشرط مقدَّر؛ أي: إذا لم تعذِّبهم ولم تهلكهم لِمَا ذُكِرَ فاصبر.

﴿وَسَبِّحْ﴾ تقييد التَّسبيح بالأوقات المخصوصة قرينةٌ لكونه مجازاً بمعنى الصَّلاة، وإلَّا فلا وجهَ للتَّخصيص بها، وقوله:

﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ حالٌ؛ أي: وصلِّ وأنتَ حامدٌ[1] لربِّك على هدايتِه وتوفيقِه.

﴿قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ﴾؛ أي: الفجر.

﴿وَقَبْلَ غُرُوبِهَا﴾؛ أي: الظُّهر والعصر؛ لأنَّهما في النِّصف الأخير من النَّهار.

﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾: ومن ساعاته، جمع إِنًى بالكسر والقصر، وأناءٍ بالفتح والمد.

﴿فَسَبِّحْ﴾؛ أي: المغربَ والعشاءَ وصلاةَ التَّهجد، وإنَّما قدَّمَ الزَّمان فيه لاختصاصه بمزيد الفضل[2]؛ لأنَّ الميل فيه إلى الاستراحة أقوى، فكانت العبادة فيه على النَّفسِ أشدُّ وأشقُّ، فكانَ الثَّواب أكثر، ولأنَّ القلب فيه أجمع، والفراغَ إلى الله

---

(١) في (م) و(س): «وصل أنت حامداً»، والمثبت من باقي النسخ، وهو الموافق للمصدر السابق.

(٢) قوله: «وإنما قدّم الزمان فيه..» يعني تقديمَ قوله: ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ﴾ على قوله: ﴿فَسَبِّحْ﴾ الذي تعلق به. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٣٤).

تعالى والخلوة[1] به أيسر وأكثر، ولهذا قال الله تعالى: ﴿إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْـًٔا وَأَقْوَمُ قِيلًا﴾ [المزمل: ٦].

﴿وَأَطْرَافَ ٱلنَّهَارِ﴾: تكريرٌ لصلاتَي الصُّبح والمغرب لمزيَّتهما؛ لكونهما مختلف الملائكة ومجتمعهم.

معناه: تعمَّد آناءَ اللَّيل وأطراف النَّهار مختصًّا لها بصلاتك، وفي جمع الأطراف مجاوبة الآناء مع الأمن من الإلباس.

﴿لَعَلَّكَ تَرْضَىٰ﴾؛ أي: سبِّح في هذه الأوقات طمعاً ورجاءً أن تنالَ عندَ اللهِ ما تَرْضَى به نفسُك. وقرئ بالبناء للمفعول[2]؛ أي: يُرْضِيْكَ ربُّك.

* * *

(١٣١) ـ ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾.

﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ﴾؛ أي: نظرَ عينَيْكَ ﴿إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ﴾ مدُّ النَّظر: تطويلُه مستمرًّا بحيث لا يكاد يُرَدُّ؛ استحساناً للمنظور وتمنِّياً أنْ يكونَ للنَّاظر.

﴿أَزْوَٰجًا﴾: أصنافاً ﴿مِّنْهُمْ﴾ مِنَ الكَفَرَةِ، ويجوز أن يكون حالاً من الضَّمير في ﴿بِهِۦٓ﴾، والمفعول ﴿مِّنْهُمْ﴾؛ أي: إلى الذي متَّعنا به ـ وهو أصنافٌ ـ بعضَهم وناساً منهم[3].

---

(١) في (م): «والخلو».

(٢) وهي قراءة الكسائي وشعبة. انظر: «التيسير» (١٥٣).

(٣) أي: أنّ (من) تبعيضية وهي مفعول ﴿مَتَّعْنَا﴾، فقوله: «وهو أصناف» تفسير للحال، و«بعضَهم» بالنصب هو المفعول، و«ناساً منهم» تفسير له. انظر: «حاشية الشهاب» (٦/ ٢٣٥).

﴿زَهۡرَةَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ الزَّهرةُ: الزِّينةُ والبهجة.

وقرئ بفتح الهاء[١]، وهي لغة فيها، كالجَهَرة في الجَهْرة، أو جمع زاهر، كالجَهَرَة في جمع جاهر.

نصبٌ على الذَّمِّ، أو على الاختصاص؛ أي: أعني أو أخصُّ، أو على المفعول الثَّاني لِمَا دلَّ عليه ﴿مَتَّعۡنَا﴾، أو على تضمينه معنى أعطينا.

وأمَّا نصبه على البدل من محلِّ الجار والمجرور؛ أي: ﴿بِهِۦٓ﴾، أو من ﴿أَزۡوَٰجٗا﴾، على تقدير مضاف؛ أي: ذوي زهرة، فضعيفٌ؛ لأنَّه لا يُقال: مررت بزيد أخاك؛ ولأنَّ الإبدال من الضَّمير العائد إلى الموصول ونحوه ممَّا اختُلِفَ في جوازه.

وعلى قراءة الفتح نعتٌ على أنه جمع زاهر، وجاز أن يكون حالاً، والإضافة لفظيَّة؛ لأنَّ الأصل: زاهرين الحياة الدُّنيا، وصفٌ لهم بأنهم زاهروا الدُّنيا لتنعُّمهم وبَهاءِ زِيِّهم، بخلاف ما عليه المؤمنون الزُّهَّاد.

﴿لِنَفۡتِنَهُمۡ﴾: لنبلوَهم ونختبرَهم ﴿فِيهِ﴾ أو: لنعذِّبهم في الآخرة بسببه.

﴿وَرِزۡقُ رَبِّكَ﴾: ما ادَّخر لك في الآخرة، أو ما[٢] رزقَكَ من الهدى.

﴿خَيۡرٞ﴾ ممَّا متَّعناهم به في الدُّنيا ﴿وَأَبۡقَىٰ﴾ لأنَّه لا ينقطع أبداً.

* * *

(١٣٢) ـ ﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱصۡطَبِرۡ عَلَيۡهَاۖ لَا نَسۡـَٔلُكَ رِزۡقٗاۖ نَّحۡنُ نَرۡزُقُكَۗ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ﴾.

﴿وَأۡمُرۡ أَهۡلَكَ بِٱلصَّلَوٰةِ﴾ أمرَه بأن يأمر أهلَ بيته أو التابعين له من أمَّته بالصَّلاة بعدَما أمره بها وبالصَّبر؛ ليتوافقوا في الاستعانة على خصاصتهم بها، لقوله تعالى:

---

(١) قرأ بها يعقوب من العشرة. انظر: «النشر» (٢/ ٣٢٢).

(٢) «ما» سقط من (ف).

﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾ [البقرة: ٤٥]، ولا تهتمُّوا بأمر الرِّزق والمعاش، ولا تلتفتوا لفتَ أربابِ الثَّروة والرِّياش.

﴿وَٱصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾: وداوم عليها.

﴿لَا نَسْـَٔلُكَ رِزْقًا﴾؛ أي: لا نكلِّفكَ أنْ ترزقَ نفسَكَ.

﴿نَّحْنُ نَرْزُقُكَ﴾ ففرِّغ بالَك لأمرِ الآخرة؛ لأنَّ مَن كان في عمل الله كان الله في عمله.

والحكم في الموضعَيْن عامٌّ في صورة الخطاب الخاصِّ[1].

﴿وَٱلْعَـٰقِبَةُ﴾ المحمودة ﴿لِلتَّقْوَىٰ﴾ مخصوصةٌ لها، ويلزم هذا أن تكونَ حُسْنُ العاقبة لأهلها خاصَّة، فلا حاجة إلى التَّقدير[2].

* * *

(١٣٣) ـ ﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾.

﴿وَقَالُواْ لَوْلَا يَأْتِينَا بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾: هلَّا يأتينا محمَّد بآيةٍ دالَّةٍ على صحَّة نبوَّته بناءً على عادتهم في اقتراح الآيات وإنكار ما جاء به منها، وعدم الاعتداد بها تعنُّتاً وعناداً.

وتنكير (آيةٍ) يأبى عن حملها على آيةٍ معهودةٍ اقترحوها، فألزمهم بالقرآن الذي هو آخر المعجزات وأعظمها، حيث قال:

---

(١) في هامش (ف) و(س): «فلا حاجة في الأول إلى أن يقال: ولا أهلك، وفي الثاني: وإياهم، بل لا وجه له كما لا يخفى. منه».

(٢) في هامش (ف) و(س): «فيه ردٌّ لمن قال في تفسيره: التقوى لذوي التقوى، ولمن زعم أنَّ المعنى: إنَّ أحسن العاقبة لأهل التَّقوى، بحذف المضاف. صاحب المدارك».

﴿أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ﴾ وذلك أنَّه برهانُ ما في جميع الكتب المنزَلة من حيث إنَّه مُعْجِزٌ بلفظه دونها، فهو بالنِّسبة إليها حجَّةٌ على صحَّتها؛ لاشتماله على ما فيها، وتصديقه إيَّاها مع إعجازه.

ولَمَّا كان برهاناً على ما فيها كان برهاناً على صحَّة نبوَّته؛ للدِّلالة على أنَّها مختصة بنوعٍ من العلم أعلى قدراً وأشرف من جميع العلوم، وهو خلاصة ما في الكتب الإلهيَّة من العقائد والأحكام، مع كونه أميًّا لم يتعلَّم شيئاً، وبنوع من تركيب الكلام لم يكن أحدٌ يعارضه في الفصاحة والبلاغة عندَ التَّحدي به.

* * *

(١٣٤) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾.

﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ﴾: من قبلِ محمَّدٍ عليه السلام، أو: من قبلِ[1] البيِّنة، وتذكير الضَّمير لأنَّها في معنى البرهان والدَّليل، أو: مِن قَبل إتيانها، أو إتيانه بها.

﴿لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ﴾: هلَّا ﴿أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ﴾ بالقتل والسَّبي والجزية في الدُّنيا ﴿وَنَخْزَىٰ﴾: بالعذاب ودخول النَّار في الآخرة.

* * *

(١٣٥) ـ ﴿قُلْ كُلٌّ مُّتَرَبِّصٌ فَتَرَبَّصُوا۟ ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَـٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾.

﴿قُلْ كُلٌّ﴾: كلٌّ[2] واحدٍ منَّا ومنكم.

---

(١) في (ف): «أو قبل».

(٢) «كل»: ليست في (م).

﴿مُّتَرَبِّصٌ﴾: منتظِرٌ لِمَا يَؤول إليه أمرُنا وأمرُكم في العاقبة.

﴿فَتَرَبَّصُواْ﴾: فانتظروا، وقرئ: (فتمتَّعوا)[١].

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَٰبُ ٱلصِّرَٰطِ ٱلسَّوِيِّ﴾: المستقيم، وقرئ: (السَّواء)[٢]؛ أي الوسط، و(السُّوَّى)[٣]، و(السَّوْءِ)[٤]؛ أي: الشَّر، و(السُّوَيِّ)[٥]، وهو تصغيره.

﴿وَمَنِ ٱهْتَدَىٰ﴾ إلى النَّعيم المقيم.

و﴿مَنْ﴾ في الموضِعَيْن للاستفهام، ومحلُّ الأولى الرَّفعُ بالابتداء، والثَّانية عطفٌ عليها عطفَ الجملة على الجملة، ويجوزُ أن تكون الثَّانية موصولة بخلاف الأولى ـ لعدم العائد ـ فتكون معطوفةً على محلِّ الجملة الاستفهاميَّة المعلَّق عنها الفعل، على أنَّ العلم بمعنى المعرفة، أو على ﴿أَصْحَٰبُ﴾، أو على ﴿ٱلصِّرَٰطِ﴾، على أنَّ المرادَ به النَّبيُّ عليه الصلاة والسلام.

* * *

---

(١) انظر: «الكشاف» (٣/ ١٠٠)، و«تفسير البيضاوي» (٤/ ٤٤).

(٢) بفتح السين والمد. انظر: «الكشاف» (٨/ ٥٩٤)، و«الدر المصون» (٨/ ١٢٦).

(٣) بالضم والقصر وتشديد الواو. انظر: «الكشاف» (٨/ ٥٩٤)، و«روح المعاني» (١٦/ ٥١٣).

(٤) بفتح وسكون وهمز آخره. انظر المصدرين السابقين.

(٥) بضم السين وفتح الواو وتشديد الياء. انظر المصدرين السابقين.